رواية

إيرج بزشك زاده

خالي العزيز نابليون



ترجمة : أحمد حيدري

إيرج بزشك زاده

خالي العزيز نابليون

ترجمة : أحمد حيدري



خالي العزيز نابليون



Author: **Iraj Pezeshkzad**	اسم المؤلف: إيرج بزشك زاده
Title: **MY UNCLE NAPOLEON**	عنوان الكتاب: خالي العزيز نابليون
Translator: **Ahmad Haydari**	ترجمة: أحمد حيدري
cover designed by: **Majed Al-Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2017**	الطبعة الأولى: 2017



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

القسم الأول

في أحد أيام الصيف الحارة، وبالتحديد في ١٣ من شهر مرداد[1] وفي نحو الثالثة إلّا الربع وقعت في الحب، ما تجرعته من عذاب ومرارة لا يمكن وصفهما أبداً جعلاني في حالة إنهاك.

لو كان اليوم هو الـ ١٢ أو الـ ١٤ من شهر مرداد لما حدث ما حدث.

في ذلك اليوم، كما في بقية الأيام، أرسلوني وأختي إلى القبو لننام بالوعيد تارة وبالوعود تارة أخرى، فمع ارتفاع الحرارة في مدينة طهران تصبح قيلولة الظهيرة أمراً إجبارياً للأطفال، ولكن في ذلك اليوم، كما هي الحال في كل يوم، كنا ننتظر أن ينام أبي لنخرج إلى البستان، وعندما تناهى إليَّ شخير أبي أبعدتُ الملاءة عن رأسي وألقيتُ نظرة على ساعة الحائط، الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، المسكينة أختي نامت وهي تنتظر أبي أن يغفو، فكان عليَّ الزّحف تاركاً إيّاها وحيدة.

مرت نصف ساعةٍ و«ليلى» ابنة خالي وأخيها الصغير ينتظراننا في البستان، ولم يكن هناك جدار يفصل بين منزلينا الواقعين في البستان الكبير.

---

١ — الشهر الخامس في التقويم الفارسي وهو يوافق أواخر تموز وأوائل آب لأن السنة تبدأ في عيد النيروز الموافق ٢١ مارس/آذار.

ومثلما كنا نفعل كل يوم ظهراً، انشغلنا باللّعب والحديث تحت ظلال شجرة الجوز الكبيرة، وفجأة التقت عيناي بعيني «ليلى»، حدّقت فيهما، و لم أستطع إبعاد نظري عنهما.

لا أدري كم من الوقت مرّ ونحن نتبادل النّظرات، حين باغتتنا أمي وهي تحمل عصاً بيدها مهددة إيّانا.

هربت «ليلى» وأخوها إلى بيتهما وأعادتني أمي متوعدة إلى القبو.

وقبل أن أغطي رأسي بالملاءة وقع نظري على ساعة الحائط، الساعة الثانية وخمسون دقيقة بعد الظهر.

و لم تكد أمي تضع رأسها على الوسادة حتى قالت:

- الحمد لله أن خالك نائم، وإلّا لقطّعكم إرباً.

الحقّ مع أمي، فهو حريصٌ على تنفيذ أوامره بالحرف الواحد، فقد أصدر أمراً بأنّ الأطفال لا يمكنهم حتى التنفس قبل الساعة الخامسة عصراً.

لم نكن نحن الأطفال وحدنا المحرومون من طعم اللّعب في البستان، بل حتى الغربان والعصافير حُرمتْ من نعمة اللّعب ظهراً إذ قام خالي مراراً بارتكاب مجازر جماعية ضدها ببندقيته، والباعة المتجولون أيضاً لا يقتربون من زقاقنا المسمى باسمه حتى الساعة الخامسة لأن باعة البطيخ والبصل المتجولين أخذوا حصتهم من صفعات خالي العزيز.

ولكنني منشغل هذا اليوم بأمر آخر، فلم يعد اسم خالي ومعاركه تهمّني، لم أقدر على الهروب من عيني «ليلى» ونظرتها، فأينما التفتُّ أو انقلبتُ كنت أراهما أكثر بريقاً.

مرة أخرى عادت عينا «ليلى» إلي وأنا تحت الناموسية عصراً، تجاهلتهما، بيد أنهما أصرّتا على أن تأخذاني إليها.

لا أدري كم مرّ من الوقت.

فجأة داهمتني فكرة غريبة؛

حاولت الضحك من هذه الفكرة التي راودتني، لكن حدث عكس ما أريد.

قد لا يضحك الإنسان من فكرة بلهاء، لكن ذلك لا يعني أنها بلهاء في ذاتها إلّا إذا عشق الإنسان بلا أيّة مقدمات!

حاولت أن أستحضر في ذاكرتي كل ما يتعلق بالحب، ولكن مع الأسف لم تسعفني المحاولة بشيء مع أني في الثالثة عشرة من عمري، إذ أنّني لم ألتقِ عاشقاً، فكتب الحبِّ كانت قليلة في تلك الفترة ومع ذلك فأهلنا لا يسمحون لنا بقراءة كل شيء.

أبي وأمي، وخاصة خالي العزيز الذي غطى بظلاله عقول كل الأطفال، منعونا من الخروج بلا رقيب، و لم نكن لنجرؤ على الاقتراب من أطفال الأزقة المجاورة لنا.

لم يمر كثير من الوقت على اختراع المذياع، وما يقدمه في ساعات بثّه الثّلاث غير مفيد.

وبرزت في ذاكرتي، لأول وهلةٍ، قصّة «ليلى» والمجنون وما أعرفه عن ذلك الحب، إذ استمعت لقصتهما مراتٍ عديدة، ولكنّي مهما

حاولتُ أن أعتصر ذهني لكي أعرف تفاصيل ذلك الحب لا أصل إلى شيء، فكل ما قالوه ويقولونه إنّ المجنون عاشقُ «ليلى».

من الأفضل أن لا أتعمّق في تفاصيل حكاية المجنون و«ليلى»، لأن اسم «ليلى» هو نفس اسم ابنة خالي العزيز، وقد يوصلني الأمر إلى ما لا تحمد عقباه، ولكن لا حيلة لديَّ لأنّ أهم عاشقٍ أعرفه هو مجنون «ليلى».

هناك آخرون كشيرين وفرهاد، لكنني لا أعرف عنهما الكثير أيضاً، فكل ما أعرفه هو ما قرأته في صحيفة، غير أني لم أقرأ الأعداد الأولى؛ وقد حكى لي صديق في المدرسة ما فاتني من تلك الأعداد، غير أنني لا أعلم كيف بدأ حبهما.

استمعتُ إلى دقات ساعة القبو الاثنتي عشرة.

يا إلهي،... إنه منتصف الليل و لم أنم بعد!

أذكر أن هذه الساعة كانت في بيتنا منذ زمن بعيد، وهذه هي المرة الأولى التي أستمع لدقات الثانية عشْرة، منتصف الليل.

هل جفاء النوم هذا سببه العشق؟

تراءت لي الأشجار والورود من خلف الناموسية كأشباحٍ وهي تنتصب في وسط باحة منزلنا.

شعرت بالخوف، ليس من الأشباح بل لأنني لا أعرف هل أنا عاشق أم لا! خفت من عواقب العشق وما مرّ أمامي من نهايات؛ إنَّ جميع العُشاق تقريباً كانت نهاياتهم مؤلمة تنتهي بموتهم.

«ليلى» والمجنون حكاية موت، شيرين وفرهاد حكاية موت،

روميو وجولييت حكاية موت، بول وفرجيني حكاية موت، كل ذلك التّصفح العشقي حكاية موت.

يا إلهي، هل أنا عاشق وسوف تكون نهايتي الموت؟ وخاصة أن الموت انتشر في تلك الفترة بين الأطفال قبل وصولهم سن البلوغ، فأحياناً أسمع الناس في جلسات عدّة وهم يعدون موتاهم من الأطفال المولودين حديثاً ومن بقي منهم على قيد الحياة، وقد لمعت في ذهني فكرة:

هناك حكاية «أمير أرسلان» المعروفة التي استمعت لها مرات وقرأتها أيضاً، بيد أنه تعذب كثيراً.

النهاية السعيدة لحكاية «أمير أرسلان» جعلت حدّةَ مخاوفي تخفُّ فيما يتعلق بحكايات العشق، لكن من جانبٍ آخر أَيقنتُ أنَني عاشقٌ لا محالة، وذلك من خلال الإجابة على السؤال الأساس الذي شغلني:

كيف أصبح «أمير أرسلان» عاشقاً؟ هل رأى صورة (فرح لقا) فعشقها؟ إذاً قد أكون أنا أيضاً عشقت من النظرة الأولى؟

حاولت النوم، أحكمت إغلاق جفني لأهرب من ممرات ما أنا فيه، فمن حسن الحظ أن الطفل وإن أصبح عاشقاً فإن النوم يتغلب عليه.

الظاهر أن مصائب العشق تخص الكبار فقط.

أطلّ الصبح ولا مجال لدي للعودة إلى العشق لأني نمت أكثر مما يجب، استيقظت على صوت أمي:

- انهض، انهض، خالك يريدك.

ارتجفتُ كأنني قد لمست سلكاً كهَربائياً، اختنقتُ بصوتي، أردت أن أسألها أيَّ خال ولكن صوتي لم يطاوعني.

- قم، اذهب إليه.

لم أستطع التفكير إلّا في أمر واحد، رغم كل الدلائل التي تشير إلى استحالتها حتى لعقل طفل.

بالتأكيد، إن خالي العزيز اطلع على سرِّي، كنت أرتعد من الخوف، وأول ما تبادر إلى ذهني هو أنه سوف يعذبني ليحول بيني وبينها فقلت لأمي:

- لم أتناول الفطور بعد.

- أسرع إذاً.

- ألا تعرفين ما الذي يريده خالي العزيز مني؟

كان جوابها هادئاً:

- قال ليجتمع كل الأطفال!

عادت أنفاسي إليَّ، فقد كنا معتادين على جلسات الوعظ التي يعقدها خالي العزيز، إذ بين فترة وأخرى يجمع الأطفال ويصب عليهم المواعظ، وفي آخر جلسة وزّع علينا الحلوى.

لا يمكن لخالي العزيز أن يطلع على سرّي بأي حال من الأحوال.

تناولت إفطاري وبالي مشغول؛ فلأول مرة منذ استيقاظي أتذكر عيني «ليلى» أمام السماور، لكني حاولت إبعادهما.

وبينما كنت أقصد بيت خالي العزيز وقع نظري على خادمه «مش[٢] قاسم» وقد رفع بنطاله إلى الركبة وهو يسقي الورد.

- اشتقنا إليك يا رجل، هل تعرف لماذا دعانا خالي العزيز؟

- والله عمو لَمَ الكذب؟ طلب مني سيدي أن أجمعكم كلكم، الحقيقة لا أعلم.

نحن فقط لدينا الحق في قول (خالي العزيز) لكن جميع الأصدقاء والمعارف وأهل الحي يدعونه بـ (السيد) المطلق.

وأحد ألقاب خالي العزيز «السبع» التي تحتاج إلى تقطيع هجائي، والتقطيع السباعي هو أن تفتح فمك إلى آخره وتغلقه مرات حتى تعطيه حقه.

كان لوالد خالي نصيب في السيادة المطلقة ولكن الناس نسوا اسمه، فقد كان ذلك الجد العزيز شديد الاهتمام في خلق اتّحاد لا ينفصم بين أبنائه وبناته السبع، فبنى في بستانه الواسع سبعة منازل وقسّمه بين أبنائه قبل رحيله.

كان خالي العزيز أكبر الأبناء وقد ورث لقب السيد؛ وقد تكون العلة في التقاليد أو العائلة وتعاملها مع هذا الوضع بصورة غريبة جداً، فحتى الماء يجب شربه بعد أخذ موافقته.

٢- مَش تصغير مشهدي، وهو الزائر لمدينة مشهد، مشابه للحاج.

ومن كثرة تدخل خالي العزيز في خصوصيات إخوته وأخواته قام أكثرهم إما بمد أسوار حول بيوتهم أو بيعها ثمّ الهرب.

في ذلك القسم الباقي من البستان كنا نسكن فيه نحن وخالي العزيز وأخ آخر له بنى سوراً حول بيته.

كان خالي يجلس في الغرفة الكبيرة ذات الأبواب الخمس فيما راح الأطفال يلعبون بصمت في الساحة.

استقبلتني «ليلى» بنظرة منها وتجمّدتْ نظراتنا مرة أخرى على بعضنا، أحسستُ بدقّات قلبي وهي تتدافع بصورة غريبة وكأنه يصدر قرعاً حديدياً، ولكن لم تسنح لي الفرصة للتفكير فيما أنا فيه.

خرج خالي العزيز بقامته الطويلة وجسمه الهزيل وهو يعدل عباءته النائينية وسرواله الملتصق على رجليه، وكانت ملامح وجهه لا تدل على خير.

أحسّ الأطفال بحدوث أمر مريب، فرانَ الصمت حتى على الصغار الذين جلسوا في آخر الساحة.

على حين كان خالي العزيز يقف أمامنا وهو يرسل نظراته في وجه الحشد من خلف نظّارته السوداء التي لا تفارقه وقال بصوت مرعب:

– من منكم قام بتوسيخ باب هذه الساحة بالطباشير؟

ومدّ إصبعه النّحيف الطّويل صوب الباب الذي أغلقه «مش قاسم» علينا ووقف أمامه. اتجهت الأنظار إلى المكان الذي أشار إليه الإصبع وقد كُتِبَ على الباب أو في الواقع كُتِبَ خلفه بالطبشور بخط معوج:

«نابليون الحمار».

اتجهت أكثر الأنظار هذه المرة، بصورة غير إرادية، إلى «سيامك» وعادت بسرعة، ولكنها انتبهت إلى الخطأ الذي وقعت فيه فأطرقنا رؤوسنا، لم نكن نشك بأن «سيامك» هو من قام بكتابة العبارة لأنّه تحدَّث مراراً عن العلاقة الخاصة التي تربط خالي العزيز بـ «نابليون».

وسيامك كان أشدّنا شرّاً، وأثناء حديثنا كان يعد أنه سيقوم يوماً بإثبات حماقات «نابليون»، وما وقف في وجهه هو شعورنا بالذنب إذا ما قام بذلك.

وقف خالي العزيز مثل قادة معسكرات الأسرى أمام صفِّنا وبدأ الحديث، بَيْدَ أنّه لم يتطرق إلى الإهانة التي لحقت بـ «نابليون» وأخذ يتذرّع بتوسيخ باب المنزل بالطباشير.

فجأة، بعد لحظة صمتٍ مرعبة، صرخ خالي العزيز صرخة لا تتناسب مع نحافته:

– قلت لكم: من قام بذلك؟

عادت الأنظار الخفية إلى «سيامك» فأحس خالي العزيز بها هذه المرة، فحدّجه بنظرة غاضبة مخيفة.

في هذه الأثناء وقع حادث آخر (أخجل من ذكره، ولكن ذكره أمر لا مفر منه وهو أساسي من أجل الشفافية) إذ بال «سيامك» على نفسه من الخوف وأخذ يتلعثم ويعتذر.

وعندما صدر الحكم أثناء التّحقيق في الجريمة الأساسية والجريمة التي وقعت أثناء التحقيق، جرى «سيامك» إلى بيتهم وهو ينتحب، فذهبنا خلفه والصّمت يغلّفنا بسبب الخوف من خالي العزيز وبسبب مجاراة «سيامك» لحزنه والذي كنا نحن السبب فيه.

عندما شكا «سيامك» لأمّه وهو يبكي ما فعله خالي العزيز به، ورغم أنها تعرف من يقصد بخالي العزيز إلّا أنها سألته:

- أي خال؟

فأجاب الطفل بعفويّة:

- خالي العزيز «نابليون».

صدمنا كلنا نحن الأطفال إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها هذا اللقب أمام الكبار والذي كنّا نتداوله بيننا فقط.

بالطبع عُنِّف «سيامك» من قبل أبيه وأمه، ولكننا تنفسنا الصعداء من كثرة تكرار هذا اللقب بيننا وبين أنفسنا حتى كاد يخنقنا.

أحبّ خالي العزيز منذ شبابه «نابليون»، ثم علمنا فيما بعد أنه جمع كل كتاب في إيران يتناول حياته باللغة الفارسية أو الفرنسية (خالي العزيز يعرف القليل من اللغة الفرنسية) في مكتبته.

في الحقيقة ليس هناك كتاب في مكتبته غير الكتب التي تتناول «نابليون»، فلا يمكن لأي كتاب علمي، أو أدبي أو تاريخي، قانوني أو فلسفي أن لا يحمل جملة من «نابليون».

ووصل الأمر إلى التأثير على كل العائلة ليُعرف «نابليون بونابرت» كأكبر فيلسوف ورياضي وسياسي وأديب بل حتى إنه أكبر شاعر عرفه العا لم.

كان خالي العزيز يعمل في الشرطة في زمن الشاه محمد علي برتبة بكباشي وقد استمع كل فرد من العائلة إلى حكايات معاركه مع قُطّاع الطّرق مئات المرات.

لكل حكاية من حكاياته هناك اسم خصصناه نحن الأطفال لها مثلاً: حكاية حرب (كازرون)، حرب (ممسني) وغيرها من الحروب.

في الأعوام الأولى كانت حكاية خالي العزيز عبارة عن مواجهته لقطاع طرق ومعه بعض الجنود وقد وقعت أحداثها في منطقة كازرون أو ممسني، ولكن مع مرور الوقت زاد عدد المتحاربين وأصبحت المعركة أكثر دموية، مثلاً كانت حرب كازرون في البداية عبارة عن مواجهة خفيفة بينه وجنده الخمسة وبين اثني عشر قاطع طريق، ولكن بعد مرور عامين أصبحت حرب كازرون حرباً دموية وتضم مئة وخمسين جندياً يحاصرهم أربعة آلاف قاطع طريق بتحريض من بريطانيا بالتأكيد!

وما كنّا قد أدركناه في تلك الفترة بعد إطلاعنا على القليل من التاريخ، هو أن العلاقة التي ربطت خالي العزيز بنابليون هو تشبيهه لحروبه بحروب الجنرال. وحين كان يتحدّث عن حرب كازرون كانت تأخذ شكل وطبيعة حرب (أوسترليتز)، حتى إنه لم يكن يتوانى عن ذكر تدخل القوات البرية والمدافع.

وأدركنا أيضاً أنه بعد أن استحدث الجيش في إيران حسب النظم

الحديثة، ومُنِحت الرتب العسكرية للعسكريين القدامى حسب مستواهم الدراسي ومقدار معلوماتهِم، تقاعد خالي العزيز برتبة عسكرية صغيرة.

بدأت الليلة الثانية وهي تشير إلى امتدادها، مرة أخرى عينا «ليلى» السّوداوان، نظراتها الساحرة، وتضارب الأفكار لمراهق عمره ثلاثة عشر عاماً، وذلك السؤال الحارق ذاته وقد أضيف إليه سؤال جديد:

– قد تكون «ليلى» أيضاً وقعت في حبّي، يا إلهي ارحمني؛ لو كنت أنا فقط من يكنّ لها الحب لكان هناك طريق نجاة، ولكن لو كانت هي أيضاً...

طوال المدّة التي وقفتُ فيها في الصّف أمام خالي العزيز، ورغم خوفنا والرهبة والانتظار لصدور الحكم، رغم كل هذا كنت أرى وأشعر بنظرات «ليلى» تقع عليَّ وعلى وجهي.

هذه قضية أخرى جديدة، عليّ معرفة جوابها: هل من الأفضل أن يكون الحب من جانب واحد أو من جانبين؟

من أستشير؟

ليت «ليلى» كانت هنا. لا، لا شك في أني أصبحت عاشقاً، وإلّا ما وددت أن تكون «ليلى» إلى جانبي الآن، كيف لي إيجاد من أسأله؟ ومن؟

كيف لو سألت «ليلى»؟

لكنني سأكون أضحوكة لو سألتها: «هل أنا أحبك أم لا»؟

لكن من الممكن سؤالها في... ماذا يعني هذا؟ هل أسألها: أتعشقني أم لا؟

لا، لا يمكن، لن أستطيع مواجهتها بهذا السؤال.

فكرت في من هم في مثل سني.

لا، لا يمكن... أخو «ليلى» «علي» أصغر مني ولن يستطيع الإجابة على سؤالي، ثم من يضمن لي سكوته وعدم بوحه بالسّر، وهو المعروف بثرثرته، فيذكر الأمر لأبي أو لخالي العزيز وهو الأفدح، يا إلهي لا أحد هناك أسأله هل أنا عاشق أم لا؟

فجأة خطر لي وسط العتمة...«مش قاسم».

نعم ماذا لو سألت «مش قاسم»؟

«مش قاسم» هو الخادم القروي لخالي العزيز، كل عائلتنا تعرفه وتثق بإيمانه وتمسّكه بالدين، وقد جربته مرة؛ ففي أحد الأيام كسرت زجاج نافذة منزل خالي العزيز بالكرة ورآني «مش قاسم»، إلّا أنه لم يخبر أحداً.

كثيراً ما كان «مش قاسم» إلى جانبنا يقصُّ علينا قصصاً عجيبة وغريبة، فمن فضائله أنه لا يترك سؤالاً بلا جواب، وكلما سألته يبدأ قائلاً:

- لِمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها!

ويلحق بالـ (أها) أربع أصابع يرفعها إلى الأعلى، فيما بعد فهمنا قصده بـ «حتى القبر والأصابع الأربع»، أي لا تفصلنا عن القبر إلّا هذه الأصابع الأربع فلِمَ أكذب؟ وإن كنا نشعر أحياناً بأن «مش قاسم» يكذب علينا.

ولكن نفس عملية إجابته على أسئلتنا التي ترجع إلى أهم الاكتشافات العلمية المعاصرة والتوضيحات التي يقدمها لنا كانت مغرية – بحد ذاتها.

عندما سألناه: «هل للتنانين وجود أم لا؟» أجاب بلا تردد:

– والله، يا أحبائي لمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها! في أحد الأيام رأيت التنين بأم عيني، فقد كنا نسير في طريق غياث آباد قاصدين مدينة قم... وعندما مررنا من منعطف ظهر تنين أمامنا و لم يتزحزح.

كان حيواناً مخيفاً، الله يبعده عنكم، كان بين النمر والجاموسة والبقرة والأخطبوط والبومة... تندلع النار بارتفاع أربعة أذرع إلى الأعلى من منخَريه... شددت عزمي وضربته بكل قوتي على منخريه حتى قطعت أنفاسه، فصرخ صرخة أيقظ بها أهل المدينة جميعاً.

ولكن، ما الفائدة؟ لم يقم أحد بشكري على ما فعلت.

كان «مش قاسم» يملك إجابات على كل الأحـداث التاريخية والاختراعات البشرية المُحيِّرة للعقول، ولو اكتشفت القنبلة النووية في زمنه لقدّم تحليله، وفي تلك الليلة لمع «مش قاسم» مثل شعاع وسط العتمة في ذهني و لم يجافني النوم.

استيقظت باكراً، ومن حسن حظي أن «مش قاسم» كان يصحو دائماً فجراً وينشغل بريّ الورد والخضرة، وعندما ذهبت إليه كان صاعداً على كرسي يرتب زهور النرجس التي تحيط بمنزل خالي العزيز.

– ابني العزيز بتَّ قليل النّوم؟ كيف استيقظت في مثل هذا الوقت من الصباح؟

- نمت مبكراً فلم أستطع النوم أكثر.

- أكمل لعبك فلم يبق إلّا القليل على بداية المدرسة.

كنت متردداً، لكن رعب اللّيلة الثالثة جاء أمامي، فأقدمت:

- «مش قاسم» هناك أمر أريد سؤالك فيه.

- قل، أيها العزيز.

- لي صديق يظن أنه عاشق... لكن كيف أقول لك؟ يستحي أن يفاتح أحداً بالموضوع... هل تعرف كيف يصبح الإنسان عاشقاً؟

أوشك «مش قاسم» على السقوط من على الكرسي، وقال:

- ماذا؟ كيف؟ بات عاشقاً؟ يعني يحب؟ صديقك في المدرسة؟

سألته وأنا خائف من ردة فعله:

- «مش قاسم» ما الذي حدث؟ هل هو أمر خطير؟

قام «مش قاسم» وهو يحدق بمقص أمسكه:

- والله أيها العزيز لِمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها!.. أنا نفسي لم أجرب الحب، يعني أحببت! خلاصة الأمر أني أعرف ما يفعله الحب بالإنسان، الله يبعده عن كل إنسان، أسأل الباري تعالى بحق الخمسة أن لا يصيب إنساناً بهذا المرض، فالبالغ إذا دخل في وادي الحب يرديه، فما بالك بالطفل؟

لم تعد رجلاي قادرتين على حملي.

قصدت «مش قاسم» كي يشرح َلي علائم وعوارض المُحب فأخذ يشرح لي نهاياتٍ موحشةٍ عن العشق، لكن لا، يجب أن لا أتراجع! لأن «مش قاسم» هو الإنسان الوحيد الذي يملك تجربة ويستطيع أن يقدم لي ما يصيب العاشق، عليَّ أن أقوّي قلبي:

– لكن «مش قاسم» يظن صديقي في المدرسة أنه عاشق ويريد أن يعرف بداية هل هو بالفعل كذلك أم لا؟ وإذا ما علم أنّه كذلك فسوف يبحث عن علاج لمرضه...

– لكن يا ابني، وهل يداوى الحب بهذه السهولة؟ ثكلته أمه هو أسوأ من كل وجع، – بعيداً عنك – هو أسوأ من الحصبة والملاريا...

قلت متشجعاً:

– «مش قاسم»، ما ذكرته صحيح، ولكن الآن كيف يعرف الإنسان أنه عاشق؟

– والله يا ابني، لَم الكذب؟ ما رأيناه هو عندما تحب أحداً... ولا تراه يتراكم الثلج على صدرك، وعندما تراه يذوب ويشعل تنّوراً في صدرك، كل ما في الدنيا، كل المال والحلال تريده له وحده، وكأنك أصبحت حاتم الطائي.

خلاصة الأمر لن يهدأ لك بال إلّا إذا وصلوك بها، ولكن هناك أيضاً – لا سمح الله – أن يعطوا الفتاة لأحد آخر عندها يا ويلاه!... كان لدي صديق من بلدتي أَحَبَّ...

وفي إحدى الليالي خطبها أناسٌ آخرون، فهام ابن بلدتي صباحاً على وجهه في الصحراء، ومرّ الآن عشرون عاماً من غير أن يعرف أحد ما الذي حدث له... كما لو أنه تبخّر وصعد إلى السماء...

«مش قاسم» لا يريد أن ينتزع نفسه من الحكاية، بل الحكايات التي تتعلّق بأبناء بلدته، وأنا كنت في عجلةٍ من أمري لينهي حكاياته، وأخاف أن يتطفل علينا أحد فيقطع ما نحن فيه، قلت له:

– «مش قاسم» أرجو أن لا يطّلِع خالي العزيز على ما دار بيننا، عندها سوف يصر على معرفة من هو هذا العاشق إلى آخره...

– أنا أذكر للسّيد ما دار؟ وهل جننت؟.. لو علم السّيد بأمر الحب والعشق لأقام الدنيا ولارتكب جناية.

هز «مش قاسم» رأسه وقال:

– أدعو الله ألا يعشق أحد «ليلى» لأنه أبوها، ولو علم لأحرق سلف أسلافه.

قلت له وأنا أحاول التماسك لأقف:

– ماذا تعني «مش قاسم»؟

– والله أذكر مرة أن شخصاً ما أحب ابنة أحد أصدقاء السّيد...

– وما الذي حدث «مش قاسم»؟

– والله لَم الكذب؟ حتى القبر ها أها... أنا لم أر ما حدث، ولكن الشّاب «فصّ ملح وذاب»، تحول إلى بخار، والكثيرون قالوا إن السّيد أطلق النار على قلبه ورماه في البئر...

كان ذلك في زمن حرب كازرون.

تحمس «مش قاسم» لذكرى حرب كازرون.

لم نكن نعلم بالتحديد متى التحق «مش قاسم» للعمل عند خالي العزيز، ولكن ما عرفناه بالتدريج هو أن بداية عمله معه كانت يوم عاد خالي إلى طهران بعد انقضاء مأموريته.

ثانياً، «مش قاسم» هو نسخة مصغرة عن خالي العزيز، مخيلته الخصبة مطابقة لمخيلته.

في الماضي، حين كان يسهب في الحديث عن حروبه كان «مش قاسم» يكثر من تأييده له، فينهره خالي قائلاً له: ما الذي تقوله؟ أنت لم تكن هناك.

لكن «مش قاسم» لا يعير أهمية لهذا، وبالتأكيد أنه ليس هناك من يود الاستماع إلى حكايات هذه المخيلة الحربية الخصبة ويصدقها، فسعى أن يقدّم طوال كل هذه الأعوام، العون لخالي العزيز الذي أحسّ رويداً رويداً بأنه بدأ يفقد المستمعين لحكاياته.

ومن الممكن أن الحاجة لشاهد حرب يؤيد الأحداث أو أن الاعتقاد الذي أوجده «مش قاسم» لنفسه بأنه كان وسط الأحداث حشرته في الحكايات، فبات خالي العزيز يتقبّل انحشاره في الحروب، خاصة أن «مش قاسم» حفظ جيداً جزئيات حرب كازرون الخيالية وممسني وغيرها من الحروب، وكان يذكره بها إذا ما نسي واقعة.

وقد أخذ هذا القبول شكله الرسمي قبل ثلاثة أعوام:

انزعج خالي العزيز في أحد الأيام كثيراً وثار غضبه، وذلك على إثر ما فعله «مش قاسم» بنرجسته الكبيرة، إذ كان يسقيها وبضربة خاطئة مزّق ساق الزهرة فسقطت، جن جنون خالي العزيز، ورفع يده تاركاً عدة صفعات على رقبة «مش قاسم» وقال له:

- أغرب عن وجهي، لم يعد لك مكان في هذا البيت.

أطرق «مش قاسم» وقال:

- سيدي عليك أن تخرجني من هذا البيت بالتابوت، لأنك أنقذت حياتي... فمادمت حياً عليَّ أن أخدمك، من يقوم بما فعلته؟

ثم اتجه «مش قاسم» يخاطب النّاس المحتشدين حوله من الأخوة والأخوات، والجميع يخاف التّدخل، وقال مهتاجاً:

- تخيلوا... أصبت بطلق ناري في حرب كازرون... وسقطت وسط حجرين ضخمين... كان الرصاص ينهمر مثل المطر من كل ناحية... تشهدتُ... حامت فوقي الكواسر تنتظر موتي... فجأة ظهر سيدي، إلهي يحفظ له شجاعته وعزمه، اندفع نحوي من بين كل ذلك الرصاص المتطاير... حملني مثل سبع على كتفه... جرى بي ما يعادل مساحة منزل ورماني في الخندق... هل تظنون أن مثل هذه الذكريات تنسى؟

التفت الجميع إلى خالي العزيز تأثراً بحكاية «مش قاسم»، سقطت علائم الغضب من وجهه، ثم نظر إلى البعيد وكأنه يشاهد ساحة الحرب، ارتسمت ابتسامة على شفتيه.

انتبه «مش قاسم» لهذا التحول المفاجئ، وقال:

- لو لم يكن سيدي في تلك اللّحظة هناك لأصابنا ما أصاب «سلطان علي» إذ أخذه الموت.

ردّد خالي العزيز هامساً:

- المسكين «سلطان علي خان»، كنت أود تقديم العون له، لكن لم أستطع، رحمه الله...

منذ ذلك الحدث وبسبب هذه الكلمات القليلة تقبل خالي العزيز «مش قاسم» كمساعد له في حروبه، وهو من كان لا يقبل بأي وجه فكرة معرفته «مش قاسم» في تلك الفترة، وقد بات الآن يعرفه كتابع له في حروبه ويسأله أن يذكّره بأسماء بعض الشخصيات والأماكن التي غابت عن ذاكرته، حتى إنه قام بدعوة «مش قاسم» ليعيد رواية واقعة إنقاذه من الموت.

على هذا فإن «مش قاسم» الذي كان يحكي لنا في طفولتنا عن أكبر حدث له، هو مواجهة سرب من الكلاب في مدينة «قم» أصبح الآن في عداد الشجعان الذين شاركوا في حروب كازرون وممسني.

وفي هذا اليوم أيضاً ذاب في حديثه عن حرب كازرون، وبينما كان منشغلاً بحكايته عدت إلى البيت.

ما حصلت عليه من تقليب الأفكار في ذهني هو أني وقعت في حب «ليلى»، خاصة عصر هذا اليوم عندما جاء بائع الآيس كريم واقتسمته معها، فحضرت حِكَمٌ «مش قاسم» أمامي: «عندما تحب أحداً تتمنى الدنيا له، كل المال والحلال تتمناه له وكأنك أصبحت حاتم الطائي».

و لم يحدث قبل ذاك أن اقتسمت المثلجات مع أحدٍ أبداً.

رويداً رويداً، أحسستُ بما ذكره عن عوارض الحب الّتي تصيب العاشق، حيث أنه عندما تغيب «ليلى» أشعر بالجليد يتراكم على صدري، وعندما أراها أشعر بحرارة قلبي تجتاح أذني.

عندما تكون إلى جانبي لا أهاب ما سيحدث لي، ولكن ما إن يحل الليل وتعود إلى بيتها وأبقى وحيداً أسقط في بئر التفكير بعواقب العشق.

وبعد مرور عدة ليال بت لا أهاب الليل، حتى إن الوحدة لم تعد ترعبني، لأني أحمل من الذكريات النّهارية ما يملأ وقتي.

أحد أبناء عائلتنا وهو يعمل في وزراة الخارجية أحضر لخالي العزيز عدة عطور روسية من (بادكوبه)، وكان عطر «ليلى» هو هذا العطر الروسي وقد التصق بيدي مراتٍ، فلم أرغب بغسله خوفاً من فقده، فشعرت بلذة العشق، وبعد مرور ليال موحشة تحولت إلى سعيد حظ، ولكن هناك أمر شغل بالي وأريد أن أعرف «هل ليلى تحبني أيضاً أم لا؟»

أحسست بأنّها تحبّني ولكن أردت الاطمئنان.

ورغم هذا التردد كانت أيّامي تمضي سعيدة، ولا تغيم سمائي إلّا عند تخوفي من أن خالي العزيز قد يعلم في يوم من الأيام سرّي، أحياناً كنت أحلم أنّه وقف فوق رأسي حاملاً بندقيته ينظر إلى وجهي وعيناه تشعان غضباً، ومن كثرة خوفي أنتفض وأنا أتصبّب عرقاً، رغم أني كنت أحرص على ألا أفكر في نهاية عشقي، ولكنّي متأكّد من أنّه لن يتقبل حبي، فالكراهية التي قامت بين أبي وخالي قديمة.

أولاً، لأن خالي العزيز لم يكن موافقاً على زواج أخته من أبي، لأنه يؤمن بأن عائلته من العائلات العريقة، وارتباط «فرد أرستقراطي» – على حد قوله – بفرد قروي لا يجوز. ولو لم يتم زواج أبي من أمي في حياة جدي لما تم أبداً.

ثانياً، لم يكن أبي يحترم خالي العزيز كما يفعل البقية، ولا يتوانى أن يذكر – وبحضوره وأمام الناس – أن «نابليون» إنسان مغامر وقد جر الشّعب الفرنسي إلى هاوية.

أعتقد أن هذا أكبر خطأ قام به أبي، وهو أيضاً السبب الرئيس في خلافهما.

من الطبيعي أن تبقى هذه الحدّة عادة تحت الرماد، ولكنها أحياناً تظهر عندما يلعبان الطاولة ثم يعود لمّ شملهما بعد تدخّل أفراد العائلة.

لم تكن خلافات خالي العزيز وأبي مهمّة لنا نحن الأطفال، لأننا كنّا منشغلين بمرحنا الطفولي، غير أن انشغالي بعشق «ليلى» أصبح هاجساً أساسياً لي حول هذا الخلاف، ومن سوء حظي كان المستقبل يخبّئ معركة شرسة بين الاثنين.

وسبب هذا الخصام الجديد الضّابط الذي حل ضيفاً على خالي، كنّا نعرفه بابن أمه (شابور) وهو ابن خالي العزيز العقيد، وقد حصل على بكالوريوس، وقد دار حديث منذ بداية الصيف عن إقامة حفل مهيب على شرفه بهذه المناسبة.

«شابور» أو «بوري» ابن خالي العقيد عرف عنه حبّه للدراسة وهو

الوحيد من عائلتنا الذي أكمل دراسته وتجاوز الدبلوم، ففي عائلة خالي العزيز الأرستقراطية عادة ما ندرس إلى الصف الثالث أو الرابع الثانوي.

وحصول «بوري» على البكالوريوس كان حدثاً كبيراً، الجميع تحدث عن نبوغ هذا الشاب، وإن لم يكن عمره قد تجاوز الحادية والعشرين، لكن طول قامته وتقوُّس ظهره يظهرانه أكبر مما هو عليه. وأعتقد أنه ليس ذكياً بل يملك ذاكرة جيدة، كان يحفظ دروسه فلا ينسى حرفاً واحداً. وحتى سن الثامنة عشرة، كانت أمّه تعبر به الشارع، على أيّ حال لم يكن قبيح المظهر ولكنه كان يتأتئ عندما يتحدّث.

ومن كثرة مدح خالي العزيز لنبوغه لقبناه (بوري النابغة)، ومن كثرة ما تحدث خالي العزيز عن الحفل الذي سيقيمه العقيد بمناسبة حصول «بوري» على البكالوريوس قضينا العطلة نناقش ما سيدور في هذا الحفل.

وصلنا خبر ميعاد الحفل وهو يوافق يوم ميلاد «بوري».

هذه أوّل مرّة أهتمّ بمظهري من أجل دعوة، قضيت اليوم بالاستحمام وكيّ ثيابي وتلميع حذائي وكل ما أحتاجه لأظهر بأجمل صورة، أريد الظهور أمام «ليلى» أحلى من أي وقت مضى، حتى إني رششت على وجهي وثيابي من عطر أمي النسائي (سوار دوباري).

يقع منزل خالي العزيز العقيد في داخل البستان أيضاً إلّا أنّه فصل منزله عن منزلنا بسورٍ خشبيٍّ.

في الحقيقة لم يكن خالي العزيز العقيد عقيداً بل برتبة مقدم، وكان يُقال له في ذلك الوقت (مساعد) ولكن قبل عدة أعوام أي عندما شعر

بأنه سوف يمنح ترقية أخذ خالي العزيز «نابليون» بمناداة أخيه بالعقيد وإذا بالعائلة كلها تناديه بالعقيد.

عندما دخلنا إلى الساحة الداخلية لمنزل خالي العزيز العقيد، رافقنا في الدخول حشد من المدعوين، وكنت أبحث بين الوجوه عن «ليلى»، لكنها لم تأت بعد.

وقعت عيني على نابغتنا الكبير «بوري»، كانت ياقة قميصه الأبيض متهدّلة، وربطة عنقه لا تناسب ثيابه.

ما لفت نظري، بعد الياقة وربطة عنق النابغة، هي الأوركسترا المؤلفة من شخصين وهما جالسان في عزلتهما على كرسيّين إلى جانب الطار والدف، وأمامهما طاولة عليها فاكهة وحلويات.

ضارب الطار أعتقد أني أعرفه، بعد لحظات تذكرته، كان أستاذ الرياضيات والهندسة حين كنت في الابتدائيّة، وحسب ما قيل لي يبدو أن الحاجة أجبرته على المشاركة في الحفلات لكي يعيل عائلته، ضارب الدف كان أعمى وسميناً وهو المغني أيضاً، في الساعة الثامنة وصل الحفل والحشد إلى النشوة والاوركسترا قامت بدورها على خير وجه، وتجمّع فريقٌ في زاوية يحتسي الخمر.

كنت أمرُّ على الطّاولات وأخطف الحلوى والفاكهة آخذاً حصتين واحدة لـ «ليلى» والأخرى ألتهمها.

أغرقت الأضواء الملونة البيت، لذلك قدمت لها الحلوى والفاكهة بحذر خوفاً من الأعين.

كان «بوري» النابغة يراقبنا وملامح الغضب ظاهرة عليه.

الحدث المؤلم وقع في حدود الساعة العاشرة والنصف، أخرج خالي العزيز العقيد بندقيته الجديدة التي أحضرها له «أسد الله» ميرزا موظف وزارة الخارجية، وهذا الأخير كان قد أحضرها من مدينة (بادكوبه).

أخذ خالي العقيد في مدح بندقيته منتظراً رأي «نابليون».

حمل البندقية وصوب بها إلى جهات مختلفة، صاحت النساء به يذكرنه بخطورتها فأجابهن ضاحكاً بأنه أخصائيٌّ أسلحة ويعرف ما يفعله.

بينما خالي العزيز يحمل البندقية، تذكّر حروبه الطّاحنة وغاص فيها:

- نعم كانت لديّ مثل هذه البندقية تماماً... أذكر ذلك، في حرب ممسني، في أحد الأيام...

ما إن رأى «مش قاسم» البندقية بيده، حتى شعر أن الحديث سيدور عن الحروب فاقترب خلفه مقاطعاً:

- سيدي كانت حرب كازرون.

نظر خالي العزيز نحوه شزراً[٣] له وقال:

- ما الذي تقوله؟ هل خرِفت؟ كانت حرب ممسني.

٣- «شزراً» : نظر إليه نظرة المباغض المستهين.

Twitter: @ketab_n

– والله لِمَ الكذب سيدي؟ ما أتذكره أنها حرب كازرون.

التفت خالي العزيز إلى نقطة مهمة، كما التفت الجميع، وهي مقاطعة «مش قاسم» له قبل أن يعرف عن أي حرب يتحدث، وهو أمر ليس في صالح خالي العزيز ولا في صالح حكايته، فقال بصوتٍ منخفضٍ غاضب:

– تباً لك من رجل، لم أبدأ بعد...

– لا يعنيني ذلك سيدي، كنّا في حرب كازرون.

ثمّ صمت، أكمل خالي العزيز:

– نعم، في أحد أيام حرب ممسني... كنا محاصرين في واد، تربص بنا قُطّاع الطّرق من جانبي الجبل...

وأثناء انغماسه في سرد حكايته، كان يقوم أحياناً ثم يجلس، ليضفي على حكايته نكهة دراميّة، وفي حين كان يضع البندقيّة تحت ذراعه اليمنى، راح يشرح الأوضاع بيده اليسرى:

– تخيّلوا وادٍ بمساحة هذه السّاحة أربع مرات... كنت أنا وخمسون حامل بندقية...

صمت متابعا الحكاية، يلتف الحضور حين تدخل «مش قاسم»:

– مع خادمك «قاسم»؟

– نعم هذا «قاسم» أيضاً مساعدي بتعبير هذه الأيّام...

- ألم أقل لك سيدي إنها حرب كازرون؟

- لا تهذِ، لا يا رجل لا تقل حرب كازرون، لقد خرِفت، وذاكرتك انتهت صلاحيتها.

- وما الذي قلته؟

- الأفضل أن تخرس... نعم كنت أنا وخمسون حامل بندقية... كم كان وضع الجند مضطرباً... وعلى حد تعبير «نابليون»:

«قائد مع مئة جندي شبعان بإمكانه القيام بعمله أفضل مما يقوم به مع ألف جندي جائع»

فجأة أمطرت السماء رصاصاً، وأول ما قمت به الترجل عن فرسي، وسحبت «قاسم» هذا... أو شخصاً آخر يقف إلى جانبي عن فرسه.

تدخل «مش قاسم» مرة أخرى:

- أنا من كنت سيدي...

ثم أضاف خائفاً وخجلاً:

- لا تظنها جسارة مني سيدي، أُذَكِّرك بأنّها كانت حرب كازرون.

قد تكون هذه المرة الأولى التي يندم فيها خالي العزيز على السّماح لـ «مش قاسم» بالتّدخل في حروبه صرخ قائلاً:

- الآن فليكن في أي جهنم، هل تسمح لي أن أكمل؟

– سيدي خرست، أنا من لا عقل له.

أكمل خالي العزيز وسط رهبة الحاضِرين من جسارة «مش قاسم»:

– نعم، هذا الأبله كان معي، ليت يدي كسرت و لم أنقذ حياته، سحبته من على فرسه، أوصلت نفسي للصّخور، صخور كبيرة بحجم هذه الغرفة، كم كانت الأوضاع بائسة... جُرِح ثلاثة جنود منا... والبقيّة اختبؤوا خلف الصّخور... عرفتُ من طريقة تنظيم الهجوم أنّي أواجه «خداداد خان»، المعروف... خادم بريطانيا القديم...

– ألم أقل لك إنها حرب كازرون.

– اخرس! نعم، أول ما فكرت فيه هو القضاء على «خداداد خان»... قُطّاع الطّرق هؤلاء إذا بقي قائدهم على قيد الحياة فهم من أشرس الناس، وما إن يُقتل حتى تخورَ قواهم ويفروا...

رفعت نفسي إلى أعلى الصخور، كان لدي قبعة جلدية وضعتها على عصا ورفعتها حتى يظنوا...

لم يتمالك «مش قاسم» نفسه:

– سيدي... كأنّها البارحة، تذكرت قبعتك الجلديّة تلك، لو تذكر، أضعتها في حرب كازرون، أي أنها خُرقت برصاصة...

بينما في حرب ممسني لم يكن لديك قبعة جلدية...

انتظر الجميع أن يشن خالي العزيز هجومه على «مش قاسم» ضارباً إياه بمؤخرة البندقيّة التي بيده أو بما سورتها ولكن، وخلافاً لكل

التّوقعات، إما أنّه أراد مقاطعة «مش قاسم» ليكمل حكايته أو أنه غاب في ساحة الحرب قال:

– وكأنّ الحقّ مع «قاسم»، كانت حرب كازرون، أي بداياتها...

شعت عينا «مش قاسم»:

– ألم أقل لسعادتك؟ لِمَ الكذب؟ حتى القبر ها أهـا... وكأنها البارحة...

– نعم كانت هناك خطّة لديّ، وهي أن أصيب «خداداد خان»... عندما رفعت القبعة الجلديّة التي وضعتها على العصا إلى الأعلى، «خداداد» من أمهر الرماة رفع رأسه، والآن كنت أنا وهو، استعنت بمولى المتقين وصوّبت...

قفز خالي العزيز من مكانه بطوله الفارع صوب بندقيته وهو يضعها على كتفه الأيسر وأغلق عينه اليمنى...

– ما رأيته من «خداداد خان» جبهته... رأيتها مرّات... حواجب كثيفة... جرح فوقهما... صوبت وسط الحاجبين...

بينما انشغل خالي العزيز بالتصويب وسط حاجبي العدو فجأة حدث أمر غريب صدر صوت قربه أو في المكان الذي وقف فيه، صوت مثير للشك، يشبه صوت سحب الكرسي على الأرض... أو تزعزع أوصال كرسي قديم في وقت غير مناسب أو... لكن فيما بعد عرفنا أن أغلب الضّيوف تأكدوا أن الصّوت الطّارئ صدر عن كرسي ولم تذهب أفكارهم إلى مكان قبيح...

تجمد خالي العزيز في مكانه للحظات، تحوّل كلُّ الحضور إلى أحجار صمّاء، بعد لحظات تجمُّد عادت الحياة تدب في خالي العزيز، والتفت خلفه والشّرُّ يتطاير من عينيه، ثم اتّجه صوب المكان الذي صدر منه الصوت.

لم يكن هناك إلّا شخصان أحدهما أبي والآخر«قمر»، السمينة المخبولة.

مرت لحظات صمت أخرى، كسرتها «قمر» بضحكتها التي أثارت الأطفال، فشاركوها الضحك بل حتى الكبار دخلوا في نوبة ضحك معها، وأبي كان أول الضاحكين.

رغم عدم إدراكي لما حدث، لكني شعرت بميلاد عاصفة وضغطت على يد «ليلى»بقوة، وجّه خالي العزيز فُوَّهة البندقيّة إلى صدر أبي، صمت الجميع، نظر أبي بهلعٍ إلى يمينه ويساره، ثم رمى خالي العزيز البندقية على كنبة وأنشد أبياتاً شعرية تشير بازدراء إلى ذوي الأصول الوضيعة.

ثم اتجه إلى الباب وصرخ:

- اخرجوا.

وخرج تتبعه زوجته، و«ليلى» أيضاً وهي لا تدري ما يجري حولها لكنها أحست بالخطر فسحبت يدها من يدي وخرجت مودعة بنظرة حزينة.

-٢-

مرة أخرى جافاني النّوم، مرّت ساعة منذ عودتي من بيت خالي العزيز العقيد، وأنا أتقلب في الفراش والناموسية تحيط بي.

وبعد ما قام به، وتهجمه على أبي انزعج الجميع، فبقي قليل من الضيوف لم يخرجوا بعد متهامسين فيما بينهم حول ما جرى.

أستعرض وقائع الأيام الأخيرة أمام عيني: عشقت فجأة «ليلى» ابنته، وبعد أيام ملتهبة على بداية عشقي شعرت بالسعادة، وابتهجت بأني عاشق، بيد أنّ ما حدث أنهى سعادتي وسعادة الآخرين.

فبعد الاعتراضات العنيفة من أبي على إهانات خالي العزيز له، تأكدت أن لا دخل له فيما يتعلق بالصوت، وأنا أستمع للحديث الدّائر بين أبي وأمي، كان صوت أبي يعلو مهدّداً أحياناً، ومن الواضح أنّ أمي راحت تسكته بوضع يدها على فمه.

لمرّات استمعت لجملة: «يا ويلي... اهدأ... قد يسمع الأطفال... مهما فعل هو أخونا الكبير... ارحمنا، يا إلهي سامحه».

وآخر ما سمعته قبل أن أغفو تهديدات أبي بوضوح:

«سوف أريه حروباً كازرونية ستنسيه اسمه... أنا يتمثّل لي بشعر عن دناءة الأصل؟!».

صباحاً خرجت من الناموسية وأنا متوجس شرّاً مما حدث البارحة ومما سمعته، أكلنا وجبة الفطور وسط صمت أبي وأمي، البستان يلفه الصمت أيضاً، حتى الأشجار والورود وكأنما تنتظر انتقام خالي العزيز، حتى خادم خالي العزيز العقيد لم يرفع رأسه وهو يجمع كراسي وطاولات حفل الأمس.

انتظرتُ «ليلى» حتى الساعة العاشرة بيد أني لم أحتمل، فاقتربتُ من «مش قاسم»:

– «مش قاسم»... لِمَ لم يخرج الأطفال اليوم إلى البستان؟

أجابني وهو يلف سيجارته ويهز رأسه:

– والله، بنيّ العزيز، لِمَ الكذب؟ حقيقة أنا لا أعرف عن الأمر شيئاً... لكن بإمكاننا القول إنّ السّيد قال لهم أن لا يخرجوا من البيت... أو لم تكن البارحة في بيت السّيد العقيد؟ أو لم ترَ ما حدث؟

– استشاط خالي العزيز غضباً.

– والله لِمَ الكذب؟ لم أر السيد منذ الصباح، ولكن الخالة «بلقيس» التي أخذت له الشّاي قالت: إن الأسد اليوم جريح... أي معه الحقُّ أيضاً... بينما كان الرجل يتحدّث عن حرب كازرون يؤتى بمثل ذلك الفعل؟... لو كانت حرب ممسني فلا بأس، ولكن حرب كازرون... لا، لا يمكن اللعب معها، رأيتُ بأم عيني ما فعله السيد في تلك الحرب.

كل هذا الأمن والأمان الذي ننعم به كلّنا مصدره سيدنا... حفظه الله عندما يمتطي جواده الأحمر رافعاً سيفه في ساحة الوغى تحسبه أسداً منقضّاً، نحن المقربون منه يتملكنا الخوف فما هي حال الأعداء؟

- هل تظن أن صوت البارحة «مش قاسم»... أنه؟..

- نعم، بني العزيز، كان هو... طبعاً لَمَ الكذب؟ لم أسمعه جيداً، يعني سمعته ولكنني كنت مع حديث سيدي... ولكن سيدي نفسه سمعه... يعني عندما عدت مع سيدي هذا «بوري» أيضاً أشعل فتنة...

- وهل عاد معكم إلى بيت خالي العزيز؟

- نعم حتى باب البيت... يعني دخل معنا وهو يملأ رأس سيدي أن هناك عملية إهانة استهدفته...

- ولَمَ كل هذا «مش قاسم»؟ وما الذي سيستفيده «بوري» من وقوع شجار بين أبي وخالي العزيز؟

بعد إجابة «مش قاسم» توصلت إلى حقيقة أفزعتني، إذ قال لي:

- والله، لو كنت توجه السؤال لي فهذا «بوري» يحب «ليلى»... وفي إحدى المرّات قالت أمه للخالة «بلقيس» إنها تود المجيء لطلب يدها... وأظن أنه اغتاظ لأنّه رآك تلعب معها... «ليلى» في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة وبإمكانها الزواج، لكن أنت لا يمكنك الزواج الآن...

لم أسمع بقية حديث «مش قاسم»، فكرت في كل ما يتعلق بالحب إلّا بظهور منافس لي، رغم أنه كان عليَّ التفكير قبل كل شيء بهذا

الأمر، حيث إنه في كل حكايات العشق التي قرأتها كان هناك حبيب وحبيبة ومنافس، يا إلهي ماذا أفعل بهذا الـ «بوري» الآن؟ ليت لدي القوة لأوسعه ضرباً، مرّ أمامي وجه «بوري» النابغة الكبير بابتسامته وهو أكثر قبحاً.

أول سفينة نجاة لاحت لي في هذا البحر المتلاطم هو «مش قاسم» أيضاً، قلت له وأنا أحاول أن أكون طبيعياً جداً:

- «مش قاسم»، هل تظن أن «ليلى» ستصبح زوجة لـ «بوري»؟

- والله لَمَ الكذب؟ «ليلى» بنت كبيرة وقد نضجت، و«بوري» أكمل دراسته... وابن العم وبنت العم كتب عقدهما في السّماء... وإن كان الولد مخنّثاً قليلاً وبارداً، ولكن...

مرة أخرى أرعبني العشق، وأردت أن أجد طريقة تخلّصني ممّا أنا فيه، كان معي الحق يوم توجست شرّاً منذ البداية من العشق، فبإمكاني الآن التراجع عن دور العاشق لكن الوقت تأخر.

بعد أن دخلت في صراع مع نفسي إلى الظهر عدت مرة أخرى إلى «مش قاسم»:

- «مش قاسم» هل بإمكاني أن أطلب منك خدمة؟

- قل.

- عليّ أن أتحدث لـ «ليلى» عن كتبنا المدرسية، هل بإمكانك أن تقول لها أن تأتي إلى البستان بعد أن ينام خالي العزيز؟

سكت «مش قاسم» للحظات ثم رفع حاجبيه، حدّق فيّ ثم قال راسماً ابتسامة صغيرة:

- حاضر بني... سوف أرى ما أقدر على فعله.

- شكراً لك، «مش قاسم»، شكراً.

ظهراً، عندما شعرت بأن أبي نام خرجت للبستان وبقيت أنتظر نصف ساعة... فتحت «ليلى» الباب ودخلت البستان والخوف يلفُّها.

كنت أواجهها تحت تلك الشجرة ذاتها التي كنا التقينا تحتها في اليوم الثالث عشر من شهر مرداد في الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة.

أول كلمة لها كانت: أسرعْ، عليَّ العودة بسرعة، لأن خالي العزيز قال لها إنّها إذا وضعت قدمها في البستان وتجاذبت الحديث معي أو مع أختي فسوف يحرق البيت بمن فيه.

لم أكن مستعداً بعد للحديث، لمَ دعوتها للمجيء، إذاً؟ هناك موضوع مهم سأطرحه معها، ولكن ماذا أقول لها؟

- «ليلى».. «ليلى»... هل تعرفين ماذا قال «مش قاسم»؟ قال إن «بوري» يحبك ويريد...

عرفتُ من نظرتها أنّ لا علم لها بالموضوع، فطنتُ إلى الموقف الذي وضعتُ نفسي فيه، فقبل أن يبوح العاشق بعشقه لمعشوقته بات وسيلة لإيصال عشق منافسه.

بقيت «ليلى» صامتة للحظات، هي مثلي لا تدري كيف تتصرف مع هذا الموقف، فرغم مظهرنا الكبير إلّا أننا مازلنا أطفالاً.

وبعد أن طال صمتها، ومن الممكن أنها كانت تبحث عن كلمات قلت:

– سيبعث «بوري» عائلته لطلب يدك.

نظرت «ليلى» إلي بهلع، وبينما كان الدم يتصاعد إلى وجهها قالت لي:

– إذا ما حدث ذلك فما الذي ستفعله؟

إذا حدث ذلك فما الذي سأفعله؟ أي سؤال صعب هذا! أنا الآن لا أعرف كيف أواجه الأمر، فما بالك لو حدث ذلك؟ يا إلهي، كم العشق صعب! حتى إنه أصعب من درس الرياضيات والهندسة، لم أعرف بماذا أجيب، قلت:

– والله لا شيء... يعني...

حدقت «ليلى» في عيني مباشرة ثم شرعت في البكاء وركضت عائدة إلى بيتها؛ وقبل أن تسنح لي الفرصة بأن أقول لها إني... دخلت البيت وأغلقت الباب خلفها.

ما الذي سأفعله الآن؟.. ليتني أستطيع البكاء أيضاً، لكن لا! ليس عليَّ البكاء فمنذ أن فتحت عيني على الدنيا وحتى قبل أن أتعلم الكلام ومعناه كانوا يصبون في إذني: أنت ولد ويجب ألا تبكي! وهل أنت بنت حتى تبكي؟ هاها هذا ليس برجل لأنه يبكي... ها أيها الحلاق تعال واقطع سنبلته، عندما عدت إلى القبو ووضعت رأسي على مخدتي عرفت للتو ما كان عليَّ قوله:

– سوف أقتل «بـوري» شرّ قتلة... سوف أقتلع قلبه الأسود بالخنجر...

علا صوتي حتى إنّي خفت من نفسي:

– وهل متُّ ليقترب منك هذا الأحمق... أنت لي! أنت حبي... لا أحد في العالم كله يتجرأ على إبعادك عني.

أعادني صوت أبي الغاضب إلى الواقع:

– يا حمار، لَمَ تصرخ؟ ألا ترى أن الجميع نيام؟

الليل أيضاً مرّ بصعوبة عليَّ، وفي الصباح خرجت لأبحث عن «مش قاسم»، لكنه تغير كلياً، وقف ممسكاً مسحاته أمام قناة الماء التي تمر من بستاننا وهو غاضب.

بنيت المنازل بحيث تمر قنوات المياه من أزقة خالي العزيز «نابليون» في البستان الكبير ومنه إلى بستاننا وبيتنا ثم تمر إلى بستان خالي العقيد.

كنت أبحث عن الكلمات لأفاتح «مش قاسم» بها سائلاً عن «ليلى» وبصورة غير مباشرة وإذا بخالي العزيز العقيد يظهر فجأة وهو يضع بنطلونه في جورابه وقال:

– «مش قاسم» ما الذي حدث البارحة؟ لم يمتلئ مخزن مائنا...

قال «مش قاسم» والمجرفة بيده من دون أن يلتفت لخالي العزيز العقيد:

- والله هذا ما حدث، سيدي!

- ماذا تعني؟ هذا ما حدث.

- لَمَ الكذب؟ لا أعرف عن الأمر شيئاً.

- لا تعرف؟ حجزت مجرى الماء عنّا وتقول لا تعرف؟

- اسأل سيدي... هو من أمرني.

- هل تريد أن تقول إنّ السّيد هو الذي أمر بقطع الماء؟

- اسأل السيد، أنا لا أدري.

لم يصدق خالي العزيز العقيد ما يحدث، وهو صدور مثل هذا الأمر من أخيه الأكبر، اتجه إلى «مش قاسم» ساعياً إلى أخذ المجرفة من يده لكي يفتح مجرى للماء، ولكن ملامح الأخير الجادة والغاضبة التي تُذكِّر بجندي شجاع سيواجه الموت ردعته، فتوقف العقيد عن التقدم وذهب إلى بيت «نابليون»، ثم قال «مش قاسم»:

- الحقيقة هي أنكم تأكلون بعضكم.

ما حدث بين خالاي العقيد و«نابليون» مستنا ناره، وعرفنا أنّ عملية قطع الماء عنّا وعن العقيد هي من جملة عمليات الانتقام التي اتخذها خالي العزيز «نابليون» ضد أبي.

وهذا أشدّ انتقامٍ يتخذه لأنه في ذلك الوقت لم تكن هناك مصارف صحيّة، وفي كل أسبوع نملأ مخازن الماء مرة، يعني إذا لم نملأ مخزن الماء فسوف نبقى أسبوعا كاملا بلا ماء.

مرّ يومان لم أر فيهما «ليلى»، حتى إني بكيت عندما تذكرت عينيها الدامعتين، لكن كدت أنسى ما أنا فيه إثر الحوارات والجلسات الدبلوماسية الّتي عقدت لحل أزمة المياه.

لم تبق حتى قطرة ماء في مخزن خالي العزيز العقيد، ووروده وأشجاره أضحت على وشك الموت عطشاً.

أبي عاند و لم يعترض، وهناك القليل من الماء عندنا، وانتظر ما سيفعله خالي العزيز العقيد لأن مصيره يتعلق به أيضاً.

استمعنا مرات لطلب العائلة من خلف الباب من أبي كي يعتذر من خالي العزيز «نابليون»، ولكن أبي كان في كل مرة يرفض بحدة، بل وصل الأمر به أن قال لهم:

- إذا لم يتراجع فسوف يوصل القضية إلى الشرطة والمحكمة.

اسم الشرطة والمحكمة هزّت الكيان العائلي وتهالك الجميع فسوف تذوب كرامة عائلة من علية القوم، ولكن على أي حال شعر أبي بقوة موقفه فلم يتنازل، بل توقع من خالي العزيز «نابليون» أن يعتذر منه وأمام الجميع.

وسط كل هذا الصخب كنت أنا المسكين! و«ليلى»! والبائس خالي العزيز العقيد.

في يوم الجمعة شعرنا بحركة غير طبيعية في منزل العقيد، اقتربت أملاً في رؤية «ليلى»، لم تكن هناك، لكن الحركة كانت غير طبيعية، لقد حان وقت الجد وتشكلت شورى عائلية.

جاء أخو خالي العزيز «نابليون» «أسد الله ميرزا» موظف وزارة الخارجية وجاءت أيضاً أخته «عزيزة السلطنة»، وخلاصة الأمر تجمع أكثر أفراد العائلة المعروفين في صالة استقبال خالي العزيز العقيد، وكنا نحن الأطفال في الممرات والزوايا نتقافز.

عندما أرسلوا خلف «شمس علي ميرزا» عرفنا أن الأمر أكبر مما تصورنا.

يقطن «شمس علي ميرزا» في مدينة «همدان» وهو قاضي تحقيق هناك، ولسبب لا نعرفه سكن «طهران».

مرت الساعة حتى اجتمع الشمل بين المجاملات المعهودة، وعرفنا من خالي العزيز العقيد أن «شمس علي ميرزا» على وشك الوصول.

- صاحب السعادة تفضل... صاحب السعادة تفضل...

ورغم تذكيرنا دائماً بعدم التّنصت أو استراق السّمع لأنه عمل سيئ، إلّا أنني كنت كلّي آذاناً صاغيةً لما يدور في الصالة حتى إني ألصقت أذني على الباب.

في الحقيقة أنا كنت أكثر شخص يستحق استماع ما يدور في الصالة، لأن هؤلاء قد يفقدون وردهم وأشجارهم والاتحاد العائلي الصّلب، وأنا قد أفقد حبي وحياتي.

لم يطل حديث خالي العزيز العقيد حول أهمية اتحاد العائلة المقدس ومضار عدم الاتحاد وأنهى حديثه:

- روح المرحوم أبي في القبر ترتعش، سعيت بكل ما أملك أن أحفظ اتحاد العائلة... لكن لا، كلاهما لا يتنازل، أخي وزوج أختي... الآن أرجوكم افعلوا شيئاً لكي نحافظ على اتحادنا المقدس الذي دام مئة عام ولا تتركوا للشرطة والمحكمة أن يتدخلا في هذا البيت.

وقد كان هذا الحديث الملتهب، رغم أني لم أر وجهه يعكس حبه لورده وأشجاره.

ثم تلاه في خطبته «شمس علي ميرزا» متحدثا عن احتلاله مركز المحقق، منذ تأسيس المحكمة الحديثة، حيث يرى أن التّحقيق والبحث هو مفتاح حل أية قضية، سواء أكانت اجتماعية أم عائلية أم غيرها من القضايا.

لذلك وضمن أطروحاته وخطبه الجذابة اقترح قبل أي شيء:

أولاً، يجب تحديد الصوت المريب الذي اختلفوا حوله هل كان منشؤه من إنسان أم من غير إنسان؟ ثانياً في حال اتضاح أنه من إنسان يجب تحديد مصدره من أي جهة جاء؟ من أبي أم لا؟ ثالثاً إذا كان صادراً من ناحية أبي هل تعمد ذلك أم لا؟.

لاحظ «شمس علي ميرزا» اعتراض أكثر الحضور حول تحقيقه في الجزئيات فقام كعادته برفع قبعته ووضعِها على رأسه معلنا مغادرته:

- إذاً، إذا سمحتم لي أيها السادة والسيدات فأنا راحل.

كان «أسد الله ميرزا» موظف وزارة الخارجية، إذا أراد دعوة أحد للتريث، اعتاد القول:

- (ون منت، ون منت) وقد فهمنا معناها فيما بعد وهو يعني: (لحظة واحدة، لحظة واحدة)، في ذلك اليوم أيضاً عندما رأى أخاه «شمس علي ميرزا» يضع قبعته على رأسه ليرحل قال:

- ون منت، ون منت.

ولأن جميع الحاضرين وصلوا إلى طريق مسدود انضموا إلى «أسد الله ميرزا» ودعوا «شمس علي» إلى الجلوس مرة أخرى ليتابع تحقيقاته.

لم يحصل «شمس علي ميرزا» على إجابات مقنعة لسؤاله الأول، الذي طُرح حول الصوت المشكوك فيه، وهل كان منشؤه من إنسان أم لا؟ لأن الحضور الذّين دعوا إلى بيت العقيد في ذلك المساء أرجعه البعض إلى الكرسي والبعض الآخر، وهم الأقل إلى إنسان، بينما تردد ثلاثة أشخاص بين السبب الإنساني وغير الإنساني.

ثم طَرح بعد ذلك سؤال فرعي مرتبط بالأساسي:

- من كان الأقرب إلى مكان صدور الصوت المشكوك فيه؟: أبي وخالي العزيز «نابليون» و«قمر» المخبولة و«مش قاسم».

سؤال الشخصين الأساسيين غير ممكن، «قمر» أيضاً لا يمكن أن تكون شاهدة إذاً كان «مش قاسم» هو مفتاح حل هذا اللّغز.

أُحضر «مش قاسم» وبأمر من «شمس علي ميرزا»، وتعامل مع القضية، كما يُعامَل المتهم، فطلب منه قول الحقيقة لا غير، ثم ذكر بأنّ شهادته سوف تؤثر في الاتحاد العائلي المقدس:

- السيد «مش قاسم»، هل سمعت بإذنك في تلك اللّيلة الصّوت المشكوك فيه بينما كان السيد يروي حكايته؟

- والله سيدي لَم الكذب؟ حتى القبر ها أها... الله يرحمه كان لي صديق في مدينتي يقول...

- «مش قاسم»... أنت أمام قاضٍ... أرجوك لا تخرج عن الموضوع وأجب على سؤالي.

- نعم، أنا خادمك... تفضلتَ وقلت إنَّ الصوت المشكوف (المكشوف)...

- المشكوك فيه.

- ماذا تعني؟

- ماذا أعني؟ قلت مشكوف وأنا قلت مشكوك فيه...

- والله لَم الكذب؟ أنا أميٌّ... ولكني أريد أن أعرف الفرق بينهما.

- أي فرق.

- الفرق بين ما قلتُه وقلتَه؟

صاح «شمس علي ميرزا» حانقاً:

- أنا قلت مشكوك فيه وأنت قلت مشكوف، فقلت لك قل مشكوك فيه.

- وماذا يعني المكشوف والمشكوك؟

تدخل «أسد الله ميرزا»، المعروف بالمزاح واللّعب وأخبر «مش قاسم» بمعنى المشكوك بالتفصيل، فأغضبت صراحته «شمس علي»، ما دفعه إلى ذكر أنه لا يجب المزاح مع العدالة، ورفع قبعته واضعاً إياها على رأسه ليخرج، فقام الجميع متمسكين به واجلسوه..

- حسناً «مش قاسم»، الآن وبعد أن عرفت ما المقصود قل لي: هل سمعت الصوت المشكوك فيه بإذنك أم لا؟

- والله لَمَ الكذب...

- نعم، نعم.. نعرف حتى القبر ها أها... حتى القبر أربعة أصابع، لكن أجبني.

- والله لَمَ الكذب؟... يعني هل تريد الحقيقة أم لا؟

- ماذا تعني؟ هل تمزح معي؟ عندما أسألك بالطبع أطلب الحقيقة.

- حسناً أنا أيضاً أقول الحقيقة... أصلا لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... سمعت صوتاً... ولكن هل كان مشكوكاً أو غير مشكوك...

- قلتُ مشكوك.

- وما الذي قلتُه أنا؟

- قلتَ مشكوف.

- والله على حد علمي قلت مشكوك، الخلاصة سمعت صوتاً مشكوكاً.

– هل تظن أنه صدر عن الكرسي أم...؟

– أم ماذا؟

– قتلتني... أو ما قاله لك للتوّ أخي.

سمع «أسد الله ميرزا» اسمه، فتدخل وهو يضحك عالياً، ليروي قصة الرّجل القزويني وتاجر الأقمشة:

– عندما كان الرّجل القزوينيّ يشتري الأقمشة صدر منه صوت هز الدّكان، فأخذ بتمزيق الأقمشة ليظن أن الصوت هو صوت تمزق القماش.

أمسك التّاجر يده وقال له:

– لا تمزق القماش، بعد خبرة أربعين عاماً في بيع الأقمشة بت أعرف صوت تمزقها عن الأصوات الأخرى.

تمسك الحضور مرة أخرى بـ «شمس علي» لكي لا يرحل واجلسوه ليكمل تحقيقه:

– حسناً، كنت تقول «مش قاسم»، الجميع ينتظر إجابتك.

انتظر الجميع إجابة «مش قاسم» وهم يحدقون في شفتيه:

– والله لَمَ الكذب؟ وكأنّه هو.

تحول «شمس علي» إلى محقق اكتشف مجرماً خطيراً، وبعد ساعات من التّحقيق معه، تنفس الصعداء وابتسم، ثم نظر حوله نظرة فاتح وقال:

– أُجيبَ على السؤال الأول، لنذهب إلى السؤال الثاني.

تأخر «مش قاسم» بالإجابة على السؤال المتعلق بالصوت من أي شخص صدر ثم قال:

– والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... كنت غارقاً في استماع قصة سيدي عن حرب كازرون... عندما قال إنه صوب على جبهة «خداداد خان» وضغط على التتك، أخطأت الرصاصة الأولى ومرت من قرب إذنه...

تدخل خالي العزيز العقيد:

– «مش قاسم»، أخي لم يصل بعد إلى هنا.. وصل إلى تصويبه على رأس «خداداد خان»...

– صحيح سيدي، أنا رأيت ما جرى بأم عيني وسوف أروي لك الباقي.

– لا حاجة لنا بذلك، أجب فقط على أسئلة سعادته.

– والله لَمَ الكذب؟ حين صدر الصوت كنت أستمع إلى سيدي، أدرت رأسي رأيت ذلك السيد مع «قمر خانم»...

الآن ممكن هو أو هي، لَمَ الكذب؟ حتى القبر...

قاطع خالي العزيز العقيد «مش قاسم» قائلاً:

– خطرت على بالي فكرة، لو وافقت السيدة «عزيزة السلطنة»

عليها... يعني من أجل اتحاد العائلة المقدس لقامت بتقديم تضحية صغيرة...

– وما الذي أفعله لكم؟

– أن تتفضلي علينا وتذكري لأخي أن هذا الصوت الجزئي صدر من «قمر خانم»...

– لم أفهم، ماذا فعلت قمر؟

– ذكرت لك قولي لأخي إن «قمر» كانت متوعكة قليلاً وقامت تلك الليلة بـ...

للتوّ أدركتْ ما يرمي إليه، عضت على شفتيها وسكتت، فجأة أشعلت عاصفة صياح هاجمة على خالي العزيز العقيد وكل العائلة.

– تأدب، ألاّ تستحي من شعراتي البيض؟ابنتي؟ ابنتي أنا تفعل ذلك؟

زعقتْ بصوت أفزع الحضور الذين لم يستطيعوا إسكاتها إلّا بعد كثير من الرجاء. فهدأت قليلاً ثمّ شرعت في البكاء:

– ربيت ابنتي ورعيتها مثل باقة ورد... والآن عندما جاءها خاطب... الآن حين أرادت الوصول إلى هدفها... تجمع عليها أهلها... يريدون إسقاطها في الوحل... فليأخذ الموت هذا الاتحاد العائلي...

لف الصّمت كل الحاضرين؛ والحقيقة أنّه أداء احترام للزوج المستقبلي لـ «قمر»، وصهر «عزيزة السلطنة»، أكثر مما هو صمت لقضية لم تحل بعد.

وكان أوّل صوت سمع هو صوت «فرخ لقا خانم»، وهي صاحبة لسان سليط ومعروفة على المستوى العائلي بنميمتها.

كانت تتدخل في حياة الجميع وما تقدمه يشعل جدلا، فسكوتها تلك اللحظة كان مثار تعجب، بعد كل ذلك الصراخ من عزيزة السلطنة فتحت «فرخ لقا خانم» فمها:

- الحق معك «عزيزة السلطنة»... هؤلاء لا يراعون شرف مستقبل البنت.

لم تنتظر «عزيزة السلطنة» أن تكمل صاحبتها حديثها، فقالت وهي تمسح دمعها:

- فداك... هؤلاء لا يفهمون أن البنت كبرت وكم هو صعب الحصول على زوج في هذه الأيام.

أجابت «فرخ لقا» التي تتشح دائماً بالسواد ولا تشارك عادة إلّا في مجالس العزاء:

- صحيح أيتها العزيزة، ماذا حدث لـ « قمر »؟ ألم توفق مع زوجها الأول؟ وكأن الأمر لم يصل إلى الزواج؟

مرة أخرى أخذت «عزيزة السلطنة» بالبكاء وقالت:

- يا أختي... هذا ما حصلت عليه... سحروا زوجها... قفلوا عليه بعمل وها أنا أنتظره من عام بكامله... ولكن ما العمل عندما يقفل على الرجل، ما الذي أفعله؟

«شابور» الذي جلس في زاوية بلا أي حركة خرج صوته:

- عمتي، ما نوع هذا القفل؟

سؤال أحمق حتى نحن الأطفال فهمنا ما يقصد منه من كثرة حديث «عزيزة السلطنة» وبقية نساء العائلة عنه، ولكن قبل أن يجيبه أحد من أصحاب القضية أجابه «أسد الله ميرزا» قائلاً:

- ون منت؛ أنت بعمرك هذا لم تفهم ماذا يعني قفل الرجل؟

أجابه «شابور» المعروف بـ «بوري» بكل نبوغه:

- ومن أين أعلم؟

أجابه «أسد الله ميرزا» وهو يضحك ويغمز له:

- يعني لم يقم بالفرانسيسكو.

بهذا التّوضيح حتى الأطفال المحتشدون خلف الباب أدركوا ما يقصده «أسد الله ميرزا»، لأنه اعتاد حين يريد طرح موضوع عن نفسه أو عن الآخرين ويريد الإشارة إلى الجنس يصيح:

«عندها تم الفرانسيسكو» أو «ذهبوا ليعملوا فرانسيسكو».

ضحك «أسد الله ميرزا» عالياً وقال:

- لو قالوا لي سابقاً لقمت بأمر... على أي حال لدينا نحن مفاتيح نفتح بها الأقفال... وفي عالم عائلتنا نحن على استعداد للتضحية بكل نفيس.

إثر هذه المزحة ضحك الجميع حتى «شمس علي» المتعصب، أما عزيزة السلطنة فصرّت على أسنانها ورمت صحنها ببطيخه وسط الغرفة وصرخت:

- تأدبوا... اخجلوا من شيبتي، ألا تستحون؟.. تبّاً لك ولمفاتيحك.

وقامت تريد الخروج، وفي هذه اللحظة كان باب الصالة مشرعاً وكنا نرى ما يحدث جيداً، فأراد خالي العزيز العقيد التدخل لكن «عزيزة السلطنة» ردعته بضربة من يدها على صدره وخرجت مسرعة من الصالة.

لام الحضور «أسد الله ميرزا» على فعلته، لكنه لم يتراجع:

- ون منت، ون منت، لا تهجموا علي بلا سبب... قلت ذلك قاصداً الخير حتى تعرف أنّه إذا تقدم شخص آخر مقفول فنحن في الخدمة من أجل العائلة.

وشرع في الضحك.

أسكته خالي العقيد بنظرة غاضبة منه وقال:

- ليس هذا وقتا مناسباً للمزاح... هل تساعدنا الآن ليتراجع الأخ عن قراره؟ على أي حال هذا الوضع والعداوة ليس لها عمر طويل في عائلتنا.

ولكي يصلح ما كسره قال «أسد الله ميرزا» بجَديّة:

- لنعد إلى الصوت المشكوك فيه... ولكن كيف لي أن أعرف أنه لم

يصدر من قمر؟ بنت بهذا الحجم -وما شاء الله على شهيتها المفتوحة التي تعادل شهية ثلاثة أشخاص بحجمي- من الممكن أنها... يعني احتاجت إلى...

احتد «شمس علي ميرزا» مرة أخرى، وقال هائجاً:

- كأن القضية أخذت منحى المزاح، في هذه الحال اعذروني...

- ون منت، ون منت.. أرجوك، لا تغضب أخي... أنا جاد في طرح هذه القضية... أريد أن أسأل العقيد ما حاجتك لتذكر الأمر لـ «عزيزة السلطنة»؟ بإمكانك أنت أن تقول للسيد أن «قمر» هي من أصدرت الصّوت...

صدم هذا الرأي كل الحاضرين، نعم في الحقيقة ما الدافع لذكر الأمر لـ «عزيزة السلطنة»؟

بعد لحظة قال خالي العزيز العقيد:

- ولكني حاولت كثيراً الإصلاح بين أخي وزوج أختي لكنهما لم يصدّقاني، فما هو رأيكم أن نرسل خلف «ناصر الحكماء» ليقوم بهذا الأمر؟

قبل الجميع بلا تردد هذه الفكرة وأرسل «مش قاسم» خلف «ناصر الحكماء» الذي يقع بيته أمام البستان وهو طبيب العائلة القديم.

وما هي إلّا لحظات حتى دخل الأخير وعيناه متورمتان، يلبس نعلاً يجره على الأرض معلناً عن وصوله بالجملة الملازمة له «سلامتكم».

دخل مسلماً:

- سلامتكم.. سلامتكم.

عندما فاتحه خالي العزيز العقيد بالموضوع قبل بلا اعتراض، حتى إنه رأى ليريح ضميره أن الفتاة المسكينة هي المتهمة الأساسية:

- نعم، نعم، أنا أصلاً قلت مرات لـ «عزيزة السلطنة»: إن عليها معالجة «قمر خانم»... هذه الفتاة سمينة جداً وتأكل كثيراً فتنتفخ... وعقلها فيه لوثة... ومن الطبيعي إذا غاب العقل أن تنتفخ المعدة، هذه الحالات لا يمكن السيطرة عليها.

شكر «ناصر الحكماء» الحضور وخالي العزيز العقيد وودعهم بـ «سلامتكم»، ثم خرج قاصداً منزل خالي العزيز «نابليون».

انقضت نصف ساعة بمزاح وقصص «أسد الله ميرزا» الداعرة، ثم ظهر الطبيب ناصر الحكماء، وملامحُه مشرقة:

- سلامتكم... الحمد لله رُفِعَ سوء التّفاهم...

ثم تابع قائلاً:

- ندم السيد كثيراً لأنه تعجل في الحكم، ووعد بإرجاع الأمور كما كانت في السابق ابتداء من الغد، بالطبع بذلت جهداً كبيراً... حتى إني أقسمت بروح أبي العزيز أني سمعت الصوت تلك الليلة بأذني وعرفت مصدره.

عم الفرح الحضورَ خاصة خالي العزيز العقيد، لكن سعادتي لا

توصف... أردتُ تقبيل يد الطبيب، فرفع «أسد الله ميرزا» أصابعه مقهقهاً وهو يعد الطبيب بتقديمه إلى عصبة الأمم المتحدة وكنت أضحك من أعماق قلبي على نكتته.

وبينما كان «أسد الله ميرزا» يغادر أخذ يقول:

- ون منت! نجا الاتحاد العائلي ولكن احترسوا أن يصل الخبر إلى خطيب «قمر» لأنه سيقفل أتوماتيكياً وإذا لم يتم الفرانسيسكو هذه المرة ستقتلع «عزيزة السلطنة» أقفالنا ومفاتيحنا كلنا.

وحين كان الحضور مشغولين بتوديع خالي العزيز العقيد وقعت عيناي على ملامح «بوري» النابغة الكبير، شعرت أنه غير راض بما حدث، بيد أني كنت سعيداً إلى حد عدم الاهتمام به وعدت راكضاً إلى البيت لأزف الخبر إلى أبي.

لم يفرح أبي بالخبر وتمتم:

- في الحقيقة الجهل سعادة.

عادت أمي إلى الرجاء:

- الآن هو قبل وتنازل، أنت أيضاً تنازل، فدتك روحي، أحلفك بروح أبي.

حلّ الليل، مع أمل لي برؤية «ليلى»... ثم نمت على أمل لقائها.

-٣-

لا أعلم كم مرّ من الوقت حين استيقظت على صوت صراخ جاء من بعيد، فقد سمعت شخصاً يطلق صرخات متقطعة، وكأن يداً وُضعت على فمه:

– ل...ص...ل...صصصص.

قفز أبي من مكانه، وتبعته أمي مدققين في الصوت، فلم يعد لدينا شك أنه صراخ خالي العزيز «نابليون» وهو يصرخ من شرفة منزله المطلّة على البستان.

فجأة، انقطع الصّوت، فأعقبه صوت جريٍ وضجّة، خرج أبي وأمي وأختي من تحت الناموسيات، أما خادمنا فأمسك عصاه وركض نحو منزل خالي العزيز ونحن خلفه بثياب النوم.

« «مش قاسم» الذي استيقظ للتّو فتح لنا الباب، ثم بعد ذلك وقفت «ليلى» أمام باب غرفتها خائفة بجانب أخيها.

– ما الذي حدث يا «مش قاسم»؟

– والله لَمَ الكذب؟ كنت...

– كان صوت السيد؟

– أظن أنه هو.

اتجه الجميع مسرعين إلى الشّرفة التي ينام فيها خالي العزيز على سرير كبير، ولكن الباب الفاصل بين غرفته والشرفة كان مقفلاً من الخارج، فحاولوا فتحه ولكنهم لم يفلحوا.

وجه «مش قاسم» ضربة لجبهته:

– يا ناس خُطِفَ السّيد.

صاحت «أم ليلى»، وهي امرأة مازالت تحتفظ بجمالها:

– سيدي سيدي أين أنت؟ يا ويلي لقد خطفوه.

حاول أبي تهدئتها.

« أم ليلى» هي زوجة خالي العزيز الثانية، تزوجها بعد طلاق زوجته الأولى التي عاشت معه ثلاثة عشر عاماً، وقد طلقها متذرّعاً بأنها لم تعد تستطيع الإنجاب، وقد أثّر هذا الطلاق في خالي العزيز تأثيراً عميقاً للتشابه بينه وبين انفصال «نابليون بنوبارت» عن «جوزفين» بعد زواج دام ثلاثة عشر عاماً.

وعلى أساس هذا التشابه مع مصير إمبراطور فرنسا أدركنا فيما بعد أن خالي العزيز رأى أن مصيره هو أيضاً سيكون مطابقا بالضبط.

بأمر من أبي، أحضر «مش قاسم» سُلّماً وصعد عليه، يتبعه أبي، ثم

خالي العقيد الذي أمسك بندقيته وهو يرتدي قميص نومه الأبيض، ثم «بوري» وأنا كنت آخر الصّاعدين.

مُزقت ناموسية خالي العزيز، وقد ظهر أثر واضح يبين سقوطه من الجانب ولكنّه مفقود، فصاحت «أم ليلى» بصوت راجف:

– ما الذي حدث؟ أين السّيد؟ افتحوا الباب.

– والله لَم الكذب؟... أظن أن السّيد تبخر.

في هذهِ الأثناء سمعنا أنينا يأتي من تحت السرير، انحنى أبي ليلقي نظرة:

– آه! ماذا يفعل السيد هنا؟

سمعت صوتا آخر غير مفهوم، وكأن خالي العزيز «نابليون» قُطِع لسانه، فدفع أبي و«مش قاسم» السرير وأخرجاه ثم مدّداه على الأرض.

– سيدي لماذا اختبأت تحت السرير؟ أين اللّص؟

بيد أن عيني خالي العزيز مغمضتان وشفتاه ترتجفان.

بينما كان «مش قاسم» يدلّك كتفي خالي العزيز، فُتِح الباب الفاصل بين الشّرفة والغرفة ودخلت النساء والأطفال، رؤية «ليلى» لخالي العزيز ممدداً على الأرض أبكاها، فيما لطمت أمها رأسها وصدرها.

همس «مش قاسم»:

– أظن أن السّيد لسعته أفعى.

قالت «أم ليلى»:

- تتفرجون؟ تحركوا افعلوا شيئاً لهُ؟

- «مش قاسم»، أحضر الطّبيب «ناصر الحكماء»... قل له أن يحضر بسرعة.

وصل الطبيب بثياب نومه وحقيبته الطبية، وانكب يفحص خالي العزيز.

وبعد لحظات قال:

- سلامتكم... سلامتكم... لا شيء مهم، الرجل مصدوم.

ثم وضع بضع قطرات دواء في فنجان وسكبها في فمه، قبل أن يعود بعد دقائق إلى وعيه، قلّب نظره في الوجوه متفاجئاً، ثم جمدت عيناه على وجه الطبيب ودفع يده عنه بعنف، وقال غاضباً:

- أفضل الموت على رؤية طبيب خائن.

- سلامتكم، سلامتكم... ما الذي حدث؟ هل تمزح معي؟

- لا أنا جاد.

- لم أفهم ما الذي حدث؟

جلس خالي العزيز نصف جلسة وأشار بإصبعه إلى الطبيب ليخرج وقال له:

- تفضل... هل تظن أن خبر المؤامرة التي حيكت في بيت أخي لم تصلني؟ الطبيب الذي يبيع ضميره ليس بطبيب لنا، وليس له مكان في هذه العائلة.

- لا ترهق نفسك... أنت تنهك نفسك وقلبك.

- لا يرتبط قلبي بك... كما لا يرتبط انتفاخ بطن «قمر» بك.

أدرك الحاضرون سبب ثورة الغضب، الأعين تبحث عن الخائن، لمحتْ نظرة «مش قاسم» لـ «بوري»، وهو يقلب نظره هرباً من أن تلتقي الأعين به.

قال خالي العزيز بصوتٍ عالٍ:

- أنا صحتي على أفضل ما يكون... لا أحتاج إلى طبيب، تفضل دكتور، اذهب لتحوك مؤامرة أخرى.

غيّر خالي العقيد الحديث:

- أخي ماذا حدث؟ هل كان لصّاً؟

نسي خالي العزيز «نابليون» حين رأى الطبيب ما جرى له، قلب نظره وقد عاد الخوف إليه:

- نعم لص... سمعت خطواته، رأيت ظله، يا ناس أحكموا إغلاق الأبواب.

في هذه الأثناء وقع بصره على أبي، عضّ على شفتيه وصاح:

- ما الذي يفعله هؤلاء هنا؟... هل منزلي فندق؟

ثم رفع إصبعه وأشار إلى الباب:

- اخرجوا.

نظر أبي إليه بحدّة، وبينما هو يقصد الباب للخروج دمدم قائلاً:

- الحق علينا لقد عكرنا غفوتنا، كاد بطل حرب كازرون أن يتوقف قلبه تحت السرير.

وبحركة واحدة قفز واقفاً ومدّ يده ليأخذ البندقية من يد خالي العقيد لكنه أبعدها عنه.

خاف الطبيب وهرول إلى الباب، ثم خرجت خلفه أمي، في هذه اللحظة، استطعت اختطاف نظرة من «ليلى» وأخذتُ معي ذكرى عينيها الدامعتين.

كنا نسمع صراخ خالي العزيز وهو يضع استراتيجية الإمساك باللّص.

وبعد مضي نصف ساعة لم تثمر تحقيقاته وبحثه لا هو ولا عماله ولا أثر اللّص.

كنت قلقاً لدرجة لم أستطع معها النوم.

لا شك في أن «بوري» أضاع جهد العائلة لمصالحة أبي مع خالي العزيز.

كان واضحاً من ردة فعله في الشّرفة، أنه هو من أوصل الخبر لخالي

العزيز «نابليون»، أتمنى لو أتمكن من تحطيم أسنانه الطويلة، الحقير! الخائن! ليت خالي العقيد أدرك خيانة ابنه، وإذا لم يدرك فعلى أحد ما أن يخبره.

رغم أني لم أنم من اللّيل إلّا ساعاته الاخيرة استيقظت مبكراً، وأفراد العائلة ما زالوا نائمين، ثم خرجت من البيت إلى البستان محاذراً.

فاجأني «مش قاسم» وهو يسقي الورد لأنه وضع بندقية خالي العزيز على كتفه.

- «مش قاسم» ما هذه البندقية التي...

نظر «مش قاسم» حوله وقال:

- بني عد إلى بيتكم بسرعة.

- لماذا يا «مش قاسم» ماذا حدث؟

- اليوم يوم سيّء، اليوم يوم الحشر، أخبر أباك وأمك بأن لا يقتربا من هنا.

- لماذا هل حدث مكروه؟

- والله لَمَ الكذب؟ كنت قلقا اليوم، أمر سيدي إذا ما اقترب أحد منكم أو عبر شجرة الجوز هذه أن أطلق عليه النار ومباشرة في قلبه.

ولولا ملامح وجهه الجادة ونظرته الباردة لَتَخيَّلتُه يمزح معي.

قال وهو ينقّل البندقية من كتف إلى الآخر:

– في صباح هذا اليوم قبضنا على لصّ البارحة، عباس... المطيرجي (مربي الحمام) هو الذي قبض عليه... أحضرته إلى البيت.

– ماذا فعلتم به؟

– والله لَمَ الكذب؟ أراد السّيد قتله ما إن وقع نظره عليه، ولكني شفعت له، والآن هو مقيد في القبو وقد...

– في القبو؟ لماذا لم يسلمه للشّرطة؟

– ياه، من الممكن أن السيد يسوّطه الآن في البستان.

أرعبني حديث «مش قاسم»، نظر حوله وقال:

– أنت أيضاً لا تتكلم كثيراً، إذا عرف السّيد بحديثي معك فسوف يقتلنا.

– «مش قاسم» ما الذي يربطنا بالقبض على لص؟ لماذا خالي العزيز غاضب علينا

هز «مش قاسم» رأسه وقال:

– ما الذي يربطه بكم؟ لو عرفتُ هوية اللّص؟ لعرفتُ كيف أصبحت الأوضاع، ياه ياه، التوكل على الله، لتمر الأمور بخير.

سألته والقلق يأكلني هذه المرّة:

– من هو اللّص يا «مش قاسم»؟ وماذا سرق؟

- والله لمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... يا إلهي السّيد آتٍ، اهرب بسرعة اهرب، ارحم شبابك، أو اختبئ بين أغصان الشجرة هنا.

حين رأى «مش قاسم» أن ليس هناك فرصة للهرب، دفعني وسط شجرة كثيفة الأغصان وعاد للعمل، وذلك حين وصل خالي العزيز «نابليون» إلى «مش قاسم» وقد أخافني وجهه الغاضب.

وحين تحدث إليه تيقنت أن الأمر تعدى غضبه إلى الأسوء.

- «قاسم» ألم أقل لك أن تحرس اللّص؟ وهل هذا وقت سُقيا الورد؟

- اعتمد يا سيدي علي، أنا من هذا المكان بإمكاني مراقبته...

- وكيف تراقبه من هنا وهو في القبو؟

- أمرُّ عليه كل دقيقة... الآن ما الذي تود فعله؟ لا يمكن تركه بلا طعام أو ماء... مراقبته تحتاج إلى مصاريف... ما رأيك لو سلمناه إلى الشرطة ليرتاح بالنا؟

- أسلِّمه للشرطة؟ إذا لم يعترف لن أسلِّمه، خاصة أني أشعر أنه هو من حرّض هذا الرجل.

عندما قال خالي العزيز جملته أشار إلى منزلنا.

شعرت في هذه اللحظة برهبة «مش قاسم»، رأيته يرسل نظراته حيث أختبئ، أكمل خالي العزيز:

- هذا المدعو حمد الله يعمل عنده منذ ثلاثة أعوام، و لم يسرق طوال خدمته، كان إنساناً سوياً... فجأة تحول إلى لص يسرقني؟!

لا شك أنه هو من حرّضه، لا شكّ أنِ هناك مؤامرة.

- والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أهِا... رأيي أنه كان عاطلاً عن العمل وحاصرته الحاجة، فحاول تصليح أموره...

وقف خالي العزيز مفكراً، و«مش قاسم» عاد إلى سقاية الورد وهو يراقبني.

قال خالي العزيز بصوت مبحوح:

- هل تعرف يا «قاسم»؟ الآن بت أخاف لسان هذا الإنسان الخبيث.

- مَن تقصد؟

أجابه وهو يشير إلى بيتنا:

- من لم يخف على كرامته ما همه بكرامة الآخرين، أخاف أن ينشر الاتهامات هنا وهناك عني.

هزّ «مش قاسم» رأسه وقال:

- والله هذه الأمور لن تؤثّر فيك.

وكأنه أراد تغيير الموضوع إذ لا يريد التّحدّث في التفاصيل بحضور شاهد:

- الآن ما رأيك أن تنسى الموضوع، تقبلان بعضكما وتنهيان القضية بسلام.

- أنا أتصالح مع هذا الرجل؟

أفزع السؤال «مش قاسم»:

- لم أقل شيئاً... لا لا يمكن المساومة، وقد قصّر في حقك.

- على أي حال أخاف من لسان هذا الرّجل.

- والله يا سيدي على حد علمي كل ما أردته قلته لي.

قال خالي العزيز ضجراً:

- لماذا لا تفهم؟ تذكر قضية البارحة، كنت متعباً نفسياً، تذكر عندما خرج ماذا قال؟

- والله لَم الكذب؟ حتى القبر ها أها... لا أذكر.

- كيف لا تذكر؟ قال جملة معناها أني خفت من اللّص.

- أستغفر الله، أنت تخاف؟

- نعم، ليس هناك أحد يعلم أفضل منك، يعرفني في الحروب والرحلات والأحداث التي مررت فيها، أنت أفضل شخص يعرف ألا مكان في قاموسي للخوف.

- والله لَم الكذب؟ حتى القبر ها أها... بيني لا بين الله أن مثل هذه الوصمة لا تلصق بك، أتذكر سلطان علي خان رحمه الله قال قبل حرب كازرون: إنّ هذا الرجل لَشجاع إلى درجة أنه سوف يقتل نفسه! هل تذكر حين هجم اللصوص على خيامنا؟ وكأنها البارحة... ما شاء الله عليك قتلت ثلاثة منهم بطلقة واحدة.

- نعم وكانوا لصوصاً عنيفين، لصوص ذلك العصر، لصوص اليوم ليسوا سوى أطفال رضع.

قال «مش قاسم» متأثراً:

- إضافة لذلك كم كنت أنا مجنوناً لا أهاب أحداً، ولكن والله شاهد لقد خفت تلك الليلة، ثم كيف رجاك زعيم اللصوص لتعفو عنهم ورموا أنفسهم عند رجليك، وكأنها البارحة؟ هل كان اسمه سيد مراد؟

- نعم، رأيت سيد مراد.

- قاتله الله كم كان إنساناً قاسي القلب لا يرحم.

انفعل «مش قاسم» إلى حد أنساه حضوري بين الأغصان، ابتهج خالي العزيز «نابليون»، كان الوجهان المشرقان يمنحان إحساس الصّدق فيما يقولانه وليس هناك أي شك في استرجاعهما للأحداث.

سكت كلاهما وهما ينظران إلى البعيد.

عاد خالي إلى واقعه ورجعت ملامح وجهه السابقة، وقال:

- لكن يا «مش قاسم» ذلك ما نعرفه أنت وأنا... لو... لو أذاع هذا الرجل وهذا الطِّبيب السّاذج ما شاهداه، وقالا إني فقدت الوعي خوفاً من اللّص... عندها ستهان كرامتي التي حافظت عليها أعواماً هباء؟

- سيدي من سيصدّقهما؟ ومن يجرأ على فعل ذلك؟ ومن لا يعرف هيبتك؟

- الناس عقولهم بأعينهم وآذانهم، وأنا متأكد أن هذا الرجل لن يتواني عن كسر هيبتي.

تذكرني «مش قاسم»، نظر إليّ والأغصان تحيط بي وقال:

- دع ذلك لما بعد... حتى هذه اللحظة لم يحدث شيء.

- ما الذي تقوله؟ لو عاد الأمر إليه لأخذ البوق ونفخ فوق سطحنا.

- ننكر... نقول إنك كنت تعباً.

- صحيح ولكن...

سكت خالي العزيز مفكراً، أكمل «مش قاسم»:

- نستطيع القول إن الحيّة لسعتك.

- بمَ تُخرّف؟ من تلسعه حيّة فإنّه لا يقوم في اليوم الثّاني بكامل صحته.

فكر «مش قاسم»:

- آها عرفت، سيدي نقول: إنك خلطت عسلاً وبطيخاً فأصابك مغص.

لم يجبه خالي العزيز ولكن يبدو أنه لم يقتنع بهذه الاقتراحات، وبعد لحظات صمت، قطعها «مش قاسم»:

- تعرف سيدي أن...

- ما الذي أعرفه؟

- يعني إذا سألتني أقترح أن تطلق سراح اللّص فذلك أفضل.

- أطلق سراح اللّص؟ صراحه؟

- إذا كبرت قضية اللّص، عندها سيتحدث عنها الجميع، وخاصة قضية البارحة.

- لا تُخرّف.

- لا يعنيني... ولكن إطلاق سراح اللّص لك على الأقل ثوابه، ولا يعلم أحد حتى هذه اللّحظة غير «المطيرجي» بموضوع اللّص، يعني لا أحد من الغرباء يعرف، و«المطيرجي» منا.

فكر خالي العزيز بالأمر كثيراً، ثم قال:

- الحق معك، لطالما كان العفو ميزة في عائلتنا، فما حال هذا المسكين الذي كسر الفقر ظهره.

سكت خالي مرة أخرى ثم أضاف:

- افعل خيراً وارمه في نهر دجلة، سيكافئك الله حتى ولو في الفلاة... اذهب «قاسم»... فك وثاقه وقل له أن يغرب عن وجهي، وأكّد عليه أنك تفعل هذا من جانبك، ولو علم السّيد لقتلنا كلينا.

ركض «مش قاسم» لينفّذ الأمر، وأخذ خالي العزيز يمشي وهو يفكر.

عاد «مش قاسم» وعلى وجهه ابتسامة رضى إلى خالي العزيز الذي جلس على مقعد تحت عريشة النرجس.

- وفقك الله، لو تعرف كم دعا لك، هذه العظمة تجري في دمك، هل تذكر سيد «مراد» عندما رجاك وعفوت عنه، بل وأعطيته مالاً ليكمل طريقه.

قال خالي العزيز وهو يحدِّق في شجرة الجوز محزوناً:

- ولكن «مش قاسم» من يقدّر هذه الأعمال؟ قد يكون من الأفضل لو أصبحت مثل البقية قاسي القلب وطاغيةً، قد يكون هذا سبب تراجعي.

- أرجوك لا تقل هذا يا سيدي، فما أعرفه يعرفه الجميع هناك يد أجنبية... البارحة تناولوا قضيتك في السّوق أمامي، فقلت لهم: لو لم يكن الإنجليز وأعوانهم على عداوة معه لفعل ما فعل.

- نعم، ولو لم يكن الإنجليز وأعوانهم لقمتُ بأعمال كثيرة.

ولكثرة ما ذكر خالي العزيز قصة عداوته مع الإنجليز، بات «مش قاسم» يحفظ كل تفاصيلها، رغم ذلك سأله:

- سيدي قل لي الحقيقة لماذا يكنُّ لك الإنجليز كل هذه الكراهية؟

- هذا الذئب الإنجليزي كل من يعشق وطنه ووطنيته لا يتوافق معه، فما الذي فعله «نابليون» حتى يوصلوه إلى ذلك اليوم الأسود؟ فرقوا بينه وبين زوجته وأولاده، لأنه أحب وطنه وهذا الأمر خطيئة كبيرة عندهم.

تحدث خالي العزيز متأثرا بينما «مش قاسم» يهز رأسه، وصاح:

- إلهي بحق «المرتضى علي» أن لا ينَزل الماء من حناجرهم...

- بدأت عداوتهم معي منذ اطلاعهم على حبي الوطني، أحب الحرية، والثورة الدستورية...

لم تعد رجلاي تحملاني في مخبئي، فحاولت أن أبدل مكاني بلا أدنى صوت، ولكن حدث ما صعقني:

اقترب أبي من الصوت الصادر من عريشة النرجس، توقف قلبي عن الخفقان، يا إلهي ما الذي سيحصل بعد؟ من مخبئي كنت أستطيع رؤية أبي، لكن خالي العزيز و«مش قاسم» لا يمكنهما رؤيته، لا شك أن أبي يسعى ليسترق السّمع لأنه يقترب بحذر، ارحمني يا إلهي! خالي العزيز متحمس في الحديث عن تضحياته في سبيل الثورة الدستورية:

- الآن أصبح الجميع مع الثورة الدستورية، الجميع يدّعي أنه ضحى من أجلها... ولكني لا أفعل ذلك، وتجاهلت ما يتبجح به الآخرون.

في هذه الأثناء صدرت ضحكة عالية من أبي تخللتها قهقة، ثم صاح:

- قوزاقيّو العقيد لياخوف أصبحوا الآن من مجاهدي الثورة الدستورية.

لا يفصل بينهم إلّا جدار نرجسي، ومن شدّة خوفي مددت رأسي لأرى ردة فعل خالي العزيز.

اصفرّ وجهه وانقبضت عضلاته، وقف بلا أي حركة للحظات، فجأة قفز من مكانه وأمسك بـ «مش قاسم»، ثم صاح به وهو يكاد يختنق بغضبه:

- البندقية... «قاسم» البندقية.

ومد يده ليخطفها من كتف «مش قاسم»:

- قلت لك البندقية.

بحركة سريعة بدّل «مش قاسم» مكان البندقية وأخفاها خلفه، قبل أن يضع يده الأخرى على صدر خالي العزيز لكي لا يتقدم.

أدرك أبي من صوت خالي العزيز المخيف، أنّ خطراً يحيق به فركض مسرعاً، صاح خالي العزيز:

- أيها الخائن قلت لك أعطني البندقية بسرعة.

تخلّص «مش قاسم» بخطوة سريعة من خالي العزيز وفرّ بالبندقية.

ركض خالي خلفه كالمجنون.

وبينما كان «مش قاسم» يركض هارباً صاح:

- سيدي بحق «المرتضى علي» سامحه... سيدي بحق أبنائك، أخطأ.

خرجتُ من مخبئي متابعاً هذا المشهد العجيب، فقدتُ قدرتي على التّفكير أو التحرك.

البستان كبير وهناك متسع للهرب أينما شئت، «مش قاسم» يركض برشاقة غريبة وخلفه خالي العزيز يركضٍ منقطع الأنفاس، انحشرت رجل «مش قاسم» بغصن على الأرض، فسقط وتصاعد صوت إطلاق نار.

- آخ مت، يا إلهي.

أخرجتني استغاثة «مش قاسم» من ذهولي فركضت نحوه.

وقف خالي العزيز فوق رأس الجثة الهامدة.

- سيدي، سيدي قتلت قاسمك؟

انحنى خالي العزيز لرفعه ولكن «مش قاسم» صاح متألماً:

-لا، لا، لا تلمسني، أريد الموت هنا.

سحب خالي العزيز يديه، ولأنه رآني أقترب منهما قال:

- ابني اركض وأحضر الطبيب «ناصر الحكماء» بسرعة.

ركضت إلى بيت الطبيب، ومن حسن الحظ أنه في هذه اللحظة كان خارجا من بيته حاملاً حقيبته، وكأنه ذاهب لعيادة مريض.

- أسرع، أصيب «مش قاسم» بعيار ناري.

انشغل خادم خالي العقيد مع المارة الذين يستفسرون عن صوت الطلقة، وهو يوضح لهم أنها ليست سوى مفرقعة انفجرت في يد طفل.

دخلنا الحديقة وأغلقنا الباب خلفنا.

في هذه اللحظات، تجمع أهل المنزل حول «مش قاسم» مشكلين دائرة يواسونه وهو يئن.

- آه أين أنت يا أبي؟ أيُّ ألم فيها، أيُّ حرقة، سآخذ معي أمنية الحج لبيت الله الحرام.

حين دخلنا دائرة الحشد وقعت عيني على «ليلى» وهي تبكي وتمسح وجه «مش قاسم».

- سيدي عدني بأن أدفن في صحن السيدة معصومة.

جلس الطبيب قرب «مش قاسم» على الأرض، ولكن ما إن أراد تحريكه حتى صاح:

- لا تلمسني.

- «مش قاسم» هذا الطبيب.

أدار «مش قاسم» وجهه وحين رأى الطبيب، قال وهو يئن:

- السلام عليكم... الله ثم أنت...

- سلامتكم، سلامتكم، ماذا حدث يا «مش قاسم»؟ أين أصبت؟ من أطلق النار عليك؟

وقف أبي بعيداً عن الدائرة وأشار بإصبعه إلى خالي العزيز وقال بصوت عالٍ:

- هذا الرجل، هذا القاتل، إن شاء الله أنا من سيضع حبل المشنقة حول رقبته.

وقبل أن يجيبه خالي العزيز، أبعدت أمي أبي راجية أن يسكت.

- سلامتكم، سلامتكم، قل لي يا «مش قاسم» أين أصبت؟

أجابه «مش قاسم» وهو نائم على بطنه:

- والله لمَ الكذب؟ أصبت بجانبي.

أشار الطبيب «ناصر الحكماء» إلى خالي طالباً أن يساعده لكي يقلباه.

- سلامتكم، برويّة، برويّة، حسناً...

- آخ، يا الله، بعد كل هذه الحروب التي شاركت فيها كُتبَ علي الموت في بستان سيدي، فديتك أيها الطبيب... إذا كنت تعرف أنه لا فائدة قل لي لكي أقرأ الشهادتين.

عندما شق الطبيب قميص «مش قاسم» تعجب الجميع لأنه لا أثر لأي إصابة أو جرح.

- إذاً، أين أصبت؟

أجاب «مش قاسم» دون أن ينظر:

- والله لمَ الكذب؟ أنا نفسي لا أعلم... ألم تروا الجرح؟

- سلامتكم، سلامتكم، أنت أفضل صحة مني.

تنفس الحشد الصعداء وتعالت أصوات الفرح.

رفس خالي العزيز مؤخرة «مش قاسم»:

- اغرب عن وجهي وصل بك الأمر إلى أن تكذب عليّ.

- هل تعني أني لم أصب؟ إذاً ما ذلك الألم والحرقة؟ إذاً أين ذهبت الطلقة؟

- ليتها أصابتك في رأسك.

عندما رأى الطبيب «ناصر الحكماء» أن لا عمل لديه حمل حقيبته، ومن غير أن يودع خالي العزيز، غادر مكتفياً بجملة (سلامتكم).

ركض خالي العزيز خلفه، تهامس معه، وكأنه يعتذر مما حدث في تلك الليلة، وضع يده على رقبة الطبيب ثم حضنه وتبادلا القبلات، ذهب الطبيب وعاد خالي العزيز «نابليون» إلى الحشد.

في هذه اللحظات التي شعرت فيها بذهاب الخطر اقتربت من «ليلى»، فكم هو جميل التحديق فيها بعد تلك الأحداث المؤلمة، تجمدت الكلمات واكتفت بالنظر إليها، وبادلتني النظراتَ بعينيها الواسعتين السوداوين، وقبل أن أوفق بفتح فمي لأحدثها، انتبه خالي العزيز لنا، فاتجه نحونا وصفع «ليلى» على وجهها وأشار إلى البيت:

- إلى البيت.

ثم ومن دون أن ينظر إليّ، رفع إصبعه مشيراً إلى منزلنا وقال غاضباً:

- أنت أيضاً تفضل إلى بيتكم ولا أريد أن أراك في هذه الأنحاء.

ذهبت إلى البيت وأنا أعض على شفتي، رميت نفسي في غرفة وأغلقت الباب على نفسي، تمددت على مقعد، لقد فوجئت حتّى أنّني عجزت عن التفكير، ولكني صمّمت على اتخاذ موقف.

***

أيقظتني ضجة في باحة البيت وكان الوقت ظهراً، بعد أحداث الأمس غفوت على مقعد في تلك الغرفة، خرجت لألاحظ حركة غير طبيعية، فذهبت أسأل أمي:

- ماذا هناك؟ ما هذه الضجة وهذه الحركة؟

- لا علم لي، أبوك صحا باكراً اليوم وقرر أن يدعو العائلة كلها.

- ما المناسبة؟

استشاطت أمي غضباً وصاحت بي:

- ومن أين لي أن أعلم؟ اذهب واسأل أباك، أدعو الله أن تحتفلوا بموتي.

عاد أبي إلى البيت فركضت إليه:

- أبي ماذا هناك؟

حاول أبي الضحك وقال:

- الليلة يصادف ذكرى زواجي من أمك، سنحتفل، سنحتفل بمناسبة ارتباطي بهذه العائلة الكريمة الاتحادية.

أحسستُ من حديث أبي وهو يرفع صوته أكثر من اللازم ويدير وجهه ناحية البستان أنه تعمد رفع صوته، نظرت إلى المكان الذي يرسل أبي صراخه إليه، فرأيت من بعيد ظلال «بوري» وبدا كما لو كان منشغلاً بقراءة كتاب، ولكن بالإمكان التّكهن أن أذنه معلقة لاستراق الكلام الذي يخرج من بيتنا.

- نعم الليلة سوف ندعو أيضاً مطربين، وسيحضر الجميع...

ثم التفتَ إلى أمي وقال لها بالنبرة العالية ذاتها:

- على فكرة هل دعوتِ «شمس علي ميرزا» وأخاه «أسد الله»؟ ماذا عن «عزيزة السلطنة»؟

لم يتراجع عن نبرته العالية، وسألها عن كل الضيوف المدعوين بأسمائهم:

- الليلة ليلة جميلة وأريد أن أروي للضيوف قصصاً رائعة، غناء وألحان وقصص رائعة.

قرأتُ الحكاية حتى نهايتها، يريد أبي أن يروي للجميع قصة فقد خالي العزيز لوعيه عندما رأى اللص، وما شرحه لي عن دعوته، كانت في الواقع رسالة لـ «بوري» ليوصلها إلى عمه، تحرك «بوري» متجهاً نحو بيت خالي العزيز، بعد لحظات تهورتُ وذهبتُ خلفه، باب منزل خالي العزيز مقفل، ولا يسمع لهم صوت.

كنت متلهفاً لمعرفة ردة فعل خالي العزيز، بقيت لفترة أفكر، بقيت خلف الباب أستمع لما يدور في الداخل، كانت تصلني وشوشات غير مفهومة، خطرت لي فكرة، بيت أحد خالاتي ملاصق لبيت خالي العزيز وأسطحهما متصلة، استطعت الوصول إلى السطح بمساعدة ابن خالتي العزيزة «سيامك»، وتمددت على جدار السّطح بحذر.

في الوقت الذي وصلتُ فيه، كان «بوري» قد انتهى لتوّه من إيصال آخر الأخبار. خرج من باحة منزل خالي العزيز الذي أخذ بالمشي في الباحة بعصبية، ووقف إلى جانبه «مش قاسم» متأملاً، ملامحه وحركاته، فقد كان يبدو أنه يفكر في أمر يحيره.

– في الوقت الحالي ليس أمامنا إلّا أن نخرّب ما يقوم به وحتى نحُلَّ القضية، أنا أعرف ما يدور في باله، سوف يرمي كرامتي وكرامتك في الوحل، أنا أعرف هذا النوع الخبيث منذ زمن.

– حسناً، لنقل للمدعوين أن اللّيلة هي ليلة ذكرى رحيل المرحوم عمك، وقد لا يذهبون اليه.

– ما الذي تقوله؟ ذكرى موت عمي ستحل بعد شهر.

فجأة توقف خالي العزيز عن الحركة، أشرق وجهه، أخذ «مش قاسم» إلى الباب و لم أسمع ما قاله له غير اسم سيد «أبو القاسم».

خرج «مش قاسم» مسرعاً، وبقي خالي العزيز يمشي وهو يحدث نفسه، بقيت أنتظر فترة لكنّ «مش قاسم» لم يعد، تركت مكاني، وخرجت إلى البستان لأعرف سر «مش قاسم»، ولكنّي لم أحصل على شيء، فعدت إلى البيت.

فرش خادمنا مع عامل السجاد الأفرشة في البستان.

اتخذ أبي موقفاً هجومياً، حتى إنّه أراد أن يُجلس الضيوف في البستان، ليسمع خالي العزيز حديث أبي عنه.

في حدود الساعة الخامسة، اكتمل مسرح أبي، مخدات أُسنِدَتْ إلى جذوع الأشجار، في زاوية وُضِعَتْ قناني الخمر في طشت مملوء بالثلج.

طوال هذا الوقت راقبت الباب المقفل لبيت خالي العزيز، وكنت قلقاً مما سيجري في الباحة، لأني أعرف أن خالي لن يسكت على هذه الهجمة، وشعرت بالعاصفة تقترب.

بعد فترة وجيزة فُتِحَ باب بيت خالي العزيز، وكان «مش قاسم» يخرج السجاد إلى البستان بمساعدة الخادم و«بوري»، وأعدوا مسرحاً يبعد عن مسرح أبي عشرين متراً.

اقتربت من «مش قاسم» بحذر ولكنه لم يجبني إلّا بهذه الجملة:

– اذهب يا بني دعنا نقمْ بعملنا.

ما إن انتهوا من فرش السجاد في الساحة المقابلة لبيت خالي العزيز، حتى خرج «مش قاسم» والخالة «بلقيس» وهما يحملان سلماً، تسلّق «مش قاسم» السلم، ووضع بكل برودة أعصاب علما أسود ثلاثي الأبعاد يرفرف حاملاً جملة (يا أبا عبد الله الحسين)، وقد كان خالي العزيز يضعه عادة في ليالي محرم ومجالس العزاء.

– «مش قاسم» ماذا تفعل؟ لماذا وضعت العلم الأسود؟

- واللہ لَمَ الكذب؟ الليلة لدينا مجلس عزاء، وسيحضره ثمانية علماء، وسيأتي وفد من اللطّامة.

- ما المناسبة؟

- كيف لا تعرف؟ الليلة شهادة «مسلم بن عقيل»، وإذا لا تصدق فاذهب واسأل السيد «أبا القاسم».

سمعتُ خلفي صوتاً مخنوقاً، التفتُّ فكان أبي يحدق بـ «مش قاسم» والعلمِ الأسود، ويكاد ينفجر من شدّة الغضب.

كنت أتابع بحركات سريعة أبي و«مش قاسم».

أحس «مش قاسم» ببركان غضب أبي، لكنّه من شدة خوفه لم ينزل عن السلم وأخذ يمسح العلم الأسود بخرقة بالية، خفت أن يسقط أبي السلم، فقال:

- هل مات أبوك لتعلق العلم الأسود؟

أجابه «مش قاسم» ببرودة أعصابه المعهودة:

- ليت أبي له مثل هذه المراسم، الليلة ليلة شهادة «مسلم بن عقيل».

- فليكسر «مسلم بن عقيل» ظهرك وظهر سيدك وكل كذاب... بالتأكيد أن سيدك حين سقط مغشياً عليه لشدّة خوفه من اللّص نزل عليه جبريل وأخبره أن الليلة هي ليلة شهادة «مسلم بن عقيل».

- واللہ لَمَ الكذب؟ حتى القبر ما هي إلّا أربع أصابع... أنا لا أعرف

عن هذه الأمور، ولكنني أعلم أن الليلة هي ليلة شهادة «مسلم بن عقيل»... السيد «أبو القاسم» أيضاً يعلم بهذا الموضوع... هل تريد أن تسأله.

أجابه أبي وهو يرتعد لشدّة الغضب:

- سوف أنزل بكم، أنت وسيدك و«أبي القاسم» ما يبكي طفلي «مسلم بن عقيل» من شدته.

وقبل أن ينهي جملته شرع في هز السلم، شقَّتْ صرخة «مش قاسم» السّماء:

- يا ناس! ياسيدي يا «مسلم بن عقيل» أعني.

خفتُ وأمسكتُ بذراعي أبي وصحت:

- أبي اتركه، ليس الذنب ذنب هذا المسكين.

صيحتي هدّأت أبي، بعد إلقائه نظرة غاضبة أخرى إلى «مش قاسم» عاد إلى البيت، نظر «مش قاسم» إليّ وهو مقطوع الأنفاس، من الأعلى نظرات امتنان وشكرني قائلاً:

- بوركت يا بني لقد أنقذت حياتي.

عندما عدت إلى البيت كان أبي ينزل غضبه على أمي:

- لو كنت ارتبطتُ بقوم لوط لكان أفضل لي، سوف ترين الآن هل أنا من سيقيم الحفل أو مجلس عزاء «نابليون بونابارت».

هذه هي المرة الأولى التي أسمع أبي ينادي خالي العزيز بنابليون.

وصل خصامهما إلى حد أن أحدهمًا لا يتوانى عن فعل أي أمر، صوت صرير كرسي أو صوت مشكوك على حد تعبير خالي العقيد يحطم اتحاد العائلة بل يقلب أسس حياتنا رأساً على عقب.

أمسكت أمي بذراع أبي تتوسّل إليه:

- أدعو الله أن يجعل ميتتي قبل موتك، اتركه! أصلاً هل بإمكانك الليلة أن تقيم حفلك؟ في ذلك الجانب من البستان مراسم عزاء ولطم، وفي هذا الجانب غناء وخمرة؟ من سيجرؤ على الحضور؟ لو أقمته لحضر لطّامةُ السوق وقطعوكم.

- لكني متأكد أنه زَوّرَ تاريخ شهادة «مسلم بن عقيل»، أنا أعرف أنه ...

- أنت تعرف ولكن الناس لا يعرفون، اللّطامة لا يعرفون، سوف تُهان سمعتنا، سوف يقطعونك أنت وأبناءك.

أطرق أبي رأسه، أمي تقول الحقيقة، من سابع المستحيلات أن يتجرأ أحد على المغامرة في إقامة حفل صاخب، بينما يقام مجلس عزاء بالقرب منه، أُجبِر أبي على أن يكون ضيف نفسه، ورغم كل ذلك مازال الخطر يحيط به.

في هذه الأثناء، اقترب «مش قاسم» والخالة «بلقيس»، حاملين السّلم، وقد سمع الحديث الدائر بيننا، ثم قال:

- إذا أردت الصّدق ما تقوله السيدة عين الصّواب، دع حفلتك لليلة أخرى.

نظر أبي بغضب اليه، ولكنه سرعان ما تغيرت نظرته الغاضبة، وقال محاولاً أن يكون طبيعياً:

- نعم صحيح الحق معك، هل قلت: إنها ليلة شهادة الإمام «مسلم ابن عقيل»؟

- جُعِلْتُ فداء لمصابه، جعلت فداء لمظلوميته، أولاد الكلب فصلوا رأسه عن جسده.

- قل لسيدك، إنّ «مسلم بن عقيل» رموه من فوق البرج، وفي هذه الأيام سوف يرمى شخص آخر من فوق السلم لتتحطم عظامه.

وأضاف راسماً حزنه:

- على أي حال، هي مراسم عزاء، ورغم أني دعوت الناس فسوف ألغي دعوتي وآتي لمراسم العزاء، الليلة آتي فمثل هذه المراسم لا تفوت، سوف آتي لخدمة السيد.

قال «مش قاسم» غير مبالٍ:

- نعم يا سيدي، ففيها ثواب وأجر.

ولكنه أحس بما يرمي إليه أبي، فغادر قلقاً.

ذهبتُ خلف «مش قاسم» الذي كان يضع السّلم في المخزن الواقع في زاوية البستان.

- «مش قاسم»، بالتأكيد أدركتَ ما يرمي إليه أبي.

نظر «مش قاسم» حوله وقال:

- بني اذهب والعب، لو عرف السيد أني تحدثت معك فسوف ينتزع فروة رأسي.

- لكن... «مش قاسم»... علينا فعل شيء لننهي هذه المعركة، فهي تشتد كل يوم، وأنا أخاف مما ستؤول إليه.

- والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... انا أيضاً خائف جداً... الآن هذا لا يقارن بما أعانيه فأنا أنقل يومياً مئات الدلاء إلى أزاهير سيدي العقيد.

- على أي حال علينا القيام بأمر فإمّا أن لا يذهب أبي الليلة، أو أنّه لا يذكر موضوع اللص، لأني أعرف أن شجاراً سيحدث، لا يعرف إلّا الله كيف ستكون نهايته.

- لا تفكر في الليلة بني، سيدي فكر بهذا الموضوع أيضاً، أعتقد بأنه لن يسمح لأبيك بالحديث، ولكن لا تذكر هذا الموضوع له.

- لا اطمئن يا «مش قاسم»، فلقد نذرت إذا انتهى هذا الأمر أن أشعل شمعة في سبيل الماء.

- إذا لا تفكر كثيراً في هذه الليلة. اتفق السيد مع «أبي القاسم» على ألا يترك أباك يتحدث.

اتضح أن «مش قاسم» يعرف أني جاد في حل هذا الخلاف القائم، فتحدث معي بصراحة.

- أنت أيضاً يا بني حاول أن لا يتدخل أبوك.

في هذه الأثناء وصل «بوري»، فهمس «مش قاسم»:

- يا ويلي جاء «بوري»، سوف يذهب بفكه الحصاني هذا ليخبر سيدي أني تحدثت معك، اركض بني عد للبيت.

أرسلت أمي بسرعة رسلاً للمدعوين، لإخبارهم أن حفلة الليلة لن تقام بسبب تصادُفها مع مراسم العزاء.

والمدعوون لم يستغربوا هذا الإلغاء المفاجئ، لأنّهم توقعوا ذلك بعد أن وصلتهم دعوة خالي العزيز.

بدأ مجلس العزاء بعد غروب الشّمس، جلس خالي العزيز مرتدياً عباءته السوداء في نهاية المجلس متّكئاً على مخدة، فرش كوخ العريش بالسجاد من أجل النساء، وعندما حان موعد ذهاب أبي إلى المجلس، أصابتني حالةٌ غريبة، فمن جانبٍ، أنا قلق من تصادمه مع خالي العزيز ومن جانبٍ آخر، رؤية «ليلى» التي حوّلت قلبي إلى محيط عاصف.

حين دخل أبي مجلس العزاء، لم يتحرك خالي العزيز من مكانه، وهو عادة ما يكون أول المرحبين بالقادمين، لم يكن قد حضر المدعوون بعد إلّا بعض أقاربنا، وهم يغتابون «عزيزة السلطنة» وزوجها.

جلس أبي قرب «أسد الله ميرزا»، وهذا الأخير اختار أقرب مكان لمجلس النساء، ومن كثرة خوفي من خالي العزيز، لم أجرُؤ على الإبتعاد عن أبي.

ما إن استقر أبي في مكانه، حتى بدأ حديثه عن حادثة اللّص وخالي العزيز، ولكن «أسد الله ميرزا» منشغل مع فتاة بالإشارات، وُفِّقَ أبي أخيراً في جلب انتباهه، فقال له والواعظ يخطب:

- نعم، البارحة مكانك خالي سعادته حدثت معه حكاية.

بلا شعور، نظرت حيث جلس خالي العزيز «نابليون»، الذي كان يراقب كل تحركات أبي، والقلقُ يأكله.

في هذه الأثناء، نظر خالي العزيز إلى السيد «أبي القاسم»، ثم صاح هذا موجّهاً حديثه لأبي و«أسد الله ميرزا»:

- سيدي العزيز إنها ليلة عظيمة، انتبهوا للخطبة.

حاول أبي مراتٍ أن يروي الحكاية، لكنّ سيد «أبو القاسم» كان له بالمرصاد.

آخرُ من اعتلى المنبر، كان سيد «أبو القاسم»، ومنذ صعوده المنبر، لم يفارق نظره أبي، وما إن يرى أبي يستعد للبدء في حديث حتّى يحرّض النساء على العويل والصراخ بعبارات موجعة، تاركاً أبي يصب نظرات غضبه عليه.

لم تطل خطبة السيد «أبو القاسم»، أكثر من نصف ساعة فلم يعد صوته يساعده على الاستمرار، وهو الطّاعن في السن، سكت ليأخذ أنفاسه، وقد كان أبي يترصد هذه الخطوة منه قائلاً بصوت يسمعه من جلس قربه:

- على فكرة لقد وقعت البارحة حادثة.

وبدا خالي الذي وصل إلى قرب كرسي «أبي القاسم» كأن سيخاً أدخل فيه، إضافة لذلك، قفز سيد «أبو القاسم» من مكانه، وأشار للطّامة وهم مجموعة من ثلاثةَ عشر شخصاً نزعوا قمصانهم ينتظرون دورهم، ثم صاح «أبو القاسم» بأعلى صوته لبدء اللّطم!

- طفلاه الغريبان، طفلاه الغريبان.

أخذ خالي العزيز «نابليون» يضرب بيده على صدره، وهو يشارك «أبا القاسم» الصياح، وباليد الأخرى يشجع اللّطامة.

كان اللّطامة، وهم يلطمون بشدة على صدورهم العارية يصيحون أيضاً، و لم يكن المدعوون قد تعاملوا مع مثل هذه المراسم، لأنه لم يكن هذا اللّطم متعارفاً عليه في مثل هذا المجلس العزائي، وقفوا يتبادلون النظرات، ولأنهم رأوا خالي العزيز قائماً يلطم فعلوا مثله.

لم يتحرك أبي من مكانه، إذ إنه كان يرتجف من شدة الغضب.

لا أدري هل هي حركة مبتدعة من السيد «أبي القاسم»؟ أم بتحريض من خالي العزيز أشار إلى أبي وصاح؟

- أنت لَمَ لا تشاركنا العزاء؟ لو مذهبك غير هذا، لو كانت لديك خصومة مع آل بيت الأمة اذهب إلى بيتكم، اذهب إلى مذهبك...

أبي لم يعد يحتمل، أراد الرد لكن نظرات اللّطامة ردعته، فقام وانضم إليهم، يلطم على صدره، ثم حصل على فرصة وغادر إلى

البيت، ووسط هذه الضجة واللّطم والصّياح، سمعت أبي وهو يغلق الباب بقوة.

رغم كل ذلك تنفّستُ الصّعداء، لأن الأمر نسبياً انتهى على خير.

بعد أن دار اللطامة عدة مرّات، غادروا وعاد الضيوف إلى الجلوس، جلس السيد أبو القاسم تعباً إلى أقصى حد وهو يرشف (الكنجبين)[٤] ويمسح العرق عن جبينه.

مازال خالي العزيز قلقاً، توقعت أنه قلق من عودة أبي، ولكنّي أعرف أبي جيداً، فهو غاضب إلى حدّ أنّه لن يعود.

٤- خل ممزوج بالسكر.

-٤-

لم يبق من مدعوي مجلس العزاء إلّا خمسةٌ أو أربعةُ أشخاص من أفراد العائلة، بالإضافة إلى حضور النساء الآن إلى جانب الرجال.

نسي الحضور سبب تجمعهم، وانشغلوا بشرب الشاي وأكل الحلويات وتبادل الاحاديث والضحك، بالتحديد حين بدأت (فرخ لقا) خانم السؤال عن سبب عدم حضور «عزيزة السلطنة» وزوجها وابنتها قمر، وقد كان من الواضح أنها تعي علل هذا الغياب، فجأة، تعالى صراخ استغاثة من السّطح المطل على البستان:

– أنقذوني... تعالوا... تعالوا هنا لنجدتي... ساعدوني...

تلقائياً، اتجه الجميع نحو الصّوت، فرأيت فوق السّطح رجلاً بقميص النوم و«شورت» أبيض يركض بجنون في كل الجهات.

قال خالي العقيد وسط دهشة الجميع:

– وكأنه صوت «دوست علي خان»... وكأنه هو.

منعت الأضواء الحادّة رؤية صاحب الصّوت، فركض كل الحاضرين إليه.

«دوست علي خان» زوج «عزيزة السلطنة»، بيته ملاصق للبستان، يُحَسُّ من صوته أنه في كارثة، كان يصيح بانتظام:

- ساعدوني... أنقذوني...

صاح خالي العزيز «نابليون»:

- ماذا حدث «دوست علي خان»؟

- أستحلفك بالله... بسرعة ضعوا لي سلّما... أنقذوني...

- لماذا لا تنزل من الدرج؟

- لا أستطيع... أنقذوني... سلّم... ثم أشرح...

رجفة صوته لا تتحمل الاستفسار، وقبل أن يطلب خالي العزيز إحضار السلم، وإذا بـ «مش قاسم» يحمله ويحضره.

تابع الجميع حركة الشبح على السطح، وتسلّق «مش قاسم» ثلاث درجات كي يساعده على النزول

وضع «دوست علي خان» رجليه على الأرض، وغاب عن الوعي بين يدي «مش قاسم».

حملوه إلى السجاد المفروش، وبدأ الحاضرون في تفسير ما حدث وتحليله، وبينما خالي العزيز «نابليون» يصفعه على خده لم يقطع تكرار سؤاله:

- «دوست علي» ماذا حدث؟ ماذا حلّ بك؟

بيد أن «دوست علي خان» بشعره المدهون وشورته الأبيض المترَّب لم يتحرك، شفتاه ترتعشان، فتحلّق الجمع حوله.

قال «مش قاسم» وهو يدلك رجليه:

– أظن أن أفعى لسعته.

نظر خالي العزيز شزراً إليه:

– عدت إلى التخريف.

– والله لَمِ الكذب. كان لدي صديق في بلدتي...

– قتلك الله وقتل صديقك، هل تتركنا لنرى ما الذي حدث له؟

وعاد يصفعه على خده.

فتح «دوست علي خان» عينيه، نظر حوله، جمع يديه وبحركة عصبية وضعهما تحت بطنه وصاح.

– قطعته... قطعته...

– ماذا قطعت؟ من قطعه؟

لم يجب «دوست علي خان» على سؤال خالي العزيز وبقي يكرر صارخاً:

– قطعته... أرادت قطعه... بالسكين... بسكين المطبخ... كادت تقطعه.

– ماذا قطعت؟ من أراد قطعه؟

- «عزيزة»... هذه المرأة الحمقاء «عزيزة»...تلك المرأة العفريته... هذه المرأة قاتلة بالفطرة.

«أسد الله ميرزا» لم يفوت كلمة مما قيل، سأله وهو يكتم ضحكاته:

- ون منت... ون منت... لحظة... هل أرادت «عزيزة السلطنة» أن... لا سمح الله؟

- نعم.. نعم... هذه العفريته... لو تأخرت لحظة لقطعته.

أطلق «أسد الله» ضحكته وقال:

- من جذوره؟

ضحك الحضور، نبّه خالي العزيز «نابليون» إلى حضور النساء والأطفال، ثم وقف وفتح عباءته وفصل بين «دوست علي خان» وبينهم، وقال:

- السيدات والأطفال من هذه الناحية.

تراجعت النساء والأطفال، وفي هذه الأثناء وصل «بوري» ابن خالي العزيز العقيد بتركيبته البلهاء.

- ما الذي أرادت «عزيزة السلطنة» قطعه؟

نظر خالي العزيز العقيد بغضب إليه:

- يا حمار أي سؤال هذا؟

أجابه «مش قاسم» ببرودة أعصاب:

- بني أرادت قطع شرفه.

ضحك «أسد الله» وقال:

- أرادت أن تريه يومه الاسود... لكن الله ستر و لم...

صاح خالي العزيز «نابليون»:

- يكفي.

ثم قال وقد جعل عباءته حجاباً بين «دوست علي خان» والنساء:

- ما الذي تقوله يا «دوست علي»؟ كيف تريد قطعه؟ لماذا تُخرِّف؟

«دوست علي خان» مازال يضغط أسفل بطنه:

- بعيني رأيتها... جاءت بسكين المطبخ إلى السرير... بل مسكت السكين لتقطعه... شعرت ببرودة السكين.

- لماذا؟ هل جُنّتْ؟ هل؟

- تشاجرنا في بداية اللّيل، لم تأتِ إلى مجلس عزائكم... تقول إنها سمعت من أحد أفراد العائلة أنني على علاقة مع فتاة... أخذ الموت مثل هذه العائلة... الجميع قتلة... يإلهي! لو لم أقفز لحظتها لقطعته كله...

همس خالي العزيز «نابليون»:

- أها فهمت.

الجميع نظر اليه، سمعنا صرير أسنانه:

– أعرف أي خبيث قام بهذا... يريد هذا الرجل أن يلطخ سمعة عائلتنا... تآمر ليسقط شرف العائلة.

لم يكن غير أبي (هذا الرجل).

حاول «أسد الله ميرزا» أن يأخذ الأمور بجدية:

– الآن قل لي هل قطعت ملحقاته؟

خالي العزيز لم يلتفت لضحك المتجمهرين قال:

– سأحرق أباه، شرف عائلتنا ليس لعبة.

تقدم «شمس علي ميرزا»، بخطى قاضٍ، رفع يده وقال:

– لا تتعجلوا في إصدار الأحكام... أولا التحقيق ثم الحكم... أرجوك يا سيد «دوست علي خان»، أجب على أسئلتي بكل صدق وصراحة.

سقط الرجل على الأرض، لا يريد رفع يديه عن المكان الذي يحميه.

سحب «شمس علي ميرزا» كرسياً، وجلس عليه حتى يبدأ استجوابه، ولكن خالي العقيد تدخل:

– يا سيدي دع هذا الأمر إلى الغد، هذا المسكين خائف جدا ولا يمكنه الإجابة الآن.

نظر اليه «شمس علي ميرزا» بحدة وأجابه:

– أفضل موقع للاستجواب هو الاستجواب الذي يأتي مباشرة بعد وقوع الجريمة، وحتى الغد تأكد أنه سينسى التفاصيل.

أيده «مش قاسم» وهو يراقب المشهد بولع:

- نعم حتى الغد، من يعلم هل سنبقى أحياء أم أمواتاً؟ كان لدي صديق من مدينتي...

قاطعه «شمس علي ميرزا»، وعاد للمجني عليه:

- كما قلت لك أجب بكل صدق وصراحة على أسئلتي.

وبينما كان خالي العزيز «نابليون» يحدق في البعيد قال:

- لا شك أنه من فعل هذا الخبيث... سمع مني استراتيجية «نابليون» ويريد تطبيقها علي... يقول «نابليون»: في الحرب يجب الهجوم على أضعف نقطة عند الأعداء... وعرف هذا الإنسان أن أضعف نقطة لدي هي «دوست علي»، يعرف أني ربيته مثل ابن لي، هو فرد من عائلتي وزوجته أيضاً...

ظلّ خالي العزيز يتحدث عن رابطته بدوست علي خان، وكرّر بالطبع هذا الموضوع عدة مرات، بأنه رباه رغم أن عمر «دوست علي خان» تجاوز الخمسين، إلّا أنه يراه كابن له، نظر إليه وقال:

- دوست علي، من أجل ما قمت به لأجلك أجب على أسئلة «شمس علي ميرزا» بدقة، فاللّيلة يجب كشف الحقيقة، يجب كشف من أوصل الخبر لعزيزة السلطنة؟ هذه النقطة من أهم النقاط وفي أخطر وقت تمر فيه العائلة... نحن على وشك السقوط... خاصة أختي يجب أن يتضح لها مع أي إنسان تعيش ثم ستختار بينه وبين العائلة...

كان «دوست علي خان» مغمض العينين لم يسمع كلمة مما قاله خالي

العزيز، وغاص في عالمه المرعب، فجأة، فتح عينيه، وهو يضغط على أسفل بطنه وصاح:

– آخ قطعته... أنقذوني قطعته بسكين المطبخ، كانت تبرق مثل الألماس.

أمسك خالي العقيد فمه وصرخ فيه:

– اصمت يارجل... فضحتنا... أي قطعٍ؟ أنت هنا معنا، أنت في أمان.

نظر خالي العزيز «نابليون» باشمئزاز إليه:

– أي زمن هذا؟ أنا واجهت البنادق والحراب والسيوف ألف مرة، و لم يداخلني الخوف ولو مرة واحدة، وهذا يخاف من سكين مطبخ.

أضاف «مش قاسم»:

– ما شاء الله قلب أسد... هل تذكر حرب (كهليلويه) حين قفز عليك من قمة الجبل؟ كأنه الأمس... ما شاء الله بضربة سيف منك قطعته نصفين، وهذا الرجل رأى سكين مطبخ فكادت روحه تفارقه... إضافة لذلك لم يقطعوه... لو قطعوه ما الذي فعله؟

«أسد الله ميرزا» يحول بين ضحكه، خوفاً من خالي العزيز و«شمس علي ميرزا» قال:

– ألقِ عليه نظرة الآن، ممكن أنه قطع،...أخي.

وبإشارة من خالي العزيز قرّب «مش قاسم» كأس السكنجبين من

فم «دوست علي خان»، وسكب منه في فمه، أراد شمس علي ميرزا إكمال تحقيقه ولكن خالي العزيز «نابليون» رفع يده:

- لو سمحت سعادتك... دع السّيدات والأطفال يعودون إلى البيت، ولتبق أختي فقط.

أمسك خالي العزيز ذراع أمي وجرها إلى زاوية، يريد إتمام التّحقيق بحضورها.

تحركت النّساء بلا أدنى معارضة عائدات إلى البيت.

نظرة «ليلى» إليّ من خلف عباءتها، أحلى آلاف المرات من كل تلك النظرات، سرت أنا أيضاً إلى البيت، ولكنّ الضّجة المفاجئة جعلتني أختبئ خلف شجرة الياسمين، والضجة سببها «فرخ لقا خانم» التي لم ترضَ أبداً عن خالي العزيز، وقد قال لها بحدة:

- سيدتي ليس هذا مكانك.

- وكيف هو مكان تلك السيدة وليس مكاني؟

- أختي لها علاقة في القضية.

نسي خالي العزيز في هذه الاحداث لسان «فرخ لقا خانم» السّليط.

- عذراً! أرادت «عزيزة السلطنة» قطع قطعة من جسد «دوست علي خان» وأختك لها علاقة في القضية؟

لم يستطع «أسد الله ميرزا» الصّبر أكثر:

- كل السّيدات لهن علاقة! الحادثة مؤلمة لكل المجتمع النّسائي.

حدجه خالي العزيز بنظرة حانقة، و لم يهتم لوجود «فرخ لقا خانم»، وقال:

- تفضل إبدأ.

بدأ «شمس علي ميرزا» مثل محقق في المحكمة:

- السّيد «دوست علي خان»، البطاقة...آسف أردت قول اذكر جزئيات الحادثة.

قال «دوست علي خان» وعيناه نصف مغمضتين:

- أي جزئيات؟ كانت تقطعه... كانت تقطعه.

- أولاً قل لي زمن هذه الحادثة بالتّحديد؟

- لا أدري، هذه اللّيلة... يا إلهي أي أسئلة هذه؟

- سيد «دوست علي خان»، قصدت في أي ساعة؟

- دعني وشأني، اتركني.

- سيد «دوست علي خان» أُكرّر سؤالي: في أي ساعة حدث الأمر بالتّحديد؟

- لا أدري، اعذرني لم أستطع كتابة السّاعة، ما رأيته كانت تقطعه.

- ألا تذكر في أي ساعة تقريباً؟

صاح «دوست علي خان»:

- وما أدراني لقد كانت تقطعه.

كاد صبر «شمس علي ميرزا» ينفد:

- سيدي العزيز... لقد اعْتُديَ عليك... بداية الجريمة اقتطاع عضو... قصدت المتهمة أن تقطع أحد أعضاء جسدك الشريف، وأنت لا تعرف ساعة الجريمة؟

- آه، سيدي أنا لم أشدَّ ساعة عليه.

انطلقت ضحكة من «أسد الله ميرزا» وعيناه تدمعان، ورغم إشارات الجميع لإسكاته قال:

- ون منت... ون منت...

ضحكته الصاخبة أضحكت خالي العزيز و«مش قاسم»، وضع «شمس علي ميرزا» قبعته على رأسه بعصبية:

- إذاً أيها السادة، اسمحوا لي سوف أغادر مجلس الفرح هذا.

تمسّك الجميع به، فتمالك «أسد الله» نفسه بصعوبة، ليعود «شمس علي ميرزا» إلى الاستجواب:

- سيد «دوست علي خان»، دعنا من السؤال الأول... ماذا كان نوع السكين؟

أثاره السؤال وأشعل ناره وأراد الصراخ (قطعته)، لكنه تراجع وبعد لحظات قضاها بالتنفس بشدة قال:

- كانت سكين مطبخ؛

الحشد الملتف حوله يتابع كل كلمة.

– في أي يد أمسكتِ السّكين؟

– وما أدراني، لم أكن في وضع يسمَح لي بالرؤية.

أجاب «مش قاسم» عنه:

– والله لَمَ الكذب؟ حسب ما رأيته أن القصّابين يمسكون السّكين باليد اليمنى.

استدار «شمس علي ميرزا» ليوجه كلمة توبيخ لـ «مش قاسم»، ولكن صيحة «دوست علي خان» أرجعته:

– آخ قصاب، قلت قصاب؟ قصاب...

مرة أخرى وضع خالي العقيد يده كاتماً صوته، وأكمل «شمس علي ميرزا»:

– إذاً على الظّاهر أنها أمسكت السكين باليد اليمنى... هل كانت تمسك شيئاً آخر باليد اليسرى؟

– من أين لي أن أعرف؟ من أين لي أن أعرف؟

لم يطق «أسد الله ميرزا» السكوت أكثر:

– بالتأكيد العضو الشريف.

نظرت «فرخ لقا خانم» حولها بعصبية، وفهمت هذه الجملة على أنها إهانة لصهرها، ورغم شوقها لمعرفة ما يجري، لم تستطع البقاء فخرجت من البستان، كان اسم صهرها شريف.

أكمل «شمس علي ميرزا»:

- سيد «دوست علي خان» أرجو أن تكون دقيقاً، هذا السؤال مهم جدا لقد اعْتُدِي عليك...

لم يكمل جملته، وبعد تردد قال:

- أنا مجبر على أن أعلن سرية الجلسة من أجل هذا السؤال...

اعترض خالي العزيز «نابليون»:

- ماذا تعني بالسرية؟ لسنا غرباء، سوف أطلب من أختي أن تتنحّى جانباً:

أختي العزيزة أرجوك ارجعي للخلف قليلاً.

عادةً أمي، لا تجرؤ على الاعتراض على خالي العزيز أجابته:

- أنا سأعود للبيت، لكل أمر حد... هذه الحركات المستهجنة تعدت عمري.

بيد أن خالي العزيز قال بصوت آمر:

- قلت: تراجعي إلى الخلف لدقيقة واحدة.

أمي المسكينة، لم يكن لها معين، تراجعت حيث أشار، قام «شمس علي ميرزا» من مكانه، ليوشوش «دوست علي خان» ما أفزع الأخير ودفعه للقول:

- يا إلهي اتركني... هذه العجوز الشّمطاء... أو لم تر جسدها.

لم يطق «أسد الله ميرزا» صبراً، فغمز وقال:

– هذا السؤال يعود إلى السّان فرانسيسكو.

وأطلق ضحكاته، فغضب خالي العُزيز «نابليون» صارخاً:

– ياسيد عيب.

ثم التفت إلى «شمس علي ميرزا»:

– صاحب المعالي للقضية وجه آخر، أريده أن يعترف من قال لزوجته بأنّه على علاقة مع امرأة شابة، وأنت تسأله أسئلة غريبة عجيبة...

عاد «شمس علي ميرزا» إلى قبعته فرفعها:

– إذاً، تفضل حضرتك أكمل التحقيق، أنا راحل، المكان الذي لا يحترم فيه القاضي، على القاضي تركه.

تشبث الحاضرون به، فتعالى صياح من بيت «دوست علي خان»:

– إذاً هذا الذليل جاء هنا... سأحرق لحيته...

التفت الجميع إلى مصدر الصوت، ظنت «عزيزة السلطنة» أن زوجها اختبأ فوق السّطح وسوف يعود إليها، فصعدت إلى السطح تبحث عنه.

ناداها خالي العزيز:

– لا تصرخي، ما بك؟

– اسألوا هذا الذليلَ، الفاقدَ لكلّ شيء... أنا أعرف وهو...

قالت هذه الجملة، ونزلت إلى البيت.

بدأ «دوست علي خان» من شدة خوفه بالارتجاف، وعاد يقبض بكلتا يديه تحت بطنه:

– ستأتي إلى هنا... آخ، أنقذوني... خبئوني.

وشرع بالهروب، ولكنهم أمسكوا به.

– إهدأ، كلنا هنا... يجب أن ننهي القضية.

وعندما كان يحاول الهرب بكل طاقته المتبقية، قبض «مش قاسم» عليه بإشارة من خالي العزيز.

– اجلس، سيدي هنا... هذه الأمور جزئية ما فائدتها...

قاطعه «دوست علي خان»:

– كم أنت بارد الأعصاب يارجل... كادت تقتلني وتقول: جزئية؟

قال «أسد الله ميرزا»:

– قصد «مش قاسم»، ذلك الشيء الذي أرادت قطعه، و لم يكذب الرّجل هو ليس بشيء كلي.

قال «مش قاسم» بكل برودة:

– والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر أأأأ...

أراد خالي العزيز «نابليون» أن يصرخ فيهما، لكن صوت قرع الباب ارتفع.

أمسك «دوست علي خان» عباءة خالي العزيز وقال:

- أستحلفك بروح أبيك ألا تفتح الباب... أخاف هذه المرأة...

جمّد تضرعه الحاضرين، إلّا أن صوت الطّرق لم ينقطع، قال خالي العزيز:

- اركض «مش قاسم» افتح الباب لقد فضحتنا.

اختبأ «دوست علي خان» تحت عباءة خالي العزيز، وما إن فُتِحَ البابُ، حتى دخلت «عزيزة السلطنة»، تحمل بيدها مكنسة مثل أسد أطلق من أسره.

- أين هذا الذليل؟ أين محروق الوالدين؟ سأحرق أباه، سأقطعه...

قال خالي العزيز «نابليون»، وهو يرسل كلماته الآمرة:

- اسكتي.

- لن أسكت... وما دخلك أنت؟ هل هو زوجي أم زوجك؟

سعى كل الحاضرين لإسكاتها، ولكن خالي العزيز «نابليون» أسكت الجميع، برفع يده.

- سيدتي، شرف العائلة له قيمة أكبر من هذا، وسيلطخ بهذا الجدال العقيم، أرجوك قولي لنا ما جرى.

- اسأل هذا الأحمق...

- هل تتفضلين وتذكري لنا من وشى لك عن علاقته بالمرأة الشابة؟

- من قال لي قال الحقيقة، الوقح هذا عام يمر ويكرر عليّ: أنا مريض، تعبان، ولكنه مع زوجة «شير علي القصاب»... سأحرق أباه...

خرج صوت «دوست علي خان»:

- يا «علي المرتضى» أغثني.

أطبق خالي العزيز بلا شعور على فم «عزيزة السلطنة»، اسم «شير علي القصّاب» صقع الجميع.

قصّاب حارتنا «شير علي» إنسان مخيف، طوله يصل إلى مترين، امتلأ كل جسده بالوشوم، ويُرى في رأسه آثارُ جروح سكاكين، أخلاقه وطبائعه تتناسب مع ضخامته، يقال إنه قطع رأس رجل بضربة من ساطوره حين عرف علاقته مع زوجته، ولأنه علم أن زوجته كانت بوضع مخلٍّ للأخلاق مع الرجل، حُبِس ستة أشهر وأطلق سراحه، لا نذكر هذه الحادثة ولكنها كثيراً ما كررت على مسامعنا، وما رأيناه منه، يغلق دكّانه بين فترة وأخرى لثلاثة أو أربعة أشهر، ويقال إنه في السّجن، لم يكن إنساناً شريراً، لكنه يغار على زوجته إلى أقصى حد، ورغم شجاعته فزوجته بشهادة الصغير والكبير، الكهل والشّاب، أجمل امرأة في المدينة وأكثرهن غنجاً.

في أحد الأيام، سألتُ «مش قاسم» عن «شير علي» فقال لي:

- والله لَم الكذب؟ حتى القبر ها أها... شير علي هذا أذنه ثقيلة، ولا يسمع وشوشة الناس حوله، وعندما يعرف ويرى بعينه زوجته وما تفعله ينفجر غضباً ممسكاً بالسّاطور هاجماً على الناس، وهو الآن أكثر اتّزاناً من السّابق، يقال إنّه حين كان في مدينته قطّع صديقيّ زوجته إلى قطّع...

هذه الليلة، لمست خوف «دوست علي خان» ودهشة الجميع عند سماع اسم «شير علي القصاب»، رأيته مرة بنفسي في السّوق حين رمى

الساطور على الخبّاز ولو مسّه لشقّه نصفين متساويين، من حسن الحظ أنه اصطدم بالباب وانغرس فيه، و لم يتمكن أحد من نزعه إلّا «شير علي».

أخرج صوت «أسد الله ميرزا» الحضور من دهشتهم:

– ون منت... حقيقة ون منت، هذا الـ «دوست علي» بحجمه هذا ذهب سان فرانسيسكو مع زوجة «شير علي»... جل الخالق... أي نعم.

والتفتَ مباشرة إلى «عزيزة السلطنة»:

– «عزيزة السلطنة»، أقول صادقا، مع الأسف قطّعه... يجب تقبيل سترة «دوست علي»... هؤلاء القصّابون منذ زمن الشّاعر «سعدي»، كانوا يثقلون على النّاس، حتى «سعدي» نفسه، لم يسلم تذكرون قوله:

«آملين بلحم الجيف والقصّابون كسروا ظهورنا»...

والآن وبعد انتقام «دوست علي» لـ «سعدي» من قصّاب توبخينه؟ لو كنت مكانك، لاشتريتُ ساعةً لعضوه الشريف...

لم تتحمل «عزيزة السلطنة» مزاحه:

– اخرس أنت، يا سكراب الرجال.

وسددت ضربة بالمكنسة لـ «أسد الله ميرزا» على رأسه، لكنه هرب منها، وبعد أن ابتعد قال لها:

– ون منت... ون منت... لِمَ تتشاجرين معي؟ هذا الحمار يعمل مع زوجة «شير علي» سان فرانسيسكو وأنا أتحمل الضرب... حلّوا الأمر أنت و«شير علي» وهو...

ثم أدار وجهه ناحية بيت «دوست علي خان» وصاح:

- «شير علي»... «شير علي» تعال بنفسك و...

رمى «دوست علي خان» بنفسه على «أسد الله ميرزا»، وأغلق فمه وقال:

- أرجوك... لو سمع هذا الدّب سيُقطّعني بساطوره...

ثار جدل بين الجمع، صوت «عزيزة السلطنة» أعلى من كل الأصوت، رأيت خادمنا يراقب ما يحدث وهو يبعد عني بضعة أمتار، يقرفص تحت شجرة، لم يكن مهووساً بمراقبة الشجارات، فتأكدت أن أبي هو من أرسله، فليست هذه هي المرة الاولى التي يرسله للمراقبة.

وجود جاسوس أبي أربكني، ولكن لا حيلة لدي، ولا يمكن فعل شيء، علا صوت خالي العزيز «نابليون»:

- «عزيزة السلطنة»، باعتباري كبير العائلة أرجوك أن تخبريني من أخبرك بأن «دوست علي خان»، على علاقة بزوجة «شير علي القصاب»؟

لم يطق «دوست علي خان» سماع هذا الاسم:

- أنا بعرضك لا تذكر اسم هذا الرجل... حياتي في خطر.

صحح خالي العزيز كلامه:

- تفضلي قولي لي منْ أخبرك أن هذا المجدور على علاقة بزوجة الغول؟

هدأت «عزيزة السلطنة» وقالت:

– لا أستطيع أن أقول لكم.

– أرجوك.

– قلت لا أستطيع.

– سيدتي أنا أعرف من فعل ذلك، الخبيث الشرير ولكنّي أريد سماع اسمه منك، باسم شرف العائلة بشرف زوجك أطلب منك...

عادت «عزيزة السلطنة» إلى حدتها، ورمت المكنسة على زوجها، وهو يختبئ تحت عباءة خالي العزيز:

– فليأخذه الموت... شرف زوجي... أريد العيش سبعين عاماً بلا زوج. ابتداء من صباح الغد سأحكي لـ «شير علي» من الألف إلى الياء لأرى هل سيغدر بي زوجي مرة أخرى أم لا؟

قال لها خالي العزيز «نابليون» وهو يُهَدّئ من حدتها:

– خاصة هذا الأمر لا تفعليه، «شير علي»، يعني هذا الشخص لن يعلم بالأمر فليس هناك من يجّرؤ على الحديث معه عن الأمر، نفس خادمنا «مش قاسم»، في العام الماضي، نبهه بجملة: أمسك زوجتك.

ترك «شير علي» عمله لمدة اسبوع، وجلس أمام منزلنا وبيده ساطوره، خبأنا «قاسم» عنه إسبوعاً، وكم رجوناه حتى عاد إلى عمله، وترك «قاسم»... أليس كذلك «قاسم»؟

وجد «مش قاسم» فرصة للتعبير عن نفسه:

- والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها كلها أربع أصابع... إضافة لذلك وهو ما لم أقله، قلت له: لا تتركها تخرج من البيت متى تريد لأن هناك لصّ حاول سرقة سجادتهما وأردت تنبيهه، لو كانت هي في البيت فلما جاء اللّص.

أنا قلت هذه الجملة، والله شاهد على ما أقول، ركض خلفي بالساطور من السّوق، إلى أن وصلت البيت، فأغلقت الباب وسقطت مغشياً عليّ.

جزى الله سيدي خيراً من أجلي حمل البندقية عشرة أيام...

وجد «أسد الله» منفذا للتّدخل، فقال جاداً:

- سيدتي العزيزة، يشهد الله لو رأيت بأم عيني «دوست علي» يقوم بقباحة لما صدّقت، هذا المسكين حتى إنه لا يستطيع التنفس، الفأرة تخطف منه البرغول، كيف بإمكانه؟؟؟؟

فجأة خرجت «عزيزة السلطنة» من صمتها وصاحت:

- نعم، نعم، الآن تحول «دوست علي» إلى كهل؟ لا يمكنه التنفس، لو كنت رجلاً لما تركت زوجتك.

أطفأ خالي العزيز «نابليون» والعقيد هذا الشجار بصعوبة، فقال «شمس علي ميرزا»:

- لو سمح لي السّيد، لديّ سؤال واحد فقط لـ «عزيزة السّلطنة» لأرفع كل اللبس في هذه القضية.

لم يطرح السؤال بعد، وإذا بقرعٍ على الباب آتٍ من ناحية البستان.

الجميع شده الصوت.

– من يكون في مثل هذه الساعة؟ «قاسم»، اذهب وافتح الباب.

ذهب «مش قاسم» ليفتح الباب، فيما الجميع ينظر، وبلا فاصلة بعد صوت انفراج الباب، انطلقت صرخة من «مش قاسم»:

– يا أبتاه... «شير علي».

سيطر الصّمت لفترة وجيزة، ثم سمع همس «دوست علي خان»:

– «شير علي»... «شير علي»... شير... شي...شي...

وسقط مغمياً عليه على المخدة.

اقترب «شير علي» بخطواته الثقيلة، ورأسه المحلوق الذي تنعكس فيه آثار جروح قديمة، ثم سلّم وقال لخالي العزيز «نابليون»:

– رأيت الأضواء، قلت لنفسي فلأذهب وأسلِّم... سامحني لأني لم أستطع حضور مجلس العزاء، فقد ذهبت إلى شاه عبد العظيم.

– تقبل الله زيارتك.

– كثّر الله خيرك... لم أذهب من أجل الزيارة، بل لتصفية حساباتي مع كل أصغر... بعيد عنك... أعطاني خروفاً مريضاً...

قال خالي العزيز بصوتٍ عالٍ:

– إن شاء الله صَفَّيت حسابك وقبضت مالك؟

– نعم، فلا يمكن لأحد أن يسلبني مالي... طبعاً بداية ماطل الرّجل

ولكن بعد أنه ضربته بجثتي الخروفين ضربة واحدة، قبضت مالي بل سلمني أيضاً أجرة العودة.

– ما كان مرض الخروف؟

– لا أعرف ولكنه كان عليلاً، وهمّي الأول هو إرضاء أهل المحلّة، بعيداً عنك كان تنفُسُه صعب، وبطنُه منتفخٌ.

في البداية لم أنتبه له ولكن بعد بيع أفخاذه، ولكن على أي حال عدت إلى البيت، وقيل لي: إنك أقمت مجلس عزاء، حقيقة، حزنت كثيراً على عدم حضوري، وفي الطريق قلت لنفسي لأذهب وأعتذر.

لم يتحمل «أسد الله ميرزا» تفويت هذه الفرصة، فأشار إلى «دوست علي خان» قائلاً:

– «دوست علي خان» يسأل عنك... هذا الرجل يُكِنُّ لك الود... قبل دقيقة كان يذكرك بالخير...

أراد خالي العزيز أن يقطع حديثه بأي شكل، لأن «دوست علي خان» لم يكن على ما يرام، ويمكن أن تنتهي مزحة «أسد الله ميرزا» على حساب صحته، وأحس الجميع بها، بيد أن الأمر خارج عن سيطرتهم، و«أسد الله ميرزا» لا يتراجع:

– على فكرة «شير علي»، هل قلت: إن الخروف منتفخ البطن؟هل ذبحته بالسكين أم بالساطور؟

من حسن الحظ، أن «شير علي» لم يسمع السؤال جيداً، بيد أن «دوست علي خان»، ضغط بيده تحت بطنه ورجفت شفتاه وأنّ.

نظر خالي العزيز إلى «أسد الله ميرزا»، وقال:

- استحي.

ثم قال بصوت عال، لـ «شير علي»:

- على أي حال شكراً لك... إن شاء الله في المرة القادمة.

- أنا خادمك... تقبل الله منك.

ثم سلم «شير علي» على كل الحاضرين بيده، وذهب.

أغلق «مش قاسم» الباب خلفه، وقال:

- الحمد لله لم يشتمّ خبر «دوست علي خان»، يعني خفت كثيراً أنه...

عكّر قدوم «شير علي» مزاج خالي العزيز فقاطع «مش قاسم» غاضباً:

- دعني عنك الآن، أعتقد من الأفضل ترك الموضوع للغد، وبالطبع لن أتراجع حتى أعرف كل التفاصيل.

ثم التفت إلى «عزيزة السلطنة»:

- سيدتي تفضلي إلى بيتكم وخذوا قسطاً من الراحة.

نظرت «عزيزة السلطنة» إلى زوجها:

- قم لنعد إلى البيت.

«دوست علي خان» الذي عاد للتوّ إلى طبيعته، بعد كل تلك الأهوال نظر متعجباً وقال:

- ماذا؟ نعود للبيت؟... أنا أعود معك إلى الداخل؟

- لم أفتح فمي بحرف واحد أمام «شير علي»، ولكنّي هذه الليلة سأتركك، قم لنذهب وننام.

- ساطور «شير علي» أفضل ألف مرة من العودة معك لكي...

قاطعه خالي العزيز «نابليون»:

- سيدتي، دعي الآن «دوست علي» يبيتُ عندنا حتى الصباح، لنرى ما سنفعله.

أرادت «عزيزة السلطنة» الاعتراض، لكن قرع الباب أوقفها.

وعندما فُتِح الباب، وصلنا صوت ابنتها «قمر» المخبولة:

- أمي هل أنت هنا؟

واقتربت من الجمع، وما إن رأت أمها و«دوست علي خان» حتى قهقهت:

- أمي هل قمت بقطع سنبلة أبي «دوست علي»؟

- «قمر» ما هذا الكلام؟

قدوم «قمر» هيّج «دوست علي خان»:

– حين كانت هذه المرأة تلحقني كانت هذه البنت تصيح: أمي اقطعيه، أمي اقطعيه... هذه البنت أيضاً يجب سجنها.

دخل الجميع، في آن واحد في جدل، ثم عادت «قمر» لتسأل:

– ألم تقطعيه؟

ضحك «أسد الله ميرزا» من كل قلبه، وقال بصوت عادة ما يحدث به الأطفال:

– ما شاء الله... إذا أخطأ زوجك هل تقطعينه له أيضاً؟

– بالتأكيد أقطعه.

– من جذوره؟

– من جذوره.

– حتى ذرة لا تبقي له.

– حتى ولا ذرة.

تعالى صوت «عزيزة السلطنة»:

– استحي، اخجل، تسمع الفتاة كلاماً تنقله غداً لخطيبها، يا إلهي! يا إلهي! تباً لكم من عائلة، هل أنتم عائلة أم حسك؟

ولكن «أسد الله ميرزا» ليس من النوع الذي يتراجع بهذه السهولة:

– ون منت.. ون منت... لحظة من فضلك... لو كان القطع سيّئاً

فلماذا كنت تودين قطعه لهذا المسكين اليتيم؟ لو لم يهرب لأصبح الآن الخواجه «محمد خان».

- ها أنت تخرف أيها الكهل؟ أريد أن أعرف أمَا أملك زمام زوجي؟ ما علاقتك أنت؟ وهل أنت من عسس المدينة؟

تبدّل حال «أسد الله ميرزا» من مازح إلى غاضب، وقد تدخل الجميع لإسكاتهما لكنه صرخ على غير عادته:

- ون منت... ون منت... وما علاقتي أنا؟ قطعي هذا الأحمق وعضوه الشريف...

أدهشت صرخة «أسد الله ميرزا» الجميع، إذ لم يعتادوا سماعه وهو يصرخ، إلّا أنه لم يستطع مقاومة طبيعته المزاحية، استغل صمت الجميع وقال:

- أصلاً، العضو الذي يخدم في إدارتك وإن كان على قدر من الكفاءة الأفضل طرده، يعدم...

وأثناء حديثه، أخرج مبراة من جيبه، وقال:

- ولكن أرجوك، في المرة القادمة استخدمي هذه المبراة... خسارة فيه سكين المطبخ.

ضحكت «قمر»، و«عزيزة السلطنة» وهي ترتجف من شدة الغضب قالت له:

- من المؤسف الحديث مع أوباش وحمقى مثلكم، تعالي «قمر» لنذهب.

وقبضت على يد ابنتها ومشت إلى البستان، وبينما «قمر» تمشي خلفها ضحكت قائلة:

– يا خسارة، لو قطعته يا أمي لضحكنا كثيراً.

هزّ «مش قاسم» رأسه وقال:

– لَمَ الكذب؟ إذا لم نخفف من وزن هذه البنت، فليكن الرب مع زوجها.

انزعج خالي العزيز لعدم قدرته على فضح مخطط أبي، بالاستعانة بهذه الحادثة والجميع ينتظر كلمته الفصل، «شمس علي ميرزا» الذي جلس طوال هذه المدة في زاوية يراقب، قام من مكانه:

– على أي حال ضاع وقتنا و لم نحصل على نتيجة، التحقيق في مثل هذه الظروف مستحيل، عذراً أنا راحل، تعال «يا أسد الله».

«أسد الله ميرزا» غير راغب في ترك مكانه:

– أنا ذاهب... تقبل الله أعمالكم... أتمنى أن ينام «دوست علي خان» جيداً، وألا يحلم بالأُسود والحيوانات المفترسة، وأدعو الله أن يحفظ كامل جسده سالماً...

اللهم آمين.

ذهب «شمس علي» و«أسد الله»، وأراد خالي العزيز «نابليون» الذهاب إلى داخل البيت أيضاً:

– قم «يا دوست علي»... الليلة أنت ضيفنا حتى الصّباح، سنفكر بحل.

صاح «دوست علي خان»:

– أبداً ... أنا ذاهب.

– أين تذهب أيها الرجل؟ قم لا تخرف.

– لا أعرف... لا أعرف... لا أريد أن أرى أحداً... بل لا أريد أن أرى أي شخص من هذه العائلة... أنت أيضاً قتلت روحي... رحم الله «علي أصغر» القاتل.

– اخرس، قم معي وإذا لم تفعل سآمر «مش قاسم» أن يأخذك ضرباً حتى البيت.

هدأ «دوست علي خان»، وذهب مع خالي العزيز و«مش قاسم».

حين عادت أمي قبل الجميع إلى البيت، وذهبت إلى فراشها لتنام، ثم تبعتها خلسة، وعندما اطمأن أبي من نومها، خرج يتهامس مع الخادم، دخلت الناموسية وأخذت أسمع ما يدور بينهما، كما توقعت كان الخادم يتجسس لأبي وها هو ينقل تقريره وبين جملة وأخرى يقاطعه أبي: (أنا سمعت ذلك).

إذاً، إضافة إلى إرساله جاسوساً هو أيضاً اختبأ في زاوية يستمع لما دار.

حين عاد أبي إلى سريره لينام استرقت حديثه مع أمي.

صوت أبي ثائر، وصوت أمي قلق وخائف.

– فديتك، أعفُ عنه، لا تتابع الموضوع، اعتبرني خادمتك وتعتقني لوجه الله... وصل الأمر مع أخي إلى حد أنه حتى أنا...

– بخ بخ، أي رجل شريف هو؟ أي عظيم هو أخوك؟ على فكرة عن أيِ أُخ تَتحديثن؟ بطل حرب كاِزرون؟ «نابليون» عصرنا؟ الرجل الحديدي؟ نعم، طبعاً هو رجل الإيمان والتقوى أيضاً، فاليوم أقام مجلس عزاء من أجل «مسلم بن عقيل»، مرحى، لمثله يُقال: مؤمن، لمثله يقال: شجاع! أوقف جريان الماء... كما فعل الشمر في صحراء كربلاء ثم يقيم مجلس عزاء؟

اصبري قليلاً... غداً ستكون أحداث جديدة، على فكرة، غداً أعدي لنا سمكاً وأرزاً... فقد وعدت «شير علي» منذ فترة بهذه الوليمة.

لم تؤثّر فيه توسلات أمي، وانتهى حديثهما ببكاء أمي الحار.

-٥-

بقيت حيرانَ هائماً معلقاً، هذا الأمر الذي يدور بين أبي وخالي العزيز، أفقدني الأمـل. يا إلهي! لماذا لم أعرف قدر تلك النهارات المشرقة؟ أي أيام كانت؟ كان خالي العزيز وأبي، يجلسان تحت عريشة النرجسة متكئين على مخدات، ويلعبان النرد ويدخنان النرجلية، وكان الأطفال يلعبون في البستان.

أنا و«ليلى»، كنا نحب الجلوس إلى جانبهما ونتابع لعبهما، قد يكون ما يجذبنا ليس اللعب فقط بل ما يدور بينهما من شعر، عندما يفوز خالي العزيز يمسك الزهر وينظر إلى أبي ليقرأ له أبياتاً من الشاهنامه:

مالكَ أنت ومقارعة الأبطال أنت فلاح ومسحاتك...

يجيبه أبي: (العب! سنرى)

وعندما يغلبه أبي، يقول لـ «ليلى» جاداً كل الجد:

– عزيزتي «ليلى» هل تقومين بأمر من أجلي؟

وتجيبه «ليلى» بكل طفولة:

– نعم.

- اذهبي إلى أمك وقولي لها عني، أن تعطيك بعض الجوز ليلعب بها أبوك.

أنا و«ليلى» ننغمس في ضحكنا.

أتذكر أيام كانوا يأخذوننا إلى (لقانطه)، التي تبعد عنا بالسّيارة خمس عشرة أو عشرين دقيقة، ولكن في السابق، كنا نذهب إليها بالعربة فتأخذ منا ساعة.

أغلب الأوقات كان «مش قاسم» يجلس إلى جانب السائق لأن عليه أثناء العودة أن يضع الفانوس أمام خالي العزيز، فالأضواء الكهربائية كانت قليلة حتّى إننا لا نرى بعضنا في الليل والشوارع مملوءة بالحفر، ذكريات جميلة هي، التهام المثلجات في لقانطه، وأحياناً ركوب القوارب، في تلك الفترة، لم أدرك ما تعني صحبة «ليلى»، ولكن في الليل كانت المشاهد تمرّ أمام ناظريّ.

رحلاتنا إلى شاه عبد العظيم، وإلى مقبرة داود، ركوب السيارات السوداء، . . .

لدي من الذكريات التي تجمعني بـ «ليلى» ما تكفيني العمر كله، ولكنها ذكريات «ليلى» بنت خالي العزيز وليست «ليلى» التي أعشقها، إذ ما إن بدأ حبي لها حتى بدأت معه الأحداث والمشاكل، ذلك الصوت الملعون الذي انطلق في قصة خالي العزيز الحربية، اللّص الملعون، الثورة الدستورية، «كولونيل لياخوف»، أبي، ثم «عزيزة السلطنة»، . . .

جرت الأمور بصورة جعلت الجميع يتدخل في حبنا العذري، حتى «شير علي القصاب». . .

أي أنّني حين أفكر بـ «ليلى» يظهر «دوست علي خان» و«عزيزة السلطنة»، وهي تريد قطع العضو الشريف، ويوصلني فكري إلى «شير علي القصاب»، وهذه مصيبة كبرى لأنني لن أستطيع رؤية «ليلى» وعليّ الاكتفاء بخيالات منها.

***

على صوت قرع الباب استيقظت من النوم، نادوا على أبي.

– سيدي نأسف على إزعاجك في مثل هذا الوقت، فقد أردت أن أعرف هل نفذ «ميراب» أوامرك أم لا؟

– شكراً جزيلاً سيد «رضوي»، مادمت أنت معي لن يصيبنا سوء... ملأنا مخزن ماء الشرب، ومخزن الزرع والحوض أيضاً.

– كان عملاً شاقاً لنا لأن إعطاء الماء قبل الدور المحدد مسؤوليّة «ميراب»، وعليه أن يحضر الماء من محلة لأخرى ليسلمه لك، ولكن على أي حال أمرك مطاع.

– شكراً جزيلاً سيد «رضوي»، تأكد حتى آخر هذا الأسبوع سوف يتم نقلك، والليلة سأزور المهندس.

ما إن أُغلق الباب حتى خرج الجميع من ناموسياتهم، الحوض الكبير الممتد وسط ساحة منزلنا مملوء بالماء وأبي ينظر إليه نظرة المنتصر وهو يمشي حوله، والأنظار معلقة تنتظر إنتهاء ابتسامة أبي:

– أعمى الله عين «شمر ذي الجوشن»، ها هي المياه عادت إلى صحراء كربلاء، وما بعد صحرائنا ما زالت تعاني الشحة...

لذا، على العقيد الآن أن يأخذ الماء منا قربة قربة.

حلَّت قضية الماء، فصُعِقت، ولكنّي أعرف خالي العزيز «نابليون»؛ إنّه لن يتقبل هذه الهزيمة.

نظرت بهلع إلى الجانب الآخر من البستان، ولكن الهدوء كان يعم المكان.

بعد وجبة الإفطار التي مرت بصمت، ذهبت إلى منزل خالي العزيز ومن بين الأغصان، اقتربت من الباب، فجأة علا صوت من الشرفة المطلة على البستان وهي منام خالي الصيفي، فاختبأت خلف شجرة.

كان صوت خالي العزيز وهو يكاد ينفجر من شدة الغضب، صعدت على صخرة وألقيت نظرة على الشرفة، رفع منظاره يراقب بيتنا وهو يلعن «مش قاسم»:

– أيها الأحمق الخائن... نمت، جاؤوا وملؤوا أحواضهم بالماء، لقد خان «المارشال غروشي» في معركة واترلو «نابليون»، وأنت أيضاً خنتني في هذه الحرب مع هذا الإبليس.

«مش قاسم» الذي وقف خلفه مطرقاً رأسه قال وصوته يقطر ندماً:

– سيدي، والله شاهد على ما أقول ليس الذنب ذنبي، لَمَ الكذب؟ حتى القبر أأأأأ...

– في ذلك اليوم، في حرب كازرون رميت بنفسي في الهلاك وأنقذتك من موت محتم، لو كنت أعرف أنك ستخونني مثل «غروشي» لقطعت يدي أفضل من حملك على ظهري.

- حرم الله عليّ ملحك لو كان الذنب ذنبي، لِمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... هذا الرجل، هذا السيد «غوشي»، لا أعرفه أنا معرفة كاملة ولكنّي لا أنسى لقمة العيش، حتى لو كانت ألف حرب أفديك بروحي حتى آخر قطرة دم، ولكن هؤلاء غافلوني البارحة، ولو لم يكن دور محلّتنا لأخذ الماء...

أنا متأكد أنهم أعطوا «ميراب» مالاً ليأتيهم بالماء، فماء المحلة موعده الليلة، وأنا كنت نائماً حينما قاموا بفتح قناة الماء.

انقضت دقائق، وخالي العزيز يكيل اللعنات لـ «مش قاسم»، الخائن، الجاسوس، الكلب، خادم الإنجليز، وعاد إلى غرفته وخلفه «مش قاسم» يرجوه العفو عنه، ورغم علمي بعودة خالي العزيز، لكنه في صدد إعداد خطة للانتقام من أبي، كنت حزيناً أكثر من أجل «مش قاسم»، وحين عدت إلى البيت كان خادمنا مشغولاً بتنظيف السّمك، إذاً قد تكون دعوة «شير علي» جدية.

كانت أمي مشغولة بالحديث مع أبي في القبو:

- الآن، لا بأس بالسّمك والأرز لهذا «الشير علي»، ولكن أُحلِّفك بروح أبيك لا تتحدث عن الموضوع، فهذا الرجل مجنون، سيقتل شخصاً، ودمه في رقبتك.

يكفي أنك قلت لـ «عزيزة السلطنة»، ويكفي «دوست علي خان» أن هذه المرأة ستقلب أحواله إلى سابع جد...

- لم أقل شيئاً لـ «عزيزة السلطنة»، ولو كنت على علم بالأمر لقلت

لها بالتأكيد... فمن المؤسف بقاء مثل هذه الأمور مكتومة، فهم صفوة البشر...

لن ترفع الأرستقراطيّة الإيرانية رأسها من شدة الخجل، أحد أعضائها البارزين يقيم علاقة مع امرأة من الطبقة الثالثة، ويجب تدميره بجريمة توسيخ مكانة الأرستقراطيّة.

- يا حياتي ارحم نفسك... لو ذكرت شيئاً لـ «شير علي» سوف يقطعك أنت قبل الجميع بساطوره.

- هل تعرفين عن أي موضوع سوف أتحدث معه؟

أولاً، إذا أردت مفاتحته بالموضوع لدي ألف طريقة.

ثانياً، لست طفلاً ساذجاً، لا وقت لدي لأشرح.

رابعاً،...

قطع أبي حديثه، وذهب ليكمل أعماله، وأنا كنت منشغلاً، قضيت عشرين ساعة في كتابة رسالة عشق، لكنها لم تكتمل.

وحتى لو اكتملت فكيف أرسلها؟ لذا عدت إلى الغرفة المنعزلة.

ظهراً، علت الأصوات من بيت خالي العزيز «نابليون».

حين وصلت إلى البستان، عرفتُ أن هناك أحداثاً تُدَبر، اختفى «دوست علي خان»، فبعد أن حُضِّرت له غرفة ليبيت فيها، لم يجدوه عند الصباح.

وبأمر من خالي العزيز اتصلوا بالعائلة كلها، ولكن لا أثر لـ «دوست علي خان».

استمر البحث حتى العصر، وعند غروب الشمس، تعالى صراخ «عزيزة السلطنة»، فذهبتُ أتبع مصدر الصّوت، فتبيّن على ما يبدو أن خالي العزيز اختبأ خوفاً منها، ولم «تجد عزيزة السلطنة» غير «مش قاسم» لتهجم عليه:

- ماذا فعلتم بزوجي؟؟ أين وضعتموه؟ سأحرق كل آبائكم، زوجي المسكين، من الممكن أنكم قتلتموه، أو رميتموه في البئر، «دوست علي» لا يذهب بعيداً عني أبداً.

- والله لمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... ما رأيته بعيني هو أن زوجك ذهب للنوم في الغرفة، ليت أنه خرج لتغيير الجو! والله إنّ السّيد أكثر قلقاً منك.

- يا رجل، بثياب النوم يذهب ليغيِّر جوّاً؟!

رفعت إبهامها مهدّدة:

- قل لسيدك، هو من أبقى زوجي بالقوة عنده، أينما خبّأه عليه إرجاعه لي سالماً غانماً مثلما سلّمته، وإلّا سوف أذهب للشّرطة، سوف أعترض سيارة وزير العدل...

وأغلقتْ الباب خلفها، ومشتْ ناحية البستان، ولا أعرف من أين ظهر أمامها أبي.

- سيدتي اهدئي...

«دوست علي خان»، ليس من الرجال الذين يذهبون بعيداً عن دارهم، تفضلي اشربي الشاي عندنا،... لا، لا يمكن يجب أن تتفضلي عندنا وتشربي الشّاي.

شرعت «عزيزة السلطنة» في البكاء، وبينما كانت تسير بجانب أبي قالت:

- أعرف أنهم خبؤوه، لا يطيقون رؤيتي أنا وزوجي بجانب بعضاً.

رحب بها أبي، وهو يدخلها غرفة الضيافة، وقال متظاهراً بمواساتها:

- المسكين! المسكين «دوست علي خان»...

ولكن لا تحزني سوف نجده.

دخل أبي و«عزيزة السلطنة» غرفة الضيافة، وأغلقا الباب.

بقيت أنتظرهما في الخارج، ولأنّهما أطالا الجلوس اقتربت من الباب، وأصخت السّمع، قالت «عزيزة السلطنة»:

- الحق معك... يجب أن أقول: إنهم هم من قتلوا «دوست علي»، هم في الواقع كان بينهم خلافات حول الأراضي، إذا لم يضغط عليهم لن يعترفوا بمكان «دوست علي»، غداً باكراً سوف أذهب، ذكرني باسم الرجل مرة أخرى؟

ذكر أبي وبكل برودة أعصاب اسم الرجل، وأضاف بصوت أعلى:

- في مبنى الشرطة هذا نفسه، إذا ما دخلت على يدك اليمنى اسألي عن الشعبة الجنائية...

بعد ذهاب «عزيزة السلطنة» طلب أبي من خادمنا أن يدعو «شير علي» على الغداء ولكن أمي تدخلت راجية حتى أقنعته بإرسال الغداء إلى بيت «شير علي».

احتار خالي العقيد، فهو الوحيد الذي سقط بين فكي الأسد، والآن زهوره وأشجاره أصابها الجفاف، كان يأمل بانقطاع الماء عن أبي، سوف يجبره على الانصياع، ولكن أبي ملأ المخزن والحوض بالماء، وسوف يتحمّل خالي العقيد على الأقل أسبوعاً جفافياً آخر، رؤيتي لخالي العقيد فتحتْ نافذة أمل لي، كلانا يأمل في إنهاء هذه الحرب، هو من أجل أزهاره وأنا من أجل زهرتي «ليلى».

لم يوصلْ رجاء خالي العقيد لأبي إلى نتيجة، وكان أبي يكرر:

- لن أتراجع خطوة واحدة، إذا لم يأت ويعتذر مني أمام العائلة كلها.

وخالي العزيز العقيد يعرف جيداً أن أخاه ليس من النوع الذي يعتذر بسهولة، وأمام إلحاح خالي العقيد أسمعه أبي جملة أسعدته:

- إذا سمح السّيد بمرور الماء إلينا سوف نمرّر الماء لك أيضاً.

شِبْهُ الوعد هذا، أذاب كل هواجس خالي العقيد، وأخذ يكرِّر ويعيد، أزهاري كلُّها مُلك لك، أنا خائف على اتحاد العائلة، وعاد إلى البيت سعيداً ضاحكاً.

بالطّبع، قبل ذهابه أخذ وعداً من أبي لكي لا يتطرق في الوقت الحالي لرهبة خالي العزيز من اللّص حتى يسعى ليقدِّم اعتذاره.

حين قطع والدي وعده، شعرتُ أنَّ أبي رغم عداوته، إلّا أنه اشتاق إلى لعبة النّرد مع خالي العزيز «نابليون»، أفراد العائلة كلها تجيد لعبها، إلّا أنّ أبي وخالي العزيز لا يلاعبان إلّا بعضهما، ومنذ اشتعال الحرب بينهما لم يسمع أبداً لا في بيتنا ولا في بيت خالي العزيز اسم النَّرد، حتى شعرتُ بأن الاثنين يحبان بعضهما من الداخل دون أن يدركا ذلك، ضحكت من هذه الفكرة.

مع حلول الليل، ذهب أبي لرؤية الطبيب «ناصر الحكماء»، أمي قلقة جداً، ذهبتُ إليها، ما إن طرحتُ الموضوع حتى شرعتْ في البكاء...

المسكينة.

- أقسم بالله، أُفضِّل الموت لأرتاح من هذه الحياة.

تأثرت بدمع أمي المنسكب بغزارة، حزنها أنساني ما أنا فيه.

قالت أمي وهي تبكي:

- كنت أتمنّى حين تكبرون، وتصبح في العشرين أن أخطب لك «ليلى»...

اصفر وجهي خجلاً، كدت أشاركها البكاء.

عدت إلى غرفتي، وسرحت في الفكر، أنا أحب «ليلى»، بين أبي وأبيها خلاف كبير و لم أتحرك لحل هذا الخلاف، صحيح أني في الثّالثة

عشرة، ولا يمكنني فعل شيء ولكن حين تعشق مثل الكبار فعليك الدفاع عن عشقك مثلهم، بقيت أفكر، ماذا باستطاعتي أن أفعل؟ لا أستطيع فرض رأيي لا على أبي ولا على خالي العزيز لينهيا خلافهما، يا إلهي! ليتني كنت في سن ابن خالي بوري لتزوجت «ليلى» ورحلنا بعيداً، ولكني مازلت صغيراً، ولكن... لكن لو ضغطت على نفسي قد أصل إلى حل لهذا الخلاف القائم بينهما...

عرفت، أنا بحاجة إلى مساعد يتضامن معي.

قلبت كل الأشخاص لم أجد إلّا «مش قاسم»، ما المانع بأن أبوح له بسري، وأن أرجوه مساعدتي؟ ولكن هل سيقبل؟

سرقت من حقيبة أمي ريالاً، وبحجة شراء دفتر ذهبت إلى السوق، اشتريت شمعة وأشعلتها في سبيل الماء:

- إلهي أولاً اعذرني على إشعال شمعة بمال مسروق، ثانياً ساعدني على حل هذا الخلاف بين أبي وخالي العزيز، أو أنت قم بحل القضية.

ولكني مطمئن أن الله إذا أراد الاختيار بين هذين الحلين، فسوف يختار الثاني وقلتُ الحلَّ الأول كمجاملة معه ليس إلا.

على أي حال، طلبتُ من الله بدايةً أن نجد «دوست علي خان» الذي ضاع.

***

في الصباح الباكر قُرِع بابنا، أيقظني صوت الطرقات، أخذت أسمع ما يدور، سمعت الصّيدلي وهو يسلِّم على أبي.

أبي يملك صيدليّةً في السوق، والصّيدليٌّ يشرف عليها، يستلم راتبه كل شهر وله حِصّةٌ من بيع الأدوية أيضاً، على أي حال أبي في آخر كل شهر يقبض العائد، يشعر أنّ في صوت الصيدلي خوف شديد:

– البارحة قال سيد «أبو القاسم»، في خطبته أن جميع أدويتنا تصنع بالكحول وشربها أو تناولها حرام...

لا أعرف من حرّضه على فعل ذلك؟ أرجوك جد لي حلّاً اليوم، وسيِّد «أبو القاسم» يقطن في أحدٰ منازل أخ زوجتك، قل له أن يتراجع لأنّي متأكد أنه بعد يوم، لن يضع أحدٌ رجله في الصيدلية.

بقي أبي صامتاً، في حين أكمل الصيدليٌّ قائلاً:

– لن يشتري الناس منّا الأدويـة، ولا أستبعد حرقهم للصّيدلية وتقطيعي إرباً.

– أنا أعـرف من حرضه، سوف أحـرق آبـاءه لخمسة أجيال لن ينسوه... لا تهتم بالأمر، دعه لي.

– ولكنني لا أجرؤ اليوم على فتح الصّيدليّة.

خطبة أبي عن الشجاعة والمروءة ذهبت سدى، والصّيدليٌّ لم يتراجع عن موقفه، تقبل أبي الأمر وقال له:

– حسناً اليوم لا تفتح الصّيدليّة حتى أرى ما سأفعله غداً... ولكن ألصق ورقة على الباب...

– ماذا أكتب عليها؟

- لا أدري، ولكن لتحمل طابعاً دينياً، مثلاً الصيدلية مقفلة لأنك مسافر إلى مدينة (قم)، لزيارة «السيدة معصومة»... لأنك إذا لم تكتب سوف يلعبون لعبة أخرى معنا.

- حاضر، ولكن لا تنسَ، قل لأخ زوجتك أن يتحدَّث مع الواعظ بالأمر.

صرّ أبي على أسنانه، وقال:

- نعم، نعم، أكيد سوف أذكر الأمر لأخ زوجتي... سوف أضع أخاً لزوجتي...

لم يفهم الصيدلي، ما يرمي إليه أبي، فذهب وتركه يجوب ساحة البيت.

في الجهة المقابلة ران صمت مطبق، وكأنهم بعد هجمة سيد «أبي القاسم» البارحة، أخذوا قسطاً من الراحة، حتى «مش قاسم» غاب، يبدو أنه سقى الورد صباحاً وعاد إلى البيت، هذا السكوت يقلقني، فقد ذهبتُ عدّة مرّات قرب باب منزل خالي العزيز، ولكنّي لم أسمع صوتاً، وجدت «مش قاسم» في الزّقاق، يحمل بيده لحماً وهو يعود إلى البيت.

- «مش قاسم»... ألم يصل أيُّ خبرٍ عن «دوست علي خان»؟

- والله بني لِمَ الكذب؟ أعتقد أن هذا الرجل تبخر... بحثنا عنه في كل مكان و لم نجده.

- «مش قاسم» عليَّ القيام بأمر ما، فـ «عزيزة السلطنة» اليوم ذهبت إلى الشرطة، لاعتقادها أن «دوست علي خان» قُتِلَ في بيتكم.

- واي ! سيصل الأمر بالتأكيد إلى المحقّقين.

عاد بسرعة إلى البيت و لم يستمع لبقية حديثي.

بعد مرور ساعة رأيت «مش قاسم» وهو يعود إلى البيت، فما إن رآني حتى قال:

- بني أعرف أنّك تريد لهذه النّار أن تنام... فقد جمع السّيد الجميع وأوصاهم، إذا ما جاء المفتّش ليسأل عن «دوست علي» وعلاقته مع زوجة «شير علي» أو زوجته، حينما - بعيداً عنك - أرادت قطع شرفه، بألا يذكروا ولا كلمة واحدة، أنت أيضاً لا تذكر الموضوع.

- «مش قاسم»، اطمئن لن أذكر ولا كلمة.

عاد «مش قاسم» إلى البيت بسرعة، و لم يترك لي فرصة لأحدثه عن موضوعي.

ظهراً، فزعتُ من صوت «عزيزة السلطنة» في ساحة بيتنا، فخرجتُ من غرفتي وركضتُ إلى الساحة:

- الآن سيعرفون مع من يتعاملون...

على فكرة، اتضح أنّ رئيس الشّعبة الجنائية صديق المرحوم زوجي، قال: إنه سوف يرسل مساعده «تيمور خان» ظهراً، هو نفسه الذي قبض على القاتل علي أصغر... المسكين كم احترمني!

قال لي: سيدتي اطمئني «تيمور خان» في يوم واحد لا أكثر، سيجد زوجك حيّاً أو ميّتاً، وقال إن إسلوبه في المباغتة مشهور حتى في الغرب.

أخذ أبي «عزيزة السّلطنة» إلى الصّالة وأغلقا الباب، لم أستطع الصّبر لمعرفة ما يدور بينهما، وقفت خلف الباب أسترق السّمع:

- سيدتي، لو تسمعين كلامي، يجب أن تُصرِّي على أن «دوست علي خان» قد قتل... حتى اذكري لهم أنهم دفنوه تحت شجرة النّرجس هذه، فإذا أراد المفتشون الحفر، سوف يعترفون بمكان «دوست علي» لأن السّيد يفدي بروحه هذه النّرجسة... تعرفين أنّ حبه لها يفوق حبه لأبنائه.

- ولكن لو أرادوا دفن شخص بحجم «دوست علي»، لكانت الآن آثار حفر أمام شجرة النرجس والأرض أمامها لم تمس.

- لا، لا تقلقي، أنا انطلاقاً من حبي لك، ولكي نجد «دوست علي خان» طرحت الموضوع...

بل يجب أن نجده، بأقرب فرصة لأنك تعرفين جيداً محاولتهم فصلك عنه، إذ عادوا مرة أخرى لأختهم تلك لربطها به.

- صحيح، يحلمون - أخذها عزرائيل - سوف أنزل بهم بلاءً يكتب في القصص، أولاً علي التّعامل مع السّيد ثم مع البقيّة... خاصة ذلك السّكراب ون منت ون منت.

لم تمر إلّا دقائق وإذا بـ «قمر» ابنة «عزيزة السلطنة»، تأتي ومعها المفتّش «تيمور خان».

خرج أبي لاستقباله.

– أهلا بك... أرجوك تفضل... يا ولد، أحضر الشّاي.

– شكراً جزيلاً... ولكن الآن وقت عمل، وليس وقت شرب الشّاي.

ردّ «تيمور خان» دعوة أبي، وقد بدت ملامح المفتش غريبة، وجهه ويداه كأنّهما مصابتان بداء الفيل، كان سميناً وأعضاؤه متنافرةٌ بشكل غريب، نظّارته الكبيرة تظهر أصغر من حجمها الطبيعي على وجهه العملاق، لهجتُه تشبه لهجةَ سكّان القارّة الهندوفارسيّة.

اتكأ على عصاه، ونظر إلى نقطةٍ محددةٍ وقال:

– من الأفضل أن نبدأ، سيدتي أرجوك أن تأخذيني إلى مكان الجناية.

– تفضل.

لم يودْ أبي أن يُفلت المفتّش من يده بهذه السرعة:

– إذا سمحت لي، سوف أشرح لك بعض القضايا التي تتعلّق...

قطع المفتش «تيمور خان» بحدة حديثه:

– لا أحتاج إلى أيٍّ توضيح... إذا لزم الأمر سوف أستدعيك.

وذهب خلف «عزيزة السّلطنة»، إلى بيت خالي العزيز.

أنا و«قمر»، بدورنا ذهبنا خلفهما، خاطرتُ هذه المرّة بالذّهاب، فيجب أن أعرف ما يدور، حتى لو انتهى الأمر بتعكير مزاج خالي العزيز، ومن جانب آخر كنت آمل برؤية «ليلى».

فتح «مش قاسم» الباب، أزاحته «عزيزة السّلطنة» ضاربةً صدرَه:

- تنحّ جانباً، هذا المفتّش.

لم يقاوم «مش قاسم» فابتعد عن الطريق، ليس فقط هو، بل من هم أكبر منه بكثير في مثل هذه المواقف، يحسبون للمفتّش ألف حساب، دخل المفتّش «تيمور خان» و«عزيزة السلطنة»، ونحن خلفهما، وكأن خالي كان ينتظره، لأنه ارتدى ثيابه العسكريّة، واضعاً على كتفيه العباءة، كان «شمس علي ميرزا» حاضراً أيضاً، وقد أحسستُ أن خالي العزيز أرسل خلفه ما إن عرف بقدوم المفتّش، إذ بدأ حديثه مع المفتّش بتقديمه كمحقق في المحكمة في مدينة (همدان)، تبادل المفتّش التّحية معه ببرود.

وقع نظر خالي العزيز عليّ، فرفع إبهامه مشيراً إلى الباب وقال:

- أنت أخرج.

وقبل تحرّكي من مكاني، صاح المفتّش:

- لا، لا، يبقى، يبقى.

وباشر عمله، في التّحقيق:

- حسناً... قل لي في أي غرفة قضى القتيل آخر ليلة من حياته؟

اعترض خالي العزيز و«شمس علي ميرزا» في الوقت نفسه:

- قتيل؟ «دوست علي خان»؟

صاح المفتِّش كمن يلوي ذراعاً:

– من أين عرفتما أني قصدت بالقتيل «دوست علي خان»؟ دعونا...

قال لـ «عزيزة السلطنة»:

– دعيني أرى غرفة القتيل.

أراد خالي العزيز الاعتراض:

– يا سيّد...

ولكن المفتّش لم يسمح له:

– سكوت... أيُّ تدخُّلٍ في التَّحقيق ممنوع.

تظاهرت «عزيزة السلطنة» بالتّأثر بالموقف:

– سيدي، من أين لي أن أعرف أين نام زوجي المرحوم؟ لو كنتُ أعرف، لما حدث لي ما حدث...

ممكن «مش قاسم»...

سأل المفتِّش:

– من «مش قاسم»؟

أجابه «مش قاسم» وهو مطرق الرأس:

– والله لمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... «مش قاسم» أنا، خادمك.

نظر المفتّش نظرة ارتياب إليه:

- حسناً... من قال لك أنّك تكذب؟ قد تودُّ الكذب؟ أجب... أجب... تكلّم، تكلّم، هل قالوا لك أن تكذب؟ بسرعة أجب لا تتأخر.

- والله لَم الكذب؟ أنت بعد لم تسألني عن شيء.

- إذاً لماذا قلت الكذب؟

- لَم الكذب؟ حتى القبر ها أها... حتى القبر أربع أصابع... متى كذبت أنا؟

- لا أقول لماذا كذبت بل لماذا قلت الكذب؟

تدخلت «عزيزة السلطنة»:

- آسفة أيها المفتّش، هذه عادته، إذا ما سألته يقول لَم الكذب...

- حسناً، سيد «مش قاسم»، القتيل أين قضى آخر ليلة له؟

- والله لَم الكذب؟ القتيل في هذه الغرفة...

حدّق المفتّش من خلف نظّارته السّميكة بـ «مش قاسم»:

- إذاً، تعترف بأن هناك قتيل؟ متى قتل؟

صاح خالي العزيز «نابليون» بعصبية:

- سيدي لماذا تضع كلماتك على لسان خادمي؟

- أنت اسكت... هذا السيد كان خادمك لكنه الآن شاهد.

- ولكن، أنت مع هذا المسكين...

- سكوت... خذني إلى غرفة القتيل.

نظر «مش قاسم» متحيّراً إلى خالي العزيز، ثم مشى إلى أحدى الغرف، والجميع خلفهم.

ما إن دخلنا الغرفة، حتى أوقف «تيمور خان» الجميع برفع كلتا يديه:

- حسناً... أين سرير القتيل؟

أجابه «مش قاسم»:

- والله لَمَ الكذب؟ حين رأينا صباحاً أن السّيد «دوست علي خان» ليس هنا، جمعناه.

بقي المفتّش للحظاتٍ صامتاً، فجأةً، استدار نحو «مش قاسم» وأمسكه صائحاً به:

- من قال لك أن تجمع سرير القتيل؟ ها؟ ها؟ من؟ من؟ بسرعة أجب لا تتأخر.

احتار «مش قاسم»:

- والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر...

– مرة أخرى عدنا للكذب، من قال لك قل الكذب؟ ها؟ ها؟ أجب أجبني بسرعة الآن.

قال «شمس علي ميرزا»:

– سيدي المفتّش، هذا النوع من التحقيق حديث جداً، أنت تريد بإرباك الناس أن تضع كلماتك على ألسنتهم.

– حسناً... أرجوك لا تتدخل...

غداً اسأل عن المفتش «تيمور خان» من أحببت؟ ليس هناك قاتل يستطيع مقاومة النّظام الدّوليّ للمباغتة...

أنت، سيد «مش قاسم» لم تجبني، من أمرك بجمع سرير القتيل؟

– والله لَم الكذب؟ حتى القبر ها أها... حين تشرق الشمس أنا والخالة «بلقيس» نجمع الأسرة، في الأمس، أيضاً جمعنا سرير «دوست علي خان».

– سرير القتيل؟

– نعم ومن غيره...

– حسناً... نعم... هذه المرة الثانية التي تعترف أن «دوست علي» هو القتيل... نعم... تقدُّمنا كبيرٌ، تقدُّمنا مثيرٌ، وقوع القتل ملموس... ولكن القاتل...

اعترض خالي العزيز:

– سيدي هذا الكلام لا معنى له...

– حسناً، أنت اسكت... السيد «مش قاسم»، قلت: إنّكما تجمعان الأسرة صباحاً؟ من أمرك بذلك؟ سيدك؟ زوجته؟ هذا السّيد؟ أو هذا؟ من؟

اسكت، ليس من اللازم أن تجيب، من آخر من رأى القتيل؟ أنت «مش قاسم»؟

أجب بسرعة، «دوست علي خان» قبل أن يُقْتَلْ هل رأيتَه؟

لا تجب، حسناً... لماذا نام هنا؟ أليس لديه بيت ينام فيه؟

– والله لَم الكذب؟ حتى القبر...

قاطعه خالي العزيز «نابليون»:

– «دوست علي خان» ليلة أمس لوقت متأخر...

– اسكت أنت... أجبني «مش قاسم».

حشر «مش قاسم» في وضع لا يحسد عليه:

– ماذا؟

– سألتك لماذا نام القتيل هنا بدل الذهاب إلى بيته؟ أجب بسرعة فوراً لماذا؟

– والله لَم الكذب؟ الجميع كان هنا، السّيد «أسد الله ميرزا»، السّيد...

- من هو «أسد الله ميرزا»؟ أجب بسرعة بسرعة.

- «أسد الله ميرزا» من عائلة السّيد...

- هل هو من أقرباء القتيل؟

- نعم هو قريب القتيل.

لم يتحمل خالي العزيز «نابليون» الوضع:

- أيها الأحمق، هل تفهم ما تقوله؟

أجابه «مش قاسم» مرتبكاً:

- والله ليس ذنبي، هذا السّيد المفتّش أربكني، أردت أن أقول: إن السّيد «أسد الله ميرزا»...

قرب المفتّش وجهه من «مش قاسم»، ونظر مباشرة في عينيه:

- حدثني قليلاً عن السّيد «أسد الله ميرزا».

- والله السّيد «أسد الله ميرزا»، لا ذنب له، والله شهيد...

- حسناً، حين تقع الجريمة أشكّ بالعالم كله، الكل بإمكانه أن يكون قاتلاً، السّيد هـذا...أو هذا... أو هذا... هذا الطفل...حتى أنت من الممكن أنك قتلت «دوست علي خان»... نعم أنت اعترف... اعترف...أعدك بتخفيف الحكم، بسرعة بسرعة ها؟؟

صاح «مش قاسم» خوفاً:

- أنا قاتل؟... الله أكبر... لماذا؟ أليس هناك آخرون حتّى أكون أنا؟

اقترب المفتِّش «تيمور خاّن» بوجهه العملاق من «مش قاسم» وصرخ فيه:

- أها، الآخرون... من هم الآخرون؟ تكلّم، تكلّم.

- والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... أنا... يعني أنا...ما هي إلّا جملة قلتها، أنت كنت تتحدث عن السّيد «أسد الله ميرزا» فماذا حدث؟ فجأةً انتقلت...

قاطعه المفتّش:

- نعم، نعم «أسد الله ميرزا»... كيف هو هذا الإنسان؟

لم يكن بإمكان «شمس علي ميرزا» الحديث من شدّة غضبه، فقال بصوت مخنوق:

- عليَّ أن أذكر لك أن «أسد الله ميرزا» أخي.

- نعم... أخوك، أليس من الممكن أن يكون أخوك القاتل؟

- لماذا تتدخّل أنت في التّحقيقات؟ ها؟ أجب أجب بسرعة.

من فرط غضب «شمس علي ميرزا»، كاد أن يسقط، فتح فمه ليكمل لكن صوت «أسد الله ميرزا»، أسكته وهو يهمُّ بالدّخول:

- ون منت، ون منت، ماذا يحدث هنا؟ مرّة أخرى شرعتم في الحديث عن العضو الشريف لـ «دوست علي»؟

همس الجميع:

- «أسد الله ميرزا».

لم يتحرّك المفتّش من مكانه، فأسكت الجميع بيده وقال:

- أهلاً، أهلاً، القاتل يحوم دائماً حول موقع الجريمة، سكوت، صمت، حتى التَّنفس ممنوع.

-٦-

ولأن «أسد الله ميرزا» لم يسمع جواباً، تردّد عند الباب ثمّ صاح:

- يا ناس هل من أحد هنا؟ أخي «شمس علي» هل أنت هنا؟

المفتّش «تيمور خان» مازال رافعاً يده ليُحكم قبضته على إبقاء الصّمت، تقدّم بحذر نحو باب الغرفة، وقال بصوت عالٍ:

- نعم... أنا هنا... الجميع هنا، تفضل.

كان خالي العزيز «نابليون»، قد أخبر الجميع عن قدوم المفتّش، إلّا «أسد الله ميرزا» الذّي ذهب للعمل، فلم يتمكن من إخباره، حين رأى وجهاً جديدا أمام باب الغرفة، أحكم كلتا يديه على ربطة عنقه وقال:

- ون منت أنت الخادم الجديد هنا؟

وقبل أن يسمع الإجابة تابع قائلاً:

- المسكين «مش قاسم» كان رجلاً جليلاً، بالتّأكيد إنّه ضحيّة العضو الشّريف لـ «دوست علي».

صرّ المفتّش على أسنانه، ولكنه قال:

- أرجوكِ تفضل... تفضل من هذه النّاحية.

دخل «أسد الله ميرزا» الغرفة وهو متعجباً.

- أهلا أهلا، سلام... سلام

أرى شورى العائلة انعقدت مرة أخرى؟ إذاً لماذا أنتم واقفون؟ تفضلوا لنذهب إلى تلك الغرفة...

والتفت إلى المفتّش «تيمور خان»:

- وأنت اركض قل لهم أن يُعدّوا لنا الشّاي.

قال «شمس علي ميرزا» بصوت مخنوق:

- السّيد ليس خادماً... السّيد هو مفتّش...

كان «أسد الله» يمضي إلى الغرفة المجاورة، توقف وقال:

- آسف جداً، قد تكون جئت من أجل اختفاء «دوست علي»، على فكرة السّيدة «عزيزة» هل وجدت «دوست علي»؟ أين ذهب هذا الشّقي؟

وقبل أن تجد «عزيزة السلطنة» فرصة لإجابته، شرع المفتّش «تيمور خان» في هجومه:

- حسناً، حسناً، السؤال الأول: أين يمكن أن يكون؟ أنت أيها السّيد العزيز ألا تعلم؟ ألا تعرف أين نجده؟

- ون منت، ون منت تذكّرت الآن... حسناً حسناً، أعرف.

قرّب المفتّش وجهه العملاق من «أسد الله»، وصاح به:

- بسرعة، بسرعة قل أين؟ أين؟

سعى خالي العزيز «نابليون» و«شمس علي ميرزا» ليشيرا إلى «أسد الله» خِفْيَةَ أن يصمت، ولكنّه كان غارقاً في عالمه بحثاً عن مغامرة طازجة:

- هل هناك جائزة؟

- ممكن، ممكن، بسرعة أجب، قل بسرعة.

- إذا وعدتني بالجائزة فسأقول لك: إنه بالقرب منا.

وأخذ يبحث في جيوبه:

- عجيب! في أي جيب وضعته؟ ون منت... ون منت، كنت أظن أني وضعته في هذا الجيب، ممكن أن يكون في الجيب الآخر.

تحول وجه المفتّش «تيمور خان» من شدّة الغضب إلى طماطم مبعثرة، فقال وهو يُصِرُّ على أسنانه:

- ها... قتل، إخفاء جثة، إهانة موظفٍ حكوميٍّ أثناء أدائه واجبه، عرقلة سير التحقيق، سأرى مكان ربطة عنقك هذه حبلاً يلتفّ بدلاً منها في أقرب فرصة.

أحسّ «أسد الله» بتغيّر الأمور، ونظر بقلق في وجه المفتّش العملاق،

مازال خالي العزيز «نابليون» و«شمس علي ميرزا» يرسلان الإشارات له كي يصمت ولا يتطرق إلى موضوع علاقة «عزيزة السّلطنة» بزوجها.

حتى أنا فهمت ما يقصدان، ولكن «أسد الله ميرزا» مازال ينظر في وجه المفتّش حائراً، أحس المفتّش «تيمور خان» بأثر تهديده على ضحيّته:

– إذا اعترفت بسرعة فهذا من صالحك... أجب بسرعة، فوراً كيف تمّ الأمر؟ بسرعة أجب.

– ون منت، ون منت حقيقة ون منت، أنا أعترف؟ ومن أنا لكي أعترف؟ اسأل زوجته التي كانت تقطعه.

هزّته هذه الكلمات، فارتد للخلف رافعاً يده، ثمّ صاح:

– ماذا؟ كيف؟ تقطعه؟ من يقطع؟ ماذا يُقطع؟... ما الذي تقطعه زوجته؟ سيدتي أنت كنت تقطعين؟ ماذا قطعت؟ بسرعة... فوراً، أجيبي..

تبادل الجمع النّظرات، في هذه الأثناء وبينما كانت «قمر» ابنة «عزيزة السّلطنة» تنظر للعبتها ضحكت ببلاهة وقالت:

– سنبلة أبي «دوست علي».

قفز المفتّش «تيمور خان» إليها، وأمسكها من كتفها هازّاً إيّاها:

– تكلّمي! بسرعة فوراً أجيبي.

قاطعه «شمس علي ميرزا»:

- سيدي لا تأبه بها، هذه فتاة بلهاء.

لم يكمل جملته وإذا بـ «عزيزة السّلطنة» تصرخ:

- الأبله أنت وأخوك هذا وأبوك، سوف تقضي على الحياة الزوجية لهذه اليتيمة بكلامك هذا.

لكن المفتّش لم يبال بها وظلّ ممسكاً بكتفي «قمر» وأخذ يصرخ:

- أجيبي، سنبلة من؟ السنبلة أين هي؟من زرعها؟ بسرعة فوراً، إذا لم تجيبي بسرعة سوف تعاقبين.

أفزعت صرخته المفاجئة الجميع، فعضّت «قمر» إصبعه ورفضت إفلاتها، وحين انتزع إصبعه من بين أسنانها انفجر الدم.

ضربت «عزيزة السّلطنة» على رأسها:

- يا إلهي.

- أيتها الكلبة المسعورة، القاتلة، بسرعة فوراً أحضروا قطعة قماش بسرعة فوراً، مؤامرة، عرقلة سير التحقيق، ضرب وشتم موظف الحكومة أثناء قيامه بواجباته، ثلاثة أعوام سجن.

بين الضّجة التي أثيرت وتقديم الاعتذارات، ضُمِّدَ إصبع المفتّش، وساد هدوءٌ نسبيٌّ، الجميع ينتظر المفتّش «تيمور خان»، الذي أخذ يمشي في الغرفة.

– المشاركة في جريمة قتل، إخفاء الجثة، إهانة موظف الحكومة أثناء تأدية واجبه، عرقلة سير التحقيق،، ضرب وجرح ممثّل القانون، ابنتك أيضاً أرى حبل المشنقة يلتف حول عنقها، أنت منذ الآن موقوفة كشريكة في الجناية، ولكن لنعد إلى المجرم الأساسي.

وقف أمام «أسد الله ميرزا» وخاطبه:

– حسناً... كنت تقول، من كان يقطع؟ ماذا كانت تقطع؟ وفي أي وقت كانت تقطع؟

تدخّل خالي العزيز «نابليون»:

– سيدي المفتّش... لو سمحت، فليخرج الأطفال الآن، يعني هذا الطّفل...

قال هذه الكلمة مشيراً إليَّ، لكنَّ المفتّش قاطعه قائلاً:

– لماذا يخرج الأطفال؟ هذا ليس طفلاً إنه أكبر مني لماذا يخرج؟ ها؟ نعم؟ أجبني، بسرعة فوراً، قد يكون حضوره مزعجاً لك، قد تكون خائفاً من الحديث أمامه؟ ها؟ نعم؟ أجب... بسرعة فوراً... لا حاجة لإجابتك، حتى لو كان هناك طفل آخر فليأت، دائماً ما تسمع الحقيقة من أفواه الأطفال.

هل هناك أطفال آخرون في البيت؟ نعم؟ بسرعة فوراً أجب.

كان خالي العزيز يغلي وهو يسعى ليتمالك نفسه، فهزّ كتفيه وقال:

– لا... لا أطفال لدينا هنا.

قلت دون وعي:

- لا هناك «ليلى».

هجم عليّ المفتّش:

- أين هي؟ من «ليلى»؟ أين «ليلى»؟ أجب بسرعة فوراً.

أجبته مرتبكاً:

- «ليلى» ابنة خالي العزيز.

وألقيتُ نظرة على خالي العزيز، خفت من الشّرر المتطاير من عينيه، أراد أن يتخلص مني فساء الأمر معه.

قال المفتّش آمراً:

- نادوا على «ليلى».

- لا يطابق هذا أيةَ أصول قانونية أو أخلاقية، طفلة في العاشرة من العمر.

بلا شعور، زدتُ في عمق الحفرة الفاصلة بيننا حرصاً على رؤية «ليلى»:

- عمر «ليلى» أربعة عشر عاماً.

ولم أجرُؤ على النّظر إلى خالي العزيز، لكنّي استمعت لصوته:

- هذا الولد يُخَرِّفْ، يتفوَّه بما لا يفهمه، عمر ابنتي اثنا عشر أو ثلاثة عشر عاماً أنا لا أسمح...

قاطعه المفتّش:

- قتل، إخفاء جثّة، إهانة موظف الحكومة أثناء أدائه واجبه، عرقلة سير التحقيق، ضرب وجرح موظف الحكومة، عدم تلبية أوامر موظف الحكومة، أرى وضعك جيِّدا سيِّدي.

صاح خالي العزيز بوجهٍ منقبض:

- «ليلى»، تعالي «ليلى».

قدومها، مجيء شمس في يوم شتائي كسا وجودي دفئاً، وكأن عمراً انقضى لم أرها فيه، تلاقت أعيننا المشتاقة، عيناها السوداوان، إلّا أنها لحظات وجيزة لم أشبع عيني منها، حطم المفتّش بصراخه خلوتي العشقية.

- السّيّد «أسد الله ميرزا» لا تفرح لم أتراجع بعد عن سؤالي؟ من قطع؟ وماذا قُطع؟

- ون منت سيدي المفتّش، هل أنا أحد أعضاء «دوست علي خان»؟ لماذا تسألني؟ اسأل زوجته.

- بل أريد سؤالك أنت، أجب بسرعة فوراً.

أعتقد أنّه أثناء الضجة التي أحدثتها عضة «قمر»، استطاع خالي العزيز أو «شمس علي ميرزا» إيصال رسالة إلى «أسد الله ميرزا» تقتضي

عدم التفوه بقضية «عزيزة السّلطنة» مع زوجها، لأنّه أجاب بكلٍّ برودة أعصاب:

- والله في الحقيقة أنا لا أعلم عن الموضوع شيئاً.

- عجيب، لا تعلم؟

أولا هل كنت تعرف أنك لا تعرف، وقلت لا أعرف، أم أنّك لا تعرف بأنّك لا تعرف؟

حسناً؟ أجب بسرعة فوراً... أنت لا تعرف عن، القتل، إختفاء الجثة، إهانة موظف الحكومة أثناء...

أكمل «أسد الله ميرزا»:

- قيامه بواجبه، عرقلة سير التحقيقات القانونيّة...

قاطعه المفتّش مهدّداً:

- تسخر مني وتهزأ من موظف الحكومة أثناء أدائه واجبه...

- ون منت... ون منت... لقد فتحت لنا ملفّات، الحقيقة هي...

- ما هي الحقيقة؟ حسناً؟ أجب بسرعة فوراً.

- نعم بسرعة فوراً، الحقيقة هي ولأن «دوست علي خان» لم يختن قررت زوجته ختنه.

- عجيب، عجيب، وكم كان عمر المرحوم «دوست علي خان»؟

- عمره في حدود...

- إذاً، تعترف أنّ «دوست علي خان» أصبح مرحوماً؟ اعتراف آخر... تكلّم أجب، بسرعة فوراً، كم كان عمره؟

- ون منت سيدي، أنا لم أُعِدْ له ملف الجنسية... يظهر من شكله أنّه في السّتين.

ثارت «عزيزة السّلطنة»:

- أنت عمرك ستون... اخجل... يا سيّد «عمر دوست علي خان» خمسون عاماً.

أكمل المفتّش تحقيقه مع «أسد الله ميرزا»، دون أن يهتم بـ «عزيزة السّلطنة»:

- حسناً.. كنت تقول... بسرعة أجب فوراً، أحضروا حلاقاً ليختن «دوست علي خان».

ما هو اسم الحلّاق؟ بسرعة فوراً، أجب فوراً.

- اسم الحلّاق... «عزيز السّلطنة».[٥]

فغرت «عزيزة السّلطنة» فاها لتصرخ، لكن المفتّش لم يمنحها الفرصة:

٥- في اللغة الفارسية تكتب عزيزة السلطنة بلا تاء التأنيث (عزيز السلطنة) مما دعى المفتش إلى الظن بأنه حلاق.

- أنت اسكتي سيدتي... ما هو اسم الحلّاق؟ بسرعة فوراً، لا أنت لا تجب أنت «مش قاسم»، قل لي بسرعة من هو «عزيز السّلطنة» الحلّاق؟

أطرق «مش قاسم»:

- والله لَم الكذب؟ حتى القبر أأأأأ... السّيدة «عزيزة السّلطنة» هي هذه التي تقف هنا.

- أها عجيب... الموضوع أخذ جانب الانترستان.

تدخل «أسد الله ميرزا»:

- يقصد الانترسان طبعاً.

- اخرس أنت... لا حاجة لتوضيحك، أنا أتقن اللّغة الرّوسية والتّركية والاسطانبوليّة.

ثم انحنى مرة أخرى على كرسيّ «أسد الله ميرزا»:

- إذن باعتقادك أنها هي السّيدة نفسها؟ سكوت.

هل تهزأ مني؟ رجل في الخمسين من عمره يُختن؟ ومن يختنه؟ زوجته بموسى الحلاقة؟...

قاطعه «مش قاسم»:

- سيّدي، ليس بموسى الحلاقة، السّيدة بـ ...

- سكوت... لم يكن الموسى، إذاً بماذا؟ أجب بسرعة فوراً.

- والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أأأأأ بسكين المطبخ... من تلك التي تستخدم لتقطيع اللّحم.

قال المفتّش ساخراً:

- أصبح الموضوع أكثر انترستانا...

رجل في الخمسين من عمره يريدون ختنه، زوجته ختنته بسكين المطبخ...

قاطعه «أسد الله ميرزا»:

- أرجوك انتبه، إنّهم أُناس اقتصاديون، ولكي لا يعطوا الحلّاق حقّه، تقبّلت السّيدة القيام بالواجب، وهي متبّحرة في هذا المجال، زوجها المرحوم الأول الذي ختنته هي بنفسها، والحقيقةُ برّته جيّداً، أنا ذات مرة في الحمام...

بينما «أسد الله» يتكلّم، هجمت عليه «عزيزة السّلطنة»، ولولا صياح المفتّش «تيمور خان» لحطّمته:

- سكوت... تفضلي سيّدتي إلى مكانك بسرعة، فوراً.

والتفت إلى «أسد الله ميرزا»:

- أكمل، الموضوع، لقد أصبح فوق الانترستان.

تفاجأ «أسد الله ميرزا»، فنظر حوله طلباً للمعونة، ولكنّ خالي العزيز و«شمس علي ميرزا» أطرقا رأسيهما، قال مجبراً:

– ولكنّي أُلفِتُ انتباهك إلى أن السّيدة لم توفق لأنه هرب قبل قطع سنبلته...

كان المفتش «تيمور خان» يقطع الغرفة ماشياً، فجأة، ومثل أستاذ يريد مغافلة تلميذ غافل عن الدرس، وقف أمام «مش قاسم» الذّي استند إلى الجدار وصاح فيه:

– أنت قل لي، لماذا هرب؟ المرحوم «دوست علي خان» لماذا هرب؟ بسرعة فوراً، سكوت.

– والله لَم الكذب؟ حتى القبر أأأأأ...

– سكوت... تكلّم بسرعة لماذا هرب؟

أجابه «أسد الله»:

– ون منت، ون منت، إذا كنت أنت مكانه وعندك مثل هذه المرأة وتريد قطع سنبلتك بسكين المطبخ ألا تهرب؟

التفت المفتّش «تيمور خان» إلى «أسد الله ميرزا»، ونظر إليه بغضب وقال له:

– من سمح لك بالحديث؟... حسناً، قل أنت لي: يبدو أن لديك معلومات مُفصّلةً عن الموضوع، قل لي: لماذا أرادت السيدة ختن المرحوم «دوست علي خان»، وهو بهذا العمر؟

– والله هذا السؤال يوجه للسّيدة...

– سكوت، لو أردتُ لسألتُها... أنا أسألك أنت، لماذا أرادتْ ختنه؟ أجب بسرعة فوراً.

– اعذرني على الإجابة... بالتّأكيد كانت هناك مشكلة عبور ومرور في الطريق إلى سان فرانسيسكو.

قفز المفتش إلى «أسد الله»:

– أها... إذاً هناك أسرار في سان فرانسيسكو... نعم نعم... سان... فران... سيسكو..

أجبني ماذا حدث في سانفرانسيسكو؟ بسرعة فوراً.

يكاد خالي العزيز من شدة الغضب أن ينفجر، فقام من مكانه وقال:

– يكفي... سيدي المفتّش، دع الأطفال يخرجون، عيب... أنا لا أسمح بحضور الأطفال

– سكوت سكوت.

نظر مباشرة إلى نظّارة خالي العزيز السّوداء، وقال هو يشدد على الكلمات:

– والآن وبعد أن رأيت النّظام العلميّ للمباغتة، يمسك بخيط مهمّ تعترض؟ ومن أين أدري أنك لست شريكاً في الجريمة؟

أمسك «شمس علي ميرزا» ذراع خالي العزيز:

– تفضل معي... دع هذه المهزلة تنتهي بنفسها وعندها أعرف ما...

تقدم المفتّش «تيمور خان» إلى «أسد الله ميرزا»، فجأة نظر في وجوه الجميع:

– قتل، إخفاء جثة، إهانة موظف الحكومة أثناء أدائه واجباته، عرقلة التحقيق، ضرب وجرح موظف الدولة، وأخيراً تهديد ممثل القانون.

أراد «أسد الله ميرزا» برفعه يديه تهدئة الموقف:

– ون منت، ون منت آسف حضرة المفتّش، أخي عصبيّ بعض الشيء...

– حسناً وأنت لست عصبيّاً، حدّثني عن سر السان فرانسيسكو بسرعة فوراً، حاسّتي السّادسة تخبرني أن مفتاح هذا اللّغز المعقّد في السان فرانسيسكو... أجب.

– على فكرة، ما تقوله عين الصّواب، ولكن اسمح لي أن أقول لك السّر بأذنك؟

– سكوت، الحديث في الأذن ممنوع.

أمسك «أسد الله ميرزا» أمام ضحكه، وقال وهو يحك رأسه:

– والله كيف أشرح لك... سان فرانسيسكو مدينة، مدينة كبيرة جداً وفي...

– سكوت، أرجوك لا تعطني درساً في الجغرافيا، سان فرانسيسكو مدينة كبيرة في أوروبا أعرف هذا... ثم ماذا؟ أجب.

– ون منت، سان فرانسيسكو على أي حال إما أن تكون في أوروبا أو أمريكا هي بندر[٦]... ولأن سفينة «دوست علي خان» لا يمكنها الرّسو في البندر، والآن السفينةُ مكسورةٌ، والبندرُ خَرِب...

فجأة، ارتفع صوت صراخ «عزيزة السّلطنة»، قاطعة حديث «أسد الله ميرزا»:

– اخرس، أيها السكراب... أو أصفعك صفعة تسقط أسنانك.

وشرعت في البكاء، ذهب المفتّش «تيمور خان» إليها، وقال:

– سيدتي أنا أدرك محنتك وحزنك ولكن تحمّلي، لا يمكن للقاتل أن يهرب منّي.

– بارك الله فيك، ولكن أنا... أنا... أظن... أنا متأكدة أن قاتل زوجي هو هذا الرّجل...

فمنذ فترة طويلة كان هذا الرّجل يحبّني ولا يتحمل رؤية زوجي...

صُدِمَ «أسد الله ميرزا»:

– ون منت، حقيقةً ون منت، عمّن تتحدثين؟ أنا أحبك؟

– أكيد أنك تحبّني، ضع عينيك الخبيثتين هاتين بعينيّ وأجب، ألا تحبّني؟

– إلهي أن تغرز نفس تلك السّكين التي أرادت قطع العضو الشّريف بها لـ «دوست علي خان» في عيني.

٦– بندر (بالفارسية): مرفأ بحري، ميناء.

- تفو عليك، حين كان زوجي الأول على قيد الحياة كنت تحوم حولي، حين كنا ممددين نحو القبلة كنت أنت تقبلني في الممر.

- أحرق الله شفتي بالسماور.

هجمت «عزيزة السلطنة» على «أسد الله»، تريد الفتك به، لكن هذه المرّة وقف المفتّش «تيمور خان» وخالي العزيز «نابليون» أمامها، إضافة إلى أصوات الشّجار المرتفع من كل الحاضرين، ما شكّل خليطاً عجيباً، لكن صوت «عزيزة السّلطنة» بقي هو الأعلى حضوراً:

- سيدي المفتش... هذا الرّجل هو من قتل زوجي، أنا متأكدة، فعندي علم بذلك، هذا السّكراب الذي لا يظهر عليه الإجرام قاتل خطر، إنسان بلا قلب، بل أعرف أيضاً أين دفنه.

أسكتت صرخة المفتّش الجميع:

- سكوت.

قرّب المفتّش وجهه العملاق من «عزيزة السلطنة»، وقال:

- سيدتي هذه لحظة حسّاسة، ذكرت أنك تعرفين أين أخفوا الجثة؟

- نعم، نعم، أعرف.

- إذاً لماذا لم تخبريني؟

- لكي تتعرف على القاتل أولاً... لكي لا يهرب هذا القاتل منك.

- سكوت... أين الجثة؟ أجيبي بسرعة فوراً.

– في البستان.

صاح خالي العزيز «نابليون»:

– اخجلي أيُّ هراء هذا.

– أنت اصْمُتْ، لنذهب إلى البستان.

فتّش المفتّشُ، «أسد الله ميرزا» خوفاً من حمله لأيّ سلاح:

– أنت موقوف، لا يحقُّ لك التّحرّك إلّا بأمر مني،... سكوت.

تقدّمت «عزيزة السّلطنة» يتبعها البقية، ووقفت أمام شجرة النّرجس العملاقة، تحفةُ البستان، والأعز على قلب خالي العزيز.

لمحت أبي من بين الاغصان يراقب المشهد وهو يرسم ابتسامة، أحكمتُ إمساك يد «ليلى»، ووقفت بعيداً عن الحشد، إذ لم يعد لأي شيء أهمية، في هذه اللحظة.

ضربت «عزيزة السّلطنة» رجلها وقالت:

– دُفِنَ «دوست علي خان» تحت هذه النّرجسة.

فقال «تيمور خان»، بكل عظمته البوليسيّة لـ «مش قاسم»:

– أحضر المسحاة والمعول.

دُهِشَ «مش قاسم» ونظر إلى خالي العزيز حائراً، لم يطق خالي العزيز «نابليون» الأمر، فأمسك رقبة المفتّش:

- ماذا؟ تريد الحفر؟ أمام النرجسة؟

أبعد المفتّش يدي خالي العزيز بقوة:

- سكوت، هذا ما سيحدث، فليس هناك اعتراف أقوى من هذا،... المعول والمسحاة، بسرعة فوراً... واضح أنها للتوّ حُفِرت.

أخذ خالي العزيز من شدّة غضبه يرتعش:

- لو لُمِسَتْ النّرجسة، سأحطم رأسك بالمعول.

- أهلا أهلا بوركت ! قتل، إخفاء جثة، عرقلة التحقيق، إهانة وجرح موظف الحكومة في حين قيامه بواجبه، والآن تهديد ممثل القانون بالقتل، سكوت... من هذه اللحظة أنت موقوف أيضاً... سكوت.

أخاف المفتّش «تيمور خان» الجميع، فأمسك «شمس علي ميرزا» ذراع خالي العزيز وأجلسه على مقعدٍ، وَسْطَ هذا الصمت صرخ المفتّش بـ «مش قاسم»:

- سكوت، أين المعول؟

- والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... يجب أن يأمرني سيّدي لأحضر لك المعول.

شقّت صيحته السّماء:

- ماذا؟ ألا يكفيك أمري؟ قتل، إخفاء جثة، التّمرد على أمر ممثل...

فجأة قطع صراخ المفتّش صوتُ قَرْعِ الباب، فتحرّك بصورة دائرية وهو يضع إبهامه على شفتيه:

- سكوت، فليسكت الجميع، التّنفس ممنوع... افتح الباب بهدوء، لو لمحت أصغر إشارة منك فالويل لك.

ثم تَبَّعَ «مش قاسم» على أطراف أصابعه واختبأ خلف الباب، حين فتح الباب أوشك أن يرمي نفسه على القادم ولكن ما إن رآه حتى توقف وصاح:

- أيها الأبله... أين كنت؟

القادم الجديد بثيابه المدنية الرّثّة أدّى التّحية العسكرية:

- السلام على سيدي.

اختلى المفتّش «تيمور خان» بالقادم الجديد في زاوية، ثم جاءا سوية إلى الحشد الذي يراقبهما.

- سكوت... أوامر مساعدي الدركي «غياث آبادي» هي أوامري أنا.

تقدم «مش قاسم» والتأثر واضح عليه:

- أنت من (غياث آباد) مدينة (قم)؟

- نعم.

- أهلاً بك... فديت أهل (قم)، أنا أيضاً من (غياث آباد قم)... كيف حالك؟ وكيف الصّحة والاحوال؟ أين تسكن في غيا...

- سكوت... بدل هذا الحديث أحضر لابن مدينتك معولاً.

- والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر أأأأ... المعول مكسور وأرسلناه ليصلحوه.

- عجيب المعول مكسور وأرسلته ليصلحوه؟... بالتأكيد إنّ المعول يعمل على الكهرباء؟ أجب بسرعة فوراً.

- والله لَمَ الكذب... أنا أميٌّ ولا أعرف هذه الأمور، وسطه... يعني أطرافه... افترض أن هذا هو المعول، هنا يلتصق حديده بخشبه... والآن افترض أن هذه عصاه وهذا حديده.

- سكوت، عصاه كسرت رأسك، تسخر مني؟ سكوت...

ما إن أراد خالي العزيز التّدخُّل، حتى صرخ المفتّش:

- هل أنت أصم؟... الدّركي «غياث آبادي» بالتأكيد أنّ المعول في المخزن، اذهب وأحضره.

اعترض «شمس علي ميرزا»:

- سيّدي المفتّش، يعتبر هذا تجاوزاً على حريم المنزل والأملاك الخاصة، هل تعلم ما الذي تفعله؟

- سكوت... حين اعتدى أخوك على حريم روح ذلك القتيل المسكين ألم يذكر هذا الأمر؟ سكوت.

تدخّل «أسد الله ميرزا»:

– ون منت... ون منت... وكأنّ الأمر أصبح جديّاً في إلصاق قتل ذلك الحمار؟ فليذهب إلى جهنّم هو وحريم روحه.

– سكوت.

تحرك الدركي «غياث آبادي» دون أن يلتفت لاعتراض الحاضرين، ليحضر المعول وعاد مؤدّياً التّحيّة العسكريّة:

– سيدي باب المخزن مقفل.

مدّ المفتّش يده لـ «مش قاسم» وقال:

– المفتاح.

– والله لِمَ الكذب يا سيدي؟ حتى القبر ها أها... مفتاح المخزن...

– بالتأكيد إنّ المفتاح أيضاً احترق محوّله، وسلمته ليصلحوه؟

– لا يا سيدي لِمَ الكذب؟ هذا المفتاح... يعني لو سمحت لي المفتاح سقط في حوض الماء، حاولت إخراجه و لم أقدر...

أكمل «مش قاسم»، والمفتّش يحدّق في عينيه، أكمل بنفس ذلك اللّحن:

– يعني تعرف أنّ المفتاح صغير ومن الصعب إخراجه، هل تودُّ أن أحضر حبلا لنُنْزِلَ السّيد «غياث آبادي» في الحوض؟... وأعتقد أن الجوّ ليس بارداً كثيراً ليصاب ابن مدينتي...

– سكوت... قتل، إخفاء جثة، إهانةٌ وضربٌ وجرح موظف الحكومة أثناء...

فجأة... سكت المفتّش «تيمور خان»، ثم أكمل حديثه وهو يسير نحو صفصافة كبيرة:

- حين أدائه واجباته، السّخرية من ممثل القانون، ها أنت ماذا تفعل عندك؟

غافل المفتّش أبي وهو يراقب من خلف الصفصافة.

- سكوت... ماذا تفعل عندك؟ أجب بسرعة فوراً.

قفز خالي العزيز من مكانه يراقب مشمئزاً، مشيت نحو أبي بلا شعور، منّي وتركتُ «ليلى».

دار المفتّش حول الصّفصافة، ثم وقف أمام أبي، مقرّباً وجهه العملاق منه:

- لماذا اختبأت هنا؟ لماذا لم تأت معنا؟ أجب بسرعة فوراً.

- لأنّ الصّفصافة من هذا الجانب تقع في بيتنا وفي الجانب الآخر تقع لأصحاب هذا البيت، من أجل خلاف بسيط حول قطعة أرض قتلوا الشّاب بكل برودة أعصاب، وقطعوا جثّته... ودفنوه.

أصبح غضب خالي العزيز سدّاً أمام كلماته، فالمسافة الفاصلة بيني وبينه امتلأتْ بأنفاسه الحارة.

هذا وقد مثّلت «عزيزة السّلطنة» دور النّدابة:

- آه، فديت الجسد المقطّع للشّاب الذي دفنوه في هذا التّراب.

فأخذ «أسد الله ميرزا»:

– فديت بطنه السّاقط على فخذيه، و لم تُمكّني من تناول وليمة ختنه.

– سكوت، أي لعبة هذه؟

استغلّ أبي سكوت الحضور:

– سيدي المفتّش، كما ذكرت لك لدي معلومات دقيقة حول هذه الأمور، لو سمحتَ لي، سأخبرك بها على انفراد.

– سكوت، الحديث الانفرادي ممنوع.

– ولكن سيدي، نظامُ مباغتتك معروف على مستوى المدينة، وعليك أن تعرف لو كشفت المعلومات بحضور القاتل ومساعديه، لن ينتهي الأمر لصالح القضيّة.

فعل فعله هذا التّقرب المدحيّ، حيث ألقى المفتّش نظرة على الجمع الواقف بجانب النّرجسة وهم ينتظرونه:

– لا يحق لأيِّ شخص التّحرك من مكانه إلى حين عودتي، سكوت،...

الدركي «غياث آبادي» راقبهم إلى أن أعود.

قال خالي العزيز، وهو يحاول تمالك نفسه:

– آمل أن تسمح لابنتي بالذّهاب لتتناول غدائها.

- فلتذهب ولكن لا تخرج من البيت، فمن الممكن التحقيق معها فيما بعد.

عادت «ليلى» إلى الداخل بحركة من خالي العزيز، وأنا راضٍ بعودتها لأني لا أودُّ أن تسمع أذناها البريئتان هذه الحماقات.

ركض «أسد الله ميرزا» نحو أبي وقال له:

- أخي للمزاح حدود أيضاً، الحمار «دوست علي»، هرب والآن يحاولون ربط القتل بي... زوجته مجنونة وابنتها أكثر جنوناً منها، تدخل في الأمر، لو كنت على خلاف مع السّيد ما علاقتي أنا؟

أنت أو غيرك من تدخّل في تلك الحكاية وأصدر صوتاً؟ ما علاقتي أنا؟ هذه السّيدة أرادت ختن زوجها ما علاقتي أنا؟... وأنت تعرف أن لا ذنب لي.

هزّ أبي رأسه، دون أن يلتفت له وقال:

- أنا لا أعرف عن الأمر شيئاً... أين هو أو من قتله، وما عليَّ هو وضع المعلومات بين يدي المفتّش، هو خبير في هذا المجال، على العدالة أن تأخذ مجراها، أليس كذلك يا سعادة المفتّش «تيمور خان»؟

قال جملته ومشى مع المفتّش.

ولكي تعطي «عزيزة السّلطنة» نكهة للأحداث، جلست القرفصاء تحت ظلال النّرجسة حيث حدد مكان الدّفن، ووضعت إصبعها على التّراب، تقرأ سورة الفاتحة، ناداها المفتّش:

- سيدتي تعالي معنا.

ذهبت خلفهم ولكن أمام الصّالة منعني المفتش من الدّخول.

حين عدت رأيت خالي العزيز، و«أسد الله ميرزا» جالسين تحت العريشة يهمسان، «مش قاسم» أيضاً تنحى بمساعدة المفتّش، و«شمس علي ميرزا» وحيداً يقطّع المسافة بغضب.

سوّلت لي نفسي، أن أطّلع على ما يدور بين خالي العزيز و«أسد الله ميرزا»، فاقتربت بحذر واختبأت خلف العريشة.

- هل أدركتَ ما يرمي إليه؟ كيف أنا...

- لم تستمع إليّ «أسد الله» أنا مطمئن من مكان اختبائه، هذا الخبيث هو من أخبر «عزيزة السلطنة» لكي يحفر قرب النّرجسة، تعرف كم أحب هذه الوردة، لو حركت تربتها سوف تيبس جذورها، لو دققت للاحظت أنّ التّربة قلّبت.

- ون منت... ولأنّه قد تجف جذور نرجستك، علي الاعتراف بقتل «دوست علي»؟

- ما أريده هو ساعتين فقط، لأجد «دوست علي»، يكفي اعترافك لنتحايل على المفتّش ليأخذك إلى الشّرطة وأخرج أنا وأجده، الأوضاع تسير على نحو يمكنني وحدي أن أجد «دوست علي» لأتحدث معه وأقنعه.

- افترض أننا لم نجده أو وجدناه وأوقفني المفتش بتهمة إزعاج السّلطات والتّلاعب عليها، لن أستيطع رفع رأسي في العمل؟

- على أيّ حال أنت المتهم الآن، «أسد الله»... وعلى أيّ حال من الممكن أن يوقفوك.

- ون منت، ون منت، بكلمة من هذه المرأة المجنونة، لا يمكن القبض عليّ،، لا يمكنها ذلك.

- ولكن، لو قاموا بذلك لن تستطيع أن تعترض، سوف تسجن إلى أن تحاكم، أعدك أن أجد «دوست علي» ولا تفكر في الباقي فلدي أصدقاء كثيرون في الشرطة، ولن أتركك تبيت في النظارة.

- لم أتوقع منك أنت رغم رجاحة عقلك اقتراح هذا الأمر عليّ، ليت رجلي انكسرت و لم آت إلى هنا.

- «أسد الله» أنا أرجوك، الأمر طبيعي إذا عاد المفتّش تظاهر بأنّك نادم، ومباشرة اعترف بقتل «دوست علي» ودفنه في قبو منزلك، وأنا مطمئن أنّي سأجده أينما كان وسأرسل «مش قاسم» ليخبرك أننا وجدناه وأعدك لن تواجه أي صعوبة.

- اعذرني، لا... حتى لو أوقفني المفتّش «تيمور خان»، لا أستطيع من أجل جذور نرجستك أن أصبح قاتلاً.

وقف «أسد الله ميرزا» ليرحل، فقال له خالي العزيز بحدّة:

- اجلس يا «أسد الله» لم أنه كلامي بعد، ترك «دوست علي» رسالة.

- رسالة؟... إذاً لماذا لم تقل لي؟...

- اسمعني... في اللّيلة التي بات فيها عندنا ذهبت إليه في الصباح

الباكر فوجدت على سريره رسالة لي، كتب فيها أنه سيختفي لفترة حتى نحل نحن العائلة قضيته مع زوجته وننهي موضوع «شير علي» القصّاب...

– ون منت، ون منت، هذا الحمار ينغمس في مجونه ثم نتحمل نحن العائلة أوزار أفعاله؟

– اصبر يا «أسد الله»، أفراد العائلة ليسوا بريئين كلهم، إذا حدث له سوء سوف يرمي بظلاله على الكثير منا.

– وما علاقتي أنا؟ لست المسؤول عن أفعال العائلة...

جمع خالي العزيز عباءته، وأخرج من جيبه ورقة مطوية نزعت من دفتر مدرسيّ:

– بارك الله في «دوست علي» أي خط جميل هذا!

أرجع خالي العزيز يده، وأمسك الورقة بصورة لم يستطع «أسد الله ميرزا» من الاطلاع على ما كتب فيها ثم قال:

– اسمع ما سأقرأه جيداً، (إذا لم تحل هذه المشكلة في اليومين القادمين، سوف أضطرُّ لفضح أسماء من شاركوا في قضية طاهرة).

فوجئ «أسد الله ميرزا»:

– طاهرة، زوجة «شير علي» القصاب؟

نظر إليه خالي العزيز وقال:

- نعم، زوجة «شير علي» القصاب، اسمع... ثم ذكر بضعة أسماء سمعها عن لسان المرأة نفسها.

وضع «أسد الله» يده على فمه، مانعا انطلاق قهقهته:

- ون منت، القضية باتت أكثر حلاوة.

- نعم هي أكثر حلاوة... خاصة إذا عرفت أن اسمك موجود أيضاً.

- ماذا؟ كيف؟ لا أفهم، اسمي أنا؟ قسماً بالملح، قسماً بحياتي... قسماً بك...

- لاتقسم بحياتي، وجد «دوست علي» عندها حجر عقيق أبيك الذي وضعته في خاتمك، وزعمت قبل فترة أنّه ضاع، وهل أنت أعمى، خذ اقرأ الرسالة بنفسك.

ارتبك «أسد الله»:

- أنا... يعني... يشهد الله... أنت تخيل...

تخيل «أسد الله» «شير علي» أمامه، وخالي العزيز مازال يحدق فيه، اصفر وجه «أسد الله»، وقال بصوت راعش:

- أنت تعرف جيداً أن هذه التّهمة ألصقت بي.

- لو لم تلحق هذه التّهمة أحد الأسماء المذكورة، فأنت سوف تأخذها بجدارة.

صمت «أسد الله ميرزا» مرة أخرى ثم قال:

- من ذُكر أيضاً؟

سحب خالي العزيز الورقة منه وقال:

- لا تعنيك الأسماء الأخرى.

- ون منت، كيف لا تعنيني.

اطمأن «أسد الله ميرزا»:

- يجب أن أقرأ الرسالة وإلّا فلن أعترف.

بقي خالي العزيز متردّداً، ولكن، حين وقع نظره على النّرجسة مدّ يده بعصبية.

أخذ «أسد الله» يقرأ الرّسالة بدّقة كان يعضّ إصبعه حيناً، وحيناً يضرب على فخذه ضاحكاً:

- ياه بورك العقيد... لم أتوقع أبداً العقيد؟ عجيب «محمد حسين خان» أيضاً...

وضع «أسد الله ميرزا» يده على فمه، وكتم ضحكته، وقال وهو يمسح دمعه بكلمات متقطعة:

- هذا... هذا... محال... أخي «شمس علي»... ون منت ون منت...

وضع خالي العزيز يده على فمه، وباليد الأخرى سحب الورقة:

- اخفض صوتك، إذا عرف «شمس علي» بالموضوع سوف يشعل الدّنيا... هل عرفت الآن، لماذا لم أسلّم الرّسالة للمفتّش... هل عرفت الآن أن الموضوع لا يتعلق بالنّرجسة فقط... فكّر بالأمر لو عرف هذا الخبيث... هل تظن أنه سيرحمك أو يرحم الآخرين وخاصة أخيك؟

قال «أسد الله» وهو يحاول كتم ضحكته بصعوبة:

- على فكرة أين العقيد؟

- ذكرت له أمر الرّسالة، من خجله لم يخرج.

لم يتحمل «أسد الله» المزيد، فضحك وقال:

- يا مولانا أغرقه، ونحن من بعده كلنا.

أمسك خالي العزيز ذراع «أسد الله» وقال:

- «أسد الله» فكّر جيداً، من الممكن ألّا يصدّق «شير علي» تدخل الأسماء الأخرى ولكن أنت، زير نساء، فاجر، مسعور ووسيم... قبل أيٍّ شخص آخر، سيأتيك بالسّاطور، فكّر بالأمر.

- حسناً كما تأمر... سأكون أنا القاتل ابتداء من هذه اللحظة، وأنا من قطع رأس «دوست علي»...

حقيقة، لو كان هنا لتمنّيت قطع رأسه، فمع الأسف أن تكون طاهرة الحسناء لهذا الثعلب، يعني هي أصبحت من نصيب سرب ثعالب هذا...

- أعدك بأن لا يمسَّكَ سوء، ولكن يجب ألا يضربَنا هذا الخبيث من

الخلف، دع هذه القضيّة تنتهي، وإذا لم أطلق أختي منه فلن أذكر اسمه أبداً، على حد قول «نابليون»، أحياناً التّراجع والهروب من ساحة المعركة أفضل استراتيجية، ولكن كيف حدث ذلك؟ كم طالت جلسة المفتّش مع هذا الرجل؟ أخاف أنه يخطّط لمصيبة أخرى... على أيٍّ حال كل استراتيجيّتي تعتمد عليك.

– اعتمد عليّ، سأقوم بدوري، وإذا أردت الحقيقة، لولا الخوف لخنقت «عزيزة السلطنة» بيدي، ولكن إذا سألني المفتّش لماذا قتلته.بماذا أجيبه؟

– ليس هذا الأمر مهماً الآن، أنا متأكد أن هذا الخبيث يروي للمفتش قضية بناية (علي آباد) الذي يملك «دوست علي» نصفها، وأنت متّهم فيها أيضاً، وبإمكانك أن تعيد كلام «عزيزة السلطنة»!

– ون منت، هل تريد أن أعترف بحبي لهذه العفريتة؟

لم يجد خالي العزيز فرصة للرّد، إذ طُرِقَ الباب ودخل السّيد أبو القاسم، جاء إلى خالي العزيز بوجه حزين، وقال وهو يتنفس بصعوبة:

– سيدي أنقذني... بعد تلك القضية التي أثرتها حول الأدوية والصيدليّة، أغلق زوج أختك الصيدليّة، ولكن اليوم جاءني الصيدليّ وقال لي إذا لم تُحلَّ قضية الصيدليّة اليوم، فسوف يخبر أهل الحارة جميعاً بأنّني على علاقة بزوجة «شير علي» القصاب...

قفز «أسد الله» من مكانه:

– ون منت، ون منت، أنت أيضاً؟... ما شاء الله... يعني ما شاء الله على «طاهرة خانم».

- أستغفر الله، أبداً، أبداً،... هذا افتراء، تهمة، إشاعة، صادرة عن عدو...

تحول «أسد الله ميرزا» إلى المفتش «تيمور خان»، قرب وجهه من أبي القاسم وصرخ فيه:

- النّجاة في الصّدق، اعترف، قل الحقيقة.. الواقع.. فوراً بسرعة...

تراجع سيد «أبو القاسم» إلى الخلف وقال:

- كذب.. كذب... قد أكون في مرحلة الشّباب، وفي زمن الجهالة قد قمت...

ضغط عليه «أسد الله» بأسلوب المباغتة:

- ماذا حدث في زمن شبابك وزمن الجهالة؟ بسرعة فوراً... هل قمت بالفرانسيسكو؟ بسرعة فوراً...

- «أسد الله»، هل تدعني أعرف ما يقوله هذا الرجل؟

ولكن «أسد الله ميرزا» قاطعه:

- ون منت، بسرعة أجب فوراً.

قال «سيد أبو القاسم» الذي ارتبك:

- لقد قمت بتحقيقات عميقة عنها، تقول لو طلّقها «شير علي» فهي ترغب بالزّواج بي، ولكن علاقة غير مشروعة أستغفر الله.

رفع «أسد الله ميرزا» رأسه منتصراً:

- نظام مباغتة المفتّش فعّال... بارك الله لك فيها... ادعمها لفعل ذلك، هذه المرأة بكل هذه الأبهة والتّربية، مع الأسف تكون زوجة هذا الحمار القصاب حتى أنّه لا يمكننا الاقتراب من بيته، تحتاج هذه المرأة إلى شخص مؤدّب مثل حضرتك لكي لا يهرب الناس منه، إن شاء الله بالبركة، أين أنت يا رجل؟ منذ فترة لم أرك، إذا سمحت لي الظّروف أرجو أن تزورني، خاصة إذا تمّ الزواج مع السّيدة الشّريفة لتحضرها معك...

لم يتحمّل خالي العزيز أكثر:

- «أسد الله» اخرس... سيدي تفضل أنت وعد إلى بيتك، سوف أزورك الليلة لنتحدث في الأمر، اطمئن سوف نجد حلّاً اللّيلة لهذه القضية، تفضل... تفضل...

خالي العزيز يريد أن يخرج السّيد «أبا القاسم» قبل وصول المفتّش لأنّه لو رآه لفتح ملفاً جديداً، أوصله ورجع إلى «أسد الله ميرزا» ليكمل معه ما بدأه، لكنه لم يجد الفرصة إذ سمع صرخة المفتّش «تيمور خان»:

- أين أنت يا تمثال البلاهة؟ الدركي «غياث آبادي»، أيها الأحمق، بدلاً من مراقبة المتهمين، ذهبت تثرثر عن (غياث آباد قم)؟

ركض الدّركي، ليصل بأقصى سرعته إلى المفتّش، قدّم التّحية العسكريّة، ووقف ينتظر الأوامر:

- سيدي كل المتهمين موجودون.

ذهب المفتّش و«عزيزة السّلطنة» إلى خالي العزيز و«أسد الله ميرزا»، «عزيزة السّلطنة» تمسح دمعها، مدّ المفتش إبهامه إلى أنف «أسد الله»:

– سيد «أسد الله ميرزا»، الدلائل تشير إليك، لو كنت مكانك لاعترفت فوراً... اعترف بسرعة.

أطرق «أسد الله ميرزا» رأسه، وقال بلهجة النادم:

– نعم سيدي المفتّش، الحق معك... أعترف بأني قتلت «دوست علي».

-٧-

بعد اعتراف «أسد الله ميرزا» المفاجئ، بُهِت المفتّش «تيمور خان»، ثم شرع يضحك:

- سكوت... نجاح آخر للنّظام الدّولي للمباغتة... قاتل آخر، في يد العدالة، الدركي «غياث آبادي» أحضر القيود.

تجمّد الجميع، اقتربت من الجمع بحذر، كسر الصّمت صوت «شمس علي ميرزا»، كأنّه خارج من بئر:

- ما الذّي أسمعه؟... أسد الله... أسد الله...

لم يجد خالي العزيز فرصةً ليخبر «شمس علي ميرزا» بما اتفق عليه هو و«أسد الله»، قال له:

- صاحب السعادة، لا تحزن، بالتأكيد أنه سوء تفاهم.

فجأة، اختلط الحابل بالنابل، والأدهى أنّ «عزيزة السّلطنة»، حاولت مستميتة رمي نفسها على «أسد الله ميرزا»:

- إذاً أنت من قتلت «دوست علي» حقاً؟... يا عديم الشّرف، يا قاتل.

سقط «شمس علي ميرزا» على المقعد، الجميع يتحدث في آن واحد، حتى خالي العزيز تحدث مع «أسد الله ميرزا» بعجالة لا تُفهم، صوت المفتّش يعود:

– سكوت... قلت سكوت.

بيد أن «عزيزة السّلطنة» لم تتراجع عن هجمتها:

– سأخرج عينيك بأظافري هذه، أراك ممدداً على مقعد الموت، لست ابنة أبي إذا لم أقتلك بيدي، سيدي المفتش... سيدي المفتش دعني أخنق هذا القاتل بيدي، أماتك الله بالطاعون، ما الذي فعله لك هذا الطفل البريء لتقتله؟

بإشارة من المفتّش، وقف الدّركي «غياث آبادي»، فخافت «عزيزة السّلطنة» وأغلقت فمها، مرت دقائق حتى هـدأت، مسح المفتّش «تيمور خان» العرق عن جبينه:

– سيدتي لا يمكن للأشخاص أن يطبقوا العدالة... ملائكة العدالة تراقبنا، سوف يأخذ هذا الرجل جزاءه، أعدك سوف ترينه معلّقاً على حبل المشنقة في مدّة لن تتجاوز الشهر.

ثم التفت إلى مساعده:

– الدركي أين القيود؟

– سيدي وصلت المركز، وقالوا لي أنّك أرسلت في طلبي على هذا العنوان... أردت أخذه وأنا خارج، لكن لم تسنح لي الفرصة، إذا كنت تذكر قفله تعطل وسلمناه ليصلحوه...

– أيها الأبله... يا تمثال البلاهة...

تدخل «مش قاسم»:

– هل تريد أن أحضر حبل السّرير لتقيّده به؟

تدخل خالي العزيز:

– سيدي المفتش... لا أصدّق... ولكني أرجوك أن تدع القيود والحبل جانباً، أنا أضمن «أسد الله»، لو لاحظت إنساناً بكل هذا الصّدق والنّدامة الواضحة لن يهرب... انظر إلى ملامح وجهه فقط.

تحول «أسد الله ميرزا» إلى إنسانٍ أذابه الألم، ولو لم أكن على معرفة بالأمر لصدّقتُ أنّه هو القاتل.

لم يكن أمام المفتّش إلّا الرّضوخ.

– إذا لم أقيِّدُك؟ هل تعدني بألّا تهرب؟

– أعدك.

اقترح «مش قاسم» إحضار دلو ماء ليسكبه على وجه «شمس علي ميرزا» لكن المفتش رفض.

– سكوت، هذا السّيد عصبي المزاج، الأفضل بقاؤه كما هو حتى نهاية التّحقيقات.

ثم التفت إلى «أسد الله ميرزا»، وقال له وهو يمسح نظارته السّميكة بخرقة دسمة ناظراً إليه نظرة انتصار:

– محال، عدم اعتراف أي شخص كان تحت ضغط نظام المباغتة، ولكن على أي حال، ولأنّك اعترفت بسرعة، فهذا دلالة على ذكائك، والآن أريد منك الإجابة على أسئلتي بدقة، واطمئن، صدقك سوف يؤثر على قضيتك.

عادت «عزيزة السّلطنة» إلى هجومها، ولكن الدّركي «غياث آبادي»، تدخّل في الوقت المناسب، وأجلسها على مقعد، واستند بكل ثقله على جسدها السّمين مانعا إياها عن الحركة.

– سكوت... متى قتلته؟

أجابه «أسد الله ميرزا» مطرقاً رأسه:

– في تلك الليلة، التي هرب فيها من منزله...

– لماذا هرب القتيل من منزله؟ أجب بسرعة فوراً.

– ون منت... أولاً، أنا اعترفت ولست بحاجة إلى (بسرعة وفوراً)...

ثانياً كم مرة قلت لك، إن السيدة أرادت ختنه؟

– تختن ماذا؟ أجب بسرعة... فوراً.

– قصدت نفس الشخص القتيل، ولأني نادم على ما فعلت، ضميري لا يسمح لي بذكر اسمه.

– حسناً، ثم ماذا حدث؟

– حين جاء إلى هنا، خاف الرجوع إلى البيت، فتختنه السّيدة مرة ثانية...

– أو لم يختن سابقاً حتى يختن مرة ثانية؟

– لا... قصدت أنه خاف أن يختن، قال لن أعود للبيت، السّيد أمر بأن يبيت هنا، وحين أحسستُ أنه لا يودّ البقاء هنا، اقترحت عليه المجيء عندي إذا ما نام الجميع.

– هنا، هل جاءك أم لا؟

– ون منت... سيدي المفتّش، أي سؤال هذا؟ إذا لم يأت إلى عندي فلِمَ كل هذه الضجة؟

– حسناً، ثم ماذا حدث؟ جاء إلى عندك؟

– لا شيء... جاء إلي في الثّالثة صباحاً، كان أخي نائماً فرأيت أنّها أفضل فرصة، قطعتُ رأسه...

باهتزازة من «عزيزة السّلطنة»، سقط الدركي «غياث آبادي» على الأرض، وشنّتْ هجمتها على «أسد الله ميرزا»:

– أنا من سيقتلع عينيك... سأدفنك...

– إذاً، قطعت رأسه؟

– نعم... قطعته.

– ثم ماذا فعلت به؟ بسرعة فوراً.

- بسرعة وفوراً رميت رأسه بعيداً.

ضرب «مش قاسم» على رجله:

- آه العاقبة لله، هذه نهاية شارب الخمر.

قال له خالي العزيز:

- أنت اخرس.

- سكوت... الكل هنا يحاول المزاح معي... رميت رأسه بعيداً، بكل هذه السهولة، وهل كان رأسه رأس خيار؟

- قصدت أني فصلت رأسه عن جسده.

- بماذا فصلته؟ بالسكين؟... بالخنجر؟... بالسيف؟... سكوت، ما هو سبب قطع رأسه؟ لماذا قتلته؟

- والله...

- بسرعة فوراً أجبني.

أطرق «أسد الله ميرزا» رأسه مرة أخرى:

- اعترفت لك بكل شيء، ولكن أرجوك أنّ لا تصرّ علي أكثر، فأنا لا أتحمل.

قرب المفتش وجهه العملاق من «أسد الله ميرزا»:

- إذاً لا تستطيع ذكر السبب؟ دعني أرى... ممكن أن هناك جرائم أخرى تخفيها عني؟ صحيح؟ أجبني بسرعة فوراً.

- ون منت، هل أصبحت الآن «أصغر» القاتل؟[٧]

- سكوت أنت أخطر من «أصغر» القاتل... «أصغر» القاتل لا يقطع رأس إنسان سمين... لماذا قتلته؟ أجبني بسرعة فوراً.

- آسف سيدي المفتّش، لا أستطيع الإجابة؟

- سكوت... لا تستطيع الإجابة؟ سوف ترى الآن... الدركي «غياث آبادي».

- ون منت، ون منت... حسناً سأعترف... لأنك تصر، سأعترف... أنا... قتلت «دوست علي»... «دوست علي» لأني...

- لماذا؟ بسرعة فوراً.

انحنى رأس «أسد الله ميرزا» أكثر وأجاب ببراءة طفل:

- لأنني أحبُّ زوجته، لأنَّ «دوست علي» سرق حبي، لأنه جرح قلبي بجرح لا شفاء منه.

أطبق الصّمت، شفتا المفتش تسمّرتا دهشة، نظرتُ بلا شعور إلى «عزيزة السّلطنة»، كانت صنماً، عاد المفتّش يسأل هذه المرة بصوت خفيض:

٧- قاتلٍ معروف.

- هذه السّيدة؟ كنت تحب هذه السّيدة؟

تأوه «أسد الله ميرزا» وقال:

- نعم سيدي المفتّش... والآن بعد وصولي إلى آخر أعوامي الجميع يعلم

«عزيزة السلطنة» وهي تراقب «أسد الله ميرزا»، جمعت قواها وصاحت:

- «أسد الله»... «أسد الله».

أمعن «أسد الله ميرزا» أكثر من اللازم في لعب دور العاشق الولهان:

- أخفى سعدي آلام قلبه مرات، وها هي السّتارة تُعرّي الأسرار.

الحشدُ يتابع ما يدور متأثراً، قالت «عزيزة السّلطنة» له وهي تقطر رقة:

- آه «أسد الله»... ماذا فعلت؟ لماذا لم تقل لي؟

قال «أسد الله» وهو يذوب عشقاً:

- سيدتي لا تشعلي النار في... لا تغرسي السّكين في قلبي.

- آه «أسد الله»، عسى أن أموت ولا أراك على هذه الحالة

لماذا لم تقل لي؟ لماذا قطعت رأسه؟

- «عزيزة» يكفي لا تعذبيني.

- آه قتل الله «عزيزة»، «أسد الله»... لا تحزن علي أن أتقاضى عن دمه وسأفعل، حادث ووقع.

لم يعد المفتّش «تيمور خان»، يتحمّل ما يراه:

- سكوت... سيدتي على القاتل أن يعاقب، عفوك عنه لن يؤثر.

هجمت «عزيزة السّلطنة» على المفتّش:

- سكون وسم، ما دخلك أنت؟ هل قتل زوجي أم زوجك؟ كان زوجي، وإذا رغبت فسأعفو عنه.

- سكوت، كيف تعفين عنه؟

- مثلما أشاء، ذلك المسكين انتهى عمره، كان يقول: إن عمره خمسون عاماً، ولكنّه في الحقيقة ستّون عاماً.

قرّب المفتّش «تيمور خان» وجهه العملاق منها:

- سكوت... في هذه الحالة لا أستبعد أنّك شريكتُه في القتل... سكوت... أنت كم مرّ من الوقت... آخ...

لم يكمل المفتش جملته إذ انغرست أظافر «عزيزة السّلطنة» في رقبته المتهدّلة:

- سأقتلك... ما الذي ظننته؟

– قاتلة... سكوت... هل تظنين أنّني أنسى القتيل؟

– القاتل أنـت... رحـم الله ذلك المسكين، كان مع زوجة «شير علي» القصاب.

قفز خالي العزيز و«أسد الله ميرزا» من مكانهما، مشعلان صخباً حتى يغطّيا على اسم «شير علي»، كي لا يسمع المفتّش.

لكن المفتّش بقي صامتاً، يراقب حتى هدأت الأجواء، فتقدّم من «أسد الله ميرزا»:

– من هو «شير علي» القصاب؟ أجب بسرعة فوراً...

تكلم خالي العزيز و«أسد الله» في وقت واحد، ثم أخذ خالي العزيز زمام الحديث:

– هذا موضوع آخر، كان «شير علي» قصاب المحلّة قبل أعوام ومات.

أضاف «أسد الله»:

– رحمه الله كان رجلاً طيباً، قبل عامين مرض بالحصبة ومات.

– سكوت، ومن أين أعلم أنّك لم تقتله أيضاً؟

– ون منت، ون منت إذاً، تتفضل وتقول إنّه لا عمل لدي غير القتل... قتل «دوست علي» يكفيني لأعوام.

– عجيب، عجيب، لم تقل لي أين خبأت جثته؟

- دفنته في حديقتنا.

- من ساعدك؟ بسرعة فوراً أجب.

- لم يساعدني أحد، كنت لوحدي.

وضع «أسد الله ميرزا» يده على ظهره:

- آه ظهري... مازال ظهري يؤلمني، لو تعلمون كم كان ثقيلاً.

رفعت «عزيزة السّلطنة» حاجبيها وقالت:

- من شدة شراهته.

صرخ خالي العزيز:

- سيدتي، اخجلي، يكفي.

صرخ المفتّش:

- سكوت... أنت اخرس، فليسكت الجميع، فلنسرِ إلى مكان إخفاء الجثة، لا يحقُّ لأحد الخروج من البستان حتى عودتي، سكوت، سيدتي أنت أيضاً ستبقين هنا حتى أعود.

- أبداً، أنا ذاهبة معكم.

- سيدتي رؤية جثة مقطوعة الرأس سوف يؤثر عليك من الأفضل...

قالت «عزيزة السّلطنة» بحزم وهي تشير إلى «أسد الله ميرزا»:

- أدعك تأخذ هذا الشّاب مثل خروف وأجلس أنتظر هنا؟ لا أنا آتية معكم... دعنا نذهب، وهل هو رأس زوجك أم زوجي؟

حين ساروا سمعت «أسد الله ميرزا» يدمدم:

- يا «علي المرتضى»... هذا ما لم أفكر فيه.

***

ما إن سار المفتّش، حتّى أخبر خالي العزيز «شمس علي ميرزا» بما حدث، ثم بدأت حركة البحث عن «دوست علي خان»، بعث ثلاثة أشخاص إلى أماكن متفرقة قد يكون «دوست علي خان» فيها، جاء خالي العقيد الذي خجل من الحضور كل هذه الفترة وبدأ بكل قوته في محاولة مصالحة خالي العزيز «نابليون» وأبي، وأول ما قام به إيجاد أرضية لحل هذا الخلاف، فقال لخالي العزيز «نابليون» بصورة قاطعة، إذا لم يعقد الصّلح مع أبي فسوف يترك البيت ويسلِّمه إلى أحد أوباش المحلة، وبتحريك منه هدّدت أمي أبي، إذا لم يحلّ خلافه مع خالي العزيز فسوف تنتحر بالترياق «الأفيون».

في حين نشط البحث عن «دوست علي خان»، ومن جانب آخر ذهب «أسد الله ميرزا» و«عزيزة السلطنة» مع المفتّش ومساعده لإخراج الجثّة، عُقِدَتْ جلسةٌ عاجلةٌ لشورى العائلة، بجهود خالي العقيد في بيته.

بدأت المباحثات من أجل حلِّ الخلاف القائم، فقد ذهب خالي العقيد عدّة مرّات و«شمس علي ميرزا» لرؤية خالي العزيز «نابليون» وأبي.

الكثير من الخلافات كانت قابلة للحل، والطّرفان لم يصعّبا الأمور كثيراً فيها، قبل خالي العزيز «نابليون» بمرور الماء، وقبل أبي بنسيان ما فعلته «عزيزة السّلطنة» بزوجها وعلاقته بزوجة «شير علي» القصاب، وافق خالي العزيز أن يطلب من السّيد «أبـي القاسم» التّراجع عن موضوعٍ وجود الكحول في أدوية صيدليّة أبي، ووافق أبي أن يصرف الصيدلي ويأتي بآخر، لكي يسهّل أمور السيد «أبي القاسم»، وافق أبي على أن لا يهين خالي العزيز «نابليون» في العلن ولكن في نفس الوقت لن يخضع كما يفعل البقية ليتملّقه أو يمدحه، وبعد محاولات وزيارات وجهود خالي العقيد و«شمس علي ميرزا»، وافق أبي أن يذكرَ في العلن أن مغامرات «نابليون» كانت ضارة بفرنسا ولكنه على أي حال يحب فرنسا ووطني.

ورغم كل الضغوط على أبي، لم يقبل أن يصدّق بثورية خالي العزيز الدّستورية، وما وافق عليه هو ألا ينكر شجاعة خالي العزيز في جنوب البلاد، لقمع قُطّاع الطّرق، خاصّة في حرب كازرون وممنسني وغيرها من الحروب.

الموضوع الوحيد الذي بقي عالقاً، هو الصّوت المشكوك به، فقد توقع خالي العزيز أن يعترف أبي أمام الجميع، بأن الصّوت صدر منه ولكنّه لم يتّعمد، بيد أن أبي لم يقبل، وطلب في المقابل اعتذار خالي العزيز منه على الشّعر الجارح.

في نهاية الأمر، توصل الحضور إلى نسبة الصّوت المشكوك به إلى شخص آخر، ثمّ يثبت هذا الشّخص بالأدلة والبراهين أنّه صدر منه.

كان إجماعٌ شبه كامل على هذا الرّأي، ولكن هناك ثلاث قضايا

لم تحسم بعد، إحداها أن من حضر لتحمل المسؤولية، لم يكن في تلك اللّيلة قريباً من مكان خالي العزيز، و«قمر» لا تقبل أمُّها بأيٍّ وجهٍ أن تذهب ضحية هذا الصّلح.

لذلك لن تُحَلَّ هذه المشكلة، إلّا إذا وُجِدَ شخصٌ كان قرب خالي العزيز.

المشكلة الثّانية، هي تقبُّل هذا الشّخص للصّوت المشكوك أنه صدر منه.

المشكلة الثالثة، هي إقناع خالي العزيز «نابليون»، بصدق اعتراف هذا الشخص.

فيما البحث والجدل قائم بين الحضور، قال «شمس علي ميرزا»:

– اصبروا... في تلك اللّيلة، إضافة إلى الشّخصين المذكورين سابقاً كان «مش قاسم».

اعترض اثنان من العائلة:

– ولكن «مش قاسم» لم يكن بجانب السّيد بل خلفه.

قال «شمس علي ميرزا» غاضباً:

– وهل لدى السّيد جهاز تعقُّب الأصوات؟

تذكّر جميع الحاضرين أنه في تلك اللّيلة، حين كان خالي العزيز «نابليون» يقصُّ حكاية حرب كازرون وتصويبه على جبهة رئيس

العصابة، وخاصة عند انطلاق الصّوت المشكوك، كان «مش قاسم» يقف خلف خالي العزيز، ولكن خالي العقيد اعترض:

– لا تسعدوا أنا أعرف «مش قاسم» جيداً، إنّه ليس من النّوع الذّي يقبل بسهولة ال... فهو يرى أنّ هذا النّوع من الأصواتِ قضيّة شرف.

وضع «شمس علي ميرزا» يده على خده وهو يفكّر، وقال:

– صحيح، إذا كنتم تذكرون القصّة التي ذكرها لنا مرّات عدّة عن ابنة عمه التي قتلت نفسها لأنها أصدرت صوتاً في يوم زفافها.

– لو أعطيناه مبلغاً من المال ممكن، ولو أنّ الرّجل ليس مادياً.

لا أريد تفويت هذه الفرصة بأي ثمن قلت:

– هل تعرف يا خالي العزيز، قبل فترة قال لي «مش قاسم» أن لديه أمنية واحدة لا غير، وهي بناء مخزن ماء في مدينة (غياث آباد) وجعله وقفاً.

تعالت الأصوات مؤيدة لرأيي.

وقبل إحضار «مش قاسم» للتّشاور معه، وطرح القضيّة على خالي العزيز «نابليون»، وبعد مباحثات قال أحد الحضور:

– آسف جداً... أتمنى ألا تغضبوا من الاقتراح الذي سأطرحه عليكم ولكنّه الطريق الوحيد لنا كلنا لحل هذه القضية، علينا جميعاً أو على كل من حضر في تلك اللّيلة، أو على الأقل بعضنا أن نقسم بروح المرحوم الكبير أن الصّوت المشكوك صدر من «مش قاسم»...

- رونح السّيد الكبير؟

- روح السّيد الكبير؟

- روح السّيد الكبير؟

أوشك شخصان من الحضور أن يفقدا وعيهما، وقامت ضجّة لا تُوصف، بعد لحظات ساد صمت ثقيل، سلّط كل الحضور أعينهم في قائل هذا الاقتراح.

المرحوم الكبير، هو أبو خالي العزيز «نابليون»، ولا يجرؤ أحد في العائلة، حتى من أجل إثبات حرّ الصّيف أن يقسم بروحه.

أضاع مقدّم الاقتراح نفسه، ولم يدرك ما يفعله، فساعده الحضور ليجمع شتات نفسه، وأقسم ألا يعاود الكرة، بل أقسم أنه لم يأت على ذكر (الكبير) وقصد (روح السيد) يعني أبو خالي العزيز لا (روح السّيد الكبير).

وبعد مجادلات طويلة وافق الحضور على إحضار «مش قاسم».

بدأ «شمس علي ميرزا» حديثه مع «مش قاسم» بصورة وديّة ليثبت له أنّ الأمر واقف عليه لينقذ عائلة شريفة ومحترمة وكبيرة من الانهيار:

- نطلب منك أن تُضحّي من أجلنا ومن أجل السّيد يا «مش قاسم»، هل أنت على استعداد من أجل هدف مقدّسٍ أن تمدّ لنا يد العون؟

- والله لِمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... ليس سوى أربع أصابع، أولاً أنا أكلت في هذه العائلة الملح والخبز، ثانياً أنقذني سيدي من موت

مؤكد، ليس مرّة ولا مرّتين بل مئة مرة، ثالثاً أنا لستُ أهلا لذلك...
أتذكر مرّة في حرب كازرون أن أحد أصدقائنا، أصيب برصاصةٍ برأسه وخرجت من مؤخرة رأسه، المسكين كان من أهل ملاير...

حاولتُ كثيراً أن أضعه على فرسي لأخرجه من ساحة الحرب، لكنّه لم يقبل، فقال لي:

- «مش قاسم»، اذهب أنت لم يبق في العمر الكثير، ولكن هل أتركه...

قاطعه «شمس علي ميرزا»:

- يا سيد «مش قاسم»، أرجوك دع هذه الحكاية لما بعد... أجبني هل أنت على استعدادٍ لتقديم العون لنا في هذه اللّحظة الحسّاسة؟

أجابه «مش قاسم» الذي توقع على الأقل استماع حكايته:

- طبعاً أنا خادمكم.

قال «شمس علي ميرزا» كلماته وهو يقطعها:

- يا سيد «مش قاسم»، نحن تقريباً وصلنا إلى حلّ الخلاف القائم بين السّيدين، ولكن بقيت مشكلة واحدة فقط، وهي الصّوت المشكوك به الصّادر في تلك الليلة.

ضحك «مش قاسم»:

- ألم تنته حكاية الصّوت المشكوك به؟ ماشاء الله كم كان قويّاً ليستمرّ حتى هذه اللّحظة.

قطع ضحكته أمام الوجوه الجادة، التي تحدِّق فيه وقال:

– لعن الله فاعلها وبانيها، لو ملك صاحبه القليل من الشّجاعة، وأمسك أمامه و لم يفعلها لما حدث ما حدث.

– «مش قاسم» سمعت أن لديك أمنية، وهي بناء مخزن ماء في (غياث آباد قم)، وجعله وقفا للنّاس، صحيح؟

– لَمَ الكذب؟ منذ كنت صغيراً و لم يكن طولي قد تعدّى الأربع أصابع وحتى هذه اللّحظة أتمنى ذلك، ولكنّي لم أستطع جمع المال من أجله بعد... المساكين الغياث آباديين مازالوا يشربون الماء من قنوات المياه والأنهر، اليوم استفسرت من مساعد المفتّش، وسألته إن كان أحد قد بنى مخزن مياه، فأجابني بالنفي...

قاطعه خالي العقيد:

– الآن «مش قاسم» لو أمنا لك مصاريف مخزن الماء هل أنت على استعداد لتساعدنا؟

– لَمَ الكذب؟... لو طلبتم مني أن أصعد جبل قاف لصعدته و...

قام «شمس علي ميرزا»:

– «مش قاسم» المساعدة التي نريدها منك، هي تقبل الصّوت المشكوك به.

– يعني هو لمحلتنا؟

– لا، لم تفهم ما قصدت، يعني الصّوت لك أنت... يعني حدث الأمر بالصّدفة...

احمر وجه «مش قاسم» وصرخ:

– قسماً بهذا الصّوت لو كنت أنا، قسماً بالملح لو كنت أنا... قسماً بسيّدي الذّي أحبّه مثل عينيّ، وهل تظنون أنّي لا أحب شرفي؟ هل تظنّون أنّي إلى هذا الحدّ بلا شرف؟

صاح «شمس علي ميرزا» ضجراً:

– يكفي «مش قاسم»... لماذا لا تفهم؟ كلّنا نعرف أنّك لم تقم بذلك، ولكنّنا نطلب منك التّضحية، أن تتحمّله فقد تنتهي هذه المشكلة.

– أنا أكذب؟ أكذب على سيدي؟... أستغفر الله... وكم يفصلنا عن القبر؟

– فكّرْ قليلاً.. مخزن الماء...مخزن ماء يا «مش قاسم»، دعواتُ ناس (غياث آباد)، الأجر والثواب... ألست مستعداً لـ ...

قاطعه «مش قاسم»:

–آتي وألصق بنفسي مثل هذا العمل غير الشّريف لكي يشرب الغياث آباديون الماء؟ فليبقوا إلى آخر عمرهم دون ماء، لو علم الغياث آباديون ببنائي مخزن ماء بمال غير شريف لبقوا يشربون من القنوات المالحة، ولن يمسوا قطرة من المخزن... ولكنّي توصّلت إلى حلٍّ يخرجكم من هذه المحنة...

سُلّطت أنظار الجميع عليه:

- لو تذكرون في تلك اللّيلة قطة «ليلى»، كانت تتنقل من رجل إلى يد ومن يد إلى رجل بين الضّيوف، لماذا لا نُلصق الصّوت المشكوك بها ونحلَّ القضيّة؟

شقت صرخة «شمس علي ميرزا» السّماء:

- حتى التّخريف له حدود، «مش قاسم»... نحن كبار القوم نذهب ونقول للسّيد أنّ الصّوت المشكوك به كان لقطة؟

اعتراض البعضِ وضَحك الآخرين أشعل ضجّة وسط الحضور، سعى «مش قاسم» ليتكلمَ ولَكنّه لم يسمع، أنا في هذه اللّحظة فقدت عقلي، فأردت أن أصفع «مش قاسم» على رقبته، كيف يجرؤ على إلصاق مثل هذه التّهمة بقطة «ليلى»؟

استطاع «مش قاسم» أخيراً تقديم اقتراحه:

- لو سمحتم... لو سمحتم... لدي اقتراح... كيف لا يكون هناك مشكلة بإلصاق الصوت بي، بينما لا يجوز إلصاقه بالقطّة؟... هل شرف القطّة أفضل من شرفي؟

- يا إنسان ليست القضيّة قضيّة شرف... حيوان بهذا الحجم...

قاطع «مش قاسم» خالي العقيد:

- لا، لا، القضية لا تتعلق بالكبر أو الصّغر... أولاً، الحيوانات كلها تفعل مثل هذا الأمر غير الشّريف، ثانياً لَمَ الكذب؟ أنا بنفسي سمعتُ

الصّوت المشكوك به، وخذه من الحمامة إلى البقرة، ثالثاً، لا يتعلق الأمر بحجم الجسد أنا بنفسي في حرب كازرون، رأيت أفعى عديمة الشّرف أطلقت صوتا مشكوكاً به أيقظ «غلام علي خان» من نومه وهو رجل سمعه ثقيل وفي مرة رأيت...

صاح خالي العقيد:

- هل تنهي الحكاية أم لا؟ كم تهذي وكم أنت مهمل؟ اخرج.. أغرب عن وجهي.

خرج «مش قاسم» حزيناً مكسور الخاطر.

بعد خروجه انحلَّ المجلس، وخرج الحضور كل منهم بعذر.

لم يبق في صالة خالي العقيد إلّا هو و«شمس علي ميرزا» و«بوري»، كنت أمشي في الممر منتظرا رأي خالي العقيد لحل هذه القضية ولكن دون جدوى.

-٨-

حين عدت إلى البستان، وجدت خالي العزيز «نابليون» يسير منهمكاً في التفكير و«مش قاسم» مشغول بسقاية الورد.

وقع نظر خالي العزيز «نابليون» عليّ، خفت من نظرته وكأنّي شريك أبي في جرائمه، فابتعدت عن نظراته اللّاهبة، وعدت أفكّر بطرق حلٍّ لعشقي، لكنّي لم أصل إلى حل، لأوّل مرّة أتكلّم مع الله من أعماق قلبي، وهذه المرة الثّانية، التّي أفكّر بالله بتعمّق، المرّة الأولى كانت حين وقع الزّلزال، ودعوت الله أن يثبّت سقفنا لكي لا يقع علينا، ولكن، هذه المرّة لا أعرف ماذا أطلب بالتّحديد، أردت منه أن يخلصني من محنة عشق «ليلى»، عضضتُ أصابعي الخمسة، ثم أخذت أنفخ عليها، لا أعرف من أين تعلّمنا هذه العادة ونحن أطفال وهي نوع من الاستغفار، على أي حال، هذا أسهل طريق لطلب حلّ وفي المقابل هناك الكثير الذي أريده من الله، إلهي دع خالي العزيز يفتح طريق الماء لبيتنا، واجعل أبي يمرّره لمنزل خالي العقيد. إلهي دع أبي يؤمن بنبوغ «نابليون»...

إلهي، اجعل السّيد «أبا القاسم» يتراجع عن موقفه في تحريم أدوية الصيدليّة... إلهي، اجعل أبي يصدّق أن خالي العزيز ضحّى في سبيل الثّورة الدّستورية، ويعودُ الفضل له في استقرار الأمان في جنوب البلاد...

إلهي، هدئ «عزيزة السّلطنة»، لكي لا تعود إلى القطع...

إلهي، دعنا نجد «دوست علي خان»...

إلهي...

كنت منغمساً في الدّعاء، وإذا بباب البستان الذّي لم يُقْفل يُفْتح، وتدخل منه «عزيزة السّلطنة»، وحين وقفت أمام خالي العزيز «نابليون»، كانت تحمل ملامح دبٍّ شرسٍ، وقفت محدّقة فيه، من غير أن تنطق حرفاً واحداً، فسألها خالي العزيز:

– ماذا حدث؟

– هل تسمح أن أتصل من هاتفكم؟

–بمن تريدين الاتصال؟

– برئيس شعبة الجنايات.

سكتتْ ثم شرعتْ صارخة:

– هذا المفتّش الأحمق يعذّب الشّاب، لا يريد أن يفهم أنّه لا دخل له في الجريمة، أريد الاتصال مع رئيسه لأخبره أن «أسد الله» بريء... أخبره أن أحدكم هو من قتل «دوست علي» وليس هو، أخبره أن «أسد الله» ضحّى بنفسه من أجلكم...

ليتكم تملكون شعرة منه، يا إلهي إنسانٌ بهذا الصّدق وهذه الحلاوة والإحساس، يَقتل؟

- سيدتي أرجوك لا تصرخي...

- سأصرخ سأصيح... هل تظن أني حمقاء؟ أنتم من قتلتم «دوست علي»، وألبستم الجريمة هذا الإنسان الطّيب، أو أنّكم خبأتموه...

هدّأ خالي العزيز «عزيزة السّلطنة» بصعوبة، وقال:

- سيدتي، أنا لا أدري أيُّ إنسانٍ خبيث زرع هذه الفكرة في رأسك؟

لم يقُم أحد بقتل «دوست علي»... ودوست علي على أفضل ما يكون الآن

لقد هرب خوفاً منك...

هجمت «عزيزة السّلطنة» على خالي العزيز وصاحت:

- الآن أصبحت أنا المخيفة ويهرب مني «دوست علي»؟ هل تفهم ما تقول يا عجوز؟ مع الأسف أن «أسد الله» من أقربائك...

هل ستدعني أتّصل أم أذهب إلى السّوق؟

حاول مرة أخرى تهدئة «عزيزة السّلطنة» ثم قال لها:

- سيّدتي، أنا لا أدري أين «دوست علي» الآن، ولكنّي أعدك وعد شرف، أنّه لم يذهب بعيداً وسأسلّمه لك غداً سالماً غانماً...

هل تسمحين لنا أن نرسل خلف المفتّش؟ وحين يصل قولي له: إنّنا وجدنا «دوست علي»، أي نعرف مكانه...

لو تساهلت سوف يقذف بـ «أسد الله» في السجن.

– يالله الويل لي، شاب بهذا الجمال يُقذَف به في السجن؟ سوف أقول للمفتّش إنّني أسحب الشّكوى.

– سيدتي لا فائدة... عليك القول له إنّ «دوست علي» على قيد الحياة وقد تحدّث معك، يعني اتصل بك...

وأنا أعدك غداً صباحاً سيكون «دوست علي»...

– فليذهب «دوست علي» في ألف داهية، إذا لم أرد العيش مع هذا الرّجل ماذا ستفعل؟

سكتت «عزيزة السّلطنة»، ثمّ أضافت:

– يا «مش قاسم» تعال إلى هنا، اذهب إلى منزل «أسد الله ميرزا»، وقل له إنّ السّيدة تقول لك، تعال فقد وجدت «دوست علي».

وضع «مش قاسم» دلو الماء، وقال:

– مبروك لا تنسي هديتي.

– اصبر، اصبر، حتى عودة «دوست علي» وحينها ستكون هديّتك ضربة على رأسك ورأسه.

***

حين دخل المفتّش «تيمور خان» وخلفه «أسد الله ميرزا»، وفي آخر الصّف الدّركي «غياث آبادي» و«مش قاسم»، أوشكت الشّمس على المغيب.

قال المفتّش:

– سكوت، أين هو القتيل؟ بسرعة فوراً.

ذهب خالي العزيز لاستقباله:

– سيدي المفتّش، أنا سعيدٌ جداً لأن القضية حُلَّتْ، فزوج السّيدة بكامل صحتّه وعافيته، وهو الآن في بيت أحد أفراد العائلة...

– أنت اصمت أين القتيل؟ بسرعة فوراً.

ثم قرّب وجهه العملاق من خالي العزيز، وقال له:

– هل أنت متأكد أن القتيل على قيد الحياة؟

تدخّلت «عزيزة السّلطنة»:

– سيدي المفتّش، من حسن الحظّ، أننا اكتشفنا أنّ «دوست علي» على قيد الحيا ة... القطة لها سبع أرواح، وهذا الحمار إذا لم يقتلني لن يموت.

لم يعد «أسد الله ميرزا» الذّي أخذ ينفض عنه التراب العالق بثيابه يتحمل المزيد من التّعب والأسئلة تنفّس الصّعداء:

– الحمد لله، إلهي أشكرك آلاف المرّات بإعادة الزّوج إلى زوجته...

التفت المفتّش إليه وقال:

– لا تشكر بهذه السّرعة، إذا كان القتيل على قيد الحياة فلماذا اعترفت إذاً بقتله؟ ما سبب اعترافك؟ نعم؟ بسرعة فوراً أجبني.

- أظن أنّي كنت أحلم بـ ...

- سكوت، هل تسخر مني؟ يقتل شخص ثم يقوم القاتل بمغازلة زوجته؟ ثم تقول زوجة القتيل أن زوجها حيٌّ يُرزق، ويأتي المفتّش في النّهاية قائلاً تصبحون على خير، ويعود إلى منزله.

سكوت... أنا من سيشدّ حبل المشنقة على رقبتك.

قفزت «عزيزة السلطنة» مثل نمرة:

- ماذا أسمع؟ حبل مشنقة؟ لُفَّ الحبل على رقبة أبيك... سأُخرِجُ عينيك...

تدخّل خالي العزيز:

- سيّدتي سيّدتي أرجوك، السّيد المفتّش يقوم بواجبه، عليك أن توضحي له لا...

- لِمَ تتدخّل أنت؟ وما هو محلُّ إعرابك من الجملة؟ زوجي أنا المفقود، وأنا من أحضر المفتّش، ولا يحقُّ له أن يتعدّى على هذا الشّاب واتّهامه، وأنا من سيجيبه، ولا دخل لك أنت؟

- سكوت، فليسكت الجميع... قلت سكوت.

- سكوت سكوت ومرضٌ يقطع أنفاسك، لأضربنك بالمسحاة على وجهك كاسرةً نظّارتك هذه.

قالت «عزيزة السّلطنة» جملتها رافعة المسحاة، لتقوم بما قالت، فأمسكها «أسد الله ميرزا»:

- أرجوك سيدتي اهدئي.

هدأت اللّبوة الشّرسة، متحولةً إلى زهرةٍ تقطر رحيقاً:

- كما تأمر «أسد الله»...

اندهش المفتّش من الهجمة المباغتة:

- سكوت سيّدتي... إذا لم أر القتيل بعيني، فلا يمكنني ترك المتّهم،... الدّركي «غياث آبادي» خذ المتّهم.

أدّى الدّركيُّ «غياث آبادي» التّحية العسكريّة، وأمسك ذراع «أسد الله ميرزا»، وقال:

- تفضّل أمامي.

وقبل أن ينتبه أحد إلى صراخ الدّركيّ، سددت «عزيزة السّلطنة» ضربة إلى مؤخرته.

- سكوت، ضرب موظف الحكومة أثناء القيام بواجباته! سيّدتي، أنت أيضاً موقوفة، الدّركي «غياث آبادي» اقبض على السّيدة.

قال الدركيّ الذّي أمسك مؤخرته، وانقبضت عضلات وجهه من شدة الألم:

- أرجوك سيدي اقبض أنت على السّيدة، وأنا أقبض على القاتل.

في هذه الأثناء وصل خالي العقيد و«شمس علي ميرزا»، بيد أنهما توقفا عن الحركة أمام المسحاة المرفوعة.

قال خالي العزيز «نابليون»:

- «أسد الله»، افعل شيئاً.

أجابه «أسد الله» بكل برودة أعصاب:

- ون منت، ون منت، الآن أصبحتُ مُرَوّضَ الحيوانات الوحشية؟

لكنّه التفت إلى «عزيزة السّلطنة» وقال:

- عزيزتي، ضعي هذه المسحاة جانباً، دعيني أوضّح الأمر للمفتّش «تيمور خان»، فلن يفضي الشجار إلى حلّ.

- من أجلك فقط... أضعها.

ما إن رمت «عزيزة السّلطنة» المسحاة، لم يخطر ببال الدّركي «غياث آبادي»، غير فكرة تنفيذ الأمر، فتقدم من «أسد الله ميرزا» وقبض عليه:

- من الأفضل أن تسير معي، أنت إنسان عاقل و...

أبعد «أسد الله» يد المساعد وقال:

- تراجعْ، وإلّا ستثور ثائرة السّيدة.

تدخل خالي العزيز «نابليون»:

- سيدي المفتّش وجدنا «دوست علي خان»، وقد اتّصل مع السّيدة وأخبرها أنه بخير، وقد سقطت الشكوى والتّحقيقات وإلخ...

هزّ المفتّش رأسه:

- يظهر أنك كبيرهم وأكثرهم تفهماً، إنّ استمرار التّحقيق يبدأ مع الشّكوى، وحين تكون هناك عملية قتل لا تنتهي القضية بتراجع المشتكي... أنا سآخذ القاتل، وغداً تعالَ أنت والقتيل إلى مركز الشرطة وأنهي الأمر.

لم يطق «أسد الله» ما يحدث أمامه:

- ون منت، ون منت، سيّدي المفتّش، وإذا لم يود القتيل الحضور عندها...

- سكوت، أمامي إلى السّجن، الدّركي غياث آبادي.

صاحت «عزيزة السّلطنة»:

- أنتما الاثنان، أمامي إلى مقبرة «عبد الله».

واختطفت المسحاة من يد «مش قاسم» قائلة:

- دعوني أتّصل برئيسهما لننهي القضية، تعالوا معي هيا «أسد الله».

أمسكتْ بيد «أسد الله ميرزا» وسحبته إلى منزل خالي العزيز، فمشى خلفها المفتّش ومساعده، تفصله عنهما أمتاراً، وسار البقية خلفهم.

في الدقائق التي مرّت وهي تحاول مهاتفة رئيس شعبة الجنايات، أمسكت المسحاة بيدها، فابتعد الجميع عنها لمسافة تحميهم من ضربة مباغتة، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منها إلّا «أسد الله ميرزا».

– ألو... السلام عليكم... شكراً، نعم وجدناه، لم يكن في حالة جيّدة، فذهب إلى منزل أحد أفراد العائلة، مرسي، شكراً جزيلاً... ولكنّ هذا المفتّش «تيمور خان» لا يرضى بالتّراجع... فكر بالأمر... ما زال يصر على أنّ «دوست علي» قُتل، ويريد القبض على «أسد الله ميرزا»...

نعم؟... نعم، نعم صحيح، هو حفيد عمّ «ركن الدّين ميرزا»، ألا تذكره؟ في ذلك العام الذي ذهبت فيه إلى (دماوند)، وكان معنا هو أيضاً...

نعم، نعم، صحيح، لا تعلم كم هو ملاك وخلوق... حاضر، الآن سوف أعطيه السّماعة...

مدّت «عزيزة السّلطنة» السّمّاعة للمفتّش.

– تفضل.

وحين رأت الخوف في عينيه من المسحاة، صرخت فيه:

– تعال لا شغل لي معك.

أمسك المفتّش السّمّاعة، وأدّى التّحية العسكريّة:

– سيّدي السّلام عليكم... نعم سيّدي... بالطّبع كما تأمر... ولكن أرجو أن تلتفت إلى أنّ السيدة حين قدّمت شكايتها، سجّلنا في الملفّ عملية قتل، والآن إذا لم أر القتيل وأتأكّد من هويّته... نعم سيّدي؟ نفس السّيدة؟ وكيف تضمن السّيدة القاتل؟... نعم...

دفعت «عزيزة السّلطنة» المفتّش وأخذت سماعة الهاتف منه:

- ألو... نعم أنا بنفسي أضمن «أسد الله»، لا عليك... أنا سوف آخذه الليلة معي إلى بيتي، ويستطيع المفتّش أيضاً البقاء في بيتي.

فتح «أسد الله ميرزا» عينيه دهشة:

- ون منت، ون منت بماذا تفضلت؟ كيف؟ تأخذين «أسد الله ميرزا» معكم إلى البيت؟

غطّت «عزيزة السّلطنة» سماعة الهاتف، وقالت:

- لا تتكلم كثيراً «أسد الله»، دعني أسمع ما يقوله السّيد... الغرف العلويّة فارغة، وأنت اذهب هناك لتنام...

أيها المفتش... رئيسك يودُّ الحديث معك...

- ألو... نعم سيدي؟... حاضر... أمرك مطاع.

صحيح ما تتفضّل به... وهو ليس مخالفاً للقانون... حاضر... أكيد... أدامك الله لنا...

وضع المفتّش «تيمور خان» السّمّاعة، وقرّب وجهه العملاق من وجه «أسد الله ميرزا» الحيران وقال:

- سكوت، اللّيلة وبكفالة السّيدة أنت حرّ، ولكن ليس لك الحقُّ في الخروج من منزلها،...

الدّركي «غياث آبادي» سوف يبقى معك أيضاً في نفس المنزل، حتى لا تخرج منه...

سكوت، الدّركي «غياث آبادي» افتح أذنيك جيداً، تبيت اللّيلة معه في منزل السّيدة، وليس للمتّهم حقُّ الخروج من البيت، وإلّا فأنت ستتحمّل مسؤوليته.

قالت «عزيزة السّلطنة» وهي تمزج جملتها بالنّصر والأنوثة:

- «أسد الله»، وهل متُّ أنا ليأخذوك إلى السّجن.

مسح «أسد الله ميرزا» العرق عن جبينه، وارتمى على المقعد وقال:

- ون منت، ون منت، حقيقةً ون منت، لو عاد الحمار «دوست علي» إلى البيت عندها ماذا سنفعل؟ ماذا سيقول الناس؟ هل تسمحين لي أن أقضي ليلتي هنا والسّيد والدّركي هو أيضاً...

- سكوت... قلت سكوت... القاتل بكفالة السّيدة لم يؤخذ للسَّجن، وعليه أن يكون تحت مراقبتها،...

السّيّدة هي الضّامنة القانونيّة لك...

الدّركي «غياث آبادي» خذ المتّهم، سكوت.

قال «شمس علي ميرزا» الذي ينتظر دوره:

- عيب... كيف يبيت رجل في منزل سيدة محترمة إلى الصباح، وزوجها غائب؟ سوف تنهار هيبة العائلة.

قاطعه خالي العزيز «نابليون»:

- لا تصرخ «شمس علي»، دع هذه الضّجة تنام اللّيلة، فـ «أسد الله» ليس فأراً يخاف أن تأكله القطّة.

– ما هذا الكلام سيّدي، ما الذّي يخالف القانون إذا بات «أسد الله» في منزله أو على الأقل هنا؟

– سكوت، من سمح لك بالحديث أمام ممثّل القانون؟ نعم؟ أجب بسرعة فوراً... سكوت.

حاول «شمس علي ميرزا» جاهداً أن يكون هادئاً:

– سيدي المفتّش، أنا أيضاً أعرف القانون، أسألك أنت الإنسان العاقل ما المانع من أن أضمن أنا والسّيد أو حتى السّيدةُ لينام في منزله؟

– سكوت، ضمانتك وضمانة السّيد وغيركما لا تهمُّني، السيدة «عزيزة السّلطنة» هي الضامنة الرّسمية له، إذا كانت هي راضية بذلك فأنا لن أتدخّل،...

سيّدتي هل أنت راضية؟

ردّت «عزيزة السّلطنة» رغم أنها كانت تراقب ولا تود التدخل في الموضوع:

– ومن أين أعلم أنهم مثلما هرّبوا «دوست علي» المسكين، لن يفعلوا به الشيء نفسه؟ أنا أتحمل مسؤوليتي حين يكون تحت مراقبتي.

قال «شمس علي ميرزا» الذّي احتقن وجهه، وبانت عروق رقبته:

– «أسد الله»، هل أصبحت أخرس؟ قل كلمة على الأقل.

هزّ «أسد الله ميرزا»، رأسه وقال:

- أخي ماذا أفعل أمام قوّة القانون؟

نظر إليه كل الحضور بدهشةٍ، لأنّهم ظنّوا بأنّه سيفعل المستحيل للهروب من «عزيزة السّلطنة»، ولكنّهم أدركوا أن «أسد الله ميرزا» ترك أمره للقدر، وهو أيضاً يود سير الأمور كما هي سائرة.

«أسد الله ميرزا»، معروف في الوسط العائلي بفجوره، ونساء العائلة لا يتحدثن حول أحد مثلما يفعلن معه.

وحتى حين يتحدثن عنه وعن قصصه، يلمس في كلامهن تأثيره السّاحر عليهن.

الجميع يعرفون شخصيته، ولكنهم لم يستطيعوا تصديق ذهابه مع امرأة تكبره بعشرين عاماً.

أخرج الحضورَ من دهشتهم صوتُ المفتّش «تيمور خان»:

- سكوت، امسكي سيّدتي القلم والورقة، واكتبي ما أمليه عليك.

رمت «عزيزة السّلطنة» المسحاة، وأخذت القلم والورقة:

- تفضلي اكتبي: الاسم واسم العائلة...

أتعهد بضمانة السّيد «أسد الله»...

اكتبي اسم أبيه واسم عائلته... بأن أسلّمه غداً صباحاً... لمركز الشرطة... كتبت؟... وأسلّمه للسّلطة...

- ون منت، ون منت، يجب أن تسجّل سالماً غانماً مثلما استلمتني...

- سكوت، من سمح لك بالتّدخل؟ حسناً؟ من؟ بسرعة فوراً.

- لماذا أسكت؟ أنا صحيح سا لم وكل أعضائي الشّريفة وغير الشّريفة سليمة، لكي لا يقولوا غداً أن أحد أعضائه ناقص أو...

رفعت «عزيزة السّلطنة» القلم ووضعته بين أسنانها، وقالت:

- ياه ما الذي تقوله يا «أسد الله».

- سيدي المفتّش، إذا أردت أن يتمّ العمل بصورة قانونية يجب تسجيل كل الأعضاء.

مزجت «عزيزة السّلطنة» ضحكتها بغنج:

- كم أنت مضحك يا «أسد الله»؟

- سكوت، أنا بنفسي سوف أذهب معكم إلى منزل السّيدة... الدّركي «غياث آبادي» تحرك.

أمسك «أسد الله ميرزا» الذي جلس على الكرسيّ بقوّة، وقال وعيناه تشعّان خُبثاً:

- لن أتحرك من مكاني إلّا بالقوّة.

- سكوت... الدّركي «غياث آبادي».

أمسك المفتّش ومساعده ذراعي «أسد الله» ورفعاه وهو يتظاهر بالمقاومة، التفت «أسد الله» نحو خالي العزيز «نابليون» وهو بين الشرطيّين:

– ون منت، لا سمح الله إذا وقع لي مكروه فأنت مسؤول عن...

الدّركي «غياث آبادي» إلى الأمام إلى (سان فرانسيسكو).

قال «شمس علي ميرزا» الذي أوشك على السقوط من شدة غضبه، مخاطبا أخاه:

– «أسد الله» تفو عليك.

– ون منت، ون منت، أمر غريب، جئتكم اليوم لأسلّم عليكم، وأعود فأصبحت قاتلاً، حفرت حديقتي والآن، وأنا مسافر في رحلة، عليّ أن أتشاجر؟

فقال «مش قاسم» راسماً ابتسامة حكيمة، وهو يقف في زاوية:

– مبروك، هل ستسافر؟ إلى أين تذهب؟

– هي رحلة قصيرة إلى (سان فرانسيسكو).

– الله معك... لا تنس الهدايا.

– بعون الله الهدايا بعد تسعة أشهر.

– سكوت... قلت تحرّك، في أمان الله أيها السّادة.

بعد خروج المفتّش «تيمور خان» والدّركي «غياث آبادي» مع المتّهم خلف «عزيزة السّلطنة»، عاتب خالي العقيد خالي العزيز «نابليون».

– وقفت تشاهد ما يدور حولك، وكأنّك لست كبير العائلة! حتى

متى تستمر هذه الإهانات؟ فكّر بحل... و الآن بعد أن تنازل ذلك الرّجل، أنت أيضاً عليك أن تتنازل، هو قال لي إنه على استعداد كامل لكي يمرّر الماء منهم إلينا، إنس إنس الأمر إذاً.

- سكوت، أنت أيضاً تطعنني بالخنجر من الخلف، لم أعد أحتمل... من جانب ذلك الرّجل... ذلك الرجل الوقح، وأنتم تقفون على جانب آخر، ماذا أفعل معكم؟

- أخي، والآن وبعد أن رضي الرّجل الوقح بنسيان الماضي، أنا أيضاً...

- لماذا تحولت فجأةً إلى ساذج؟ ألا تعرف ما يدور في ذهن هذا الخبيث؟ ألا تعرف هذا الأفعى الخطرة؟

على حد تعبير «نابليون»، حين تكون ساحة الحرب صامتة، فهي من أخطر اللّحظات... أعدك بأنّ هذا الرّجل وفي هذه اللّحظة يعد خطّةً جديدة.

في هذه اللّحظة، كان الجمع يقف أمام باب منزل خالي العزيز، وبلا شعور نظرت ناحية بيتنا، ظننت خالي العزيز يقول الحقيقة عن أبي، ولكن لا أثر له أو لخادمه الذي عادة ما يتجسس مكانه.

ورغم أنّي حاولت الاختباء عن عيني خالي العزيز، ولكن في أي لحظة هناك خطرٌ أن يراني، على أي حال، لم يعد هناك أمر مهمّ، ولكي أعرف ما يدور في ذهن أبي عدت إلى البيت.

لم يكن أبي في البيت ولا في الباحة ولا في الغرفة، ألقيت نظرة على

باب المنزل الموارب، أخذت أحدق في العتمة، فرأيت أبي يختبئ خلف شجرة عملاقة، ينتظر حدوث أمر أو أحد.

مرّت دقائق وأنا أراقبه، فجأة...

انتفض أبي من مكانه، فنظرتُ إلى النّاحية التي نظر إليها، وإذ بالمفتّش يخرج من منزل «عزيزة السّلطنة» ليذهب إلى حال سبيله، وطريقه يمرّ من أمام منزلنا، وحين اقترب، خرج أبي من مخبئه وتظاهر بالعودة إلى البيت.

- السلام عليكم أيها المفتّش... هل وُفِّقْتَ في تحقيقاتك.

- سكوت... آها آسف، حضرتك؟ كيف حالك؟

- شكراً جزيلاً سعادة المفتّش... لم تخبرني عن نتيجة تحقيقاتك... وإن كان وجود شخص مثلكَ شاع صيته في كل مكان، لا أعتقد أنّه سيواجه مشكلة ولا يجد حلّاً لها، فمن الصّدف أنّني قبل ساعةٍ التقيت صديقاً ما إن ذكرتُ اسمك أمامه حتى قال لي:

- لا مثيل للمفتّش «تيمور خان» على مستوى كلّ البلاد...

حسناً ماذا كانت نتيجة التّحقيقات؟

- والله، إن صاحبة الشّكوى أعلنت أن القتيل على قيد الحياة، أنا أيضاً...

- عجيب، وكيف قبلت بذلك؟ هل رأيت «دوست علي خان»؟

– لا... لكن... عليّ أن أقول لك أنا أشكُّ في كلّ كلمةٍ وفعل... لم أرَ القتيل، ولكنّه اتصل مع المشتكية، وأنا أطلقت سراح المتّهم مؤقتاً.

– أطلقت سراح المتّهم؟ هذا أمر غير متوقَّع من شخصيّة مثلك...

– بالطّبع لم أطلق سراحه بصورة كاملة، تركته تحت مراقبة المشتكية ومساعدي، وأخذت تعهداً منها أيضاً ليبقى لديها حتى صباح الغد... وهذا تحت إصرار رئيسي، وإلّا لما كنت أترك المتّهم.

علم أبي بهذه الطّريقة، بأمر مبيت «أسد الله ميرزا» في بيت «عزيزة السّلطنة».

وحين ذهب المفتّش عاد أبي إلى البيت، وأخذ يمشي مفكّراً في ساحة المنزل، ومن خلال خطواته المتسارعة عرفت أنّه عصبيٌّ، وقد يكون بانتظار خبر.

سمعت صوت فتح وإغلاق الباب من مخبئي، دخل خادمنا وذهب مباشرة إلى أبي، فما إن رآه حتى صاح فيه غاضباً، ولكنّه عاد فأخفض صوته:

– أيّها الحمار، أين كنت منذ الظّهر؟ هل تودُّ أن أصفعك على رأسك...

– أين الهدية التي وعدتني بها؟ لأني وجدت مخبأ السّيد «دوست علي».

– ماذا؟ حقاً؟... بسرعة قل لي أين هو؟

- أقسمت ألا أبوح لأيٍّ كان.

أمسك أبي بأذنه، وصاح فيه:

- هل ستقول لي، أم أقطع هذه الأذن؟

- حاضر حاضر... اختبأ في بيت الطبيب.

- ماذا؟ في بيت الطبيب «ناصر الحكماء»؟

- نعم... وأقسمت لصديقه ألّا أبوح بهذا السّر لأحد.

قال أبي دون أن يلتفت لما يقوله:

- ابن الحرام أيُّ مكان اختار... بالتحديد في المكان الذي لم يفكِّر فيه أحد... شاطر...

وتابع قائلاً:

- اسمع تذهب الآن وبسرعة إلى منزل الطّبيب «ناصر الحكماء»، وتقول له إني أريد رؤيته، قل له إنّ الأمر ضروري جدّاً، هل فهمت؟

بعد دقائق دخل بيتنا الطّبيب «ناصر الحكماء» بجامة فضفاضة، ثمّ أمسك أبي يده ودخلا سويا في الغرفة الكبيرة، وحين ذهب خادمنا ذهبت خلف الباب لأستمع إلى ما يدور بينهما من حديث:

- ... صحيح ولكن كيف أخرجه الآن من بيتي؟ أنا لا أستطيع أن أطلب منه ذلك...

- اسمعني دكتور، باعتقادي أفضل طريقة لإخراج «دوست علي خان» من منزلك، والتّخلص من كل هذه المشاكل التي ذكرتها لك هي: قل له إنّ الجميع يظنُّ أنّك قُتِلْتَ، والمفتّش يشكُّ بـ «شير علي» القصّاب، وقد وضع شرطيّاً ليقبض عليه...

قل له إذا قُبِضَ على «شير علي» القصّاب، سيُجْبَرون على قول ما جرى بينك وبين زوجته، فتسقط التّهمة عن «شير علي»، لو كرّرتَ اسم «شير علي» القصّاب أمامه، تأكّد من مفعولها عليه...

أصيب الطّبيب «ناصر الحكماء» بالقلق، صوته مليء بالرّعب من المصير الذّي ينتظره بعد شرح أبي لما ينتظره.

خرج مكفهرَّ الوجه، بينما جلس أبي ينتظر خروج «دوست علي خان».

مرّت نصف ساعة، فجأة تحرّك أبي ومدّ رأسه من الباب ثم ركض في الزّقاق، كنت أفكر في الرّكض خلفه، ولكنّي لم أحصل على فرصة لأن «دوست علي خان» دخل بيتنا، وخلفه أبي.

قال أبي للطّبيب «ناصر الحكماء»، الذي أراد الدّخول معهما:

- تفضل أنت لتستريح قليلاً، الحمد لله تسير الأمور جيداً.

ثم أخذ «دوست علي خان» إلى نفس الغرفة التي اجتمع فيها مع الطّبيب، سماع ما يدور بينهما مهّم بالنسبة لي، ورغم أني لا أعرف خطّة أبي القادمة، ولكني خمّنت أنّ الأمور ستسير حسب ما يخطّط أبي لها.

بعد عتاب من أبي لـ «دوست علي خان» على هروبه، قال له:

- أنت في الحقيقة طفل، ألم تفكّر في أنّ خلافاً بسيطاً يقع بين زوج وزوجته، لا يُمكن للّرجل ترك زوجته ليرحل.

- تبّاً للزّواج والزّوجة، هل تقول لي أن ملاك الموت هذه امرأة؟

قال له أبي بصوت أبوي:

- عزيزي، أخي، كم عاماً مضى على زواجكما؟ تشاركتما في الفرح والحزن، والآن عليكما أن تعيشا معاً...

صوت أبي حمل من العطف والحنان، ما أخجلني من شكّي به:

- حين تكون وحيداً، لن تجد أحداً غيرها، وهي أيضاً لن تجد أحداً غيرك يقف إلى جانبها، وفي نهاية الأمر حتى زوجتك... شرفك... عرضك... ألم تفكر في غيابك وما قد تفعله؟ وفي الذئاب التي سوف تحوم حول بيتك؟

- فلتُقَطّعَها الذِّئاب.

- أتقول ذلك «دوست علي»؟ ولكن فكِّر قليلاً... النّاس سيكون... النّاس ليس لديهم مروءة ولا إنسانيّة... أنا مثلُ أخيك الكبير... أريد أن أوضِّح لك الأمور... فقد حدث أمر لم يكن لزوجتك دخل فيه.

- لا أفهم ما تقصد... ماذا حدث؟

- لا أريد إزعاجك، ولكنَّ قومك هؤلاء ليسوا كما تظن... نفس هذا السّيد أو ما يسمى بكبير العائلة...

قال «دوست علي خان» بقلق:

– وكأنك تريد قول شيء، ماذا حدث؟

– عليك أولاً أن تقسم بأنّك لم تسمع مني كلمة واحدة.

– أرجوك قل لي ماذا حدث؟

– قسماً بحياة أولادي وحياتك، لا أقول هذا إلّا من أجلك ومن أجل مصلحتك...

– ماذا حدث؟ لماذا لا تتكلّم؟

– حين غبت... أطلقوا شائعة أن سوءاً أصابك... وعندها نفس هذا الفاجر الفاسد «أسد الله ميرزا»، قال سوف أقضي ليلتي عند «عزيزة السّلطنة» حتى لا يصيبها الخوف...

بالطبع «عزيزة السّلطنة» ليست من النّوع... حتى لا يمكن أن تتّهم... ولكن ألسنة الجيران...

صمت «دوست علي خان»، ثم قال بصوت راجف:

– هذا الرّجل ذهب اللّيلة إلى بيتي، إلى جانب زوجتي؟...

– لا تغضب... هذا الرجل ليس من النّوع...

– هذا الرجل من أي نوع؟ أنا بنفسي أخاف المبيت معه، سأقتله... أنا... أنا...

أجلس أبي «دوست علي خان» على الكرسي حتى يكمل معه الحديث.

دُهشتُ مما يفعله أبي، هذا الأمر تعدّى الحدود، فهو لا يتواني عن فعل أي شيء في سبيل تحقيق أهدافه، فصمّمت وفي نفس اللّحظة الجري إلى بيت «دوست علي خان».

قرعت الباب بكل ما أملك من قوة، وبعد لحظات فتحت «عزيزة السّلطنة»، فرميت نفسي إلى الدّاخل وأغلقت الباب.

ارتدت «عزيزة السّلطنة» ثياباً داخلية شفّافة، وأسد الله يراقب من النافذة في الأعلى.

صعدت بسرعة إلى الأعلى وخلفي تصيح «عزيزة السّلطنة»:

– ماذا تريد؟ ماذا حدث؟

حين وصلت إلى «أسد الله ميرزا»، قلت له:

– عمي «أسد الله» اهرب بسرعة، أبي وجد «دوست علي خان»، وقال له: إنّك تبيت إلى جانب زوجته اللّيلة.

أربك الموقف «أسد الله ميرزا»، فبقي ينظر إليّ، ثم أسرع في جمع ثيابه الملقاة على الكرسيّ ولبسها:

– ون منت، حقيقةً ون منت... هل عليَّ الآن أن أشرح لهذا الثّور؟

أمسكت «عزيزة السّلطنة» ذراعه:

- أنا من سيشرح له، لا تخف.

فقلت لهما:

- دعيه يهرب، لقد انقلبت عينا «دوست علي خان» إلى دمٍ من الغضب... أين مساعد المفتّش؟ قولا له، إذا جاء أن يمنعه من الدخول.

- لقد بعثته إلى السّوق ليحضر لي شيئاً.

شدّ «أسد الله ميرزا» ربطة عنقه وقال:

- «عزيزة»، أرجو أن أعود لك مرّة أخرى...

صوت قرعٍ على الباب.

- آه لقد أتى.

قالت «عزيزة السّلطنة» ونظرت حولها بقلق، و«أسد الله ميرزا» كذلك هلع باحثاً عن مخبأ له، فخطرت لي فكرة:

- ما رأيك لو هربت من السّطح؟

- نعم أَسْرِعْ «أسد الله».

تحرّك «أسد الله» وهو لازال يلبس فردة حذاء والأخرى بيده، صاعداً السّطح وأنا خلفه، فطلبت من «عزيزة السّلطنة» إغلاق باب السّطح خلفنا، وعادت لتفتح الباب.

ثم سمعنا صوت «دوست علي خان» الغاضب:

– أين هو؟ أين هذا الفاجر؟

همس «أسد الله»:

– أي صوت جهوري يملك هذا الثور؟ لقد أنقذتني من هذا الدُّب الوحشيّ... شكراً لك.

اختلطت الأصوات الصارخة تحت، «عزيزة السّلطنة»، تقسم له أن الأمر كلُّه محض افتراء، بينما «دوست علي خان»، يفتّش الغرف.

في هذه الأثناء قرع الباب، فأصرّت «عزيزة السّلطنة» على عدم فتح الباب قائلة أنّه بالتأكيد متطفّل، ولكن «دوست علي خان» فتحه والتقى بالدّركي «غياث آبادي».

قال الدّركي:

– سيدتي لم يكن عنده ذلك الشّراب الذي طلبته... اشتريت هذا... أين هو «أسد الله خان»؟... نعم؟ أين ذهب؟ بسرعة فوراً أجيبيني.

«أسد الله ميرزا» يستمع لما يدور في الأرض، فهمس لي:

– يا «علي المرتضى»... أسرع فقد انتهى أمرنا.

بينما كانت الأصوات الثّلاث تتداخل، أخذنا نحن بالإبتعاد، مررنا بالسّطح الأول وإذا بصوت «دوست علي خان»:

– المفتاح... أين المفتاح؟

قفزنا من ثلاثة أسطح لكننا اصطدمنا بطريق مسدود، لأنه كان علينا

القفز من جدار عرضه لا تتسع للقدم، كنا نبحث في الظّلام عن طريق نهرب منه، وإذا بصوت يجمّدني في مكاني:

- جئت لتسرق.

التفتُّ وإذ بظلٍّ يرفع «أسد الله» عن الأرض، وقبل أن تتاح له فرصة للاعتراض أخذه من الدرج.

ركضت خلفهما...

وحين وصلنا إلى الضّوء رأيت «شير علي» القصّاب، وهو أيضاً تعرّف علينا.

أنزل «أسد الله» إلى الأرض وقال:

- آسف جداً يا سيّد «أسد الله ميرزا»... لم أعرفك، ولكن ماذا تفعل فوق سطحنا؟

أجابه «أسد الله» الذّي لم يتخلّص بعد من رهبة الموقف:

- لقد أخفتنا سيد «شير علي خان»...

- آسف... أنا خادمك... لم أنس موقفك معي أبداً... ولكن ماذا تفعل هنا؟

- لا تسألني يا «شير علي» لا تسأل... من كثرة سوء ظن النّاس... دعانا «دوست علي خان» لبيته فذهبنا، كيف أقول لك... من أجل خلافنا السّابق حول قطعة أرض، لم يكن أحد في بيته إلّا زوجته، فجأة دخل يتّهمني بالخيانة...

– ماذا؟ تفو على هكذا شرف.

– تخيّل رجلاً من أجل إزعاج النّاس، مستعدٌّ أن يشكّ بعرضه...

سحب «شير علي» السّكين الطّويلة الملقاة على حافة الحوض، وقال بصوت مخيف:

– حرّك شفتيك فقط، حتّى أرمي بمصرانه أمامك.

– ون منت، ون منت، أرجوك لا تتهور... اللّيلة سوف أختبئ حتى الغد ليهدأ هذا الرّجل.

– اللّيلة أنت ضيفي، سوف أمدّ لك الفراش في السّرداب، لا تشغل بالك، يتهمك بمثل هذه الأمور... أنا أودع لديك أختي وأمي وعيالي...

– شكراً «شير علي»، أنت في الحقيقة أخٌ لنا...

ثم التفت إليّ:

– بنيّ اذهب لمنزلك... ولا تذكرني عند أحد أبداً.

ثم قال لـ «شير علي»:

– لولا هذا الشّاب لكنت في الجحيم... فكّر بالأمر، أنا أُتّهم بمثل هذه الأمور؟ ثم أتهم مع من مع هذه المرأة؟

– أستغفر الله يا سيد «أسد الله ميرزا»...

وأضاف ضاحكاً:

– طبعاً، لا تليق بك مثل هذه التّهمة وأيضاً مع السّيدة عزيزة فهي بمثابة أمّك...على المرأة أن تكون هي شريفة، أنت مثل أخي وبيتي هو بيتك...

هل رأيت زوجتي ولو مرّة إلى الآن في الزّقاق أو في السّوق؟

– أبداً، أبداً، أستغفر الله... لماذا تقيس بينهما؟ ماشاء الله على زوجتك.

– المرأة الشّابة ياسيّدي... حسناً على أيّ حال النّاس يحلّقون حولها... ولكن زوجتي أولاً، لا تخرج من البيت، ثانياً، عند خروجي صباحاً من البيت أوكل زوجتي بيد الخمسة الأطهار، ثم أخرج بكل اطمئنان، ولا أنظر أبداً إلى أعراض الناس حتى يحفظ الله عرضنا...

– عفارم، برافو، هذا أفضل ضمان... حيّاك الله، أوكلها لديهم واطمئن.

ذهب «شير علي» ليحضّر الفراش، وأنا أردت العودة.

في هذه اللّحظة رأيت لمعان عيني «أسد الله»، فنظرت حيث كان ينظر، كانت عينا طاهرة اللّامعتين وهي ترسم ابتسامة ساحرة وقد التفّت بشادر الصّلاة.

قلت له:

– في أمان الله عمي «أسد الله» ألا تريد أن أحضر لك شيئاً؟

أجابني دون أن يتحرّك من مكانه:

- لا كل شيء موجود هنا، اذهب ونم، ولكن لا تنسَ، أنت لم تسمع عنّي، خاصّة إذا سألتك هذه العفريتة.

وأضاف وهو يلهب جسد زوجة «شير علي»:

- حتى الله لديه إفراط وتفريط، على فكرة... لا تنسَ إذا حدثتْ معك أيّة مشكلة، أنا موجود في أيّ وقت، فأنت اللّيلة قدّمت لي خدمة لا تُنسى.

دخل «شير علي» وهو يحمل فراشاً وسجادة.

قبل خروجي، ألقيت نظرة أخيرة على «أسد الله ميرزا»، فقال وهو يبتسم وينظر لصدر طاهرة:

- سوف يقتلاني... آخ ليتهما يقتلاني ويخلّصاني، آه.

خرج صوت «شير علي» المخيف:

- يقتلونك وأين ذهبت أنا... لو نظر أحد إلى الباب سأقطع رقبته... يُطلق عليّ «شير علي»... في السّابق قطعت رجلاً إلى نصفين، ولن أُخيّب ظنّك هذه المرّة أيضاً.

-٩-

قطعتُ المسافة الفاصلة بين بيت «شير علي» والبستانِ بصمت، كان باب بيتنا منفرجاً، دخلت، ووجدت أبي واقفا ينتظر قدومي:

– أين ذهبت؟

– ذهبت إلى بيت خالتي.

– من قال لك أن تتأخر حتى هذا الوقت؟اذهب بسرعة وتعشَّ ونم.

– ألن تأتي لتتعشى معنا؟

– لا، فلديّ عمل أقوم به.

مازال أبي ينتظر نتيجة مخطّطه، تعشّيتُ مع أمي وأختي، ثمّ ذهبت إلى غرفتي، ولكنّني لم أتوقّع أن تنتهي أحداث اللّيلة.

حتى لو كنت على علم بمكان «أسد الله ميرزا» واطمئناني لوجوده في بيت «شير علي»، ولكنَّ المجهول أكبر منّا، فلا أعلم ما الذّي حدث في بيت «دوست علي خان»، ولا أعرف ما الذّي يدور في بيت خالي العزيز «نابليون»، والأهم من ذلك، لا أعرف ما الذّي يخطّط له أبي، لقد تعبت.

دخلت الناموسيّة، لكنّ القلق لن يتركني أنام، خاصة أن أبي مازال في ساحة المنزل، بيد أنّ الإرهاق لم يدعني أكمل ما أنا فيه فغفوت.

حين استيقظت صباحاً، ران السّكوت والهدوء على بيتنا، أحببتُ معرفة ما حدث بعد نومي، فخرجت بدايةً، لأرى «مش قاسم» و لم يكن في البستان.

فتحتُ باب البستان، فقد يكون في الزّقاق، رأيت «عزيزة السّلطنة» تأتي مسرعة إلى البستان، فذهبت لأحييها، وما إن رأتني، حتّى قالت:

– من الجميل أن أراك، كنت أريد مناداتَكَ لأسألكَ عن «أسد الله».

– والله يا سيدتي، هربنا عن الأسطح حتى وصلنا إلى جدار ضيّق، فنزلنا إلى الزُّقاق، ثمّ ذهب «أسد الله ميرزا».

– قفز من الجدار !؟ يا له من رجل! ألم تعرف أين ذهب؟

– لا، من الممكن أنّه ذهب إلى بيتهم.

– لا لم يذهب البارحة، أنا قلقةٌ عليه، «دوست علي» يظنّ بأشياءَ لا تخطر على بال أحد، أقسمَ أن يقتل أسد الله، وإن كان ليس أهلاً لذلك، ولكن، قد يحدث ما لا يُتوقع...

أردتُ أن أقول لك، إذا ما سألك «دوست علي» لا تجبه.

– لا اطمئني، أنا لم أرَ شيئاً، على فكرة... ماذا حدث لمساعد المفتّش؟

– لا شيء مهم، طردته وأغلقت الباب بوجهه، ما الذي سيفعله في بيتنا بعد أن وجدنا «دوست علي»؟

سوف أمرُّ على بيت «أسد الله» وإذا كان في البيت سأخبره أن يختبئ، ولا يذهب للعمل، فليس بعيداً ذهاب «دوست علي»، هناك ليفضحه... على أيِّ حال تذكّر لا تخبر «دوست علي» أي شيء.

– اطمئني.

ذهبت «عزيزة السّلطنة» مسرعة إلى البستان، «مش قاسم» مشغول بسقاية الورد، سمعت منه أن هناك أحداثاً وقعت بعد نومي، ذهب «دوست علي خان» البارحة متسلحاً ببندقية إلى بيت خالي العزيز، وفتّش كلَّ الغرف بحثاً عن «أسد الله»، أنبّه خالي العزيز على فعله، لكنّه لم يتراجع، وأقسم أنّه إذا لم يُفرغ بندقيته من الطلقات فلن يرتاح له بال.

ولكي أطمئن، سألت «مش قاسم» عن مكان «أسد الله ميرزا»:

– «مش قاسم» أين هو الآن «أسد الله ميرزا»؟

– والله بني لمَ الكذب؟ حتى القبر أأأأأ أربع أصابع، أرسلني سيدي في الصباح الباكر إلى بيت «أسد الله» لكنّه لم يبت هناك، و«شمس علي ميرزا» قلق عليه كثيراً، سوف يظهر اليوم...

– إذاً ماذا حلَّ بـ «أسد الله ميرزا»؟

– والله بني، أظنّ أنّه تبخّر... أو أنّه اختبأ خوفاً من «دوست علي خان»...

- ستحدث الآن بليلة أخرى لإيجاد «أسد الله».

- نعم صحيح، وأبوك حرسه الله لا يمهل الأمور، فالبارحة في منتصف الليل حين سحب «غياث آبادي» إلى بيتكم، أنا بنفسي سمعته يقول له: إن «دوست علي خان» قتل «أسد الله ميرزا»، والحمد لله أني كنت هناك وقلت لابن مدينتي ما يجري هنا...

ولو لم أكن لظهر اليوم المفتّش.

- أطال الله عمرك عم «مش قاسم».

بعد تردّدٍ رجوت «مش قاسم» أن يطلب من «ليلى» الحضور لدقيقة في البستان، فلم أعرف ماذا أقول لها، ولكني اشتقت إليها، جرت الأمور بصورة حتى لم أجد فرصة لأفكر بها، ورغم ذلك أنا عاشق وعلي رؤية حبيبتي.

هزّ «مش قاسم» رأسه، وقال ضاحكاً:

- بني إذا لم أكن مخطئاً، أنت تحب «ليلى»؟

رغم اعتراضي الشّديد عليه، بيد أن وجهي فضحني، فقال لي:

- حسناً، أنا قلت كلمة، لا عيب في ذلك...

حين جاءت «ليلى» إلى البستان، همس في أذني:

- أنا سأقف أمام الباب، وإذا جاء السّيد سأسعل، فقُم بالهروب بسرعة.

اطّلع «مش قاسم» على سرّي، إلّا أنّ عيني «ليلى» السّوداوين أزاحتا الخوف كلَّه، أو لم أفكّر بذكر سرّي لـ «مش قاسم»؟

– سلام «ليلى».

– سلام هل طلبتني؟

– نعم... يعني لا... اشتقت إليك.

– لماذا؟

نظرة «ليلى» السّاحرة أرادت الغوص في حنجرتي، وسحب ما لا أجرؤ على البوح به، أنا مصمّم على البوح لها بعشقي، ولكني لا أجد الكلمات، مرت أمامي جُمل العشّاق التّي قرأتُها مثل مرور الرّعد: أنا أحبك. لقد أحببتك. أحبك...

وبينما أنا أبحث عن الجمل المناسبة، ويتخذ وجهي مع كل تغيير لوناً جديداً قفزت مني:

– «ليلى»... أنا أحبك.

وهربتُ متّجهاً نحو بيتنا، فلم أشعر بنفسي إلّا وأنا في غرفتي.

يا إلهي لماذا هربت؟ لماذا لم أبق حتى أرى ردّة فعلها؟ أنا نفسي لم أعرف ما حدث، عدت بذاكرتي للحظة، لم أقرأ لعاشق يهرب بعد بوحه بحبه.

بعد تأنيب نفسي، وبعد تفكيرٍ وتأمل، رأيتُ أن أفضل طريق هو كتابةُ رسالة.

وعدت إلى تمزيق المسودات، لا أعرف كم ساعة مرّت، وإذا بصياح يقطع الكلمات في ذهني آتياً من البستان.

تجمع تقريباً كل أخوالي وخالاتي أمام النّرجسة، «شمس علي ميرزا» أيضاً كان معهم، ولأني رأيت أمي مع الحشد ذهبت إليهم.

فهمت من الجمل المتناثرة أن خالي العزيز العقيد ترأس خطوة عائلية مهمة ليذهب إلى بيت خالي العزيز «نابليون»، ويبقى عنده إلى أن تحل كل الاختلافات العالقة، ولكن «أسد الله ميرزا» أربكهم.

أنا أيضاً ذهبت معهم إلى بيت خالي العزيز «نابليون».

راح خالي العقيد يخطب بحماسة، فقاطعه خالي العزيز «نابليون» بحدة:

– أو لم تجدوا أحداً غيري؟ لماذا لا تذهبون إلى ذلك الرجل الخبيث؟ ألا تفكّرون بما يعدّه من خطط جديدة الآن؟ ألم تعرفوا من وجد «دوست علي» وأرسله إلى بيته بفضيحة؟ ألم تعرفوا أن «أسد الله» مختبئ منذ البارحة وحتى هذه اللحظة خوفاً من «دوست علي»؟

لم يجرؤ أحد على مقاطعة خالي العزيز «نابليون» وهو يرسل أمواج غضبه في الجمع، إلّا حين بدأ «شمس علي ميرزا» في تحليل الموقف.

أخذ الجمع في تبادل الآراء، الجميع عرف بموضوع هرب «أسد الله ميرزا»، بعد سماعه بنبأ قدوم «دوست علي خان»، ولكن «عزيزة السّلطنة»، ومراعاةً لزوجها لم تشر إلى هروبه من السّطح.

قال خالي العزيز «نابليون»:

– هذا الرّجل الخبيث أراد البارحة أن يقنع مساعد المفتّش بأن «دوست علي» قتل «أسد الله»، وبدل أن تتحصّنوا هنا اذهبوا وابحثوا عن «أسد الله».

صمت خالي العزيز، ثم قال لـ «مش قاسم»:

– قل كل ما تعرفه... أيها السّيدات والسّادة أرجو أن تستمعوا لتدركوا ما أعانيه... «قاسم»، اذكر لهم موضوع «أسد الله».

حكّ «مش قاسم» رأسه وقال:

– والله لَم الكذب؟ حتى القبر ها أأأأ... كنت في السّوق، قال لي الخبّاز حين أخذت الخبز منه أنه أخذ في الصّباح الباكر الخبز إلى بيت «شير علي»، ورأى هناك «أسد الله ميرزا»...

– ماذا؟

– كيف؟

– صحيح؟

قامت ضجة أسئلة، الجميع انتقد «أسد الله» ووصفه بالأبله، عديم الحياء، الوقح وغيرها من الأوصاف.

تدخّل خالي العقيد:

– سكوت... دعونا نرى ما حدث... هل الخبّاز متأكد مما رآه، ألم تذهب لتطمئن بنفسك؟

هزّ «مش قاسم» رأسه:

- أعوذ بالله، ذهبت إلى دكّان «شير علي» لأسأله، ما إن ذكرت اسم «أسد الله ميرزا» أمامه حتى صرخ فيّ كأنّه ثور...

سألني: من قال لك ذلك؟

ثم أمسك السّاطور وركض خلفي، ومن شدّة خوفي قلت له: الخبّاز هو من قال لي، وهربت منه...

- بالطّبع ذهب الآن إلى الخباز.

- لا رأيت الخباز في الزّقاق وطلبت منه ألّا يقترب من دكّان «شير علي»...

قال خالي العقيد بوجه منقبض:

- يا جماعة فكّروا بحل، علينا إرسال شخصٍ ليخبر هذا الأحمق كي يخرج من بيت «شير علي»... سوف يحرق «أسد الله» شرف عائلةٍ امتدّ عمرها لمئات الأعوام... فكروا

لنرسل شخصيّة محترمة إلى بيت هذا القصّاب...

بدعوة من خالي العقيد، وصل «دوست علي خان»، وبدا ظاهره هادئاً، فاقداً حرارة الانتقام الآن، ولكنه ما إن سمع باختباء «أسد الله ميرزا» في بيت «شير علي» حتى انقلب حاله وأخذ يسبّ الجميع.

قال وهو ينتفض غضباً:

- أنا... لست برجلٍ إذا لم أقتله... هذا الفاسق... هذا...

قال خالي العزيز «نابليون»:

- يكفي، لم يمسَّ الرّجُل شرفك، والآن تدافع عن شرف «شير علي»؟

- ذلك من أجل مكانة العائلة... مكانة المحلّة... فكر بالأمر: رجل من عائلتنا في بيت «شير علي»، فرد من عليّة أشراف هذه البلاد، في بيت «شير علي»، مع امرأة شابة... لو أمسكته لما استطاع فعل ذلك، يجب قتل الأفعى وإلّا عضتك، عديمُ الشّرف...

الوحيد الذي بقي ممسكاً أعصابه، هو خالي العزيز «نابليون»، فقد فقدَ الجميع رجالاً ونساءً أعصابهم، مصرّين على إخراج «أسد الله ميرزا» من بيت «شير علي» بأي ثمن.

بعد أن شرح خالي العزيز استراتيجية «نابليون» في مثل هذه المواقف، اقترح لجنة تُرْسَلُ للتّشاور مع «أسد الله ميرزا» وترضيه بأيّ شكل ليخرج.

تقدم خالي العقيد و«شمس علي ميرزا» لأداء هذه المهمة، ولكنّ خالي العزيز «نابليون» اعترض قائلاً:

- لا أنا من سيذهب.

قامت الاعتراضات من كل صوب:

- لا يمكن أن تذهب أنت... الذّهاب إلى بيت «شير علي» ليس من شأنك ولا مستواك.

قاطعهم خالي العزيز:

- لا بل الأفضل أن أذهب، لأنّ من سيذهب يجب أن يكون محايداً.

أراد خالي العقيد الاعتراض، لكنّ خالي العزيز «نابليون» قال له:

- قلت يجب أن يذهب إنسان محايد.

وأكّد على المحايد، ثمّ رفع عباءته وقال:

- تعال معي يا «قاسم»، تعال دُلّني على بيت «شير علي»، بسرعة، قبل عودته إلى بيته، فعلينا التّحدث مع هذا الشّاب السّاذج.

كنت ظلّاً لخالي العزيز و«مش قاسم»، أسرع خالي العزيز في سيره، إذ لم يود أن يعرف الجيرانُ بما يحصل.

بعد أن قرعوا الباب الضخم ثلاث مرّات، سمعا من خلفه صوت «طاهرة» الأنثوي:

- من؟

- هل هذا بيت «شير علي»؟

- ليس هنا ذهب إلى الدّكان.

قرّب خالي العزيز رأسه من الباب وقال محاولاً ألا يرفع صوته:

- سيدتي، قولي لـ «أسد الله ميرزا» أن يأتي إلينا.

– من؟ ليس لدينا أحد بهذا الاسم.

– سيدتي، أرجوك اسمعيني، أنا أعرف أنّه هنا، الموضوع مهم جدّاً، إذا لم يأتِ سيندم... القضية قضيّة حياةٍ أو موت..

مرّت لحظات صمت، ثم سمع صوت «أسد الله ميرزا» من خلف الباب:

– هل طلبتني؟

– «أسد الله» أخرج علي محادثتك.

– ون منت، حضرتك؟ كيف حالك؟

– «أسد الله» افتح الباب.

– لا أجرؤ، من يضمن، حياتي في خطر.

– اسمعني يا «أسد الله» افتح الباب، أعدك بأن الموضوع انتهى... كان سوء تفاهم، وعدني «دوست علي» بأنّه نسي الموضوع...

– ون منت، ون منت، لو أنت قبلت وعد هذا الأحمق الوحشيّ، فأنا لا أقبله.

– «أسد الله» أعدك، آمرك افتح الباب.

– سيّدي لا أريد خذلانك، ولكنّ حياتي في خطر، أعرف بأنّي لن أبتعد بروحي عن هذا الجلّاد... تفصلني خطوة عن الموت، ساعات وأقضي نحبي.

– اخرس «أسد الله»، وافتح الباب.

– لماذا لا ترحموني؟ لو رأيتني لما تعرّفت عليّ... ليلة خوفٍ أضافت لعمري مئة عام، قل لأخي أن يرضى عنّي، فكّرت في أمر لأخفف عنه.

– لعنة الله عليك وعلى أخيك افتح الباب.

قال خالي العزيز جملته، وانتفخت عروق رقبته، واحمرّ وجهه، ثمّ أداره وذهب إلى البستان.

اقتربتُ من الباب، واستطعتُ النّظر إلى الدّاخل، كنت أودُّ رؤية ملامح «أسد الله ميرزا»، بعد أن شاخت، أردت إخباره بأنّي لم أفضح أمره أمام أحد، ولست المسؤول عن كهولته وعذابه الذي يعانيه، «أسد الله» فتح أزرار قميصه كلّها، وأمسك بيد كأس عصير وأخذ يحرّك الثّلج بإبهامه ووجهه مشرق، وقفت أمامه طاهرة زوجة «شير علي»، تعضّ على أصابعها لكي لا تنطلق ضحكتها، هدأ بالي.

حين عدت إلى بيت خالي العزيز، كان يقدم تقريره عن حركته الفاشلة إلى أفراد العائلة.

بعد دقائق من التداول سمع صوت «مش قاسم»:

– علينا حلّ المشكلة بسرعة... المسكين هو في موقف لا يحسد عليه، أخاف أن يؤذي نفسه...

صاح خالي العقيد:

– لقد فضحنا وما الذي حدث له؟ ليس هناك مكان أفضل مما هو فيه...

– والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر أأأأأ... سمعت صوته من خلف الباب كان صوت إنسان مريض خائف، وكأنّه صوت شيخ... وكأنّ رأسه وُضِع في جرّة.

قاطعه خالي العزيز «نابليون» ضجراً:

– لا تُخرِّف يا «قاسم»... أنا مطمئن أنّه لا يهتمُّ بمكانة العائلة، وعلينا إيجاد حلٍّ.

عادت الأصوات تتداخل وتتعالى، تقريباً... الجميع متّفق أن يرُسل خلف «شير علي» القصّاب ليخبره أنّ بقاء «أسد الله ميرزا» في بيته أمرٌ ليس في صالحه، ومن الممكن أن يثير لغطاً.

وبالطبع، لم يكن هناك أحد من الحضور على استعداد لتقبّل إيصال هذه الرسالة له، فأشاروا بأن الرّجل الوحيد القادر على ذلك هو خالي العزيز «نابليون».

ولأن خالي العزيز لم يتقبّل الأمر قفز «دوست علي خان» فجأة، وصاح:

– قولوا له أن يأتي، أنا من سيخبره.

حقده على «أسد الله» حوّله إلى بطلٍ لا يخاف الموت.

أرسلوا «مش قاسم» إلى «شير علي».

مرّت مدّة انتظار حضور القصّاب، فكانت أمطار تقريع الرّجال واعتراض النّساء على «أسد الله ميرزا» تنهمر بغزارة.

فُتِحَ الباب، فدخل «مش قاسم» وحيداً.

- فديت المشيئة الإلهية...لا يبقى أحد بلا عقوبة.

- ماذا حدث يا «مش قاسم»؟ أين «شير علي»؟

- والله لم الكذب؟ دكّانه مغلق، تشاجر وأُخذ إلى المخفر... يعني الخبّازُ قال لصانع الخميرة أنّ «أسد الله» في بيت «شير علي»، وقام صانع الخميرة بممازحته، فانفجر «شير علي» قاذفاً الرّجل بأفخاذ لحم الخراف...

سقط الرّجل مغشيّاً عليه، ونُقِل إلى المشفى، وأخذت الشرطة «شير علي»...

انطلقت الأصوات دفعةً واحدة:

- الشرطة؟

- أخذوا «شير علي»؟

- إلى متى سيبقى هناك؟

حين هدأت الأصوات، سأل «دوست علي خان» الذّي التفت إلى أمر:

- إذا... إذا... إذا أخذ «شير علي» إلى السجن... عندها... هذا الرجل... ممكن، ممكن أنْ يبقى عشرة أيام... عشرين يوماً... ستة أشهر...

ثم التفت إلى خالي العزيز وقال:

- فكّر بحل... سوف يُقضى علينا.

أجابه خالي العزيز «نابليون»:

- ماذا حدث؟ لماذا تصرخ هكذا؟ هل أصبح «شير علي» عزيزاً إلى هذا الحد؟

لم تُثَر القضية بصورة جيدة بعد، لأن الباب فُتِحْ، ودخلت «عزيزة السّلطنة» وقد كانت في المخفر لتسحب شكواها.

ما إن رأى «دوست علي خان» زوجته، ذهب إليها وقال لها مهتاجاً:

- هل علمت بالقبض على «شير علي» القصّاب؟

- أفضل له...فليأخذوه هو ولحمه العفن.

أمسك «دوست علي» ذراعها وقال لها:

- عديم الشّرف في بيت «شير علي»...

قالت «عزيزة السّلطنة» ضاحكة، وهي تغمز له:

- يا الله هذا «أسد الله»، وهذه أعماله التي لا تنتهي.

ولكن، فجأة شعرتْ برعشةٍ جمّدتْ الضِّحكة على شفتيها، فصرّت على أسنانها وقالت:

– ماذا؟... «أسد الله»... تلك... تلك.. تلك المرأة أيضاً هناك؟

الجميع يحدِّق مدهوشاً بوجه «عزيزة السّلطنة»، «دوست علي خان» أيضاً في فمه الصّمت، ثمّ قال وشارباه يرتجفان:

– رحم الله «ركن الدّين ميرزا»، في آخر أيام حياته ترك لنا هذا الرّجل، ليسقط العائلة، ومع من مع ابنة فلاح؟!

انقبض وجه «شمس علي ميرزا» وقال حانقاً:

– سيّد «دوست علي خان»، أرجوك دع الأموات وشأنهم.

أجابه «دوست علي خان»:

– الموتى في رحمة الله، الأحياء هم فقط من يعانون... رحم الله أباكم، لو أحكم شدَّ حزامه و لم يأت لنا بـ «أسد الله»؟

– أرجوك سيد «دوست علي خان» لا تتحدث عن حزام أبي، هل جاءت «عزيزة السّلطنة» بسكين المطبخ لي في السّرير؟

لم يبال «دوست علي خان» بهذه الإشارة، وكأنه نسيها:

– لا تدافع عن عديم الشّرف هذا، صحيح أنّه أخوك لكنّه لصّ... لصّ لِعَرْضِ النّاس، نعم يا سيّدي، صاحب المعالي «أسد الله ميرزا»، لصّ أعراض النّاس.

«عزيزة السّلطنة» غارقة في عالمها، و لم تسمع كلمةً مما يدور حولها، سمعت اسم «أسد الله»، فعادت إلى الواقع، وقالت بصوت يرتجف:

- «دوست علي» اخرس، ليتك تملك شعرة منه، ليت كلّ اللّصوص مثله.

ثمّ همست:

- أنا متأكّدة أنّ هذه المرأة خدعته.

ثم التفتتْ إلى خالي العزيز، وصاحت فيه:

- وأنت جلست واضعاً يدك على خدك؟

هناك إنسان محتجزٌ في بيت «شير علي» ولا تُحرّك ساكناً؟ لو فعلت به تلك المرأة شيئاً بماذا ستجيب؟

أجابها خالي العزيز:

- سيدتي لا تغضبي... عدت للتّوّ من بيت «شير علي» وتحدثت مع «أسد الله» ولم يخرج لي، رجوته، صرخت فيه، لم يقبل الخروج.

- لماذا؟ ماذا قال لك؟

- لا أعرف، يقول إنه يخاف من «دوست علي»، ولكن...

- يخاف «دوست علي»! ومن هو ليخافه أو يرفع يده على ابن عمي، أنا من سيذهب اليه... يجب أن أذهب، لأنّ هذه المرأة ستسحره، بل قد سحرته الآن وإلّا لخرج «أسد الله»...

قال لها خالي العزيز «نابليون»:

- سيدتي، أرجوك هو من أراد أنْ يُسْحَرْ...

ولكن «عزيزة السّلطنة» قاطعته:

- لماذا تتحدث أكثر من اللّازم؟ من الممكن الآن أنها فعلت به ما فعلت.

وجد «مش قاسم» فرصة للحديث:

- السّيدة تقول الحقيقة... أنا سمعت صوت «أسد الله ميرزا»، من خلف الباب يرتعش مثل طفل.

لم تكن حاله جيّدة، أعتقد أنه أصيب بالحصبة، صوته لا يخرج من حنجرته، وكأنّ رأسه محصور في جرّة...

لطمت «عزيزة السّلطنة» على وجهها:

- آه، مات ابن النّاس... ويقال لهؤلاء عائلة.

قالت جملتها وحثّت خطاها:

- أعرف أنّي لو كلّمته سيخرج لي... لم ير هذا الطّفل منكم أيَّ ودٍّ ليستمع لكم.

قال «دوست علي خان»:

- أنا أيضاً ذاهب معك، لأقول له: إنّي سامحته... يجب أن أثبت له...

- اجلس مكانك أنت... لو سمع صوتَك لن يخرج.

حين وصلت «عزيزة السّلطنة» إلى الممرّ، صاح خالي العزيز «نابليون»:

- سيّدتي، لا تذكري لـ «أسد الله» أنَّ «شير علي» قبضت عليه الشّرطة... أنا أيضاً، لم أقل له لأنّي لو قلت له سيصبح خروجه من سابع المستحيلات.

- اسكت أنت.

ذهبت «عزيزة السّلطنة» إلى بيت «شير علي»، وأنا مثلما فعلت في السّابق كنت ظلّا لها.

الزّقاق موحش، وأنا تفصلني عنها أمتار، قرعتِ الباب باستمرار حتى جاءها صوت «طاهرة» زوجة «شير علي» من خلف الباب، وبقيت «عزيزة السّلطنة» تهدّد مرّة وتتوعّد أخرى، حتى جاء «أسد الله ميرزا».

قالت له بصوت حاولت إشباعه بالأنوثة:

- «أسد الله»، افتح الباب لدي كلمة أودّ قولها لك.

- سيّدتي العزيزة، اطلبي روحي ولكن لا تطلبي أن أخرج من هذا البيت، لا أمان في الخارج.

- أقول لك افتح الباب، خسئ «دوست علي» أن يمدّ يده عليك... أنا سامحته، وهو بدوره سامحك...

قال «أسد الله» بصوت يرتعش:

– سيّدتي العزيزة، أخاف... أنا أعرف أنّ «دوست علي» يقف إلى جانبك الآن... أعرف أنه خبّأ الخنجر ليغرزه في قلبي...

– «أسد الله»، افتح الباب قليلاً وانظر من معي، فكِّر في الأمر، ماذا سيقول النّاس عنك وأنت وحدك مع امرأة.

– ون منت، ون منت، الحمد لله مثل هذه التّهم لا تلصق بي... «شير علي» مثل أخ لي، وزوجته وأبناؤه مثل زوجتي وأبنائي... لن أخرج حتى يعود صاحب الأمانة لأسلّمه أمانته.

– «أسد الله» هل تعرف أن «شير علي» تشاجر وقبضت عليه الشرطة؟ كيف ترضى...

– آه... يا إلهي و«شير علي» أيضاً في السجن... لن أخرج أبداً... رجولتي لا تسمح لي بالخروج... يا إلهي أيُّ عمل صعب هذا وقع على عاتقي...

واضحٌ من صوته، أنّ خبر القبض على «شير علي» تناهى إليه من قبل، قرّبت «عزيزة السّلطنة» رأسها من الباب، وقالت له بصوت ناعم:

– يا روحي اخرج، لا تخجلني أمام هؤلاء القوم.

– سيّدتي أنا أفديك بروحي، ولكن لديّ واجب أخلاقي، هل تقبلين أن أترك زوجة «شير علي» وأبناءه وحدهم بلا معيل بعد أن سُجِن، إضافة إلى ذلك، فإنّ الرجل تركهم أمانة لدي.

– «أسد الله»، «شير علي» ليس لديه أطفال.

- هناك زوجته، يا روحي... هي مثل طفلة، الطّفلة تبكي الآن مثل سحابة ربيعيّة، أخفت وجهها بالشّادر ولكنّي أسمع نحيبها... المسكينة.

بقيت «عزيزة السّلطنة» تحاول إقناعه، إلّا أنّها لم تُوَفَّق، وحين يئست، قالت لهما أسوء ما تحفظه من سباب قذر، وعادت إلى البستان مثل بركان ثائر.

تبعتُها، ولكن، فجأةً لمحت الصيدليَّ يدخل بيتنا، فذهبت لأطلع على ما يحدث. دخل أبي معه إلى غرفة الضّيافة ذات الأبواب الخمسة، وأصبحتُ الآن أملك خبرة في استراق السّمع، ألصقت أذنيّ على الباب، لأسمعهما.

قال الصّيدلي وهو يمسح العرق من جبينه:

- سيدي،... اقرأ سورة الفاتحة على الصيدليّة، فرغم الإعلان عن إغلاقها ليوم واحد، بسبب الذّهاب إلى زيارة (قم) لم ينفع الأمر.

- ألم يذكر الواعظ ما قلناه له؟

- نعم قاله حتى إنّه أعاده مرتين على المنبر، ولكنْ وكأنّهم لم يسمعوه... ما وصل إلى النّاس، من الصّعب تغييره الآن.

- ولكن ماذا يقول الناس؟ ماذا حل بهم؟

- لا شيء، لا يقولون شيئاً، لم يأت شخص واحدٌ في هذه الفترة لشراء ولو حبة، فاليوم أراد مسافرٌ دخول الصّيدليّة، اجتمع النّاس حوله وكالوا له السّباب حتى تراجع وهرب.

كنت أرى وجه أبي من خلال الشّقوق، صرّ أسنانه، وقال:

- سنجد حلاًّ... يجب أن نجد حلاًّ.

- لا حلّ لهذه المشكلة، أنا أعرف جيّداً أهل هذه المحلّة، لو وصلوا إلى حافّة الموت، لن يشتروا الدّواء، فقد اقتنعوا بحكاية صناعة الأدوية من الكحول...

وأنا أيضاً، لا أستطيع العيش هنا بعد الآن، لأنه شاع بينهم أنّني إنسان بلا دين ولا عقيدة، في الوقت الحالي أغلقت الصيدلية حتى نجد حلاًّ.

وقف أبي، وأخذ يخطو في الغرفة ثم توقف، وقال بصوت لم أسمعه من قبل:

- هذا الرّجل الخبيث، حطّم حياتي، لست برجلٍ إذا لم أحطّمه... لست برجل إذا لم أضع جثّته في المقبرة... السّافل...

- بماذا تشير عليّ؟

- لا شيء، تفضل أنت... تفضل أنت لأرى ما سأفعله، في الوقت الحالي اقطع الكهرباء، وأغلق الصّيدليّة لنرى.

ذهب الصّيدليُّ وبقي أبي يخطو في الغرفة.

انقلبت حاله إلى درجةٍ خفت سقوطه أرضاً، فانتظرت خطوته القادمة، وحين عرفت من حركاته أنه هدأ، ذهبت إلى بيت خالي العزيز لأطّلع على ما دار هناك. مازال الجميع هناك.

عادت «قمر» ابنة «عزيزة السّلطنة» بعد أن أرسلتها أمّها إلى منزل أحد أقاربها.

مازال النقاش محتدّاً بينهم، خاصة بين «عزيزة السّلطنة» و«دوست علي خان».

اتّصل «دوست علي» في فترة غيابي بالشّرطة، للتّحقق من كفالة «شير علي» ولكنّهم أجابوه أنّه إذا لم يتبيّن وضع المضروب لن يُطْلَق سراحه.

حين وصلتُ، قالت «عزيزة السّلطنة»:

- أنا أعرف أن سليطة اللّسان تلك سحرت «أسد الله»، وإلّا لما عارضني في الخروج...

ما رأيكم لو أرسلت خلف «خراساني» ليرش خلاًّ زئبقياً ضدَّ السّحر على باب «شير علي»؟

قال لها «دوست علي خان»:

- سيّدتي أيّ سحر؟ ما هذه الخرافات؟ لقد بقي هذا الرّجل مع تلك المرأة لأمر.

- ياه يا رجل... الآن يترك كل هذه النّساء، ذوات الحسب والنسب، ويذهب إلى تلك القبيحة؟ ومن يفعل ذلك؟ «أسد الله»!؟

لم يستطع «دوست علي خان» الدفاع عن جمال زوجة «شير علي» الباهر، ولكنّه عوضاً عن ذلك سبّ «أسد الله» حتى أغضب «عزيزة السّلطنة»:

- «دوست علي»، لو فتحت فمك أكثر سأصفعك عليه، وأُسقط كلّ أسنانك الاصطناعية هذه، أنت حين تسبُّ قريبي فإنّك تشتمني.

أجبر خالي العزيز «نابليون» على التّدخل:

- سكوت لحظة، لماذا لا تحلّان أمركما في البيت؟ ماذنبي أنا لأتحمّل ثرثرتكما؟

فليبق «أسد الله» في «بيت شير علي» حتى ينبت العشب تحت قدميه، ما دخلكما أنتما؟وهل أنتما قيّمان عليه أو على «شير علي»؟

قال خالي العقيد:

- أخي،... أرجوك لا تغضب... على الأقل ابقَ أنت هادئا، نحن جئنا هنا من أجل...

- لماذا أتيتم؟ ماذا تريدون مني؟

- لا تغضب، جئنا لنحل الخلاف بينكما... ولكن حدث ما هو أهم، يجب إخراج «أسد الله» بأيّ ثمن، أقترح أن نذهب إلى عيادة صانع الخميرة، فقد لا تكون الضّربة التي وقعت على رأسه شديدة... قد يكون الرّجل يدّعي المرض لينتقم من «شير علي»... في هذه الحالة بإمكاننا حثّه على التّنازل عن شكايته، ونخرج «شير علي» اليوم من السجن.

قال خالي العزيز «نابليون»:

- هل باستطاعتي الذّهاب لعيادة صانع الخميرة وأنا بهذا الوضع؟

– لم أقل أنت... أحدنا يذهب... أو مثلا نبعث «مش قاسم»...

تدخّل «دوست علي خان»:

– ما يقوله صحيح ومنطقيٌّ، بالطّبع ليس من المناسب لعائلتنا عيادة صانع الخميرة... ولكن من الممكن إرسال «مش قاسم» إليه.

تدخل خالي العزيز «نابليون»:

– ولماذا تصرّون على إطلاق سراح «شير علي»؟ وهل ظنّ أنّ الضّرب لهوٌ حتى يضرب كلَّ من يلاقيه بأفخاذ الذبائح؟

هذا الإنسان أخمد منطقةً بكاملها، والآن حين أرادت الحكومة ولو مرة ردْعه تتدخّلون؟

– نحن لا حاجة لنا بـ «شير علي»، فليتعفن في السّجن... ولكنّنا نفكّر في مكانة العائلة، نهتمُّ بـ «أسد الله».

فكّر بالأمر «أسد الله ميرزا» في بيت «شير علي» القصّاب، كيف سنرفع غداً رؤوسنا أمام أهل الحارة؟

قال خالي العزيز «نابليون» وهو يحاول كتم غضبه:

– أيها السّادة، وهل هذه هي المرّة الأولى التي يذهب «أسد الله» إلى بيوتات الناس؟... وهل هذه المرّة الأولى التّي يذهب فيها إلى بيت «شير علي»؟... ما علاقتي أنا... افعلوا ما تشاؤون... ابعثوا هذا الـ «مش قاسم» لعيادة صانع الخميرة، إلى البزّاز، إلى الاسكافيّ، إلى البقّال،...

فقالت «قمر» التي انشغلت كل هذه الفترة بأكل سكر النّبات:

- «عزيزة» هل أخذوا «أسد الله ميرزا» إلى السّجن؟

- لا يا حياتي لم يأخذوه إلى السّجن، هناك إنسان غير محترمٍ سَجن المسكين...

- آه، يا إلهي ليته يُفرَج عنه بسرعة، لأنّه وعدني بأخذي معه في رحلة.

- ماذا؟ رحلة؟ إلى أين؟

قالت «قمر» وهي مازالت تأكل سكر النّبات:

- قال لي حين كان عندنا في تلك اللّيلة إذا أصبحتُ بنتاً مطيعةً، ولا أذكرُ الأمر لأحد سوف يأخذني في رحلة إلى (سان فرانسيسكو)... على فكرة «عزيزة» هل الـ (فرانسيسكو) جميل؟

حدقت فيها «عزيزة السّلطنة» لتسكت، ولكنّ «قمر» أكملت:

- صحيح هو جميل؟

- لا، لا ينفع للأطفال...

ثم هزّت رأسها وهمست:

- أذلّك الله يا «أسد الله» على أفعالك هذه.

قال «دوست علي خان»:

– هل رأيتم؟ وأنتم تدافعون عن سارق الأعراض؟

نظرت له «عزيزة السّلطنة» نظرة تهديد وقالت:

– لا أريد سماع صوتك، لقد مزح معها.

قاطعهم خالي العقيد:

– والآن وبعد أن سمح لنا السّيد من الأفضل ألّا نتأخر... أسرع «مش قاسم»، أسرع واذهب إلى صانع الخميرة... وهذا المال...دعه يتنازل عن شكواه مهما كلّف الأمر.

قال «مش قاسم» وهو مطرق الرأس:

– هذا العمل فيه إشكال.

– أيُّ إشكال؟

– والله لم الكذب؟ حتى القبر أأأأ... رأيت صانع الخميرة قبل ساعة وقد عصبوا رأسه وأخذوه إلى البيت، والآن من الممكن أن الطّبيب «ناصر الحكماء» عنده...

– إذاً، ليست حالته وخيمة؟

– نعم، ولكنّ الأمر هو أني على خصام مع هذا الرجل، وخصامنا حدث قبل أيام...

تذكرون قطعة الخيش التي كانت في الخبز ذلك اليوم، لقد تسبّبت في إحداث جدل بيني وبينه، أسفرت عن رميه لي بصخرة الميزان، وكان

الحادث هنا في هذا المكان، فسقطتُ مغشيّاً عليّ، ولكنّي نهضتُ ورميته بنفس الصخرة على رأسه، ثم حال النّاس بيننا.

ومنذ ذلك اليوم وحتى هذه اللّحظة، وأنا على خصام معه.

– ما معنى الخصام الآن؟

الرجل الكبير مثلك لا يتخاصم مثل الأطفال...

– لا علاقة للخصام بعمر الإنسان، أو لم يتخاصم السّيد مع زوج أخته؟

– لا تُخرّف، تحرّك.

– والله يا سيّدي، لم الكذب؟ لو قطّعتَ كلّ عروقي لما بصقتُ في وجه هذا الخبّاز، فما بالك أنّ أذهب إليه راجياً.

رجا كلٌّ من خالي العقيد، و«دوست علي خان» و«عزيزة السّلطنة» حتى «شمس علي ميرزا»، رجوا «مش قاسم» ليذهب إلى الخباز، ولكنّه رفض:

– نحن الغياث آباديون، لا نخضع أبداً لمثل هؤلاء النّاس، فقد كان لديّ صديق من مدينتي... ولم يكن من نفس (غياث آباد)، بل كانت مدينتهم أبعد منها، تقع على طريق (قم)ناحية (موسى المبرقع)...

صاح خالي العقيد به:

– إذا كنت لا تودُّ الذّهاب لا تبدأ بحكاياتك، تبّاً لك ولابن مدينتك، أنا من سيذهب.

في هذه اللّحظة تدخّل خالي العزيز «نابليون»، زاجراً أخاه عن الذّهاب، ولأنّه رأى الجميع مصمّمين على إخراج «شير علي» من الحبس، التفت إلى «مش قاسم» وقال له:

- «مش قاسم» آمرك بتنفيذ هذه المهمة، كما كنت آمرك في ساحاتِ الحروب، وكنتَ تنفِّذُ الأوامر بلا تردّد،...

واليومَ ها أنا آمرك بالذّهاب... تخيّل أنّنا في حرب كازرون.

نصب «مش قاسم» قامتَه، وقال:

- أمرُك... ولكن انظر إلى قدرة ربك، انظر إلى فرق... في تلك الفترة أنفِّذُ الأوامر لقتال الإنجليز، والآن عليَّ الذّهابُ إلى الخبّاز... أَتَذْكُرُ حين اشتدّ القتال في حرب كازرون وأنا ممسك بالبندقيّة؟

- يكفي، اذهب يا «قاسم»، رئيسك يأمرك بتنفيذ الأمر بسرعة.

***

حين عاد «مش قاسم»، احتشد الجميع حوله بعد أن أتعبهم الانتظار:

- ماذا حدث يا «مش قاسم»؟

- والله لم الكذب؟ حتى القبر أأأأأأ... لم أتحدّث معه شخصيّاً، ناديتُ أخاه وطلبت منه أن يوصل إليه الرّسالة، فذهب وعاد إلي، وقد كررّ هذه الحركة مرات، لكن في النهاية لم يحدث شيء.

- ماذا تعني؟

- والله، يقول أنّ على «شير علي» الحضور إلى دكّانه، وأنّ يقبّل يده أمام جميع الناس لكي يعفو عنه.

رمى «دوست علي خان» نفسه على الكنبة وقال:

- لا، يبدو أنه سيبقى في بيت «شير علي».

أكمل «مش قاسم»:

- إضافة إلى ذلك، رأيت «إسماعيل الإسكافي» وقال إنّه رأى «شير علي» في المخفر، وقال له أن يذهب إلى بيته ويطمئن زوجته عليه، ولِتُكرِّمَ الضّيف بكلِّ ما تملك حتّى يعود.

هزّ خالي العزيز رأسه:

- الله !!!كم هو كريم هذا الرجل!!! حقيقةً... على حدّ تعبيره... حقيقةً، ون منت.

-١٠-

أفزع حادث مفاجئٌ الجميع وهم منهمكون في قضية شجار «شير علي» القصّاب مع الخبّاز، حُبِسَتِ الأنفاسُ في الصّدور، فلم يتوقّع أحدٌ حدوث مثل هذا الأمر أبداً.

أبي يقف أمام باب صالة استقبال خالي العزيز، نظرت اليه، قامته العالية لاحتْ لي الآن أكثر علوّاً، ينظر إلى القادم الجديد بريبة، مدّ أبي يده إلى خالي العزيز، وقال بصوت راجٍ:

- جئت لأقبّل يديك، وأعتذرَ منك... سامحني.

وتقدّم نحو خالي العزيز، ومدّ له يده حين أصبح على مسافة خطوتين، لكنّ خالي العزيز بقي ساكتاً.

تسارعت ضربات قلبي، فأردت الصّراخ:

- كلّاااااااااااااااا، لا تُفوِّتْ هذه الفرصة.

وقد يكون كلُّ الحاضرين دار في خلدهم ذلك، فمرّتْ لحظة كانت طويلةً وثقيلةً عليّ، فجأة... فتح خالي العزيز حضنَه لاستقباله وتعانقا.

هلا، هلَّ الفرح تعالت، رمت أمي نفسها عليهما وقبّلتْهما.

ركضت إلى غرفة «ليلى»، التي أعلم أنها حُبِسَتْ فيها صائحاً:

- «ليلى»... «ليلى».. تعالي... تعالي... لقد تصالح أبي وخالي العزيز.

خرجت «ليلى» من غرفتها بخطواتٍ متردّدة، وحين رأتْ من بعيد، أبي وخالي العزيز يتعانقان، ضمّتني فهمست لها:

- «ليلى» أنا سعيد جداً.

- أنا كذلك.

- «ليلى» أنا أحبك.

احمر وجهها، ثمّ قالت بصوت غير مسموع:

- أنا أيضاً أحبك.

ارتعش كلّ جسدي، وكأنّ دبابيس خارقة مرّت في مساماتي، شعرت بها تحرقني.

أردتُ ضمّها إلى صدري، لكنّني انتبهتُ فأخذتها من يدها، وسرنا سوياً إلى صالة الاستقبال.

أمسك أبي بكلتا يديه يد خالي العزيز وهو يقدّم اعتذاراته وخالي العزيز يهزّ رأسه قائلاً:

- لا داعي لذلك، فقد نسيت كلَّ شيء.

اقتربت من أبي لكني تركت يد «ليلى» فقد ينتبهُ الحضورُ لنا.

حين جلس الجميع على الأرائك، قال أبي وهو ينظر إلى نقوش السّجاد بصوتٍ غريب:

– حدث اليوم أمر قلب حياتي، صادفتُ رجلاً معروفاً، وحين وصل الحديث عنك قال لي ما هزّني، قال لي: عليك أن تفتخر بوجود مثل هذا الرّجل في عائلتك، وتمنيت لو كنت تسمع مقولته.

قال نقلاً عن الميجور «ساكسون»، الذي كان منذ الحرب العالميّة الأولى في مهمّة هنا لأعوام: لو لم تكن أنت لما كانت الكثير من الأمور في هذه البلاد على هذه الصورة، لو لا مقاومتك ووطنيتك، لقام الانجليز بالكثير من الأمور.

قال أيضاً: أثناء الحرب قدّم الإنجليز مليون ليرة لمن يقتلك.

أشرق وجه خالي العزيز، وقد رُسِمَت ابتسامة سماويّة على شفتيه، لم يُبْعِدْ عيناه عن فم أبي، الذي أكمل الحديث بنفس ذلك اللّحن:

– نفس هذا الشخص، حدّثني عن مصارعتك مع الاستبداد، وقال: إنّك لو لم تكن لما حصلوا على الثّورة الدّستورية...

سأله خالي العزيز بفضول طفوليّ:

– من هو هذا الشّخص؟

– لو سمحت لي ألّا أذكر اسمه، إذ إنّ حياته مهددّةٌ لأنه ذكر حديث الميجور «ساكسون»، وأنت تعرف جيّداً أن الإنجليز لا يرحمون، خاصة الآن، وهم قد فتحوا حرباً كبيرة، وهتلر في كل ليلة يمطرهم بالقنابل...

انقلب خالي العزيز إلى إنسان آخر، يوشك أن يلفّ يده على رقبة أبي ويقبّله على شفتيه.

قال «مش قاسم» الذّي تابع كلّ كلمة بدقّة:

– يُقالُ أن القمر لا يبقى مختفياً خلف السّحاب... أنا أعرف سيّدي لقد فعل أفعالاً بالإنجليز... لو في هذه اللّحظة يسمحون له، لفعل بهم أكثر مما يفعل هتلر.

أكمل أبي:

– أنا في الحقيقة أشعر بفخر، فهناك أيضاً سوء تفاهم مع روسيا، فقد علّمتني الأيام شيئاً جديداً...

قد يكون الجميع أحسّوا بأنّه يكذب، فكلّهم يعلم أن ردع خالي العزيز لقُطّاع الطّرق في الجنوب، مقاومته للأجانب، كفاحه في سبيل المشروطة كلّها وليدة خيال خالي العزيز، ويعرفون جيّداً أن خالي العزيز هو أكثر من يعرف عدم صدقها.

بيد أنّ هذه الكلمات المبالغ فيها، أسعدتْ الجميع لأنّهم أحسّوا باختلاق أبي هذه الحكاية ليتقرّب منه، ولكنّي توجّست شرّاً.

الفكرة الغامضة التي اشتعلت في ذهني من أول جملة قالها أبي، أعادتني إلى حوار أبي مع الصيدليّ.

يا إلهي ليتني مخطئ في ظنّي، ليت أبي ملّ هذه الحرب، يا إلهي أطلب منك بكل وجودي أن يكون صادقاً، ومازالت جمل المدح تسيل من فمه:

– قال لي هذا الرّجل، لو لم يكن الإنجليز في حرب مع هتلر لما تركوك، وقال: ليس هناك رجل في مشرق الأرض استطاع ضرب مخطّطاتهم مثلما فعلت...

قال أيضاً إنّه سمع من الميجور «ساكسون» نفسه، أن الإنجليز منهكون من شخصين: الأول أنت، والثاني هتلر...

***

من رأى بيت خالي العزيز قبل ساعة، ويراه الآن لما تَعَرَّفَ عليه.

الوجوه المكسوّة همّاً تبدّلتْ إلى بسمات مشرقة، الجميع فرح، الوجه الحزين الوحيد هو وجه «دوست علي خان»، الذي ينبه الحضور بين فترة وأخرى إلى غياب «أسد الله ميرزا»، لكنني أعرف أنه يشير إلى غيابه في بيت «شير علي القصّاب»، لأنه لا يطيق رؤية «أسد الله»، وقد يكون السبب هو أن الأخير كان دائماً وأمام العائلة، يُكثِر المزاح معه، وفي غيابه يذكُره بـ (دوست علي الحمار).

ومن جانب آخر كان «دوست علي خان» سفيهاً ولا يتحمّل «أسد الله»، إذ أنّ كلَّ النّساء تحبُّ الحديث معه، وكلّما أراد «دوست علي خان» سرد حكاية تواجهه النّساء:

– نرجوك لا تقلّد «أسد الله»...

– أي فم دافئ يمتلك «أسد الله»...

– وحتى المجون لا يليق إلّا به، يحتاج إلى ظرافة وحرفيّة.

أحياناً «دوست علي خان» لا يتحمّل، فيكيل السّباب لـ «أسد الله ميرزا»، وسبب آخر لكرهه له، هو أينما يمر تجد لمساته على المرأة التّي يمر من جانبها، خاصة على زوجة «شير علي» الآن.

حين انشغل أبي في مدح شجاعة خالي العزيز، قاطعه «دوست علي خان» قائلاً:

– علينا التّفكير بـ «أسد الله»، حتّى متى يريد البقاء في بيت القصّاب؟

قاطعه خالي العزيز «نابليون» بعصبية:

– «دوست علي» تأدّب، ألا ترى أنّنا نتحدّث؟ نعم كنت تقول...

أكمل أبي:

– نعم في أواسط الحرب العالمية الأولى، أرسلوا الميجور «ساكسون» إلى هنا...

سأل «مش قاسم» الذي لم يفوت حرفاً مما قيل:

– أليس هو الرّجل الطّويل نفسُه الذي هجمت عليه بالسّيف؟ الرّجل الأحول؟

أسكته خالي العزيز بإشارة منه:

– انتظر لنرى... إذا كان الشّخص الذّي تتكلّم عنه قد رأى الميجور «ساكسون» أم لا.

– نعم، نعم، قبل ثلاثة أشهر في (إسطنبول)... لست متأكداً، ولكنّني أعتقد أنّه كان قادماً من القاهرة متّجها نحو مدينة أخرى...

إن شاء الله لو فُتحت الطّرق، سندعوه إلى منزلك، لنسمع منه ما الذي قاله الميجور «ساكسون» عنك؟

بالطبع أعتذر، ولكنه قال أحداثاً جانبية أخرى أيضاً، حتى إنّه قال: إنك مرتبط بحركاتٍ سياسيّة أخرى.

وبينما كان خالي العزيز يرفع حاجبيه، رسم ابتسامة سماوية:

- طبيعيٌّ جداً... لو لم يقل ذلك لكان الأمر غيرَ طبيعي، أنا لا أتذكّر الميجور «ساكسون»، ولكنّ الإنجليز لا يظهرون رجالهم دفعة واحدة...

تدخل «مش قاسم» قائلاً:

- كيف لا تذكره سيدي؟ هو الرّجل الطّويل نفسه الذي رأيناه قبل ثلاث أعوام في شارع (جراغ برق) ألا تذكره؟

أنا بنفسي قلت لك لماذا يحدّق فيك هذا الغريب؟ وفي نفس اللّحظة قلت لك أظنّه...

قاطعه خالي العزيز:

- لا يا «مش قاسم» لا تُهلوس، فمن الممكن أنه أحد أعوانهم،...

على أيِّ حال، أنا لا أذكره.

- أنت قد تذكره، ولكن لم الكذب؟ حتى القبر أأ... وكأني أراه الآن يقف أمامي، له عينان تلمعان بشدّة... رماك بنظرة أرعبتني، لحظتها قلتُ:

- يا «علي المرتضى»، احفظ لنا سيدي من شر هؤلاء الإنجليز.

لم يهتمّ خالي العزيز بما يقوله «مش قاسم»، لكن جمله الأخيرة أنعشته:

- نعم، أنا قمت بدوري الإنساني والوطني، وأعرف إلى أين يؤدّي بي...

وهل تظنون أني لا أعرف معنى الوقوف أمام الإنجليز؟ وهل ظننتم أنّهم لن يقفوا أمامي؟ ظننتم أنّي لا أعلم بذاكرتهم بالنسبة إلى أعدائهم للانتقام منهم؟

أعرف كل ذلك، وقد قاومت وبقيت في مكاني لا أتزعزع... والآن بعثوا إليّ رسائلَ...

أتذكر آخر مرة حين كنتُ في مهمة في مدينة (مشهد)؟ في أحد الأيام عند غروب الشمس، وكنتُ عائداً إلى البيت قد يكون «مش قاسم» من كان يسير خلفي.

- طبعاً... كنتُ معك.

- نعم... كنّا نسير، حينها رأيت هنديّاً يتبعني، لم أبال به، ثمّ في اللّيل طرق الباب، فذهب أحدهم لفتحه... أعتقد أنّه «مش قاسم»...

- نعم، كنت أنا.

- فَتَحَ الباب، ثمّ عاد وقال لي:

– هناك هندي عند الباب، ويقول إنّه من الـزّوّار، وقد صادفته مشكلةٌ ويطلب دقيقة للتّحدث معي...

فطنتُ بسرعة إلى وجود دسيسة...

قسماً بـ «ليلى» لم أصل إلى الباب بعد، حتّى صحت من الأعلى:

– قولوا لهذا الرجل: لن يرى إلّا جنازتي... لم أكن وقتها على استعداد حتى لتبادل الحديث معه...

تدخل «مش قاسم»:

– نعم أنا أتذكّر... ما إن أنهى سيّدي جملته، ذهبت أنا وأغلقت الباب بوجهه، وكادت عمامته تسقط عن رأسه.

أكمل خالي العزيز حديثه، وقد دخل في نوبة هيجان:

– أجبته بهذا الأسلوب وصحت بأعلى صوتي، اذهب إلى أسيادك وقل لهم أنّي لستُ للبيع.

هزّ «مش قاسم» رأسه وقال:

– نظر الرّجل الهنديّ نظرةً حاقدةً وذهب، وأنا كنت أرتجف... في اللّحظة ذاتها قلت يا «علي المرتضى» أعِنّا، واحفظ سيّدي منهم.

قال أبي:

– من جانب آخر، أنت الآن تسير مرفوع الرّأس وعائلتك تفتخر بك.

قال «دوست علي خان» الذي كان دائماً في حالة هلع:

– ولكن إذا ما كسب الفخر والمكانة يجب ألا يلطّخان، ففي هذه اللّحظة هناك شخص من هذه العائلة، موجود في بيت قصّاب ولا أحد...

قاطعه «شمس علي ميرزا»:

– سيّد «دوست علي»، لا تتعدّ حدودك، لقد هرب إلى القصّاب خوفاً من لسانك وهمجيّتك، وإذا كنت تحنُّ لزوجة القصّاب فهذا أمر آخر.

فجأة انتفضت «عزيزة السّلطنة»:

– أماتك الله... لو فتحت فمك مرة أخرى، ماسّاً ابن عمي سأُحَطِّمُ أسنانك.

ثمّ جلست وقالت:

– تحدّثت مع «أسد الله» هو حزين لأنه لا يقدر على ترك زوجة «شير علي»، وأطفالُه بلا معين في هذه الظّروف.

صاح «دوست علي خان»:

– سيدتي، «شير علي» لا أطفال لديه.

– زوجته ذاتها ما هي إلّا طفلة، و«أسد الله» إنسان حسّاس جدّاً...

قال «دوست علي»، ووجهه منقبض:

- تبّاً لإحساسه.

ثمّ خرج من الصّالة بخطواتٍ سريعة، ورافقته «عزيزة السّلطنة» بنظرتها الحاقدة وقالت:

- سوف أُقدِم على أمرٍ لأُريحَ «أسد الله» ويخرج إلينا...

بيت أم زوجة «شير علي» قريب من هنا، سأذهب إليها وأبعثها إلى ابنتها لكي لا تبقى وحيدة إلى حين خروج صهرها من سجنه.

وجه خالي العقيد مشرقٌ هو أيضاً، ولكن في الوقت نفسه هو معارض لبقاء «أسد الله ميرزا» في بيت «شير علي»، ولكنه يضمر ذلك، فقال:

- فكرة جملية... لأنه مع الأسف ألّا يكون «أسد الله» معنا في هذا اليوم السّعيد.

ثم أضاف بصوت أعلى من السّابق، موجّهاً حديثه إلى الجميع:

- أنا أدعو الجميع على العشاء في بيتي، أودُّ دعوتكم في هذه المناسبة السّعيدة، على خمرة معتقة عشرين عاماً.

- لا... لا نقبل بهذا، سيادة العقيد... فلتكن لليلة أخرى.

- أبداً لا أقبل... كل شيء معدٌّ سلفاً، ستُعِدُّ زوجتي أرزّاً بالخضروات وبالطبع إنّ الجميع أعدّ عشاءه، فليحضره معه ونجلس سوياً...

اسْتُقْبِلَ اقتراح خالي العقيد بالترحيب.

لم ينقطع الحديث بين أبي وخالي العزيز، وبعد مرور دقائق سمعنا صوت النّرد يرنُّ بعد غياب.

ورغم أنّي كنت خائفا وشاكّاً مما يبيّته أبي، لكنّ وجودي مرّة أخرى إلى جانب «ليلى»، أمرٌ يفوق السّعادة، النّظراتُ المسروقةُ منها، تُحَرِّكُ فيّ أمواجاً لا توصف، عاد أبي مرة أخرى إلى مزاحه:

– أنت صحيح حاربت الإنجليز، ولكن عليك الاعتراف بأنّك لا تعرف أن تلعب... لو كنتُ مكانَك لتركتُ اللّعب...

عزيزتي «ليلى» أحضري لأبيك جوزتين ليلعب بهما...

ويجيبه خالي العزيز:

– آملين بلحمِ الجيف والقصّابون كسروا ظهورنا...

نادت «أم ليلى» عليها، وذهبت أنا إلى البستان، وكأنّ انتهاء الحرب أثّرت عليه، الأشجار والورود لها معنى آخر، أجمل من السّابق.

رأيت بين الأشجار «دوست علي خان»، وهو يتحدّث مع «مش قاسم»، وقد فهمت من حركاتهما إصرارَ «دوست علي خان» ورفض «مش قاسم».

لم تؤثّر تهديدات «دوست علي»، لأنَّ الأخير أنزل بنطلونَه الذّي رفعه لكي يسقي الورد، وخرج من البستان، خمّنْتُ أنّ «دوست علي» يريد إرسال «مش قاسم» إلى صانع الخميرة ليخرج «شير علي» من السّجن، ثمّ عرفت فيما بعد أنَّ ما ظننتُه كان صحيحاً، فإذا لم يعد «شير

علي» إلى البيت، وقضي «أسد الله ميرزا» هذه اللّيلة مع «طاهرة»، يقيناً فإنّه سوف يجن.

وهو على استعداد الآن لفعل أي شيء لإخراج «أسد الله» من بيت «شير علي».

شارفت الشّمس على المغيب، حين نادى «دوست علي خان» على «مش قاسم» وانتحى به جانباً.

كنت متشوّقاً لمعرفة ما يدور بينهما، وماذا حدث من مهمة «مش قاسم»، فاقتربت منهما بحذرٍ واختبأت خلف الأشجار.

- بماذا أوقعتني يا سيّدي؟ رغم أنّي متشاجر معه ذهبت إليه، ورغم أنّه أخذ المال ولكنّه أخذ طوال الوقت يلوم ويدّعي المرض حتّى وافق على سحب شكايته، ذهبنا سويّاً إلى الشّرطة...

- ماذا حدث هناك؟ هل أُطْلِقَ سراحه؟

- والله لم الكذب؟ حتى القبر أأأأ... سحب صانع الخميرة شكايته، ولكنّ رئيس المخفر ليس موجوداً، وقالوا لنا: إنّ سراح «شير علي» لن يُطْلَقَ حتّى يحضر رئيس المخفر.

- ومتى يأتي الرّئيس؟

- والله لن يأتي حتّى الغد، ولكنّهم قالوا لنا إّه قد يمرُّ عليهم مساءً.

- أعطيت كل هذا المبلغ، ليُطلَقَ سراحُه في الغد... وإذا بهذا الفاجر سيبيت في...

- أفضل... حتى لا يرفع ساطوره مرّة أخرى على كل من مرَّ أمامه.

- لا أقصد هذا، أين ذهب عقلك؟

ثم قبض على ذراع «مش قاسم»، وأخذه معه خارج البستان.

***

استعد بيت خالي العقيد لاستقبال الضّيوف، حضرت العائلة كلها، توسط المجلس خالي العزيز «نابليون» وأبي كعروسين مرحبَيْن بالضّيوف.

تتعالى الموسيقى من غرامافون خالي العقيد، فأخذ البعض يصفّق، بينما يصر خالي العقيد على شرب الجميع من الخمرة المعَتَّقَة، احمرّت وجنات الجميع، فخالي العقيد على ما يبدو سقى جميع النِّساء من خمرته العتيقة، كانت «عزيزة السلطنة» منتشية بدورها، وبين فترة وأخرى تظهر انزعاجها من غياب «دوست علي خان»، الذّي نسي أمر «أسد الله ميرزا»، حتى أخاه «شمس علي ميرزا» لم يذكره، وقد غابت عنه، ملامح القاضي الجافة والمتجهّمة، وكنّا نراه للمرّة الأولى مبتهجاً، حتى إنّه كان يُصِرّ على «قمر» أن ترقص.

بعد دقائق، غصتُ في بحر المتعة لأنّي كنت أهمس لـ «ليلى» و«بوري» يراقبنا، ونحن نضحك بصوت عالٍ.

أمر خالي العزيز بإعداد الفحم ليُشوى الكباب، ثمّ دخل بعد ذلك الطّبيب «ناصر الحكماء»، وهو يرسل تحيته (سلامتكم)، وقبل أن يجلس قدّم له خالي العقيد كأس خمرةٍ، وأجبره على شربه إلى نهايته.

جلس الطّبيب، ونظر حوله قائلاً:

– سلامتكم... سلامتكم... ولكن أين «أسد الله ميرزا»؟

أجابته «عزيزة السّلطنة» ضاحكةً:

– كعادته ذهب لعيادة الأرامل.

ابتسم خالي العقيد إبتسامة مغضبة، وقال:

– سيّدتي ألم نتفق على إخبار «أم طاهرة» لتذهب لابنتها ويأتي «أسد الله».

– هذه المعتوهة ذهبت إلى (قم).

مع سماعي لمدينة (قم) نظرت حولي بحثاً عن «مش قاسم»، لم يكن بيننا، وهو أمر عجيب، لأنّه من غير الممكن في مثل هذه الأوقات ألّا يكون «مش قاسم» هنا يدور حولنا ملتقطاً الأحاديث، ومعلّقاً عليها.

لم يَحْضَر العشاءُ بعد، حين تعالت ثلاثة أصواتٍ نسائيةٍ في الباحة بالصّراخ:

– يا «أسد الله ميرزا»...

وبعد لحظات، دخل «أسد الله» علينا، وصاح:

– أخي ما الذي يحدث؟

ولكن حين رأى إشراقة وجه أخيه، تجمّد في مكانه.

وبعد أن هدأت صرخاتُ الفرحِ والتّرحيبِ بالقادم الجديد، قال «أسد الله ميرزا»:

– إذاً، ماذا حدث؟ لقد قالوا لي أنّك لست على ما يرام؟

ضحك «شمس علي ميرزا» عالياً، و لم تكن هذه عادته في الضّحك:

– لم أكن في يوم من الأيّام سعيداً، وفي كامل صحّتي مثلما أنا الآن.

قطّب «أسد الله» جبينه، لكنّه سرعان ما عاد إلى ضحكه، وقال:

– ون منت، إذاً، ابن الحرام «مش قاسم» جرّني إلى هنا؟

ثمّ شرع في الغناء:

– جئنا، لقد جئنا، جئنا للصّخب والغناء...

قبضت «عزيزة السّلطنة» على شفتيه وقالت:

– أطال الله عمرك، كيف طاوعك قلبك على المجيء؟

– ون منت، ون منت... جئت فقط لألقي التّحية وأعود.

غطّت علامات الدهشة وجهها، ثمّ قالت:

– تريد العودة إلى بيت القصّاب مرة أخرى؟

قال «أسد الله ميرزا» بحزن:

– فكّري بالأمر «عزيزة»... هذه المرأةُ المسكينة، أخذوا زوجها إلى

الحبس وهي وحيدة بلا معين، لا حائط لها لتسند ظهرها عليه، حتى لو أردتُ أنا تركَها وحدها، علّك أنتِ... ألا توافقي.

وسط الضّجة القائمة والحركة المزدحمة، لم يلاحظ «أسد الله» خالي العزيز وأبي يجلسان إلى جانب بعض.

فجأةً... تجمَّدَ في مكانه، ثمّ صاح وهو يعلِّق عينيه عليهما:

– ياه... مبروك!!!!

وأخذ بفرقعة أصابعه:

– يا صاح، مبارك إن شاء الله، مبارك... عرسكم مبارك، إن شاء الله مبارك... عيد عظيم...

كل الحضور شاركه الغناء، فرمى ما تحمله الكأس في جوفه، دفعة واحدة وأكمل فرقعة أصابعه:

– إلى هذه الباحة وتلك... يحملون الحولى فيأتي السان فرانسيسكو.

قالت له «عزيزة السّلطنة» وهي تغمزه بنظرات الاشتياق:

– ليتني أفقد الوعي، يالهذه الحركات اللّذيذة.

الجمع وصل إلى النّشوة، والكلّ يحاول الانضمام إليه وهو يرقص وسط الحشد.

في هذه الأثناء، وقع أمر غير مرتقب، دخل «مش قاسم» علينا منقطع الأنفاس صائحاً:

– أنقذوني... قتله... قطع رأسه...أنقذنا يا «علي المرتضى».

تجمّد الجميع، وحُبِسَتْ أنفاسهم.

قال «مش قاسم» الذي اصفر وجهه ومازالت أنفاسه منقطعة:

– تحركوا... أنقذوه... لقد قتل «شير علي» «دوست علي خان».

– ماذا؟ لماذا؟ كيف حدث ذلك؟ تكلّم.

حكى «مش قاسم» ما وقع:

– ذهب «دوست علي خان» إلى بيت «شير علي»... أراد تقبيل زوجته، وفي نفس اللحظة وصل «شير علي» وأعطاه درساً لن ينساه...

– ولكنّ «شير علي» في السّجن!

– أطلقوا سراحه... لقد سحب صانع الخميرة شكايته.

– والآن أين «دوست علي»؟

– لقد هرب، ألقى بنفسه داخل البستان، وأغلقتُ أنا الباب، ولكنَّ «شير علي» يقف خلف الباب شاهراً ساطوره، وهو الآن يريد نزع الباب... ألا تسمعون؟

أصخنا السّمع، كان صوتُ تحطيم الباب يصلنا، ركض الرّجال والنّساء خلفهم إلى البستان، صاح «مش قاسم»:

– أسرعوا... لقد أغمي على «دوست علي»...

حين وصلنا إلى البستان، كان الباب يُضْرَبُ بشدّة هازّاً الجدران، وقد سقط إلى جانب الجدار «دوست علي خان» ممزّق الثّياب، ينزفُ الدَّمُ من أنفه حين رأى الحشد يقتربُ منه، أنّ وقال بصوت لا يسمع:

– اتّصلوا بالشرطة... كاد يقتلني... والآن يلحقني بالسّاطور... أنقذوني... اتّصلوا بالشّرطة.

أمسك خالي العزيز كتفه وهزّه:

– ماذا حدث؟ ما الذّي حدث لك؟ لماذا ذهبت إلى بيت «شير علي»؟

– ليس هذا بالوقت المناسب لهذه الأسئلة، اتّصل بالشّرطة... سوف يكسر الباب، هذا الدّبُّ وينتزعُ روحي... اطلبوا الشّرطة.

– لا تُخَرِّفْ... نطلبُ الشّرطة لنقول لهم أنّك ذهبتَ إلى امرأة متزوّجة في بيتها؟

لم تتوقّف الضّربات الشّديدة وصوت «شير علي» الرّاعد يتعالى:

– افتحوا الباب، وإلّا فسأحطّمه.

قال «أسد الله ميرزا»:

– «عيش وشوف»... أليس لديك شرف يا «دوست علي» لتذهب وتتجاوز على أعراض الناس؟

نظر «دوست علي خان» شزراً اليه:

- أنت اخرس.

- ون منت، ون منت، إذاً، اسمح لي بفتح الباب لأرى ما الذّي يريده «شير علي».

صاح «دوست علي خان»:

- أرجوكم، لا تتركوه يفتح الباب... سوف يقتلني.

في هذه الأثناء، تقدّمت «عزيزة السّلطنة» تحمل حذاءها بيدها، وسدّدتْ ضربةً قويّةً لرأسه.

- قتلك الله... والآن بتَّ تتماجنْ أمام الجميع؟

أمسك «أسد الله ميرزا» يدها التي رفعتها لتوجه ضربة أخرى لرأس «دوست علي خان»:

- سيّدتي العزيزة سامحيه لقد أخطأ... حمار، لا يفهم، أبله، عديمُ الشّرف اعفي عنه.

أنزلت «عزيزة السّلطنة» يدها:

- ولماذا أُتعب نفسي؟ لأترك انتقامي لمن يقف خلف الباب حاملاً الساطور؟!

قالت جملتها، وبحركة واحدة، وصلت الباب وفتحته.

اقتحم جسد «شير علي الجبلي» البستان جارّاً زوجته الرّقيقة «طاهرة» بيد، ولو اصطدم بأحد وهو داخل، لفتته، ومن حسن الحظ أنه اصطدم بجذع شجرة جوز، فتساقط الجوز منها.

- أين هو؟

صاح كلٌّ من خالي العزيز وأبي و«شمس علي ميرزا به»:

- «شير علي»... «شير علي»...

ونادت عليه «طاهرة»:

- اتركه من أجلي.

وقعت عينا «أسد الله ميرزا» الذي يراقب على الجسد الأبيض لـ «طاهرة» ودمدم:

- يا إلهي.

عمّت الفوضى، ولكنّ «شير علي» بخطوةٍ واحدةٍ، اختطف «دوست علي خان» الذي اختبأ خلف خالي العزيز وحمله مثل طفل رضيع، وأراد الخروج به.

لم تؤثر فيه الاعتراضات، وقد سار إلى باب البستان ليخرج، بينما أخذ «دوست علي خان» يضرب برجليه ويديه الهواء، فجأة... وقفت أمامه «عزيزة السّلطنة»:

- ضعه على الأرض.

- سيّدتي، ابتعدي وإلّا...

- هل تجرؤ على تهديدي؟ ضعه على الأرض وإلّا صفعتك صفعة محطّمة أسنانك.

وهجمت على «شير علي» ضاربة إيّاه، لكنّه لم تهزّه هذه الضّربات، والكثير منها وقع على «دوست علي خان».

صاحت «عزيزة السّلطنة»:

– «أسد» امنعه على الأقل.

تقدّم «أسد الله ميرزا» الذي لم يبعد عينيه عن «طاهرة» قائلاً:

– «شير علي خان»، أرجوك سامحه، حمار وأخطأ، أحمق، عديم الفهم...

أجابه «شير علي» دون أن يترك «دوست علي خان»:

– سيّدي «أسد الله خان»، اطلب روحي، ولكن لا تطلبْ مسامحة هذا الرّجل، فلديَّ حاجة مع هذا الفاجر.

– «شير علي»، أنا أعرف هذا الرجل أكثر منك، لم يكن يقصد ما فعله، إلّا أنّه حمار، جاهل... من كثرة استحماره قام بهذا...

ثم توجه إلى «دوست علي خان» بالحديث:

– أنت قل له... قل له أنّك حمار، قل له أنّك عديم الفهم، كرّر يا بنيَّ العزيز ما أقوله.

– أنا حمار... أحمق...

– قل له إنّك قمت بهذا الفعل من كثرة استحمارك.

– من كثرة... كثرة استحماري... لقد استحمرت.

وضع «أسد الله ميرزا» يده على ذراع «شير علي»:

– هل رأيت؟ والآن أرجوك اعفُ عنه، على الأقل من أجل السّيدة «طاهرة» التّي ترتجف من الخوف مثل عصفور.

لانَ «شير علي» قليلاً:

– ولكن، فكّر بالأمر... «طاهرة» مثل أختك، حتى لو سامحته أنا عليك ألا تسامحه أنت.

– بالتأكيد لن أسامحه، سوف أحرق أباه، ولكن دعه اللّيلة حتى أؤدِّبه أنا بنفسي...و أرمَ هذا الرأس له.

ورفع يده مسدداً ضربة على رأس «دوست علي خان».

رمى «شير علي» «دوست علي خان» على الأرض:

– هذا من أجلكَ أنتَ فقط يا سيِّد الرِّجال... وهل هناك في العالم من هو مثلك؟ أعطيت صانع الخميرة مالاً ليسحب شكايته، وأخرجتني من السّجن...

وهناك في هذا العالم مثل هذا الرّجل، عديم الشّرف، ما إن يراني خارج البيت يأتي إلى عرضي...

– أنت مُتَفَضِّلٌ علينا دائماً «شير علي خان»... أنت مثل أخ لي، وزوجتك أخت لي، نور عيني، سوف ترى الآن ما سأفعله به...

- شكراً.

تنفّس الجميع الصّعداء، وبينما «كان أسد الله» يسدّد نظراته إلى طاهرة قال:

- والآن لكي ترضيني عليك أن تأتي معي إلى بيت العقيد لنتعشّى سويا... اللّيلة لدينا حفلة.

أطرق «شير علي» رأسه حياء:

- لك الفضل، أنا لا أنسى فضلك أبداً ولكني لا أريد إزعاجكم.

نظر خالي العزيز شزراً إلى «أسد الله ميرزا»، ووشوش له:

- «أسد الله» ما الذي تفعله؟ هذا القصّاب تدعوه إلى منزل أخي؟ !!

- لو سمحت سوف أخبرك فيما بعد بالسبب.

- دع عنك الأسباب... كيف يحضر قصّابٌ على عشائنا؟

هزّ «أسد الله ميرزا» رأسه وقال:

- حسناً، حسناً... إذاً دعه يأخذ «دوست علي»... يا سيد «شير علي خان»...

أغلق خالي العزيز فم «أسد الله»:

- حسناً، حسناً فليأت، فليأت.

أكمل «أسد الله»:

- إذا لم تقبل دعوتي فسوف أغضب عليك... و«طاهرة» مثل أخت لي، ولا تهتمّ بـ «دوست علي» سوف أرسله إلى البيت لينام.

عادت أجواء الفرح مرة أخرى، وعدنا إلى بيت خالي العقيد.

قدم «أسد الله ميرزا» كأسين من خمرة خالي العقيد إلى «شير علي»، الذّي جلس على الأرض.

في هذه الأثناء، خالي العزيز «نابليون» الذّي ما زال غاضباً من حضور القصّاب معنا، بعد إحتسائه كأسين تحت إصرار «أسد الله ميرزا»، انزاح عنه جبروته وجلاله ونسي ما كان فيه.

سُمح لـ «دوست علي خان» بالعودة إلى الحفلة، تحت إصرار «عزيزة السّلطنة» وجلس في زاويةٍ، مُكْفَهِرَّ الوجه.

بين فترة وأخرى، يقدِّم «أسد الله ميرزا» الخمرة لـ «شير علي»، وحين علت ضحكته الرعدية، وتأكد «أسد الله ميرزا» أنَّ الخمرة فعلت مفعولها، اقترح عليه أن ترقص «طاهرة»، وأمام دهشة الجميع من هذا الاقتراح الغريب، وافق «شير علي».

وُضعت الأسطوانة، وتحرّك جسد «طاهرة» البضّ (الأبيض)، فراح «أسد الله» يصفّق ويكرّر:

- إلهي... يا الله...

من لم تلعب الخمرة به، فَهِمَ ما يرمي إليه «أسد الله ميرزا»، حتّى

النّساء سرى فيهن النّشاط من صوته، وهذه المرّة الأولى التي لا ينظرن فيها إلى «طاهرة» بإشمئزاز.

بعد وجبة العشاء، كان أبي سعيداً وفي قمّة انتعاشه، عاد ليجلس إلى جانب خالي العزيز «نابليون»، ثمّ طلب منه إكمال حكاية حرب كازرون التي بدأها في تلك اللّيلة المشؤومة، وبقيت معلّقة بالصّوت المشكوك به.

رفض خالي العزيز، في البداية، وقال: إنّها ليست مهمّة، ولكنّه وافق تحت إصرار أبي، اقترب «مش قاسم» ما إن طرق سمْعَه حرب كازرون.

جمع خالي العزيز عباءته، وقال:

- نعم، الحرب الحقيقة كانت في زمننا... والآن، الاختراعات الحديثة مثل المدفعيّة والدّبابات والطيّارات، حبست الإبداع الإنساني في ساحات الوغى...

كنت أنا وحدي بوجود أربع بنادق من نوع (حسن موسى)، ولم يكن أحدٌ من جنودي مُجَهَّزاً تجهيزاً عسكريّاً، فقد كنّا جياعاً.

لم يكونوا ليرسلوا لنا الإمداد الغذائي في وقته المحدّد، وكان سرُّ نجاحنا هو إيماننا، ولكن بالطّبع، فالأعداء كانوا كاملي العدّة، لم يكن «خداداد خان ياغي» وحيداً، فكلُّ الإمبراطورية تقف معه... وإن كانت لدينا ثلاث أو أربع بنادق جيّدة، فنحن غنمناها منهم...

أنا كانت لدي بندقيّة جيّدة، فيما سلّمت بندقيتين لجنديّين...

تدخّل «مش قاسم»:

- منحتني إحداها.

- صحيح سلّمتُ إحداها لـ «مش قاسم»...و بالطّبع، ليس لأنه ماهرٌ في إصابة الهدف، بل لأنّه حارسي الشّخصي...

صَدِّقوا، فلقد حاول الإنجليز قتلي مرات عديدة، خاصة بعد مقتل «خداداد خان» على يدي...

قال «مش قاسم»:

- سلمت يداك... لو لم تقتل عديم الشّرف هذا، لقامت القيامة في تلك الولاية.

قال أبي:

- ولكن، لم تذكر لنا كيف قتلت «خداداد خان»؟

- الحقيقة أنّ ما حدث من الله سبحانه، لأنّ المسافة التي كانت تفصل بيننا، مئة قدم... فصوّبت على رقبته...

اعترض «مش قاسم»:

- بيّن حاجبيه.

- قصدتُ هذا...يعني بندقيتي تصيب الهدف باتجاه الأعلى قليلاً، صوّبت على رقبته حتّى تقع الرّصاصة وسط جبينه...

ناديت مولى المتّقين وأطلقتُ.

– آه آخ... الحمد لله، حين انغرستِ الطّلقة في جبينه صاح صيحة هزّت الجبال والوديان.

– من صراخهم، علمت أن طلقتي أصابت الهدف، فحدثت جرّاء ذلك ضجّة، وأخذ الأعداء يهربون في ناحية... ولكنّي لم أتركهم، إذ أسرت منهم أربعين شخصاً...

قال «مش قاسم» ضاحكاً:

– أرجوك سيدي كيف تقول أربعين شخصاً أسرت فقط؟ ما شاء الله من كثرة الحروب التي خضتها لم تعد تذكر، أنا بنفسي أحصيتهم ثلاث مئة أسير ينقصهم عشرة أفراد، وكان معهم أخو «خداداد خان».

كلّ هذه القصص تُسْرَد و«أسد الله» يسترق النّظر إلى «طاهرة» ويهمس:

– إلهي لو أحيط... آه «خداداد خان».

كنت أنا و«ليلى» بقربه، فاكتشفنا ما يرمي إليه، وضحكنا بصوت عالٍ.

التفت إلينا ناظراً نظرة عتاب، وقال:

– بني لا يُضْحَكُ وَسَطَ كلامِ من هُم أكبر سنّاً مِنك.

ثم عاد إلى الجسد المفعم بالحيوية.

نظر خالي العزيز بعيداً، وقال:

- وهل تظنّون أنّ الإنجليز الذين تعبوا من أجل «خداداد خان» كثيراً لإيصاله إلى هذه المرحلة ينسون ما فعلتُه به...

بعد مرور عامٍ، ضاعت بندقيّةٌ، فشكّلوا لي ملفّاً، وكِدْتُ أفقد كل شيء.

قال أبي، وهو يحيط جملته بالحكمة:

«لترى الوجع راحة لأن ما تطلبه كبير- فالتّراب كُحْلُ الذِّئاب»

نظر «أسد الله» مباشرة في عيني «طاهرة» وقال:

- آه لو أحيط... عيني الذِّئب.

سأله خالي العزيز:

- ماذا قلت يا «أسد الله»؟

- لا شيء، قلت إنّها الحقيقة... موضوع عين الذِّئب صحيح وواقعيٌّ.

قال أبي:

- ولكن، لم تكن مشاكلك محصورة بالجنوب فقط، فلقد جرحت الإنجليز في عدّة أماكن... النّمر المجروح أخطر بكثير من النّمر السّليم.

قال خالي العزيز وهو يرسم ابتسامة من يعلم بواطن الأمور:

- ولكني لم أكن ممن تهزّني هذه الرّياح... يعني لم أترك من جسد الإنجليز محلاً لم أصبه...

في قضايا المشروطة، ورغم كل تضحياتي أرادوا خدش مكانتي، بإسقاطي في الوحل.

وأشاعوا، بل حتى سمعت من بعضم أنهم كتبوا في الصّحف أنني كنت مع الكونوليل «لياخوف» حين أطلق المدفعية على البرلمان...

وفي الواقع أنّي كنت ضمن (فوج القوزاق)، ولكن قسماً بروح أبي لم أطلق رصاصة واحدة، ولماذا نذهب بعيداً هذا «مش قاسم» كان معي... اسألوه ماذا قلت لـ «شابشال خان»؟

قال «مش قاسم» مباشرة:

- لَم الكذب؟ حتى القبر ها أهـا... أطـال الله عمر سيّدي قال لـ «شابشال خان» ما أخجله، حتّى كاد يتبخّر ويغوص سبعة أذرع في الرّمال...

لم يُبعد «أسد الله» عينيه عن «طاهرة»، فهو كان يجرّد جسدها بهدوء قائلاً:

- من كان «شابشال خان»؟... يالله... أدعو الله أن لا ترى خيرا... يا شابشالي.

سمع خالي العزيز صوته، فأجابه موضحاً:

- كيف لا تعرف «شابشال خان»؟... «شابشال خان» روسي وهو أستاذ «محمد علي شاه»...

لايوجد أحد في كل إيران حقد على المشروطة، مثلما حقد عليها هذا الرّجل.

قال «أسد الله ميرزا» بصوت عالٍ:

– أذّله الله...وأعماه.

وأضاف، وهو يثبّت عينيه على «طاهرة»:

– فلتنشطر المشروطة على رأسي.

فهم خالي العقيد ما يرمي إليه، فقال له:

– تأدب يا «أسد الله».

– ون منت، ون منت، ألا يحق لي أن أحبَّ المشروطة؟

– إذاً...أنت مع الاستبداد.

فتح «دوست علي خان» فمه لأول مرة:

– ولكنّك تقصد أمراً آخر.

– ون منت لم أفهم، سارق الأعراض هذا يخطب فينا...

اسمعني جيّداً، أين هو «شير علي خان»؟

ظهر «شير علي»:

– هل ناديتني ياسيّد «أسد الله ميرزا»؟

- لا، لا، كنا نذكرك بالخير، تفضّل عد إلى حديثك مع الأخوة.

أكمل خالي العزيز حكايته:

- في غروب ذلك اليوم، أخذوا ملك المتكلّمين و«ميرزا جهانكير خان»، وكل المطالبين بالمشروطة إلى (باغشاه).

أحضر «محمد علي شاه» والكونوليل «لياخوف» فوج (القوزاق)، على حد تعبيرهم، ليقدّم الشّكر على جهودهم.

وحين عبروا من أمامنا، صحتُ:

- سيّدي أنت على خطأ هؤلاء أناس صادقون، لا تسفك دمهم... فجأة، وقف «محمد علي شاه» وقطّب حاجبيه، ثمّ سأل وزيره «محمد خان» أمير الأمراء عنّي...

وحين أخبروه أني فلان ابن فلان، وأنّني الشّخص الذي أطفأ فتنة الجنوب، قسماً بأرواحكم، قسماً بروح أبي، احمرَّ وجهه وأصبح شبيها بالفراولة، لم يقل حرفاً ومضى ولكن في اليوم التالي أرسلوني في مهمة إلى خراسان...

وتابع مخاطباً:

بإمكانكم الاستفسار عن هذه القضية، إذ لم أكن وحدي، فالكثيرون حضروا ما دار بيننا، وكان معنا المرحومان «مدولي خان»، و«علي رضا خان» عضد الملك، وكان أيضاً «علي قلي خان» قائد الجيش...

كان بيننا الكثير من رجالات الدّولة...

قال «مش قاسم»:

- أنا أيضاً كنت معكم، لم الكذب؟ حتى القبر ها أها...و كأنّه الأمس... حين قال سيّدي كلمته، كأنَّ الأرض اهتزّت تحت قدمي «شابشال خان»، ارتجف كل جسده...

لم يكن يجرؤ على الحديث مع سيدي فوجه الإهانة إلينا، و لم يكن بيدنا حيلة ولا يمكننا إجابته فتركنا الأمور لمن هو في الأعلى.

أكمل خالي العزيز، غير مبال بإضافاتِ «مش قاسم»:

- حينها مع كلّ هذه التّضحيات والتّاريخ التّضحوي، حين يشاع في المجالس أن فلان بالتّعاون مع الكونوليل «لياخوف» أطلقا المدفعية على البرلمان، من تعتقدون أنه قام بنشر مثل هذه الأقاويل؟ ليس هناك غير الإنجليز... ليس غير الإنجليز لينتقموا مني.

- نعم، ما تفضّلت به صحيح... أو لم يفعلوا ذلك مع «نابليون» وآلاف الأبطال غيره... هذا الذّئب العجوز لا ينسى بسهولة الضّربات التي تلقّاها.

قطّب خالي العزيز حاجبيه:

- لقد وصل بهم الأمر مع «نابليون»، إلى منعه من رؤية ابنه، حين ساقوه إلى (سنت هلن)...

في اليوم الأول الذي بدأت فيه حربي مع الإنجليز، كنت أضع تاريخ «نابليون» أمام عيني، ولم يدخل أي خلل في تصميماتي التي إتخذتها.

وبينما خالي العزيز مستمراً في الحديث عن حكايا الحرب، غرقت في سكرة الحديث مع «ليلى»، ولكنني لم أستطع الابتعاد عما يدور من حديث بين أبي وخالي العزيز.

كل لحظة تمرّ، يزيد شكّي بأبي وبنواياه، فهو لم يكن من المنغمسين بسهولة في قصص خالي العزيز، فوددت لو أعرف ما يدور في ذهنه.

قال «أسد الله ميرزا»:

– ون منت، وبما أن الإنجليز لم يظهروا بعد... اتركوا أمرهم لـ «هتلر»... أودُّ مرَّةً أخرى أن تضعوا الإسطوانة لأرى رقصة «طاهرة».

ارتفعت أصوات النّساء مؤيدة، إذ مللن سماع حكايا خالي العزيز:

– اذهبي «ليلى» بسرعة، وضعي الإسطوانة.

عادت «طاهرة» للرقص، فجلس «شير علي» سكران في الممر يقصُّ على خادم خالي العقيد وخدمه الآخرين حكايات معاركه.

اغتنم «أسد الله ميرزا» الفرصة، واقترب راقصاً من «طاهرة» يلتفّ حولها مغنّياً:

– «ماما لو ضممتها... ماما لو قبّلتُ شفتيها... ماما يا عينيها»...

وأخذ ينحني إلى الأسفل، و«دوست علي خان» ينظر بغضب إليه، بينما كنت أنا و«ليلى» ندُوّم في سماء العشق.

القسم الثاني

-١١-

يغلي السماور وهو يقف لامعاً على السّرير الخشبي، في باحة منزلنا.

سكبت أمي لنا الشّاي الصباحيّ، وأبي ينتظر دوره مستنشقاً الياسمين، جمعة نهاية صيف العام ١٩٤١.

فجأةً، لفت انتباهَنا صوتُ خطواتٍ في البستان، فلم يكن ذلك أمراً طبيعيا، ظهور خالي العزيز «نابليون» في مثل هذا الوقت، خاصة أنه جاء مغتمّاً، أخرج يده اليمنى من عباءته ووضعها على بطنه، وأمسك بيده اليسرى مسبحته يحرك حبّاتها بعصبية، لم أر خالي العزيز يوماً في مثل هذه العصبية وكأن السماء سقطت على رأسه، نادى على أبي ليحدِّثه في موضوع هامٍّ، وأمام دعوة أمي ليشاركنا الفطور قال:

– أختي، لقد تأخر الوقت على أخيك ليحتسي الشّاي.

يا إلهي ماذا حدث؟ لم أر خالي العزيز أبداً فاقداً للأمل كما هو الآن، لماذا ليس هناك وقت لديه ليشرب الشاي؟

لم أفهم ما يدور في ذهن خالي العزيز.

ويمر أكثر من عام على عشقي المفاجئ لابنته «ليلى»، لم يقع خلاله

حدثٌ مهمٌ إلّا عشقي لها، والذّي أخذ يكبر يوما بعد يوم، خلال هذه الفترة أرسلت بضع رسائل غرامية إليها وقد ردّتْ عليّ بأخرى في المقابل، كنا نتبادل الرسائل بحذر، وبين فترة وأخرى كانت «ليلى» تطلب منّي رواية أرفق معها الرّسالة، وحين تعيدها أباشر بفتحها لأجد رسالة منها، أوراقنا كانت مثل بقية أوراق عشق تلك الفترة، رومانتيكية، بل رومانتيكية حارقة، تتحدث عن الرّحيل والموت (وحين يدفن جسدي الضّعيف في قلب التّراب الأسود).

ويبدو أنّه لم يفطن أحد لتلك الرسائل، فالخطر الوحيد والأساسي هو «شابور» الملقَّب بـ «بوري» ابن خالي العقيد، إذ هو أيضاً يحب «ليلي»، ولكن من حسن الحظ كان عليه الذّهاب إلى الخدمة العسكريّة، وقد أُجِّلَتْ الأمور حتى نهاية خدمته.

كتبت «ليلى» لي في رسائلها، أنّه لو ضغطوا عليها للزواج من «بوري» فسوف تنتحر، وأنا أعدها أنني لن أتركها وحيدة أبداً.

ولكنّ تغييراً مهمّاً في حياة باقي العائلة لم يحدث إلّا أنّ «شمس علي ميرزا» قدّم استقالته من المحكمة، وفتح مكتب محاماة.

عادت علاقة «دوست علي خان» و«عزيزة السّلطنة» إلى طبيعتها، ولكنّ خطيب «قمر» الذّي بعثه إليهم، فرّ هارباً وترك خطيبته.

بدت علاقة خالي العزيز «نابليون» وأبي غريبة، فهي في ظاهرها وطيدة حتى إن خالي العزيز أصبح أقرب لأبي أكثر من السّابق، ولكنّي مازلت أشكّ بنوايا أبي، إذ رأيتُه يوماً بعد يوم يفتح قلبه له، ويقترب منه إلى درجة مخيفة.

وكنت أُرجع السَّبب في هذا الشكٌ بعقلي ذي الخمسة عشر عاماً، إلى الضّربة التّي وُجِّهَت لأبي العام الماضي، فصيدليّتُه ليست الوحيدة في المحلّة، بل هي الأهمّ في قسم كبير من المدينة، وعائدها الماليّ لا بأس به، ولكنّ بعد ما أثاره الواعظ «أبو القاسم» بتحريكٍ من خالي العزيز فقدتْ رونقها، ووصل الأمر بأبي أنْ وظّف فيها ابن السيّد «أبي القاسم».

ولكنّ ما قاله السّيّد «أبو القاسم» عن صناعة الأدوية بالكحول، تَرَسَّخَ في الأذهان، فحتى وجود ابنه لم يعد مجدياً.

بعد مرور أشهر، و بعد جهود أبي الحثيثة لإعادة عمل الصيدليّة كما في السابق، انتهت بخسارته، وأُخْلِيَتْ من الأدوية، وأُحْضِرَتْ إلى بيتنا، بينما كانت تتلبّس أبي حالة غريبة، كنت أراه وهو يشتم من سبّب هذه الفاجعة له، ويعدُ بالانتقام، فتأكدت أنه سوف يحفر لخالي العزيز «نابليون» حفرة لن يخرج منها، و لم يكن يظهر ما يُعِدُّه.

عرف أبي كيف يستغل خالي العزيز، وفي عام استطاع أن يجعله يصدّق أنه أشجع وأعظم رجال العالم، و لم أعرف أي نهاية يخبئها أبي، ولكن من كان قبل عام يسخر من منصب شرطيٍّ عاديٍّ يواجه قُطّاع الطُّرق، يرفعُه الآن إلى مرتبة قائد، بل لا يرى أي فرق بينه وبين «جنكيز خان» أو «هتلر».

مع امتلاك خالي العزيز الأرضية، كان يصعد السُّلَّم الذي وضعه أبي له، فمواجهة قُطّاع الطّرق في الجنوب، والتي كانت قبل أعوام تتمثل في حرب كازرون وحرب ممسني، وصلت الآن إلى حربي اوسترليتز ومارنغو، وتحولت إثر تضخيم أبي لها إلى حروب عظيمة ومخيفة تدخل التّاريخ، يواجه فيها خالي العزيز الإمبراطوريّة البريطانيّة.

تضحك العائلة من هذا التّحول، ولكنّهم لا يجرؤون على التّشكيك فيه، وحين يجرؤ أحد منهم على تذكير خالي العزيز بأن حرب كازرون لم تكن إلّا مواجهة بينه وبين «خداداد خان ياغي»، يغضب ويقوم معترضاً ليفتح صفحة خصام مع من شكّك في هذه الحقائق.

أنهى الطّبيب «ناصر الحكماء» منزله الجديد، وبهذه المناسبة أقام وليمة دعا إليها العائلة، فكادت الوليمة أن تتحول إلى حرب طاحنة، إثر تدخل «شمس علي ميرزا».

قال خالي العزيز، وهو يتحدّث عن حرب كازرون:

- كنت أنا ومعي ثلاثة آلاف جنديٍّ تقريباً، وهم متعبون ومنهكون وبلا عتاد عسكريّ، ووقف أمامنا معسكر كامل، بل بريطانيا كلها، جيش، مدفيعة، فرسان على خيولهم...

وما أخرجنا من الحصار هو استراتيجية «نابليون» المعروفة في حرب «مارنغو».

تولّى قيادة الميمنة المرحوم «سلطان علي خان»، وكان على الميسرة المرحوم «علي قلي خان»... وأنا رأس الحربة مع الفرسان، وأي فرسان ما هم إلّا مجرّد اسم من غير مسمّى...

تدخل «مش قاسم»:

- ولكن يا سيّدي، رحم الله جوادك الأحمر فقد كان يسبق كل الخيول، وكأنّه حصان رستم، يسرج فيتحوّل إلى عقاب يحلق فوق الجبال وبين الوديان...

- حسناً كان هذا الجواد فقط، هل تذكر اسمه «مش قاسم»؟

- والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... حسب ما أذكر وضعت له اسم «سهراب».

- صحيح... نعم... ذاكرتك أفضل مني، اسمه «سهراب».

تحسّن سلوك خالي العزيز في مثل هذه المواقف مع «مش قاسم»، لأنه الشّخص الثّاني بعد أبي، يتابع الحكاية بدقة ولا يفوِّت حرفاً منها، بل ويظهر إيمانه بما يُقال، وتزايد احتياج خالي العزيز لشاهد يؤيِّدُه، وليس هناك أفضل من «مش قاسم» وقد سعد هو الآخر بهذا الدور الجديد.

أكمل خالي العزيز:

- كانت الشمس تجنح للغروب حين شاهدت بندقيّة تلوح فوق التّلال، رافعة علماً أبيض، فأمرتهم أن يوقفوا إطلاق النار.

وبعد ذلك جاء إليّ «سرجنت إنجليزي» على جواد، وأراد التّفاوض معي لعقد صلح، وأول سؤال وجّهتُه إليه هو:

- ما هي رتبتك العسكرية؟

وحين أجابني، قلت له:

- لا أستطيع التّفاوض معك، عليك التّفاوض مع شخص في مثل رتبتك، فأرسلت أحد أفرادي لا أذكر اسمه...

- كيف لا تذكره؟ غريب لا تذكره ما شاء الله عليك تذكر كل الأحداث أمرتني أنا.

– لا، لا تُخَرِّف يا «قاسم»... أظنّ...

– لِمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... وكأنّه الأمس، كنا نمشي أمام الخيمة... وضعتَ المنظار في رقبتك، وقلتَ: أنا لن أتكلم مع هذا «السرجنت»، اذهبْ إليه لترى ما عنده، ثمَّ أتوا به فوقع على الأرض، وكان عاجزاً عن الحركة.

لم أفهم لغته، فأخذ الشّاب الهندي الذي معه يترجم ما يدور، وقال:

– إن «السّرجنت» يقول إن «جيشنا» خسر المعركة... أعطنا الأمان. فقلت له:

– قل له: لماذا لم يحضر رئيسُك؟ ليس من اللّائق لسيّدي الحديث مع «سرجنت».

فقال للهندي بلغته، ما ترجمه الهندي:

– قسماً بـ «علي المرتضى» أنّه جُرِحَ، و لم يستطع المجيء...

قاطعه خالي العزيز قائلاً:

– هذه الجزئيات لم أنتبه لها، لقد طال الحديث، وحين انتهوا وأعطيت الأمان لجنودهم أنا بنفسي ذهبت إلى الكولونيل الجريح، ووقفت أمام رئيس جيش جريح ومهزوم وأديت له التّحية العسكريّة... المسكين، جرحت حنجرته طلقة، ولكنّه لم يستطع الوقوف، ورغم ذلك قال لي:

– مسيو، أنت من عائلة شريفة النّسب، أنت من أبناء الأكابر... أنت قائد كبير، ونحن الإنجليز نهتم بهذه الأمور كثيراً...

هنا تدخّل «شمس علي ميرزا» الذي أسرف في الشّرب:

– ما شاء الله، لديه نفسٌ طويل، إنسانٌ مثلُه مجروحُ الحنجرة، تحدّث كل هذا الوقت !!!

توقف خالي العزيز عن الحديث، وحُبِسَتْ الأنفاس:

– الأدب والاحترام والإنسانيّة، بدأت ترحل عن أفراد هذه العائلة، ويحلُّ محلَّها الوقاحة وقلَّة الادب، وعدم الاحترام.

قال خالي العزيز ذلك ووقف ليغادر، تمسّكت به العائلة كلها ليعود إلى مكانه، وتدخّل أبي كذلك بصفته مالكا سابقاً لصيدليّة، ليوضّح أن العلم أثبت إمكانية حديث من جُرِحَتْ حنجرتُه كلّ هذا الوقت، ووُفِّق أبي في إعادة خالي العزيز.

كان أبي يؤيّد كلّ ما يصدرِ من خيالاتٍ عن خالي العزيز، وخاصّةً أنَّه لا ينسى التّأكيد في نهاية كلِّ حديث على جملة (مستحيل أن ينسى الإنجليز).

تلقين أبي لخالي العزيز أن الإنجليز سينتقمون منه، وصل إلى شك خالي العزيز بكل من حوله، يرى الإنجليز يتعقبونه، وقد روى لنا «مش قاسم»، أنّه في الأشهر الثّلاثة الأخيرة بات يضع مسدّسه تحت مخدّته، وقد سمعنا من خالي العزيز مرة:

– أعرف أنهم في النهاية سوف ينهون الأمر، لن أموت موتاً طبيعياً.

ومع مرور الوقت، سَرَتْ هذه الفكرة إلى «مش قاسم»، وسمعته يقول:

- والله بني لم الكذب؟ حتى القبر أأأأأ... بالطّبع لن أصل إلى مستوى سيّدي، ولكنّي وجّهت ضربات موجعة للإنجليز، لن ينسوا حتى لو مرّ مئةُ عام.

الأمر الوحيد الذي عكَّر الصّفو في هذا العام، بين أبي وخالي العزيز هو موضوع المَعَلِّم «مهارت خان».

أظن أن اسمه الحقيقي هو «بهارات» أو «بهارت»، ولكنَّ أهل محلَّتنا ينادونه (معلم مهارت خان).

أُجِّرَ هذا التّاجرُ الهنديُّ، قبل ثلاثة أشهرٍ، أحد منازل أبي الواقع أمام البستان.

وحين علم خالي العزيز بالأمر، غضب كثيراً، لكنّ أبي حلف بكلِّ الأنبياء والأولياء أنه لم يكن يعلم أن المستأجر هنديٌّ، في حين أنِّي كنت منذ البداية شاهداً على اتّفاقهما على الإيجار.

في ذلك اليوم، وأمام اعتراض خالي العزيز، قام أبي بالتّأكيد على أن هذا الرجل إنسان لا دخل له في مثل هذه الأمور، فلم يعترض خالي العزيز ولكنه لم يبعد فكرة أن الإنجليز هم من بعثوا هذا الهندي لكي يراقب كل تحركاته.

ثمَّ عرفتُ فيما بعد، أنَّ أبي تعمّد فعل ذلك، بل حتى إنّه خفَّض له بدل الإيجار.

بقي خالي العزيز يصرُّ على أبي لكي يطرد المعلِّم الهنديَّ بأيِّ شكلٍ، ولكنَّ «أسد الله ميرزا» دخل عاملاً جديداً في صالح أبي، والسّبب دخول زوجة المعلم «مهارت خان» الإنجليزية قلبه.

أقام «أسد الله» علاقة طيبة مع الرجل الهنديِّ، ودعاه إلى بيته عدّة مرّات بصحبة زوجته اللّيدي «مهارت خان».

غضب خالي العزيز على «أسد الله»، حتى إنّه هدّده إذا استمر في علاقته مع الرجل الهنديِّ، بمنعه من دخول منزله، ولكن «أسد الله» دافع عن صديقه الجديد قائلاً:

– ون منت، مثلاً أنا إيراني... والإيرانيون معروفون بكرم الضّيافة... وهذا الرجل المسكين ضيفُنا، وهو غريب ووحيد.

وتابع متحدّثاً عن الرّجل:

– في إحدى المرات ترجمتُ له قصيدة «حافظ الشّيرازي» عن الغربة، فبكى بكاء شديداً... اقتلني، اطردني من منزلك ولكنّي لن أترك رجلاً غريباً خاصة في هذه الظّروف والحرب قائمة، المسكين ليس لديه أي خبر عن عائلته، عن أمه، عن أبيه في الهند...

على أيِّ حال، تغاضى خالي العزيز عن المعلّم «مهارت خان» ووجوده بقربه، ولكنه لم يترك شكّه به، وكان يشير إليه كلما تحدث عن الإنجليز.

***

في صباح ذلك اليوم، وحين دخل خالي العزيز مع أبي إلى غرفة الضيافة ذات الأبواب الخمسة، وأغلقا الباب خلفهما تحرك فيّ حس الفضول، وأحسستُ بحدوث أمرٍ سأتحمل أنا عواقبه.

بعد تناول الفطور ذهبت مسرعاً إلى البستان، ودخلت الدولاب الذي وضع أمام غرفة الاستقبال، وشبّاكه يطلّ على البستان.

أخذتُ أراقب ما يدور في الغرفة من ثقب، وقف خالي العزيز بطوله الفارع وهو يضع عباءته على كتفه أمام أبي حاملاً مسدّسه.

- أنا لا أثق حتى بإخوتي وأخواتي، وماصمّمت عليه أبوح لك به أنت فقط، وآمل كما اعتدتُ أن أضع ثقتي بك، لأنّك مثل أخ لي.

- والله مهما فكرت في الأمر أجد الحقّ معك... من جانب آخر، هو عمل صعب، عندها ماذا تفعل بزوجتك وأطفالك؟

- أنا سوف أتحرك هذه الليلة، وأنت اهتمّ بهم، وليأتوا خلفي بعد أيام دون أن يشعر أحد.

- ولكن من يضمن أنّ السّائق الذّي سيوصلُك لن يخبرهم عن مكانك حين عودته؟

- اطمئن من هذه النّاحية، سوف أذهب بسيارة المعلّم «خاقان»... سائقه كان تحت إمرتي طوال أعوام الحرب، وهو على استعداد ليضحّي بنفسه من أجلي، يعني هو مثل «مش قاسم» يرى...

- ولكن أقترح أن تُمْعِنَ النّظر في الأمر.

- ولكنهم لن يصبروا، الجيش البريطاني يتجه إلى (طهران)، فلا أستبعد أن يدخلوها اليوم أو غداً... صدّقني أنا لا أفكر بنفسي، أنا عشتُ الأهوال، عشت الخطر، بل وعانقته على حدّ تعبير «نابليون»:

(الرّجال العظماء أبناء الخطر) ولكني أفكّر بأطفالي... ثق أنّ الإنجليز أول ما سيقومون به عند دخولهم طهران، هو تصفية الحسابات القديمة معي.

هزّ أبي رأسه، وقال:

- بالطّبع، أعرف أن الإنجليز لن ينسوا الحسابات القديمة... ولكن، كيف يمكنك خداعهم؟ وهل تظن أنّك ستكون بأمان في (نيشابور)؟

في هذه اللحظة كان أبي يفكر بفقد رفيقه في لعبة النّرد.

أمال خالي العزيز عباءته، ووضع يده على مسدّسه وقال:

- الطّلقات السّت في هذا المسدّس لهم، والأخيرة لي، فمن المستحيل أن يقبضوا علي حيّاً...

الأمر الآخر أنني سوف أتحرك من هنا، موحيا أني قاصدٌ مدينة (قم)، لا أحد... هل تسمع لا أحد حتى السائق لا يعلم أين أذهب، سأقول له أني ذاهب إلى (قم)، ثم من هناك سأذهب إلى (نيشابور).

- ولكن حين تصل ماذا ستفعل؟ وهل تظن أنهم سيتركون (نيشابور) بلا جواسيس؟

- سوف أدخل (نيشابور) باسم مستعار.

لم أعد أسمع ما يدور بينهما، صور ابتعاد «ليلى» تطوف حولي، الإنجليز يقتربون من (طهران) وخالي العزيز يريد الهرب منهم، يا إلهي كيف أستطيع العيش بعيداً عن «ليلى»؟ ومن يعلم كم سيطول هذا

الرّحيل؟ لأوّل مرّة أشعر بقباحة الحرب وبطعم احتلال البلاد، مرٌّ على دخول الحلفاء البلاد عشرون يوماً، ولكنّه لم يؤثر على حياة الشّباب منا تأثيراً مباشراً، إلّا قضية تعطيل المدارس وارتفاع أسعار المواد الغذائية، بيد أنّنا كنّا نأكل أفضل من السّابق ونضحك بصوت عالٍ.

في الخامس من آب «أغسطس» ١٩٤١ ارتدى خالي العزيز عباءته وحشر المسدّس وسط حزامه الجلدي، يصحبه «مش قاسم»، واضعاً البندقية على كتفه، يحرسان البستان غير سامحين لنا بالخروج من المنازل.

وإذا كنت لم آخذ الحرب على محمل الجدّ حتّى ذلك الحين، إلّا أنني الآن أخذتها بل أصبحت أكثر الموضوعات جديّة بالنّسبة لي.

وددت الصّراخ أثناء حديثهما، في وجه خالي العزيز قائلاً له: إنّ العائلة كلها تسخر من رهبته للإنجليز، وأيضاً وددت القول: إنّ أبي زرع هذه الفكرة في رأسه ليصبح أضحوكة، والإنسان الذي كان في زمن «محمد علي شاه» جندياً عادياً وأطلق بضع طلقات على قُطّاع الطرق لن يهتم به الإنجليز، ولن يصل بهم الحدُّ إلى درجة الانتقام منه، ولكني أعرف أنّ كلامي لن يؤثر فحسب، وإنّما قد أُزْجر من أبي وقد يشبعني ضرباً.

لم استطع البقاء بينهما أكثر، ذهبت إلى غرفتي لأخلو بنفسي وأفكر بحلٍّ، كي أمنع خالي العزيز من السّفر بأيٍّ شكل كان، ولكن كيف؟ لا أعرف، فكّرت كثيراً و لم أصل إلى حل.

اقتربت الظهيرة حين ذهبت إلى البستان، فوقعت عيني على «مش قاسم»، وبعد تبادل التَّحية معه سألته عن آخر الأخبار.

- والله بني، أظن أنّ السّيد سيذهب عصر هذا اليوم إلى (قم) لمدة يومين، فهنيئاً له، وقد حاولت الذّهاب معه على الأقل لأمرّ على (غياث آباد) ولكنه لم يرض.

حسناً ماذا أفعل؟ السيدة «معصومة» لم تطلبني وطلبت السّيد...

- «مش قاسم» هل سيذهب خالي العزيز بالقطار أم بالسّيارة؟

- والله لَمِ الكذب؟ أظن بالسيّارة... لأنني سمعته يطلب في الهاتف من السيّد «خاقان» أن يرسل له السيّارة مع السّائق «محمد»...

إذاً، خالي العزيز سوف يسافر.

يا إلهي دُلّني على طريق، إذا لم أستطع منع خالي العزيز عن السّفر سترحل «ليلى» أيضاً، دون «ليلى» كيف سأعيش؟ ألا يوجد أحد يا إلهي يمدُّ لي يد العون؟ لماذا... ممكن... قد... لمعت فكرة في ذهني، «أسد الله ميرزا»، هو الشّخص الوحيد القادر على الأقلِّ إدراك سرّي وآلامي، نظرته الدّافئة تدفع الإنسان إلى البوح،، ذهبت مسرعاً إلى بيته، لا أعرف بعد كيف أفاتحه بالموضوع.

يعيش «أسد الله ميرزا» مع خادمة عجوز في بيت قديم قرب منزلنا، وحين سألت خادمته العجوز عنه قالت لي إنّه نائم، ولكنني رأيته من النافذة يتثاءب، ما إن رآني قال:

- ون منت، ون منت، ماذا تفعل هنا؟

- سلام عمي «أسد الله»، لدي عمل مستعجل معك اعذرني إذا كنت...

- لا تحتاج إلى الاعتذار... اصعد إلى الأعلى.

كان يرتدي مئزره المطرّز بالورد، جالساً على السّرير.

- ماذا حدث؟ أراك قلقاً.

مرت فترة صمت، ثم بحت بحبّي لـ «ليلى».

ضحك عالياً:

- جئت من أجل ذلك فقط؟ حسناً مبروك... هل قمتما بالسان فرانسيسكو أم لا؟

شعرت بالحرارة تتصاعد إلى وجهي، ولا شك أن الاحمرار تلبّسه، ورغم كلّ المحبة التي أُكنُّها له، إلّا أنّني بتُّ أكرهه، أيلوّث عشقي السّماوي بهذه الصورة؟

فهم صمتي بمعنى آخر:

- بالتأكيد أتيت إليَّ لأرسلك إلى طبيب يسقط الجنين؟ لا تحزن أعرف العشرات منهم.

صرخت:

- لا يا عمي، الموضوع ليس كذلك.

- إذاً لم تقوما بالسان فرانسيسكو؟ أجب، بسرعة فوراً، ألم يحدث؟

- لالالا.

– إذاً دعنا نجلس سويا نتحدث، لا تخجل يا رجل.

قلت وأنا مطرق رأسي:

– نريد الزواج حين نكبر.

ضحك وقال:

– لو كنت مكانك لما تحملت كلّ هذا الوقت... أظنُّ لو انتظرتْك فسوف ينتفخ بطنها ثلاث مرّات...

ولو أردت أن تبقى لك فعليك التّفكير بالأمر.

– مثلاً بماذا أفكر؟

– اذهب رحلة إلى سان فرانسيسكو وعُدْ.

استطعتُ بين مزاح «أسد الله ميرزا»، طرح موضوع هروب خالي العزيز بسيّارة «خاقان»، ورجوته كي يمنعه عن السفر.

فكر «أسد الله ميرزا» ثم قال:

– خالك العزيز هذا الذي أعرفه، حتى لو جاء «تشرشل» بنفسه، وأقسم بكلِّ الأنبياء، أنّ الإنجليز لا يهتمون لأمره، لما صدّق...

اطمئن سيقول لك بأنّ الإنجليز قد يتغاضون عن «هتلر»، ولكن لن يسامحوا خالك العزيز، هكذا يظن...

ثم تابع سائلاً:

– هل قلت إنه يود السفر إلى (قم) ثم إلى (نيشابور)؟

– ولكن لا أحد يعلم بالأمر إلّا أنا وأبي.

صمت «أسد الله ميرزا» مُفكِّراً، ثمَّ فجأة أشرق وجهه وهمس:

– ون منت، ون منت، إذاً... لو علم الإنجليز بسفره إلى (نيشابور) فسوف ينهي سفره... يجب أن نفكر بخطة نريه فيها أن الإنجليز علموا بفكرة هروبه، وعليه أن يعلم هو أيضاً بمعرفة الإنجليز لخطواته.

ثم أضاف ساخراً:

– حتى الإنجليز علينا إنقاذهم، لأنَّ عليهم إرسالَ طيّارةٍ خاصّةٍ لي من لندن لأرمي القنابل على سيّارة «خاقان» وهي تعبر الطّرق الوعرة، ورغم ذلك هناك خطر يحيط بالطّيار، فليس بعيداً عن السّيّد تَحَوُّلُهُ المفاجئ إلى بطل، يطلق النّار من بندقيّته، فيصيب عضو الطّيّار الشّريف...

وبينما كان يرتدي ثيابه بعجلة، نظر في وجهي الكئيب، وقال:

– إلى الأمام سر لإنقاذ البطل... آخر الأنباء، تعاون العملاء السّرِّيِّين مع الطّابور الخامس من أجل الحب... إلى الأمام سر.

لم أستطع معرفة ما يدور في رأسه، ولكنَّ ملامح وجهه أدخلت الطمأنينة في قلبي.

قال لي وهو يمسك بذراعي وقد دخلنا الزقاق:

– حسناً أخبرني هل تحبّك «ليلى» كما تحبها أنت؟

– نعم عمي، هي تحبّني، ولكن عليك أن تعدني بألّا تخبر أحداً.

– اطمئن ولكن متى حدث ذلك؟

قلت له بلا شعور:

– في الثالث عشر من مرداد قبل عامين.

قال ضاحكاً:

– بالطّبع، تعرف الدقيقة والساعة أيضاً.

– أكيد في السّاعة الثّالثة إلّا...

انفجر ضاحكاً حتى إنّي شاركته الضحك، وحين هدأ قال لي:

– ولكن يا بنيَّ عليَّ تقديم بعض النّصائح لك، أولاً، لا تظهر لها الكثير من الحب...

ثانياً، حين تشعر بأنّها تُفْلِتُ منك لا تنسى السّان فرانسيسكو.

احمرّ وجهي مرّة أخرى، و لم أجبه، توقف «أسد الله ميرزا»:

– الآن سوف أقوم بأمر، ولن تنفصل عنك هذه الفتاة، ولكنْ ماذا نفعل بذلك الأهبل؟ إذا انتهت خدمة «بوري» العسكريّة، فسوف يعقد على «ليلى».

ارتجفت من هذه الفكرة والحقُّ معه، لو حدث ذلك فليس باليد حيلة.

وحين رأى «أسد الله ميرزا» ملامح وجهي الكئيبة، عاد إلى ضحكه وقال:

- ون منت، لا تقلق فإن الله مع العُشّاق.

اقتربنا من البستان، نظر حوله وحين لم ير أحداً، طرق باب منزل الرجل الهنديّ، لم تحن لي فرصة سؤاله، لأن المرأة الإنجليزيّة فتحت لنا الباب، فلمعت عينا «أسد الله ميرزا» وقال:

- غود مورننغ ماي ليدي.

رغم معلوماتي القليلة باللغة الإنجليزية، قد استطعت فهم بعض عباراته ولكنّه كان يتحدّث بسرعة لا تترك لي مجالاً لفهمها.

حاصر المرأة الإنجليزية بتحريك يديه، حتى إنّه لم يترك لها مجالاً إلّا دعوتنا إلى الداخل، قالت لنا إن زوجها في الخارج وسيعود بسرعة، وأمام كلمة «أسد الله ميرزا» الدافئة دعتنا إلى الدّخول وانتظارِ زوجها.

جلسنا في غرفة الضّيافة وقدّمت له كأس خمرة، وحين أدنته مني قلت لها أنّي لا أشرب، فقال لي «أسد الله»:

- ون منت، ون منت، تعشق ولا تشرب؟! إذا كنت طفلاً بعد فلم عشقت؟ وإذا كنت بالغاً فعليك شربه... خذ كأسك.

وحين أخذته، قال وأنا لا حول لي ولا قوة:

- ولا تنس أن تأخذ كل ما تقدمه لك المرأة، حتى لو كان سماً.

ثم عاد إلى زوجة المعلم الهنديِّ يحدِّثها غير مهتمّ بي، وكانت ترد بين جمله الإنجليزيّة عبارة (أموت فيك) باللغة الفارسية:

- غود... يا إلهي لو ضمة... فري غود فاين...

سقطت المرأة ضاحكةً من حركاته السَّاخرة، وكانت تسأله عن معنى الجمل الفارسية المقحمة بالإنجليزية.

بعد دقائق دخل علينا المعلِّم الهنديُّ، فأخذه العجب بداية من وجود «أسد الله ميرزا» في بيته وبان عليه الانزعاج، لكنّ «أسد الله» سرعان ما أخذه إلى عالمه.

يعرف المعلّم الهنديُّ اللّغة الفارسيّة، ولكنّه يتحدّثها بلهجة هنديّة، ويضيف في آخر الجمل أفعالاً هنديّة.

وبعد مرور دقائق في الأحاديث الجانبية وأخبار الحرب، تطرّق «أسد الله» إلى الموضوع الأساس، وأخبره أنَّ خالي العزيز «نابليون» عازم على السّفر إلى مدينة (قم)، طالباً منه توديعه حين يركب السّيارة وأن يذكر اسم مدينة (نيشابور).

سأله المعلم عن سبب ذلك، فأجابه بأنّ الأمر ليس سوى مزحة، وأدخله في مزحة مرتجلة حتى أنساه سؤاله، ولكن الرّجل الهندي سأله عن موعد سفره.

- أنت تأمر... وكأن زقاقنا ميدان حرب، وتمرّ منه يومياً عشرات

السّيارات والشّاحنات، حين ترى سيّارة تقف أمام بيته ستعرف أنها ساعة الرّحيل.

- صاحب، على فكرة، تذكرت شيئاً مناسباً جدا ل (نيشابور)...

- حبيبي... أنت حقاً «محبت كرتاهي».

- صاحب، كم يوم سيبقى السّيد في (قم)؟

- والله لا أدري، أظنّه سيبقى عشرة أيام أو أكثر.

- وكيف سيتحمَّل السّيد البعاد عن زوجته؟

ضحك «أسد الله ميرزا» عالياً:

- والله الآن طبيعة السيّد هبطت في الكرتاهي

على ما يبدو أن هذه الجملة، تعلّمها «أسد الله» من الرّجل الهنديّ، وحسب استخدامها هي تدلُّ على العجز الجنسيّ.

كرّر «أسد الله ميرزا» وهو يضحك:

- وحين تعلم السّيّدات أن الطّبيعة هبطت في الكرتاهي، لا يعترضن على سفر أزواجهنّ كرتاهي.

ضحك الرّجل الهندي على ضحكة «أسد الله ميرزا»، وانتهى لقاؤنا بالابتسامات.

خرجنا من بيته و«أسد الله» مازال معلِّقاً عينيه على اللّيدي، وقبل خروجنا مدّ رأسه ليطمئن من خلوِّ الزُّقاق من المارّة.

سرنا إلى بيته:

- اطمئن مع هذه التّرتيبات، لن يذهب خالك العزيز، علي الأقل لن يذهب إلى (نيشابور)، وستبقى «ليلى» حبيبتك قربك، وبالطّبع عليك التّفكير بالسّان فرانسيسكو.

- أرجوك عمي «أسد الله» لا تذكر هذا الأمر.

رفع «أسد الله ميرزا» حاجبيه وقال:

- إذاً، أنت أيضاً هبطت طبيعتك في الكرتاهي ومازلت بعد شابّاً.

عدت إلى البيت بقلبٍ مفعمٍ بالأمل، لم أجد أبي في البيت، فسألت خادمنا عنه فقال إنّه دخل مع السّيد إلى غرفة الضّيافة ذات الأبواب الخمسة.

عليّ أن أعرف كل الجزئيات، إنّ سفر «ليلى» مرتبط بخالي العزيز «نابليون»، ولن أترك الأمور للقدر.

عدت مرة أخرى إلى الدولاب، وقف خالي العزيز أمام أبي مُكْفَهِرَّ الوجه يحدِّثه بصوتٍ خفيضٍ، عن آخر الاحداث:

- وقعت البرقيّة باسم «مرتضوي»... بالطّبع لم أذكر اسم الأطفال، وحين أقول لك «أرسل البضاعة» فعليك أن تعرف أنّني أقصد زوجتي وأطفالي، خاصّة الآن، فأنا بأمسِّ الحاجة لك لأنّني صمّمت على أخذ «مش قاسم» معي.

- كيف بدّلت رأيك بهذه السّرعة؟

- فكرت بالأمر، لو ذهبت وحدي وتركت «مش قاسم» هنا، وهو من أهل (قم) فسوف أثير الشّكوك، علينا أن نرتِّب الأمر جيّداً حتى لا يفطن أحد، وأرجوك حين تأتي السّيارة ونريد ركوبها، ذكّر السّائق بأنّ الطّريق هذه الأيام مزدحم وعليه القيادة بحذر.

- اطمئن.

جمع خالي العزيز عباءته مثل محارب روماني، يريد الذّهاب إلى الحرب، وألقاها على كتفه الأيسر، ووضع يده اليمنى على كتفي أبي وقال:

- أسلّم لك القيادة مادمت أنا غائباً، فالقيادة معك.

ثم غادر بخطوات واسعة.

بعد مرور ساعةٍ، توقفت سيارة «خاقان» أمام الباب، تجمع كل أفراد العائلة في البستان حتى يودعوا خالي العزيز.

حملت الخالة «بلقيس» قرآناً ومرآة في صينية.

«ليلى» المسكينة لا تعرف ما يخبئه أبوها لها، وفي حين كنت أحاول أن أكون طبيعياً تسارعت دقات قلبي، فأحسست بأمر غريب، ورغم أن «أسد الله ميرزا» طمأنني وأكّد على عدم سفر خالي العزيز إلى (نيشابور)، لكنّني ما زلت غير مرتاح ممّا يجري، كنت أنظر بين فترة وأخرى إلى «أسد الله ميرزا» الذي انشغل بالمزاح مع المودعين وهو ينظر إلي مطمئناً.

جاء خالي العزيز إلى البستان بثياب السّفر، وقبل أن يتبادل مع

المودّعين تحيّات الوداع، نظر حوله باحثاً عن «مش قاسم»، وغضب لعدم حضوره، فقال غاضباً للخالة «بلقيس»:

– دعي الصّينية واذهبي لتبحثي عن «مش قاسم» الأحمق، أين ذهب في مثل هذا الوقت؟

وصل «مش قاسم» قبل أن تعود الخالة «بلقيس» للخروج من البستان. فذهب مباشرة إلى خالي العزيز، وقبل أن يجد الأخير فرصة لزجره، قال «مش قاسم»:

– أرجوك يا سيّدي، دع عنك هذا السّفر الآن، النّاس يتحدّثون في السّوق عن تقدّم الإنجليز وهم يبعدون عن (قم) فرسخين فقط...

يقولون إنّ لديهم بنادق ومدافع يصل مداها إلى ثلاثة فراسخ...

نظر خالي العزيز إليه بازدراء، وقال:

– وهل أخشى الإنجليز أنا؟

ثم قال وهو ينظر إلى أغصان شجرة الجوز:

– لسنا نحن من نخاف إرضاء الحق ولا عارٌ على الأسد السّلاسل

لكن «مش قاسم» لم يتراجع:

– أنا أعرفك جيداً، ونحن لا نهاب هذه الأمور، ولكن، لماذا يرمي الإنسان نفسه في التهلكة؟

السّيّدة «معصومة» نفسها لن ترضى بأن نقع بيد الإنجليز...

– إذا كنت تخاف إلى هذا الحدِّ، ابق هنا واختبئ مثل العجائز في القبو.

هزّت هذه الكلمات «مش قاسم»، فضم حقيبته إلى صدره وقال:

– أنا لا أخاف أجداد الإنجليز.

وتقدّم إلى البستان.

دخل سيّد «أبو القاسم» بنَفَسٍ منقطعٍ:

– سمعت أنّك ذاهب للزيّارة، إن شاء الله خير ومبارك عليك.

سعى أبي إلى أن يكون هادئاً مع الواعظ، ولكن نظرته تشعُّ بغضاً، حين تقع على الرّجل.

في ذلك اليوم حين رأى الواعظَ، قال أبي له وهو يبتسم:

– حضرة حجة الإسلام، كيف حالك؟

– الحمد لله ندعوا لك.

– هل مازلت تحمل ذلك الإحساس نحو زوجة «شير علي» القصّاب، أم أنك نسيتها؟

نظر رجل الدّين حوله بقلقٍ وقال:

– أرجوك لا تمازحني بهذا... إن شاء الله في هذه الأيّام سوف أعقد على فتاة... ابنة الحاج «علي خان المعمار»...

تدخّل «أسد الله ميرزا»:

– ياه «برافو»، هي الفتاة المناسبة لك، وأيّ عائلة محترمة هي، أيُّ فتاة اخترت عاقلةٌ وفاهمة، ولن تناسبك زوجة «شير علي» وليست هي من مقامك، في حال أنَّ ابنة المعمار فتاة جيّدة جدّا، وقد رأيتها مرّة أو مرّتين في منزل أختي...

قرّر خالي العزيز أن يتحرّك للسّفر:

– حسناً، شكراً للجميع، أنا ذاهب.

وأخذ بتوديع الحضور، في هذه الأثناء جاء «مش قاسم»، مسرعا إلى البستان، واختلى بخالي العزيز.

احمرّ وجهه وهو يستمع لـ «مش قاسم»، أراد الاعتراض ثم تراجع وقال:

– ما المانع دعه يأت.

أحسست أن «مش قاسم» ذكر لخالي العزيز، أنّ الرّجل الهنديّ في الطّريق ليُسلّم عليه قبل سفره.

خالي العزيز يودِّع الحضور بصوتٍ عالٍ، ويَعِدُ الأطفال بحلوى السّوهان، والكبار بالزِّيارة نيابة عنهم، توقفت السّيارة أمام الباب، ووُضعتْ معدّات السّفر على سقف السّيارة.

تقدّم الرّجل الهنديّ إلى السّيارة، فما إن رآه خالي العزيز حتّى قال:

– من الجميل أن أراك كي أودّعك أيّها المعلّم.

– أتمنى لك سفراً ميموناً، صاحب.

جلس خالي العزيز في الخلف بينما جلس «مش قاسم» إلى جانب السائق، وأكمل خالي العزيز حديثه مع المعلّم الهندي:

– نعم منذ فترة لم أذهب لزيارة السّيدة معصومة...

قاطعه الرّجل الهنديّ:

– ولكن ألا تخف؟ فقد يكون الطريق غير آمن مع هذه الاضطرابات الأخيرة أيها الصاحب؟

– لا هذه شائعات لقد انتهت الحرب، وأعتقد أن السّيدة معصومة ستحفظ من يقصدها.

أحاطت العائلة بالسّيارة، ولكن الرّجل الهنديّ لم يبتعد، «أسد الله ميرزا» الذي كنت أتوقع منه الاهتمام بما يدور، كان مشغولاً بتبادل النظرات مع اللّيدي «مهارت خان»، وهي تنظر من النّافذة، كنت أنظر للرّجل الهنديّ بقلق كبير.

– أيها الصاحب، هل ستأخذ زوجتك معك؟

أجابه خالي العزيز:

– لا، لن أبق إلّا بضعة أيام.

– ولكن أيها الصاحب، الهجر وإن قلّت مدته فهو محرق على حد قول الشاعر:

«الحبيب في لهاورد وأنا في (نيشابور)»...

تجمّدت عيني على وجه خالي العزيز، عند سماعه لاسم (نيشابور) اهتزّ وقال للسائق:

- يا سيّد «محمد» تقدم بنا.

محرّك السّيّارة يعمل، ومع ضغطة على دوّاسة البنزين تقدّمت بهم السّيارة، تاركة الجميع خلفها يعلوهم التّراب.

اقتربت من «أسد الله ميرزا» ونظرت إليه، وضع يده على كتفي وقال:

- لقد انتهى الأمر اذهب ونم الآن...

في هذه الأثناء ظهر صوت زوجة خالي العزيز عالياً:

- لا تنسوا اللّيلة... كلكم مدعوون لأخذ آش الرشته.

اقترب «أسد الله ميرزا» من المعلم الهنديّ، الذي كان عائداً إلى بيته وقال له:

- أيها المعلّم قمت بدورك جيداً... مرحى لك.

ثم قال له:

- ولكن اللّيلة أعدّت السيدة آش الرشته من أجل سفر السّيّد، وأرجو حضورك وزوجتك معك.

الجميع ينظر إلى «أسد الله ميرزا»، لأنّ علاقة العائلة مع المعلّم الهنديّ، لم تكن متوطّدة بعد، بيد أن زوجِة خالي وُضِعَتْ في موقف حرجٍ، فقالت:

- بالطّبع، نحن نرحب بكما.

قال المعلِّم الهنديُّ:

- لا، صاحب لن نزعجكم... ستكون هناك فرصة أخرى، في يوم آخر...

لم يتراجع «أسد الله ميرزا» عن دعوته:

- ون منت أيها المعلّم، أنت مثل أخ لنا، أيّ إزعاج؟ قسماً بك سوف تُزِعج السّيّدة إذا لم تحضر.

ثم التفت إلى زوجة خالي العزيز:

- أليس كذلك يا سيِّدتي؟ أنا أعرفك جيداً، بالتّأكيد سوف تنزعجين...

- صاحب قد تكون زوجتي مشغولة، قد أحضر لوحدي...

- حسناً إذا كانت زوجتك مشغولة، أنت أيضاً لا تستطيع تركها لوحدها، سنترك الدعوة إلى يوم آخر، ولكن أرجوك اسألها أولاً...

وأطلق نظرة إلى النّافذة، لأنَّ المرأة الإنجليزية مازالت تقف خلفها، وصاح عليها:

- ماي ليدي... ليدي «مهارت خان».

وحين أخرجت رأسها من النافذة، قدّم دعوته لها بلغة إنجليزية ركيكة، فأجابته «ليدي مهارت خان» بكل تلقائية، أنّه إذا لم يكن لدى زوجها أمر مهم فسوف تلبي الدّعوة.

- هل رأيت سعادة المعلّم؟ إذاً نحن ننتظركما أنت كرتاهي وأهلا بك.

ذهبت إلى «أسد الله ميرزا» وقلت له:

- عمي «أسد الله»...

ولكنّه قاطعني:

- اصبر... أنت يا «دوست علي» احفظ عينيك اللّيلة، لأنّ المعلّم «مهارت خان» لديه عينا أفعى يحفظهما في منزله، وكلُّ من ينظر إلى زوجته، يبعث له الأفعى في سرير نومه...

لا تظنَّ أنّي أمزح معك، إذا وددتَ سوف آخذك الآن لتراها بنفسك؟

تحدث «أسد الله ميرزا» بكل جديّة، أدخلت الخوف في قلب «دوست علي خان»:

- هل تمزح معي يا «أسد الله»؟

- قسماً بموتك... ولكنّه بالطّبع لا يبوح بسرّه لأحد، حتّى إنّه لا يأتي على ذكر الأمر، ولكنَّ اللّيدي قالت لي ذلك.

نظر «دوست علي خان» حوله، وقال:

- أرجوك لا تذكر اسم اللّيدي أمام «عزيزة»، لأنها ستظن أنّي أحبُّها، فالعام الماضي مزاحك أشعل كل تلك الضجة.

-١٢-

مع حلول اللّيل، تجمّع كلّ أعضاء العائلة المقرّبين في بيت خالي العزيز «نابليون»، ورغم أني أستمتع بصحبة «ليلى» بعيداً عن مراقبة خالي العزيز، ولكنّي حين أتذكر سفره يصيبني القلق.

مرّت ساعات منذ غادرت السّيارة، ولا أعرف أين وصلت الآن؟

«أسد الله ميرزا» مازال يطمئنني على أنّه لم يذهب إلى (نيشابور)، ولكنّي في نفس الوقت أعرف أن خالي العزيز لن يذهب إلى (قم)، بعد سماعه ما قاله «مش قاسم» عن تقدّم الإنجليز، إذاً إلى أين سيذهب؟

مع كل لحظة تمرُّ أودُّ لو أسأل «أسد الله ميرزا» عن رأيه في الأمر، ولكنّه منشغل بصورة يعرضها على الليدي «مهارت خان»، ومن المستحيل الاقتراب منه.

الفرح يعمُّ المكان، حين نودي على أبي، لأنّ هناك من ينتظره في الخارج، خرجت خلفه آملاً أن أسمع خبراً عن خالي العزيز.

كان ابن سيّد «أبي القاسم» يرجوه أن يمرّ على أبيه، لم يقبل أبي في البداية، وقال إنّه لن يطأ بيتهم أبداً، ولكنه أصرّ عليه، واتضح أن هناك أمراً مهمّاً جداً، فقبل الدّعوة، وحين أراد الذهاب رجوته أن أرافقه.

- حسناً... أنت أيضاً تعال معي، ولكنّني لا أفهم سبب رغبتك بالذهاب معي، بينما تترك هذا الحفل؟

حين وصلنا إلى بيت سيّد «أبي القاسم»، تلفَّت ابنه حوله، وكأنّه يريد دخول بيتهم خلسة، وحين رأى خلوَّ الزّقاق، طرق الباب بطرقات مُتَّفَقٍ عليها.

فتح لنا السيد «أبو القاسم»، ودعانا للدّخول بسرعة، وأغلق الباب.

- تفضّلا... تفضلا إلى غرفة الضّيافة.

تقدم أبي وأنا خلفه، دخلنا غرفة الضيّافة، كلانا تجمّد، فإذا بخالي العزيز «نابليون» يجلس بثياب سفره متكئاً على مخدة، وبجانبه «مش قاسم».

- أنت؟... ماذا تفعل هنا؟ ألم تذهب إلى (قم)؟

كان خالي العزيز متعكِّر المزاج قال بصوت مخنوق:

- تفضل بالجلوس لأقصَّ عليك ما جرى، ولكنّي رجوتك أن تأتي لوحدك وهذا الولد...

قاطعه أبي:

- لم يذكر لي أن آتي لوحدي، ما قاله هو أن السّيد «أبا القاسم» يطلبني.

التفت خالي العزيز إليّ، وقال:

– بني اذهب إلى الساحة قليلاً، فلديَّ أمرٌ مهم مع أبيك.

خرجت من الغرفة، وكان السّيد «أبـو القاسم» يركب حماره ليخرج، وحين رآني قال لي:

– بني أطال الله عمرك أرسلت ابني لأمر... لا أحد في البيت، أغلق الباب خلفي وقل للسّيّد: إنّي سأعود بعد نصف ساعة.

أغلقت الباب خلف الواعظ، لم تكن زوجته في البيت، وكذلك ابنه وهذه أفضل فرصة لي، وقفت خلف أحد أبواب غرفة الضّيافة، وأخذت أتابع ما يدور في الدّاخل، قال خالي العزيز:

– حين أقول إن الإنجليز لا يغفلون دقيقة واحدة عني، تقول العائلة إنني أبالغ...

هل ترى كيف كشفوا خطة سفري لـ (نيشابور)، هل رأيت كيف تحدث معي عن (نيشابور)؟

– ولكن ألا تظن أن الرّجل الهنديَّ قال الشّعر بمحض الصدفة؟

– ماذا تقول؟ لا أحد يعلم بخطتي والجميع يظنني مسافرٌ إلى (قم)، أنا وأنت فقط من يعلم بها وتقول إن الرّجل الهنديّ، قال ذلك في آخر لحظة صدفة؟

قال «مش قاسم»:

– لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أهـا... أنا بنفسي لم أكن أعلم أنّ سيدي يريد الذهاب إلى (نيشابور)، أي أفاع هم هؤلاء الإنجليز...! يا

إلهي وقفنا لنذهب إلى حضرة الحسن كي نشعل له شمعة ليمرغهم في التّراب... لا تعلمان ما لدى حضرته من معجزات لا توصف...

في إحدى المرات كان ابن مدينتي...

قاطعه خالي العزيز:

- يكفي «قاسم»، دعنا نكمل حديثنا، بماذا تشير عليَّ؟

حين خرجنا اليوم من المدينة لم أجد أمامي غير العودة، فرجعت وأتيتُ مباشرة إلى بيت السّيّد «أبي القاسم».

لو عدت الآن للبيت سوف يوصل هذا الهندي الأمر مباشرة إلى (لندن)، وأقسم أنّه الآن جالس وبيده منظاره يراقب بيتي لكي...

- إذاً دعني أزفُّ لك خبراً، المعلِّم يجلس الآن في بيتك، ويأكل «آش الرّشته».

انتفض خالي العزيز وقال:

- ماذا؟ ماذا؟ المعلّم... المعلّم الهنديّ في بيتي؟ إذاً طعنت بخنجر من الخلف؟

استمتع أبي بتعذيبه وتظاهر بتألمه، غرس سكيناً أخرى:

- على حد تعبيرك طعنت بخنجر من الخلف، ولكنّي أظنُّ أنَّ هذا الرّجل الهنديَّ لا حيلة بيده، فهؤلاء يملكون ألف طريقة ليكملوا عملهم...

سكت أبي ثم قال:

– أنا لا أشكّ بالمعلّم الهندي، ولكن الليلة شككت بزوجته، هذه المرأة الإنجليزية...

قاطعه خالي العزيز، والغضب يعصف به:

– إذاً زوجته أيضاً في منزلي؟ من الأفضل أن تقول: منزلي أصبح مقرّاً للإنجليز، من قام بدعوتهما إلى بيتي؟

– ما جعلني أشكّ بها أنّها حين شاهدت ألبوم صورك، أوقفتها صورتك القديمة وأنت بالثّياب العسكريّة، حين كنت في فوج القوزاق... وحين أخبرها أحدهم أنها صورتك، طلبت من زوجها أن يراها، وتبادلا الحديث بالإنجليزية مناقشين أمرا لم أفهمه.

وضع خالي العزيز يده على قلبه، أمسكه أبي وقال له:

– لقد فقد وعيه... أَسْرِعْ «مش قاسم» وأَحْضِرْ الطّبيب «ناصر الحكماء».

رفع خالي العزيز رأسه وصاح بما بقيت لديه من قوة:

– لا، لا اجلسوا... أنا في حالة جيدة... الطّبيب «ناصر الحكماء» خادم الإنجليز، ابن عمّه يعمل في شركة النّفط الإنجليزية.

قال أبي وهو يدلك يديه:

– أسرع «مش قاسم»، أحضر كوب ماء.

ركض «مش قاسم» إلى السّاحة، فاختبأت في زاوية حتى عاد إلى الداخل، أخذ خالي العزيز رشفة، وبينما كان مغمض العينين همس:

– بين أنياب النمر ليس هناك حلٌّ إلّا الخضوع

فلامه أبي:

– الخضوع بعيد عنك، أنت يا من قضيت عمراً في مقاومتهم، لا يمكن لك التّسليم الآن، تاركاً جهودك تذهب هباءً، فالرّجال العظماء يُعْرَفون في السّاعات الحرجة...

في ساعات الحرج ستراهم فضل ورجولة وإقدام

أرجع خالي العزيز رأسه إلى الخلف، وقال:

– الحق معك، لا مكان للتّراجع، علي أن أُكْمِلَ مقاومتي، ولكنَّ القضيّة الأولى لأُكمل مقاومتي هي البقاء على قيد الحياة، والإنجليز لن يتركوني رِغم خوفهم مني...

اليوم توقفنا أمام المقهى لنشرب الشّاي، وكان الناس يأتون من الجنوب أيَّ حكايات يتناقلونها عن المذابح...

مرّ وقتٌ طويلٌ لم يتحدث فيه «مش قاسم»، فهزّ رأسه وقال:

– إنّا لله... حتى هذه اللّحظة شقّوا مئات الأشخاص إلى نصفين، يا الله ارحم (غياث آباد)، (قم)، الغياث آباديون حمّلوا الإنجليز خسائر كثيرة، فكلٌّ البلاد في جانب و(غياث آباد) في جانب آخر...

لدي صديق من مدينتي...

قاطعه خالي العزيز:

- «قاسم»، دعنا نفكر بحل لما نحن فيه.

ثم التفت إلى أبي:

- ماذا سنفعل الآن؟

وضع أبي يده على ذقنه، وقال:

- برأيي وجودك مهمّ للبلاد، أنت وجدت من أجل الشّعب، وعليك المحافظة على روحك، في مثل هذا الموقف الحرج، أفضل طريقة هي تحطيم رأس العدو بيد أعدائه، وأعتقد أنّ الحلّ الوحيد المتبقي لنا لنجاتك هم الألمان، يجب أن تدخل تحت حمايتهم.

- الألمان؟ لم يعد لهم وجود هنا.

- لا طبعاً، هم جعلوا الجميع يظنون أنّهم رحلوا ولكن لديهم عيون كثيرة في المدينة، برأيي أن تكتب لهم رسالة وتطلب منهم الحماية.

استمع خالي العزيز بدقة إلى كلام أبي الذي تابع قائلاً:

- من حسن الحظ لدي وسيلة لإيصال الرسالة...

- أكتب رسالة لمن؟

قال «مش قاسم»:

– سَلِمْتَ لنا، كنت أود قول ذلك، لو كان في العالم رجل فهو «هتلر».

– نعم أكتب رسالة لـ «هتلر»، ستكون تحت حمايته في هذه الأشهر القادمة حتى تصل جيوشهم، لأنه بلا شكٍّ ستصل جيوش الألمان بعد أشهر.

استمر خالي العزيز وأبي و«مش قاسم» يتداولون الأمر بينهم، حتى ظهر لهم أن القضيّة ليست بتلك السهولة، ولكن اتّضح لي حين أخذ «مش قاسم» بالبحث عن ورقة وقلم، أنّ الرّسالة ستكتب، أخذها من النافذة، وبدأ خالي العزيز بالكتابة بينما أبي يملي عليه:

– اكتب، إلى حضرة صاحب السّعادة «أدولف هتلر»، دامت شوكته، القائد الألمانيّ العظيم.

بعد التّحية والاحترامات الفائقة

أنا كلي اطمئنان من أنّك على علم بنضالي ونضال المرحوم أبي ضدّ الاستعمار الإنجليزي، ورغم ذلك أتجاسر وأذكر لك هنا بعضها... اكتب...

انهمك خالي العزيز في كتابة ما يمليه عليه أبي.

قال أبي:

– والآن أكتب شرحا مفصّلاً عن حرب ممسنيٍ وحرب كازرون وكل نضالاتك الأخرى ضد الإنجليز، ثم أشر إلى المعلم «مهارت خان»

وزوجته الإنجليزية وهما موظفان لمراقبتك... بالطّبع لا نعلم عن الرجل الهندي هل هو جاسوسٌ أم لا؟ ولكن أكتب أنه عميلهم...

قاطعه خالي العزيز:

- كيف تقول ذلك وأنت لست متأكداً؟

مثلما أنا متأكد من وجودي في هذه الغرفة أنا مطمئن من عمالته لهم، وهو موظّف لمراقبتي.

- على أي حال اكتب ذلك للألمان... ولا تنسَ كتابة «هايل هتلر» في آخر الرسالة.

- ماذا تعني هذه العبارة؟

- هذا من عادات الألمان اليوم... يعني «يعيش هتلر»... ولا تنسى كتابة أنني على استعداد للقيام بكل ما تطلبونه، وأطلب منه أن يرتب الأمور للمحافظة على حياتك.

سأله خالي العزيز بشوق طفل:

- لنفترض أنّ «هتلر» يريد إنقاذي من الإنجليز، ما الذي سيفعله برأيك؟

- لشخص مثله لا تستبعد أمراً... غداً مساءً، أو بعد غد سيرسل طائرة من طراز يونكرس لتحطَّ هنا قرب (دروازه) (قزوين) ويحملونك، ويطيرون بك، وقع هذا الأمر آلاف المرات في عدة دول.

سأله خالي العزيز بقلق:

– عندها إلى أين سيأخذونني؟

– يأخذونك إلى (برلين)، وبعد أشهر تعود مع الجيش الألمانيّ... علي أيّ حال عليك الابتعاد لأشهر عن زوجتك وأبنائك.

– ألا يمكن أخذ «مش قاسم» معي؟

– لا مانع، اكتب في نهاية الرسالة عن «مش قاسم»، وأنّ حياته في خطر.

هزّ «مش قاسم» رأسه وقال:

– والله، لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... الإنجليز ليسوا راضين عني، كم قتلت منهم في حرب كازرون؟!

كأنه الأمس، بضربة سيف قطعتُ رأس عقيد منهم... قطعتُ رأسه والرّجل لم يعلم بالأمر...و حين سقط الرأس على الأرض، مرّت نصف ساعة وهو يكيل لي الشّتائم... لم أجد إلّا منديلاً حشرته في فمه...

قاطعه خالي العزيز بحدّة:

– دعني «مش قاسم» الآن، حسناً كيف نرسل الرّسالة إلى «هتلر» بسرعة، لأنّ الوقت يداهمنا؟

– من هذه الناحية، اطمئن أنا أعرف أحد المقرّبين منهم سيوصل رسالتك باللاسلكي إلى (برلين)، ولا تهتم... سيتصلون بك بعد يوم أو يومين...

- وماذا سأفعل في هذه الفترة؟

- أرى أن تعود إلى البيت، ولا تظهر ما أنت فيه أبداً، وتعامل مع المعلّم الهنديّ بشكلٍ طبيعي، قل لهم: إنّ السّيّارة تعطّلت في الطّريق، وأُجبرت على العودة.

- ألا تظن أنّ...

قاطعه أبي:

- بالتّأكيد لن يصل الإنجليز في الأيّام القادمة، وأنت تتعامل مع الأمر وكأنّه لم يكن...

من الطبيعي أن هذا المعلّم الهنديّ - طبعاً لو كان جاسوساً - من الأفضل أن يرسل تقريره ليخبر عن وجودك في بيتك، حتى إذا ما وصل الجيش إلى هنا لا يقومون بعمل آخر.

الآن سوف أعود، وأنت بعد مرور ربع أو نصف ساعة، اتبعني مظهراً أنك عدت من السّفر للتّو، أكمل الرّسالة وسلمها لي ودعني أكمل الباقي.

كرّر عليه أبي قبل خروجه أن يذكر خضوعه التّام، وحب التّعاون مع الألمان في رسالته إلى «هتلر»..

ركضت حيث يراني أبي، وجلست على الأرض متظاهراً بالنوم.

- انهض لنذهب... لا تنم في بيت النّاس.

وحين خرجنا سألتُ أبي:

- على فكرة لماذا لم يذهب خالي العزيز إلى (قم)؟

كان أبي في عالم آخر يكلّم نفسه، كررت السؤال ثلاث مرّات، فأجابني:

- السّيارة تعطّلت في الطريق.

في طريق العودة كنت أراقبه، يتحدث مع نفسه، رفعت رأسي إلى السّماء (إلهي أحبط خطط أبي كي لا يختلق حرباً أخرى).

لم أدرك ما الذي يريده أبي برسالة «هتلر»، ولكني صمّمت على أنّي لن أقف مكتوف اليدين وسأتحمّل كلّ ما سيحدث.

مازالت صالة خالي العزيز عامرة بالضيوف، وأصوات الضّحك تتعالى، وصوت «أسد الله ميرزا» بدا الأعلى.

حين رأيتُ «ليلى» تضحك نسيت كلّ أحزاني، وحين سألتها عن سبب ضحكها قالت لي:

- لن تصدّق كم تمادى «أسد الله» في إيذاء «دوست علي خان».

جلس «دوست علي خان» مكتئبا يحاول رسم ابتسامة كاذبة، و«أسد الله ميرزا» الذّي أخذت خمرته تلعب به، فتح حواراً مع الرّجل الهنديّ، حاكياً له رحلة بطلها «دوست علي خان»:

- والآن بعد كل تلك الأحداث، بقي «دوست علي خان» مع

الفتاة لوحده، ولكن أبعد الله عنك ذلك اليوم... هبطت طبيعته في الكرتاهي...

قهقه عالياً، وبينما كانت كتفاه تهتزان، أكمل:

- في تلك الفترة كان شابّاً حين هبطت طبيعته، والآن طبيعته ما بعد الهبوط...

أخذت المرأة الإنجليزية من ضحك «أسد الله» و وراحت تشجّعه دائماً بـ (برافو، غود) وترجوه أن يروي الحكاية باللّغة الإنجليزيّة.

ورغم أن «أسد الله» لا يجيدها، لكنّه لم يكن يتراجع أبداً عن الحكاية:

- يو نو، ماي ليدي «مهارت خان».

قال «دوست علي خان» بصوت مبحوح:

- أنا أيضاً باستطاعتي ذكر حكاية الإمام «زادة قاسم».

تحوّل «أسد الله» إليه جادّاً، وقال:

- أيها السّيدات والسّادة... ليديّ أند جنتلمان... سكوت.. صديقنا العزيز الخطيب المفوّه، السّيد «دوست علي خان» يريد قصّ حكاية الإمام «زاده قاسم» على حضراتكم...

والآن أحوّل الحديث له.

ولكن «دوست علي خان» يعرف أنّه لن يصل أبداً إلى مستوى أسلوب «أسد الله» ومع إصرار الحضور لزم الصمت.

لامه «أسد الله»:

- «دوست علي» لقد فضحتني أمام المعلّم وزوجته... المعلّم وزوجته اللّيلة ضيفان علينا ولا يمكن حرمانهما من حلاوة لسانك.

أجابه «دوست علي خان»:

- السّيّد المعلّم، والسّيدة هما أصدقاء الجميع... في الحقيقة هما جاءا بدعوة مني.

- لو كان هناك شخص لا يعرف الخجل فهو أنت.

- نعم أنت دعوت المعلّم، ولكنّه لم يقبل دعوتك، وحين دعوته قبل...

قال «أسد الله» ضاحكاً:

- الآن لنفترض أن زوجة المعلِّم ضيفتي، والمعلّم ضيفك.

غضب «دوست علي خان»:

- خسئت المعلّم «مهارت خان» وزوجته أنا من دعوتهما اليوم وهما ضيفاي.

في هذه اللّحظة تجمّدت أنظار الجميع على الباب، التفتُّ لأرى ما يحدث، وإذ بخالي العزيز يقف بطوله الفارع واضعاً نظّاراته السّوداء، لا شك أنه سمع آخر جملة لـ «دوست علي خان» لأنّه كان يحدِّق فيه.

مرّت لحظات صمت، ثم ثارت عاصفة من الأسئلة عن سبب رجوع خالي العزيز.

نظر إليَّ «أسد الله»، وهو يبتسم، وغمز لي، وشكرته بحركة من رأسي، أخذ خالي العزيز يلعب الدّور الموكول إليه حاكياً حكاية تعطُّل السّيارة.

قال أبي:

– الخير فيما وقع... هناك دائماً فرصة للّزيارة... إن شاء الله الشّهر القادم نذهب سويّاً.

قال المعلِّم الهنديُّ:

– السّيد لم يتحمّل البعاد عن زوجته فعاد...

فجأة، تذكّر ما قاله «أسد الله» عن مزحة (نيشابور)، وأضاف:

– عاد رسم الحبيب من (نيشابور) إلى لهاورد.

هزت كلمة (نيشابور) خالي العزيز، لكنّه سعى في أن لا يظهر ذلك، وابتسم ثم أخرج ظرفاً وسلَّمه لأبي:

– على فكرة، عنوان الفندق الذّي أعطيتني إياه لم ينفعني، تفضل.

ورغم سعيي للحفاظ على هدوئي، لكنّي لم أُبْعِد عيني عن الظّرف، تابعت سفره من يد ليد ثم إختفاءه في جيب أبي، يا إلهي إلى أين يأخذ أبي خالي المسكين؟

حاول خالي العزيز إخفاء قلقه وغضبه عن المعلِّم الهنديّ، حتّى إنّه راح يتحدّث أكثر مما اعتاد، وبخلاف ردوده القصيرة أخذ يرد على مزاح «أسد الله» الذي لم يطقه سابقاً:

– على فكرة أين أخفى «دوست علي خان» رأس «عزيزة السّلطنة»؟

– أظن أنها ذهبت إلى الإمام «زاده داوود» لتربط خيطا.

– و لمَ الخيط؟

– لدفع التّعب عن «دوست علي خان»، على حدّ تعبير المعلّم «مهارت خان» مع الأسف هبطت طبيعته...

اعترض المعلّم:

– لم أقل ذلك أبداً.

– يا سيّدي، قلت على حد تعبيرك يعني بلغتك... و لم أقل أنّك أنت من قال ذلك، بل الأمر واضح من ملامحه أن طبيعته هبطت.

قال «دوست علي خان»:

– «أسد الله» سأصفعك إذا لم...

– ماذا حدث؟ حسناً لم تهبط طبيعتك (نهيهي)... طبيعتك دائر هي، طبيعتك رستم هي، طبيعتك هرقل هي...

حين ذهب الجميع أشار خالي العزيز إلى «دوست علي خان» ليبقى، فشعر أبي بهذه الإشارة وعرف أنّه يريد الاستفسار منه عن دعوة المعلّم الهنديّ، فأشار له أبي أن يترك الموضوع فخرج «دوست علي خان» مع الخارجين وبقي خالي العزيز وأبي في الصالة لوحدهما، وبما أني لم أستطع معرفة ما يدور بينهما، بقيت خلف الأبواب ألعب.

سأله أبي:

– هل كتبت الرسالة كما اتفقنا؟

– نعم كما قلت بالتّحديد، ولكن أرجوك أرسلها بسرعة فأنا في خطر.

– اطمئن غداً تصلهم.

دخل عليهما «مش قاسم» وهو يدمدم:

– سيدي هل تعرف ما فعله ابن الكلب هذا؟

– من «قاسم»؟

– هذا المعلِّم الهنديّ؟

– ماذا فعل؟

– قبل نصف ساعة خرج من الغرفة نظر حوله ودخل البستان... فذهبت خلفه...

– قل بسرعة ما رأيت، ماذا حدث؟

– والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... ذهب مباشرة إلى النّرجسة الكبيرة، وفعلها.

– على النّرجسة.

- نعم... على النّرجسة الكبيرة.

قبض خالي العزيز على ذراع أبي وقال:

- هل رأيت؟... الإنجليز... يريدون رميي من كل جانب وصوب، وهذا جزء من خطتهم يريدون تدميري نفسياً لأستسلم لهم، هذه بداية الحرب النّفسية.

ثم رمى سترته على الأرض، وأمسك بمسدّسه وصاح:

- سوف أقتل هذا الهندي... على النّرجسة... هذا عمل غير رجوليٍّ... حتى لو عذبت على يد الإنجليز فلن أتراجع عن قتله...

وضع أبي يده على كتفي خالي العزيز:

- إهدأ... ولأن النمل وقع في الإناء الأملسِ... فالخروج بالتّأني لا بالشدّة... تحمل حتى يصل أصدقاؤك، سوف تعرف كيف تتعامل مع هذا الهنديِّ في وقت آخر.

- أنا من سوف ينهي أمره.

نظر «مش قاسم» إلى السماور وقال:

- إلهي آمين... لا أود قول كل ما حدث... لقد فعل ما هو أسوء.

- ماذا فعل؟ لماذا لم تقل كل ما رأيت؟

- والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... قام ما قام به... ثم بعيداً عنك أطلق ريحاً عديمة الشّرف، وأنا كنت أبعد عنه أربعين ذراعاً وسمعته.

أمسك خالي العزيز رأسه:

- يا إلهي دعوا لي فرصة لأنتقم لهذه الإهانة الإنجليزيّة.

مرت بضع دقائق منذ عودتي أنا وأبي إلى بيتنا، حين دخل علينا خالي العزيز، وبإشارة منه ذهب أبي معه إلى غرفة الضيافة.

لا يمكن تركهما لوحدهما ذهبت إلى مخبئي.

- الأمور المستعجلة دائماً تكون ناقصة، الآن تذكرت لم أكتب في رسالتي علامة ليتعرفوا علي، افترض أن ممثلهم أراد الاتصال بي كيف سأعرفه وكيف سيعرفني...

أراد أبي إظهار الموضوع المقترح كأمر عادي جدّاً، ولكنّه انتبه إلى أهميته، ففكر ثم قال:

- الحق معك، في مثل هذه الأعمال علينا التفكير بكل الجزئيات، عليك أن تضع علامة ورمزا، ماذا لو...

- فكرت لو وضعنا عدداً لنتمكّن من الاتصال.

وضع أبي يده على ذقنه:

- فكرة جميلة، ولكن عليك كتابة العدد وفي مثل هذه المواقع، من الخطر كتابته فهناك أعين للأعداء وأعتقد...

ثم سكت، فقال خالي العزيز:

- ماذا لو كتبت اسم أحد أفراد العائلة؟

لمعت عينا أبي:

– لدي فكرة أفضل، مثلاً... نكتب اسم المرحوم جدك الأكبر، ولكن علينا كتابته بصورة غير قابلة للتّقليد، لنفترض (المرحوم السّيد الكبير أكل الثّريد مع جانيت مكدونالد).

قال خالي العزيز بصوت مبحوح:

– ألا تظنُّ أن الوقت غير مناسب للمزاح؟

– أنا أمزح؟! كما قلت سابقاً يجب أن تكون الجملة سريّة ولا يمكن لجواسيس الأعداء التّكهن بمعناها.

– أنا مستعد إلى صعود منصّة الإعدام الإنجليزيّة، على أن أضع اسم جدي الأكبر بقرب اسم امرأة إنجليزيّة.

هزّ أبي رأسه وقال:

– لا يمكن الحصول على كل ما تريد... إذا وددت... وإذاً دع القدر يفعل ما يشاء، ومن قال لك إن الإنجليز يريدون الانتقام منك؟

قد يعفون عنك بعد كل هذه الأعوام؟

– وكأنك تريد تعذيبي؟ أنت أفضل من يعرف ما يريد الإنجليز فعله بي، مازالت أعمال الخبيث الهنديٍّ شاهدة على المؤامرة...

– إذاً لماذا تُصَعِّبُ الأمور؟ وهل تَظنُّ أنَّ «نابليون» يتردد، لو كان يواجه ما تواجهه، لأخرج نفسه من محن (سنت هلن)، أنت لست ملكاً

لنفسك، أنت كبير العائلة، كبير المدينة، هناك شعب ينتظرك وعليك التّضحية والتّنازل.

أغمض خالي العزيز عينيه، وضغط بيديه على رأسه:

- من أجل الشّعب أقبل، أعطني الرّسالة لأضيف الرّمز.

دفع أبي إليه الرسالة والقلم:

- اكتب: في نهاية الرسالة، اذكر الرّمز الذي بإمكاننا التواصل عبره...

هل كتبت؟...

والآن اكتب في زاوية الرسالة (المرحوم جدي الأكبر أكل الثريد مع جانيت مكدونالد).

حين رفع خالي العزيز رأسه عن الرّسالة، كان العرق يتصبّب منه:

- سامحني يا ربي، من أجل إنقاذ نفسي جعلت جثّة جدّي ترتجف في قبرها.

- اطمئن لو كان جدك الأكبر على قيد الحياة لقام بما قمت به.

عاد خالي العزيز إلى بيته بعد أن ألقى خطاباً قصيراً عن شجاعته وتضحياته، وضرب الأمثلة من سيرة حياة «نابليون».

كنت محتاراً، أردت معرفة ما يدور في ذهن أبي ولكنّي لم أستطع معرفته، قضيت ليلة صعبة، عدت إلى التّفكير بـ «أسد الله ميرزا»، ورغم

أني ذهبت إليه في صباح اليوم التالي باكراً، لكنّه كان خارج البيت و لم يعد حتى وقت متأخّر من اللّيل، فبقيت وحدي أقضي يومي بتخيّل ما سيحدث، وما لفت انتباهي في ذلك اليوم هو ملامح وجه أبي، كانت ملامح انتصار وإشباع ذاتي.

لم أر خالي العزيز طوال اليوم، عند غروب الشمس استطعت تبادل بضع كلمات مع «مش قاسم»، فهو أيضاً خائف إثر تأثير خالي العزيز عليه.

– الأمر ليس مزحة الحقّ مع السّيد حين يبقى مستيقظا طوال اللّيل، الإنجليز قادمون، وليس مستبعداً عنهم بعث شخص لاغتياله...

لم يبقَ الكثير لنا في هذه الدّنيا، لا أنا ولا السّيد، ورغم ذلك نمت البارحة محتضناً بندقيتي أمام غرفته، لقد استيقظ من نومه عشر مرات، كان ما إن يغفو حتى يستيقظ صارخاً: جاؤوا.. وصلوا... وكأنّ سيف الإنجليز مُشهرٌ فوق رأسه، أنا كذلك وضعي غير مستقرٌ ولكنَّ التَّوكل على الله... يعني يا بني الحقُّ مع الإنجليز، حتى لو كنت مكانهم لفعلت ما يفعلونه.

– «مش قاسم» ألا تعتقد أنك تب...

وضع «مش قاسم» دلو الماء على الأرض وقال:

– ماذا تقول نحن والإنجليز مثل الجن وبسم الله؟!

فلنفترض أنهم نسوا حرب (ممسني) ولكن هل ينسون حرب (كازرون)؟ وماذا عن حرب (غياث آباد)؟

ولكن بني لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... قسماً بهذا الضّوء، أنا قبل أن أشدّ على مدفع الإنجليز، لن أدعهم يمسُّوا سيِّدي...

استمر «مش قاسم» يحكي لي عن بطولاته وضرباته القاتلة في الجيش الإنجليزي، وعن قرب وصول وسيلة نجاة.

من حسن الحظِّ كان اليوم التالي عطلة، ذهبت عدّة مرّات إلى بيت «أسد الله ميرزا».

قالت لي الخالة إنّه قال لها:

- لا توقظيني من النوم حتى السّاعة الواحدة ظهرا ولو انقلبت الدّنيا رأساً على عقب، في الساعة الحادية عشر استيقظ من النوم، وحين دخلت عليه في غرفته كان يأكل فطوره بشهية، بيضاً مخلوطاً بمعجون الطّماطم، في هذه الأثناء كان صوت «قمر الملوك»[8] يصدح من الغرامافون.

استقبلني بالترحيب ودعاني لأشاركه الفطور، ولكنّي لا أستطيع الأكل.

- لماذا لا تشاركني الفطور؟ هل العشق سد شهيتك؟

- لا الأوضاع لا تبشر بخير.

٨- «قمر» الملوك أول مطربة إيرانية (١٩٠٥) مطربة، ولدت في تاكستان مدينة قزوين كانت جدتها ملاية في حرم ناصر الدين شاه، قدمت أول حفل لها العام ١٩٢٤ وطلبت منها الشرطة ألا تقدم حفلاتها دون حجاب يغطي رأسها.لعبت الإذاعة حين تأسيسها دورا في شهرتها.

وحين رويت له عن ما جرى في بيت الواعظ ورسالة خالي العزيز إلى «هتلر» انفجر ضاحكاً:

– أنا لا أعرف ما الذي يخطّط له أبوك لهذا العجوز المسكين؟ ورغم ذلك الرّجل له الحق، فقد كانت أوضاعه الماليّة جيدة حين كانت الصيدليّة تعمل، ولكنه أصبح مثلنا الآن نحن موظفي الحكومة، لقد ضربه خالك العزيز، وهو يردُّ له الضّربة، ولو لم تكن عاشقاً لتركتهما يتصارعان.

– ولكن يا عمي علينا أن نجد حلّاً، أنا لا أعلم ما الذي يدور في ذهن أبي من خطط جديدة.

– ون منت، لا تقلق أبوك ليس ساذجا إلى درجة إرسال الرسالة إلى «هتلر» أو عرضها على أحدٍ لينكشف أمره.

– إذاً لماذا ترك خالي العزيز يكتب الرسالة؟

– أعتقد أنه يريد الرسالة كورقة ضغط ليلعب مع خالك، قلت: إنهم اتّفقوا على رمز؟

– نعم الرمز للتّواصل بينهم وهو: (المرحوم جدي الأكبر أكل الثريد مع جانيت مكدونالد).

وقع «أسد الله ميرزا» على الأرض ضاحكاً حتى إنّي شاركته الضّحك قلت له:

– حين سمع خالي العزيز اسم المرحوم كاد يتوقف قلبه، ولكن أبي أقنعه بكتابته.

- أبوك لا يخلو من الذّوق، من كثرة تمجيدهم للسّيد الكبير هذا أفضل انتقام... ولكني أستغرب كيف وافق خالك العزيز؟

- لم يقبل بسهولة، فقد قال له: أن أصعد إلى منصّة المشنقة أفضل من ذكر اسم المرحوم جدّي إلى جانب اسم امرأة لا يعرف أصلها.

ضحك «أسد الله ميرزا» وهو متعجِّب مما أذكره له:

- لم أر في حياتي أناساً متبجحين أمثالهم... «جانيت مكدونالد» فنانة معروفة يتمنّى العالم كله لو قبّل يدها.

- قال أبي له: لو كان «نابليون» في موقفك هذا لضحّى كما ضحّيت، خلاصة الأمر أنّه أخاف خالي العزيز إلى درجة قبوله تلاصق الاسمين.

قال «أسد الله» وهو يمسح وجهه بالمنديل:

- ون منت، يتحدّث هؤلاء القوم عن المرحوم السيد الأكبر، وكأنه «فيكتور هوغو» أو «غاريبالدي»، هل تعرف من كان هذا السّيد المرحوم؟

- لا يا عمي.

- كان يعمل بالمعمار في زمن «محمد شاه» و«ناصر الدين شاه»، جمع ماله من طابوق وآجر الناس، أرسل خمسمئة تومانٍ لـ «ناصر الدين شاه» فمنحه لقاء المال لقباً من قبيل «استسقاء السّلطنة» ولابنه، يعني والد خالك العزيز الذي حصل على المال في صينيّة من فضة،

منحه أيضاً لقباً من قبيل «استفسار الملك»، ثم بين ليلة وضحاه تحولوا إلى الطّبقة الأرستقراطيّة، ومن الطبيعيّ جدّاً أن يتحول ابن فهد السّلطنة إلى نمر المملكة، وابن نمر المملكة إلى أسد الدولة.

خلاصة الأمر أنّهم يرون أنفسهم أنقى الخليقة، ولكن، ون منت ما ذكرته لك الآن لا تذكره لأحد.

– أكيد.

– حسناً، الآن علينا التّفكير قبل أن يرسل «هتلر»، «المارشال غورينغ» إلى بيت مساعد قائد فوج (القوزاق) المتقاعد، على فكرة... هل تعرف أن خالك العزيز هذا، الذّي يشبه «المارشال هيندنبورغ» ماذا كانت رتبته؟

حين تقاعد كانت رتبته العسكرية بكباشي، وخرج بتقاعد هل تعرف السبب؟

– لا، لا أعرف.

– لن تذكر طبعاً، من كثرة ما أخذ يفرض سيطرته العسكريّة على البيت، ويعتدي على أبيك، قام أبوك بإعطاء نفس البيت الذي يسكنه الآن المعلّم «مهارت خان» لبكباشيٍّ شاب، خالك العزيز كان يمشي في البيت كقائد تاريخي، وكلّما صادف البكباشيّ الشّاب في الشارع يجبر الأخير على تأدية التّحيّة العسكريّة، وحين أحسَّ خالك بالضّحكات خلف ظهره، تقاعد من عمله... وبدأت العداوة بينهما منذ ذلك اليوم، حسناً الآن انهض لنفكّر بحل.

أكمل «أسد الله ميرزا» وهو يرتدي ثيابه:

- نحن نعرف الآن الرّمز المتفق عليه بين «هتلر» وخالك العزيز يجب أن نتّصل عليه ونخفق الخطط المستقبلية لأبيك

ولكن من أين نتصلِ؟... لا يمكن الاتّصال من بيتكم...

ما رأيك لو مررنا على بيت «دوست علي خان» الحمار، فهم ليسوا في البيت في مثل هذا الوقت.

خرجنا آملين الاتصال من بيت «دوست علي خان»، وفي الطريق أخبرني «أسد الله» نبأ سيئا، مفاده أنّ كل من كان في الخدمة العسكريّة أعفي منها، ولن يطول الأمر حتى يعود «شابور» الملقب بـ «بوري» ابن خالي العقيد.

حين أحسّ «أسد الله» بالكآبة التي امتلكتني، ضربني على كتفي وقال:

- لا تكتئب إلى هذا الحد، الله كريم، حين قلت لا تنس السّان فرانسيسكو فأنا قصدته لمثل هذا اليوم الأسود، لا تشغل بالك.

في نهاية المطاف إمّا أن تخرج صفر اليدين أو تذهب في رحلة إلى سان فرانسيسكو أو يفكر ذلك الأحمق بامرأة أخرى.

لكن عزاءه لي لم يبعد الألم عني، توقفنا أمام بيت «دوست علي خان» وأصخنا السّمع، لم نسمع صوت «عزيزة السّلطنة» التي يسمع صوتها على بعد ثلاثة شوارع.

حين فتح الباب لمعت عينا «أسد الله» وابتسم، وقفت أمامنا شابّة في حدود العشرين من العمر جميلة، رحّبت به بحفاوة ودعته للدّخول، تقدم ثمّ سألها عن «عزيزة السّلطنة» و«دوست علي خان»، الجميع خارج البيت والفتاة وحيدة.

ابتسمت الفتاة، وكانت تضع شادر الصلاة وقالت:

- سيد «أسد الله خان» وكأنك لم تتذكرني؟

نسي «أسد الله ميرزا» ما جئنا من أجله وسلط عينيه على الفتاة:

- ون منت كيف أنساك؟ أنت زهراء... كيف حالك؟... كيف حال أبيك؟... أين كنت منذ فترة لم نرك؟

ابتسمت الفتاة وقالت:

- أنا فاطمة ابنة سيّدة السّيّدات... سيّدة السّيدات خالة «قمر»... ألا تذكر حين كنت طفلةً قلت لي: شفتاك تشبهان تفاح خراسان؟

- آه فاطمة... ياه ما شاء الله كبرت... أين تلك الشفتان الحمراوان؟

ألا تسمحين لي بقضمهما حتى أزيل الحمرة عنهما؟ والآن ألا تقدمي لعمك قبلة؟

احمرّ وجه الفتاة، وأطرقت رأسها وهي تبتسم، فأمسك «أسد الله» يدها وقال لها وهو يلسعها بنظراته:

- كنت دائماً أسأل السّيدة عنك وكأنها قالت أنك تزوجت؟

– نعم تزوجت وذهبت إلى (أصفهان)... ثم تطلّقت بعد أربع سنوات... كان رجلاً سيئاً وعذبني معه.

– أذلّه الله وهل هناك من يعذب فتاة بهذا الجمال؟ هل أنجبت له؟

– لا... كان عقيماً.

– ياه... ياه... برافو... والآن ماذا تفعلين؟

والآن نسي «أسد الله» كل ما خططنا لأجله، أشرت له لكي نبدأ فقال لي وهو لا يزال ينظر إلى الجسد الغضّ:

– إذاً سوف نجلس قليلاً حتى يعود «دوست»...

قاطعته الفتاة وقالت:

– بالطّبع لدينا عصير الكرز، ليمون ماذا تحب أن أقدّم لك؟

– ليمون سيكون مناسباً، لو أحضرت لنا ليموناً من السوق سأكون شاكراً... لأني أحبه طازجاً خذي هذا ثمنه.

– لا لن أقبل... لديّ المال.

وضع «أسد الله» ورقة نقدية بيدها تمكّنها من شراء ثلاثة أضعاف ما يحتاج عصير اللّيمون، ما إن خرجت فاطمة حتّى ذهب إلى الهاتف واتصل بخالي العزيز، ووضع منديلاً على السّماعة وانتظر، حين سمع صوت خالي العزيز قال متحدثاً بلهجة تشبه اللغة الرّوسية:

– سيد هل أنت وحدك؟ إذاً انتبه لما سأقوله لك... المرحوم السّيد الكبير أكل الثريد مع «جانيت مكدونالد»... هل فهمت؟

اطمئن... لقد جاءتنا الأوامر... سوف نتّصل بك بعد يومين... انتظر تعليماتنا... وهي سريّة جدّاً... لا تقم بشيء... انتظرنا، ولا تتحدث مع أحد حتى تأتيك الأوامر... هل فهمت؟... لقد أعطيت وعد شرف؟

هايل هتلر.

وضع «أسد الله» سمّاعة الهاتف وهويحبس ضحكاته، وقال لي:

– المسكين كان يِرتعش، والآن لو أراد أبوك اللّعب معه فلن يستطيع.

عادت فاطم متقطِّعةَ الأنفاس يبدو أنها ركضت المسافة، تجرّأ «أسد الله ميرزا»، وهو لا يبعد عينيه عنها:

– حسناً فاطم العزيزة متى تزورين عمك؟ أنت تعرفين بالطّبع منزلي؟

– المنزل السّابق نفسه؟

– نعم نفسه... ومادمت الآن هنا عليك زيارتي دائماً.

– إن شاء الله سوف أزروك مع أمي.

– ون منت، ون منت... أبداً لا يمكن أن تقطع كلَّ هذه المسافة، فالمرء يتخيّل أنه شفي ثم لا يلبث أن يقع في الأسوأ... حسناً وكأن «دوست علي خان» وزوجته لن يعودا الآن نحن سنذهب.

– لا سيأتيان عما قريب.

– على فكرة إلى أين ذهبا؟

– والله.

تردّدت فاطمة، أحس «أسد الله ميرزا» أن هناك ما تخفيه، فغافلها:

– عرفت ذهبا وراء تلك القضيّة... ذلك الموضوع الذي تكلّما عنه في الأمس، المسكينان أيُّ مصائب في هذا العالم لا يمكن التّكهن بها، تقع دفعة واحدة؟.

– وهل تعلم أنت بالموضوع؟

– أنا أول من فاتحه بالموضوع... معظم العائلة تعرف عنه...

فتحت نافذة على لسان فاطمة:

– البارحة كان لدينا ضيوف، جاء الرّجل الهنديُّ مع زوجته الغربية وتعشيا هنا، وبعد ساعة من ذهابهما قامت ضجّة، استمعتِ لمادار خلف الباب. سمعت «عزيزة السلطنة» تحقّق مع «قمر» وتسألها عن الطّفل، «قمر» لم تحرك ساكنا وبقيت تضحك، ثم ذكرت أسماء رجال سمعتها لأول مرة.

حاول «أسد الله ميرزا» إخفاء دهشته، نظر إلي وقال لكي يجرّ الفتاة إلى الحديث:

– ون منت، حقيقة ون منت... أي أناس تصادف في هذا العالم، يفعلون ذلك مع بنت مجنونة.

أطرقت «فاطمة» رأسها، وقالت:

- اليوم أخذاها إلى الطّبيب، قد يستطيع إسقاط الجنين... السّيدة «عزيزة» بكت حتى أشرقت الشّمس، وهي تلطم على وجهها، ولكنّ «قمر» كانت سعيدة وهي تضحك وتقول سوف أصنع قميصاً للطّفل.

تأثر «أسد الله ميرزا» وقال:

- يجب قطع رأس من فعل ذلك مع المسكينة.

قطّبت «فاطمة» حاجبيها وقالت:

- ولكن سأذكر لك... عدني ألا تذكر لأحد ما سأقوله لك.

- قسماً بحياتك لن أذكر الأمر...

نظرت «فاطمة» إليّ، فأدرك «أسد الله» ما ترمي إليه:

- اعتبري هذا الصّبي أنا، اطمئني فهو بئر أسرار.

قالت «فاطمة» مترددة:

- صباح هذا اليوم قال «دوست علي خان» للسّيدة «عزيزة» أنّك أنت من فعل ذلك، يعني الطّفل لك.

انتفض «أسد الله ميرزا» وصاح:

- عديم الشّرف، أنا أفعل ذلك مع فتاة مجنونة؟!

كان «أسد الله» يشتم «دوست علي خان»:

- سترون ما سأفعله به... يدعو المعلِّم الهنديَّ وزوجته من خلف ظهورنا، ثم يحوِّك لي قضية.

سكت، وأطرق رأسه ثم قال:

- الآن قم لنذهب، سيكون الحساب عسيرا مع «دوست علي».

أصرّت «فاطمة» أن نبقى، ولكنّه وعدها أنه سوف يزورها عن قريب.

وحين خرجنا قلت له:

- عمّي... هل تعتقد أن هذه الفتاة؟؟؟

قاطعني:

- انتهى أمر «فاطم»... النّساء في الدّقائق الأولى إذا اصطدتها انتهى أمرها وإلّا ستفرُّ منك، وهذه من النّوعية التي تركض خلف الطّعم، عليَّ أن أعطيك بعض الدروس، خذ في البداية الدّرس الاول:

حين تصل للمرأة أظهر لها أنك شاريها، ثم اذهب، ونم مرتاح البال هي من ستأتي للسّان فرانسيسكو.

- عمّي «أسد الله»... أنا أرى أن كلام هذه الفتاة...

قاطعني:

– عمّي... عمّي... ما بالك... ستعاود اللّحن القديم مرّة أخرى، قلبك يخفق بحب سماويٍّ وعذريٍّ، داوم على هذه التّخريفات حتى تضيع الفتاة من يدك، وستجلسَ تبكي ذكراها...

أغلقتُ عيني وتخيّلت المشهد:

«ليلى» يأخذها منّي شخصٌ آخر، لم أستطع تحمُّل هذه الفكرة، ظهرت «فاطمة» أمامنا:

– سيّد «أسد الله»، هذا بقيّة مالك.

– ماذا؟ الطّفلة لا تعيد لعمها بقيّة المال.

ثم أخرج ورقة نقدية من جيبه:

– على فكرة «فاطم»... خالتنا ليس لديها ذوق، خذي هذا المال، متى ما سنحت لك الفرصة اشتري ليمونا وأحضريه إلي، وأريده على ذوقك.

قالت «فاطمة» بحماس:

– هل تودُّ أن أذهب الآن وأحضره لك؟

– لا يا عزيزتي، غداً أو بعد غد متى ما سنحت لك الفرصة... وإذا لم أكن في البيت دعيه عند خالتك، مع السلامة.

عندما ذهبت «فاطمة» قلت.

– عمّي «أسد الله» وهل يحتاج شراء اللّيمون ذوقاً؟

– ون منت، حقيقة ون منت، رغم كلِّ هذا الطّول لا تعرف ما أعني؟ الدرس الثاني أنا مجبر على قوله:

دائماً ضع حبّاً أمام الطرف الآخر حتى تحين لك فرصة أخرى للقاء.

– حسناً، وحين تأتي بالليّمون وأنت لست في البيت، ووضعته عند الخالة فماذا ستفعل؟

– ون منت، عندها سأعرف أني لم أوصل لها فكرة أني شارٍ بصورة صحيحة، هل أعطيك الدرس الثالث أم أنك لن تفهمه؟

الدّرس الثّالث، لا تتظاهر أبداً بالبراءة أمام النّساء وإطراقِ الرأس، حتى لو كنت (سيسرون) سيقلن كم أنت بارد! ولو كنت «كلارك غيبل» أي وسيما، سيقلن لكنّه ثقيل الظّل، أو «أبو علي»[٩] وماذا تفيد الكتب؟

وكأنك لست معي دع الدّرس لوقت آخر.

– الحق معك أنا قلق جداً، أخاف أن يصل الأمر إلى الأخطر.

– و«ليلى» تذهب من يدك... خذ عنّي مع هذه النّظرة الطفوليّة التّي أراها، سوف يأخذون «ليلى» منك، وعليك البكاء عليها.

– إذاً ماذا أفعل؟

– سان فرانسيسكو.

٩– الإشارة هنا إلى الطبيب والعالم أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي ابن سينا، المعروف باسم ابن سينا.

- أرجوك لا تذكر ذلك.

- والآن بما أنك لن تذهب إلى السّان فرانسيسكو على الأقل در حوله يا أخي، أظهر أنك من أهله.

لقد أشعلت جرأة «أسد الله» النّار فيّ، لو لم أكن بحاجة إليه لأشبعته شتماً وتركته، ولكنّي لا أريد فعل ذلك، ولا أستطيع، فهو الوحيد الذي وقف معي ولا يمكن تضييعه، غيرت الموضوع:

- عمّي «أسد الله» هل أنت مطمئن من أن أبي لا يمكنه القيام بأمر في تلك الرسالة؟

- أكيد، إلّا إذا كان هناك خلل في عقله، وحتى لو افترضنا أنّه سيرسل الرسالة إلى «هتلر» أو «تشرشل»، فهما بالطّبع يعرفان أن لا وجود لحرب (كازرون) وسيأخذان الرّسالة على أنّها لمختل عقليّاً، وإذاً أظهرا بعض الاهتمام فسوف يضحكان قليلاً، على أيِّ حال لو استطعت الوصول إلى هذه الرسالة فخذها، ولكن قبل أن تمزّقها أحضرها لنقرأها سويّاً ونضحك، بدل «هتلر» و«تشرشل»، ولكن هل تعرف أين يكمن الخطر الحقيقي؟

الخطر في أنّ هذا الرجل العجوز المسكين...

ضحك «أسد الله ميرزا» وأكمل:

- أن يجنَ خوفاً من الانتقام الإنجليزي...

- على فكرة عمي، من تظنُّ أنّه أب طفل «قمر»؟

– ومن أين أعرف؟ بالتّاكيد إنه عامل أو...

– وماذا سيفعلون؟ بالتّأكيد سيجبرون ذلك الرّجل على الزواج بها.

– ون منت، ون منت ومن أين تعرف أنّهم تعرفوا على الفاعل؟وهل هم مستعدُّون أن تتزوّج ابنة نمر السّلطنة بشخص عادي ليس من علية القوم؟ اللّيلة بما أنّنا مدعوون إلى بيت العقيد، سوف نكتشف ذلك...

وكلُّ خوفي أن يفعلوا بهذه المسكينة سوءاً.

حين انفصلت عن «أسد الله ميرزا»، وعدت للبيت كان البستان هادئاً، حاولت عند الغداء كشف ما يخبئه أبي، ولكنّه كان أكثر هدوءاً من المعتاد.

-١٣-

وجدت «ليلى» وأخاها عصراً في البستان، اقترح أخو «ليلى» وأختي أن نلعب عدّة ألعاب، ولكنّنا أنا و«ليلى» منذ أن أصبحنا عاشقين لم نعد نميل للعب الأطفال، وكأنّ العشق حوّلنا إلى عجوزين دفعةً واحدة، ولكن، ولكي لا يطّلع أحد على ما نحن فيه، كُنّا ندّعي اللّعب، يعني نترك أخوانا يلعبان، ونجلس نحن تحت العريشة نتبادل الحديث.

لم يمر الكثير من الوقت حين وصل صوت المصوّر إلينا من الزُّقاق، ركضت أختي نحونا، وقالت:

- لقد جاء «ميرزا حبيب» المصور... تعالا لنأخذ صورة.

حضر هذا المصوّر المتجوّل عدة مرّات إلى البستان، وأخذ لنا عدة صور بكاميرته الصّندوقيّة التّي وضع حولها قطعة قماش سوداء، وكان يأخذ قيمة الصّور منّا نحن الأطفال أقلّ من البقيّة.

حين نادينا عليه، اندهشت فلم يكن «المصوّر ميرزا»، الكاميرا هي نفسها وهي نفس الصّور الملصقة على جوانبها ولكن صاحبها تبدّل.

حين رأى المصوِّر علائم التّعجب على وجوه الأطفال، وقبل أن نسأله، قال بلهجة أرمنية:

– لقد باع «ميرزا حبيب» كاميرته لي، إذا أحببتم سوف أصوّركم أنا؟ هل تعرفون أن «ميرزا حبيب» تعلّم التّصوير عندي؟ أنا أفضل منه.

تبادلنا النّظر، ولأنَّ سعر الصّورة لم يتغيّر، طلبنا منه الدّخول إلى البستان ليصوٍّرنا.

الصّورة التي التُقِطَتْ لنا مازلت أحتفظ بها، وقفت إلى جانب «ليلى»، أرتدي بيجامة مقلّمة، وأخوانا جالسان على كرسيّين أمامنا.

حين وضع المصوّر النغاتيف ذا اللّون الأحمر أمام العدسة ليأخذ الصّورة، رأيت خالي العزيز يخرج من ساحة المنزل، توقف يحدّق في المصوّر، ثم همس في أذن «مش قاسم» الذّي وقف خلفه، و لم يبعد عينيه عن المصوّر، ناظراً إليه نظرة بوليسية.

أخذ خالي العزيز، بالاقتراب منّا و«مش قاسم» ذهب ليكمل مهمّته.

بإشارة من خالي العزيز، دنوت منه فقال لي:

– بنيّ الحبيب، ليس هذا هو المصور الذي كان يحضر دائماً؟ من أين جاء هذا المصوّر؟

– لقد باع «ميرزا حبيب» كاميرته لهذا المصوّر.

اقترب «مش قاسم» من خالي العزيز وهمس في أذنه، اصفرّ وجه خالي العزيز، وأخذ الشّكّ يظهر على وجهه ثم أعطى أمرا آخر لـ «مش قاسم».

ذهب «مش قاسم» بخطوات واسعة إلى المصوّر:

- السلام عليكم... كيف حالك؟ جيدة هي الأحوال؟

وبعد تبادل التحيّات سأله عن اسمه.

- خادمك «بوغوص».

قال له «مش قاسم» وهو يراقب النغاتيف:

- ولكن لِمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... وكأنك محترف في عملك؟ لقد صوّرت صورة جميلة، لم يكن المصوّر السّابق يصوّر بهذه الحرفيّة.

نفخ المصوّر صدره، وقال:

- لقد تتلمذ «ميرزا حبيب» على يدي، لي في هذا العمل عشرون عاماً، وكان لدي إستديو، هنا في البداية ثمّ في (الأهواز)، ولكن لم يكن الحظّ إلى جانبي، بعت...

- إذاً كنت في الجنوب أيضاً؟

- نعم كنت هناك، أكثر الشّخصيات المعروفة صوَّرت عندي، كل موظفي شركة النّفط أيضاً.

قطّب «مش قاسم» للحظة، ثم حاول إخفاء دهشته وقال له:

- بالتّأكيد أن الإنجليز صوّروا عندك؟

- أكثر من يصوِّر لديَّ من الإنجليز.

أخرج المصوّر الصّورة من الكاميرا وأراها لـ «مش قاسم»:

- انظر إليها، هذه يقال عنها صورة حقيقيّة.

لم نسمح لـ «مش قاسم» برؤية الصورة خطفناها، أخذتها «ليلى» وركضت نحو أبيها:

- بابا، انظر كم هي جميلة!

أمسك خالي العزيز الصّورة أمام عينيه، لكنّه بقي يراقب المصوِّر، وفي هذه الأثناء همس «مش قاسم» له بشيء، فاقترب من المصوّر الذي سلّم عليه:

- لو سمحت لي سوف ألتقط لك صورة.

- لا شكراً لست بحاجة لها.

- لو سمحت لي فقط، أودُّ التقاط صورة للذّكرى، لو أعجبتك إدفع لي وإذا لم تعجبك فهي مجانية.

سكت خالي العزيز، و لم يجبه، ولكنّه لم يستطع إخفاء قلقه، فقال بعصبية:

- لماذا تريد أخذ صورة لي؟ من أمرك؟

نظر المصوّر إليه مندهشاً:

- لماذا غضبت مني؟ أردت تقديم خدمة ليس إلّا.

لم يتمالك خالي العزيز نفسه، فصاح فيه:

– لديهم ألف صورة مني في الملف، أغرب عن وجهي وقل لأسيادك لو أخذوا ألف صورة لن يتمكنوا من القبض عليّ حيّاً.

ثم فجاةً، أزاح عباءته وأخرج مسدّسه وقال بصوت راجف:

– ست طلقات لك ولأعوانك والأخيرة لي...

المصور يحدّق في المسدّس المشهر مندهشاً، ثم فرّ هارباً، خطف الكاميرا بسرعة أثارت تعجبنا.

نظرنا كلّنا إلى خالي العزيز والحيرة تلفُّنا، أعاد مسدّسه لقرابه، واستقرت حبّات عرق كبيرة على جبينه، ثم توجّه

إلى المقعد وارتمى عليه، لم تفهم «ليلى» ما جرى أمامها وكذلك الآخرون.

قال «مش قاسم» وهو يُدَلِّك يديّ خالي العزيز:

– عشت لنا ذخراً، بحق الخمسة الأطهار لا يحرم الناس من ظلك، لقد أعطيت ما يستحقه، فالإنسان يموت مرة، دعه يذهب إلى أسياده عديمي الشّرف.

ركضتُ إلى البيت وأخبرتُ أبي بسقوط خالي العزيز، فذهب إليه مسرعاً:

– ماذا حدث؟ ماذا حدث لك؟

أجابه «مش قاسم»:

– عديمو الشرف أرسلوا جاسوسا ليلتقط الصّور لسّيّدي...

والسّيد وقف أمامه مثل أسدٍ أوشك أن يطلق رصاصةً في بطنه وليته فعل.

واساه أبي بصوت لا يدلُّ أبداً على ذلك:

– اطمئن لقد وصل خبر الرّسالة.

ساعد «مش قاسم» خالي العزيز على النّهوض وعدت أنا مع أبي إلى البيت.

***

أُعِدَّ العشاء في منزل خالي العقيد، إضافة لأبي وأمي وخالي العزيز «نابليون» و«أسد الله» و«شمس علي ميرزا»، كان هناك آخرون، جاء «دوست علي خان» متأخّراً وقال إنّ «عزيزة السّلطنة» لن تستطيع المجيء فـ «قمر» ليست على ما يرام.

دار الحديث بداية عن «شابور» الملقب بـ «بوري»، فقال «شمس علي ميرزا»:

– والآن وبما أن «بوري» سيعود، على العقيد أن يشمِّر عن ساعديه ليزوِّجه.

قال خالي العقيد:

– الحمد لله ألف مرة، لا تتصوّر كم تعبنا مع الأوضاع الحالية حتّى

حصلنا على تسريح له من الخدمة العسكريّة، لو سمح لنا السّيد سنقيم العرس بإذن الله في عيد الاضحى.

خالي العزيز «نابليون» صامت، نظرت أوّلاً إلى «ليلى» التي أطرقت رأسها، ثمّ إلى «أسد الله ميرزا»، الذّي تجاهلني سائلاً:

– على بركة الله وهل تمّ اختيار العروس؟

أجابه خالي العقيد:

– يعني أنت لا تعرف من هي العروس يا «أسد الله»؟

– ون منت، ومن أين أعلم؟ ولا أرى أنّه من المناسب تزويج شاب عاد للتّوّ من الخدمة العسكريّة، و لم يحصل على عمل بعد.

– ما الذي تقوله؟ مع دراساته العليا تتمنى كلُّ الدّوائر الحكومية العمل معه، الولد تعب على نفسه ودرس كلَّ تلك الأعوام، وحصل على شهادة البكلوريوس، أصدقائي في الدّوائر الحكومية يرجونني ليعمل عندهم، فهذا الشاب نابغة.

ضحك «أسد الله ميرزا» وقال:

– هذا ظاهر من شكله، ولكن من هي العروس المختارة له؟

ألقى خالي العقيد نظرة أبوية على «ليلى»، وقال:

– عقد ابن العم على ابنة العم كُتِبَ في السّماء.

قطّب «أسد الله ميرزا» حاجبيه:

– ون منت، ون منت، أنا أعارض بشدّة، عمر «ليلى» لا يتجاوز الخامسة عشرة عليها أن تكمل دراستها.

قبل أن يستطيع خالي العقيد الرّد عليه، قال «دوست علي خان»:

– وهل أنهيت أنت دراستك حين تزوجت؟ لا معنى لحديثك الآن.

نظر «أسد الله ميرزا» إليه، وعيناه تشعّان غضباً:

– يا «دوست علي»...

ولكنّه سكت، فقد خطرت له فكرة ثم قال:

– على فكرة نشرت الصّحف اليوم مرّة أخرى، أنّ ألمانيا أغرقت بعض سفن دول الحلفاء.

«دوست علي خان» ليس لديه رأي ثابت حول الأحداث التّي تدور في العالم، ولكن ولكي يُغضِب «أسد الله» كان يخالفه الرأي دائماً:

– حتى لو أغرقت ألمانيا آلاف السّفن، في النّهاية سوف تدمّرهم بريطانيا، أو لم يقترب الألمان من (باريس) ثمَّ انسحبوا.

قال «أسد الله ميرزا» بصوت عالٍ:

– أنا لا أعرف لماذا تدافع عن هؤلاء الإنجليز، وكأنّهم يدفعون لك.

دون شعور نظرت إلى خالي العزيز «نابليون»، وكان «دوست علي خان» يقول مصطنعاً ضحكته:

– حين تقبض أنت من الألمان، لماذا لا أقبض أنا من الإنجليز.

نظر «أسد الله» نحوي وعيناه تبرقان، شرب كأسه وردّ عليه:

– هنيئاً مريئاً لك، هل تقبض منهم حقَّ الإستشارة؟ إذا لم يكن عقلك الكبير النّبوغي فمن سيستشير «تشرشل»؟

لم يجد «دوست علي خان» فرصة لإجابته، إذ قامت ضجّة في الممرّ، مع دخول «قمر» علينا منقطعة الأنفاس:

– «أبي دوست علي» أنقذني أمّي تريد قتلي.

نهض الجميع، بينما أسرع «دوست علي خان» إلى «قمر»، سائلاً إيّاها:

– ماذا تفعلين هنا؟ أين أمّك؟

– تلاحقني...

دخلت «عزيزة السّلطنة» مثل بركان هائج، وصاحت:

– قتلتني هذه البنت.

قال خالي العزيز «نابليون» متسائلاً:

– سيدتي لا تصرخي فضحتنا، ماذا حدث؟

قالت «عزيزة السّلطنة» لابنتها غير مكترثة بالحضور:

– قومي لنذهب إلى البيت، قبل أن أحطّم رأسك.

قالت «قمر» التي اختبأت خلف «دوست علي خان»:

– لن أعود إلى البيت، أنا أخاف منك.

– لن تعودي معي؟ إذاً خذي...

نظرت حولها فوجدت عصا ملقاةً على الكنبة، رفعتها:

– تحرّكي أمامي.

وقف خالي العزيز «نابليون» أمامها:

– سيدتي ضعي العصا جانباً.

تدخّل «أسد الله ميرزا»:

– ون منت، سيدتي هذه الطّفلة المسكينة...

قاطعه خالي العزيز:

– أنت اخرس.

قالت «عزيزة السّلطنة» بصوت متألّم:

– لا تعلمون ما الذي أعانيه، دعوني آخذها معي.

– قلت لك دعي العصا.

أمام أمر خالي العزيز أنزلت «عزيزة السّلطنة» عصاها، ثم أدار وجهه ناحية «قمر» قائلاً لها:

– والآن يا ابنتي عودي مع أمّك إلى البيت.

– لا، لا لن أعود، لن أعود.

– قلت لك اذهبي مع أمك إلى البيت، في عائلتنا عصيان أوامر الكبار سنّاً معصية.

– لن أذهب معها، لن أذهب.

فجأةً، صرخ خالي العزيز:

– قلت لك، اذهبي إلى البيت... البيت.

خيّم سكوت مطلقٌ على الحضور، وبقيت «قمر» للحظات مندهشة، ثمّ شرعت في البكاء وقالت:

– لن أذهب، لن أذهب أمي تريد قتل طفلي.

ثم وضعت يدها على بطنها:

– يريدون قتل طفلي، أنا أحبه، أريد حياكة قميص من أجله.

– ماذا؟ طفل... طفل... قميص؟

بعد اعتراف «قمر» المفاجئ، وصرخة خالي العزيز «نابليون» تجمّدنا كلّنا، لم يُسْمَع إلّا صوت بكاء ضعيفٍ ينطلق من «قمر»، ضربت «عزيزة السّلطنة» رأسها وقالت:

– يا إلهي خلّصني من هذه الدّنيا، فلم أعد اتحمل.

التفت خالي العزيز إليها وقال:

– ولكن... أنتِ...أنت... البريطانيّون...

وضع يده على قلبه، وتقدّم بصعوبة إلى الكنبة، وسقط عليها مغمضا عينيه، ركض الجميع إليه متحدثين في آن واحد:

– سيدي... سيدي...

– كيف حالك سيدي؟

أحضر قليلاً من الماء.

– «مش قاسم» أحضر كوب ماء.

أحضر «مش قاسم» كوب ماء، ولكنّ شفتي خالي العزيز لا تستجيبان، رشّ القليل من الماء على وجهه لكنّه لم يتحرك.

قال أبي:

– لقد توقف قلبه لن ينفع الماء معه، اذهب «مش قاسم» بسرعة أَحْضِر الطّبيب «ناصر الحكماء».

قال «مش قاسم» وهو يركض:

– يا أبتاه!!! في النّهاية سوف يقتله هؤلاء القوم.

ذهبت إلى «أسد الله ميرزا» وحكيت له قصة المصوّر، في هذه الأثناء كان الجميع مازال يتحدّث في آن واحد، ويركضون في كل ناحية و«قمر» وقفت هادئة تأكل الحلوى بشهية كبيرة؟

انتبه خالي العقيد للأطفال وقال لهم:

- رجاء اخرجوا، لتلعبوا.

تدخّل «أسد الله»:

- ون منت، سيّدي العقيد ليس هناك طفل صغير بيننا، هؤلاء ليسوا أطفالا، وقد سمعوا الحكاية، وإذا قصدت ألا تنتشر حكاية الحمل، فمن الأفضل أن تدعهم يبقون هنا وأرجوهم ألا يذكروا الأمر لاحد.

سكت خالي العقيد على مضض، فقال «أسد الله» باسما للأطفال:

- أرجوك سيدي العقيد عدني أنّك لن تخبر أحدا، بما حدث لـ «قمر»، وذلك من أجل مكانة العائلة.

قالت «قمر»:

- أنا أعدك لن أخبر أحدا.

جملة «قمر» أضحكتهم، وهي نفسها شاركتهم الضّحك.

أعطى الطّبيب «ناصر الحكماء» خالي العزيز حقنة، قبل أن يفتح عينيه.

وحين استعاد وعيه قال: إنه ليس بحاجة إلى طبيب ولا حقنة.

غضب «ناصر الحكماء»، وأغلق حقيبته، ثمّ نهض:

– سلامتكم... سلامتكم... ولكن قدّموا لي خدمة، ولا تفقدوا السّيد وعيه مرّة أخرى، لأنّي ضيف ثقيل، وسأرحل، سلامتكم.

وخرج من الغرفة مغتما.

قال أبي:

– هذه الأحداث المأساوية تحدث للجميع، عليك ألا تُنهِك نفسك، في مثل هذا العمر، فمن الممكن في حالة غضب أن تفقد حياتك.

أخذ خالي العزيز رشفة من كوب الماء:

– الحقّ معك، علي أن أتمالك نفسي... وأنت يا «عزيزة السّلطنة»، لا تقلبي البيت مناحة.

في هذه الأثناء، أخذت أمي أختي وأخَ «ليلى» إلى خارج الغرفة بحجّة العشاء.

ثمّ نظر خالي العزيز إلى «قمر» وقال لها:

– ابنتي، تعالي إلى جانبي لنتحدث قليلا... وأنت يا سيّدة «عزيزة»، دعيها ولا تتدّخلي أبداً.

قامت «قمر» من مكانها، وجلست إلى جانبه، وهي ما تزال تقضُم الحلوى:

– والآن قولي لي كيف عرفت أنك حامل؟

ضحكت «قمر» وقالت:

– لأنه يتحرّك في بطني.

– منذ متى أحسست به؟

– قبل كم يوم، أخرجتُ النّقود من حصّالتي واشتريت خيوطاً، وحِكْتُ له قميصا، وأريد حياكة آخرٍ له.

– لكنّ الفتاةَ إذا لم تتزوّج، لا يمكنها الحمل، متى تزوجتِ؟

– في بداية الصّيف.

رغم محاولة خالي العزيز البقاء هادئا، إلّا أنّه كان يغلي من الداخل.

ضغط على أسنانه، ثم عاد إلى الحديث معها:

– من هو زوجك؟ وأين هو الآن؟

فكّرت لحظة ثم قالت:

– لا أريد.

– قولي لي أنا فقط.

قال «دوست علي خان»:

– لقد أشبعناها ضرباً، و لم تنبسّ ببنت شفة، لا تُتْعِب نفسك معها، علينا التّفكير بطريقة أخرى.

قال خالي العزيز:

- ولكنها ستقول لي، كلّ ما تعرف، أليس كذلك «قمر»؟

يتابع الجميع شفتي «قمر»، وهي تقول بكل طفولية:

- لا أريد.

وقامت لتأخذ حلوى أخرى، فقبض خالي العزيز على معصمها وصاح:

- عليك أن تقولي لي، من هو؟ هل تفهمين؟ قولي لي من هو؟

خطفت «قمر» بيدها الأخرى الحلوى، وقالت وهي تلتهمها:

- لا أريد.

لوى خالي العزيز يدها، وجرّها نحوه، ثمّ صفعها على وجهها صائحاً:

- يجب أن تقولي لي.

تجمّدت «قمر» ومدّت شفتيها مثل الأطفال، في زاوية كمّها قطعة حلوى مبلّلة بالدّم، وقالت بفم مملوء بالحلوى:

- لا أريد... إذا قلتُ سيقتل طفلي، أنا أريد حياكة قميص له.

لا أعرف ما الذي اعترى الحضور من هذا الموقف؟ ولكنّي كدتُ أنفجر من هذا المشهد.

قلبي يريد الخروج من مكانه، لماذا لا يتدخل أحد منهم؟ لماذا يتركون هذه الطفلة تتعذّب؟

وجّه أبي خطابه إلى خالي:

- يا سيّدي حرام لا تُؤْذها، هذه الفتاة ليست في حالةٍ تسمح لها بإدراك ما يدور حولها.

- أنت لا تتدخل.

«عزيزة السّلطنة» التّي كانت تبكي كلّ هذا الوقت، فجأة رفعت رأسها:

- أفهم ما تقوله، من هو الذّي لا يدرك ما حوله؟ هل تريد القول أنّ ابنتي مجنونة؟ أحرقك الله، انظروا لقد جعلتم منها أضحوكة.

وجد «أسد الله ميرزا» فرصة للتّدخل، فتقدّم وقال:

- ون منت، سيّدتي لا تصرخي، اهدئي، فالصراخ لن يحلّ الأمر.

ثم ذهب إلى «قمر» ومسح بمنديله الدّم عن خدّها وضمّها إلى صدره، ثمّ قال لها:

- عزيزتي لا تحزني، لا يمكن لأحد قتل طفلك، فالطّفل الذي لديه أبٌ لا يمكن قتله، وإذا ما سألك السّيّد عن أب الطّفل فمن أجل... ينضم إليك وإلى الطّفل لتعيشوا سوياً.

وضعت «قمر» رأسها على صدره وقالت:

- ولكنّه ليس هنا.

- إلى أين ذهب؟

قال «دوست علي خان»:

- دعوها وشأنها، فمن المستحيل أن تتحدّث هذه الفتاة، لقد حقّقنا معها حتّى الصّباح.

- مستشار «تشرشل» اخرس.

تقدم «دوست علي خان» نحو «أسد الله ميرزا»، لكنّه دفعه بيده الأخرى:

- لولا السّيد لصفعتك محطّما أسنانك.

ثم قال لـ «قمر»:

- حبيبتي لو قلت لي أين هو سوف نجده معا.

- إذا قلت لك هل تعدني أنهم لن يقتلوا طفلي؟ حكت له قميصاً بقيت أكمامه، وسوف ينتهي.

- أعدك.

كان خالي العزيز «نابليون» في هذه الأثناء صامتا كجثة هامدة، ابتسمت «قمر» وقالت:

- اسمه «الله وردي».

الجميع ينظر إليها لكنّها انحنت لتلتقط حلوى، أخذتها ووضعتها في فمها.

تقدم «مش قاسم»:

– هل تقصدين بـ «الله وردي» خادم ذلك المعلم الهنديّ؟

كررت «قمر» بفم ممتلئ:

– «الله وردي».

– يا أبتاه، نفس هذا الخادم الذي سرق سيّده وطردوه.

– نعم «الله وردي».

تداخلت الأصوات، وصل خالي العزيز إلى أقصى نوبات غضبه، ولكنَّ «أسد الله ميرزا» أسكته بإشارة، قالت «عزيزة السّلطنة» وهي مندهشة:

– يا إلهي... أماتك الله، مع خادم الهنديّ... خذني يا إلهي.

لم يتمالك خالي العزيز نفسه:

– خادم الرّجل الهنديّ... هل... هل... الهدف أنا، أنا وعائلتي يجب أن نتحطم.

قال «دوست علي خان»:

– وهل هذا أيضاً من فعل الإنجليز؟ المساكين الإنجليز...

تقدم خالي العزيز منه وقال:

- أنت أيضاً؟ أنت أيضاً تدافع عنهم؟ أنت ابن عمّي؟

- أنا... أأأأ... لم أفعل شيئاً.

وضع «أسد الله ميرزا» يده على كتف خالي العزيز:

- آسف يا سيدي هذا الرّجل لا يفهم، وليس الآن وقت هذا الكلام علينا قبل كل شيء أن نجد «الله وردي».

قال «شمس علي ميرزا»:

- الحق مع «أسد الله»، علينا التّفكير قبل كلّ شيء بإيجاد «الله وردي».

صاح خالي العزيز:

- وماذا نفعل به؟ لكي نضمّ يده إلى يد ابن عمي؟

قال أبي:

- لو كان لديك حل آخر فاعرضه علينا.

- أرجوك أنت لا تتدخّل، أصل ومكانة عائلة شريفةٍ ليست من الأمور التّي...

من حسن الحظّ أنّ خالي العزيز لم يكمل جملته، نظرت إلى أبي بقلق، فتدخل «أسد الله ميرزا» وكأنّه أراد منع التّصادم الوشيك، ممسكاً يد «قمر»:

- إذاً أنت تزوجت من «الله وردي»، بالتّأكيد أنّه جاء إليك حين كنت لوحدك في البيت، وقال لنتزوج صحيح؟

قالت «قمر» ضاحكة:

- لا.

- إذاً دعاك إلى بيته حين لم يكن سيّده في البيت وقال لك لنتزوج؟

- لا.

- هل تزوجتما في السّوق أمام المارّة؟

- لا.

قال «مش قاسم» وهو يهز رأسه:

- أستغفر الله أيُّ أناس في هذه الدنيا عديمو الشَّرف.

- إذاً قولي لنا أنت ما حدث.

ما زالت «قمر» تلتهم الحلوى، و لم تنبسَّ ببنت شفة.

أُجْبِرِ «أسد الله ميرزا» على إكمال التّحقيق معها، ولكنه ذكّر الحضور بأن عليهم تحمل المزيد.

- حسناً، ابنتي جاء «الله وردي» إلى السّطح؟

- لا لم يأتِ.

اعترض «دوست علي خان» مرّة أخرى:

– لقد قلت لكم لا يمكن أَخْذُ كلمةٍ من هذه الفتاة، دعوها لنفكّر بحلٍّ آخر.

قالت «عزيزة السّلطنة»:

– دعهم يسألوها، فأنا تعبت معها، واليومُ مثل الأمس عليَّ البقاء مستيقظةً حتى الصّباح.

مسح «أسد الله ميرزا» العرق عن جبينه:

– ون منت، أظن أن «روح القدس» حطّ على الأرض مرّة أخرى، قام بالسّان فرانسيسكو مرة أخرى.

قالت «قمر»:

– عمّي «أسد الله» هل تذكر لقد وعدتني مرة إذا أصبحت فتاة مطيعةً سوف تأخذني إلى سان فرانسيسكو، لماذا لم تأخذني؟

قال «دوست علي خان»:

– قد يكون عمّك هو من أحضر لك هذه الهدية من سان فرانسيسكو.

نظر «أسد الله ميرزا» إلى «دوست علي خان»، وكذلك فعل الحاضرون حتّى اضطرّ إلى النّظر حتّى رجليه.

أعاد «أسد الله ميرزا» لـ «قمر» السؤال:

– ون منت، لم يأتِ الله وردي إلى بيتكم و لم يأخذك إلى بيته و لم تفعلا ذلك في السّوق، ولا فوق السّطح... إذاً أين جاء ومتى؟

– لا.

– أها في السّيّارة؟

– لا.

قال «مش قاسم»:

– ومن أين له سيّارة، لا إله إلّا الله وهل لهذا الشّحاذ سيّارة؟ والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... لقد أخذ مني عشرين تومانا.

انفجر «أسد الله ميرزا»:

– إذا كيف حدث يا فتاة؟ لا يمكن حدوث السّان فرانسيسكو عبر البريد، أين رأيت «الله وردي»؟

– أنا لم أره.

– لم تريه؟ لدينا تلفون، تلغراف ولكن «تلسان فرانسيسكو» لم يخترع بعد، هل تعرفين «الله وردي»؟

– لا.

– ون منت، ون منت، إذاً كيف أصبح «الله وردي» أباً للطّفل؟

قالت «قمر» وهي تمضغ الحلوى:

– البابا «دوست علي» قال لي أن «أب» الطفل هو «الله وردي».

ساد صمت مخيف، «عزيزة السّلطنة» لا توصف دهشتها، حرّكت رأسها ببطء نحو «دوست علي خان» الذي ارتبك وأخذ ينظر حوله، وقالت له بصوت مبحوح:

– «دوست علي»...

– أنا أنا...أن... الله... الله شاهد... هذه البنت مجنونة... لا عقل لها... فقدت عقلها كليّاً...أنا... أنا.

لم يستطع «أسد الله ميرزا» كتم ضحكته:

– ون منت، ون منت، ون منت...إذاً فعلها سلطان الزّهرة البيضاء؟

حاول «دوست علي خان» تبرئة نفسه:

– قسماً بروح أبي... قسماً بروح السّيّد الأكبر... روح...

بقفزةٍ من «عزيزة السّلطنة»، لا تقوم بها فتاة في السّادسة عشر من عمرها، وصلت للخزانة وأخرجت بندقيّة كانت دائماً تخبئها هناك، وقبل أن يتحرّك أحد منّا وجّهت ماسورة البندقية لبطن زوجها:

– قل الحقيقة وإلّا...

فصاح خالي العقيد الذي ركض خلفها وتجمد في مكانه:

– حاذري يا سيدتي فالبندقيّة محشوّة.

– أنت اجلس مكانك وإلّا فسوف أفجّرك.

– سيدتي، قسماً بـ «بوري» البندقيّة محشوّة، لقد وضعت فيها طلقتين لأختبرها وجاءنا ضيوف فنسيت إخراجهما.

صراخ الحضور، وأوامر خالي العزيز «نابليون» لم تؤثر فيها:

– ليخرس الجميع... على هذا القرد الاعتراف.

أرادت «قمر» القيام من مكانها، لكنّ «شمس علي ميرزا» أجلسها بقوّة.

ارتعشت قدما «دوست علي خان» وقال:

– قسماً بالقرآن المجيد... قسماً بروح أبي... فقط اسمعيني...

– اعترف... تكلم، لماذا قلت لـ «قمر» أنّه «الله وردي»؟

– أنـــا...أن...أ...أ... لأنّي رأيت أنّها لا تذكر اسم الرّجل... علّمتها... قلت على الأقل... لا ننفضح... يعني هي لا تنفضح... فقلت لها «الله وردي»

قالت «قمر» ضاحكة:

– كم هو كذّاب عمّي «دوست علي»... ألم تقل إذا لم تقولي أنّ «الله وردي» أبو الطّفل، سوف يقتلون ابنك؟

– اخرسي... لا تصدّقوها... سيدي أنت قل لهم هل تصدِّق أنّني أفعل ذلك مع ابنة زوجتي؟ وهل يعقل؟

لم يجد أحد فرصة للتّدخل لأن «دوست علي خان» بقفزةٍ وصل إلى باب الصّالة وهرب، قفزت «عزيزة السّلطنة» خلفه بنفس السّرعة الخاطفة، وبعد لحظات اندهاش ركض الجميع خلفهما:

- سيّدتي «عزيزة السّلطنة»... لحظة... اصبري... البندقيّة...

الزوج والزوجة يتقدّمان، وصلا البستان، ونحن نركض خلفهما بكلِّ طاقتنا.

فجأةً... انطلقت طلقةٌ وأعقبها صراخ «دوست علي خان»:

- آخ قتلتني...

وصلنا إلى شجرة الجوز، لم نتبين الوضع بعد، ووصل خلفنا «مش قاسم» حاملاً الفانوس، الذي تحت ضوئه رأينا مشهداً عجيباً.

سقط «دوست علي خان» على بطنه، وتمزّق بنطاله من الخلف، وبالتّحديد من الوسط، والدّم أخذ يجري منه، و«عزيزة السّلطنة» كمن أفاق من حلم وقفت فاغرةً فمها، والبندقيّة تحملها فوق رأسه.

الجميع مرتبك، وأوّل من انحنى عليه كان أبي الذي رفع رأس «دوست علي خان»، بعد سقوطه على الأرض.

- علينا... «مش قاسم»، أركض وأحضر الطّبيب «ناصر الحكماءّ».

وسط الصّراخ وضجّة الحضور، ضحكت «قمر» وقالت:

- ماما هل قتلت بابا «دوست علي»؟ حسناً فعلت، ألا تذكرين كان يصرُّ على الذّهاب إلى الطّبيب لنُسقط ابني؟

اختطف خالي العقيد البندقية من يد «عزيزة السّلطنة»:

– علينا فوراً أخذه إلى المشفى.

ابتسم «أسد الله ميرزا»:

– ثكلته أمه ذهب في رحلة إلى سان فرانسيسكو، وعليه إلى آخر عمره النوم على بطنه لأنه... لأنّه، واعذروني على وقاحتي... لأن مؤخرته لم تعد مؤخرة.

قال «شمس علي ميرزا»:

– «أسد الله» ليس هذا وقت المزاح.

– ون منت، ون منت وهل تظنّ أنّه حدث له مكروه؟ أربع حبّات رصاص لا تقتل، مع كلِّ هذا اللّحم لهذا الحمار لن تمرَّ فيه، خوفاً من «عزيزة السّلطنة» رمى نفسه قتيلاً.

قال خالي العقيد:

– بدل الجدال فكِّروا بحلٍّ، أعتقد أن الطّبيب «ناصر الحكماء»، لن ينفعنا علينا أخذه إلى المشفى.

قال «مش قاسم» الذي عاد للتّوّ:

– قال الطّبيب أحضروه اليّ.

أبي أيضاً كان رأيه أن نأخذه إلى المشفى، لكنَّ خالي العزيز «نابليون» قال:

- أرى أنّه من مصلحتنا التغاضي عن المشفى.

من الطّبيعي أن يأخذ رأي خالي العزيز «نابليون»، وحمل «مش قاسم» «دوست علي خان»، على ظهره وأخذه إلى الطّبيب ناصر الحكماء.

-١٤-

تجمع جيراننا أمام باب بيت الطّبيب، وذهب «شمس علي ميرزا» إليهم، ليفرّقهم لكنّه قبل أن يغلق الباب دخل معنا المعلّم «مهارت خان».

نظرت إلى خالي العزيز، وكان يحدّق بالرّجل الهنديّ، فيما قال الطّبيب «ناصر الحكماء»:

- سلامتكم أيها السادة، سلامتكم، ولكنني لست جرّاحا، خذوه إلى المشفى، فقد قال لي «مش قاسم» أن رجله جرحت، ولكنّ ما تقولونه أنتم أنّه مصاب بطلق ناري.

قال له خالي العزيز:

- أيها الطّبيب أرجوك من أجل الجيرة والصّداقة، افحصه، خذه إلى المشفى وسوف أذكر لك الأسباب فيما بعد.

كان في صوت خالي العزيز رجاء، لو لم يعترض الطّبيب وقال:

- مسؤوليته عليك، لا سمح الله إذا حدث له (انفاكسيون) لستُ المسؤول.

كان الطّبيب دائم الخوف من انفكسيون الذي يتلفظها (انفاكسيون)، ورغم ذلك ذهب ليفحص المريض الذّي نام على بطنه فوق السّرير، وقال:

– ولكن على السّادة والسّيّدات الخروج، لا أستطيع فحصه مع كلّ هذه الضّجة.

خرج الجميع، وقالت «عزيزة السّلطنة» التي تلطم على وجهها:

– ولكنّي سأبقى... أنا سأبقى معه، أنـا... سأبقى لأرى ماذا سوّدت...

– سلامتكِ ولكن عليك الخروج، وإلّا فلن ألمس المريض.

قال المعلّم الهنديّ:

– لديّ مرهم، لمثل هذه الجروح تشفيه بلمح البصر، سآتي به الآن...

ثم خرج بسرعة، فقال خالي العزيز «نابليون»:

– «قاسم» لا تفتح الباب لهذا الشحاذ، والآن بعد أن رأى فشل خطّتهم يريد قتل «دوست علي» بمرهم هنديٍّ، بالتّأكيد أنّ «دوست علي» أراد كشف أسرار الإنجليز لي.

هزّ «مش قاسم» رأسه قائلاً:

– عديم الشّرف، لن أفتح له الباب حتى لو بزغت الشّمس، أنا أعرف أيّ مرهم هذا... مرهمٌ أسودٌ يُستخرَجُ من بطن الأفعى لو

وُضِعَتْ علبتُه أمام الفيل وشمّها لتحوّل بلمح البصر إلى رماد،... لدي صديق من مدينتي...

ذهبت إلى الجريح الممدّد لأراه، وكان الطّبيب واقفاً ينتظر خروجهم حتى يبدأ فحصه، فيما تصرّ «عزيزة السّلطنة» على البقاء، لكنّها خرجت بإصرار من خالي العزيز.

قال الطّبيب:

– ليبق «مش قاسم» معي.

قال «مش قاسم»:

– تحت أمرك... أنا مرت عليَّ الكثير من هذه الحالات، لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... في إحدى المرات كان لدي صديق من مدينتي أصيب بطلق ناري أنا بنفسي...

– سلامتك «مش قاسم»... لا حاجة بي لك أنت أيضاً تفضل أخرج... دعوا هذا الشّاب معي ليساعدني.

أشار الطّبيب إليّ، بعد أن أخرج الجميع:

– إما أن تتفضلوا إلى منازلكم أو تنتظروا في غرفة الإنتظار، لا أريد أن أرى أحدا في الصّالة أو في السّاحة.

حين ذهب الجميع إلى غرفة الانتظار، بقيت مع الطّبيب فقال لي:

– سلامتك أيها الشّاب، ساعدني لكي ننزع عنه ثيابه، أنت لا تخاف من رؤية الدّم؟

- لا.

نزعنا عن «دوست علي خان» ثيابه، فلم يكن بالأمر الصّعب لأنه كان مغمى عليه، ويسهل تحريك أعضاء جسده التّي كانت تستجيب لرفعها أو إنزالها، لم يكن ثقيلا مثل من فقد الوعي.

مسح الطّبيب بالقطن والكحول الأماكن التي تنزف، الجروح عبارة عن ثلاثة ثقوب صغيرة.

وضع الطبيب يده على الجروح وقال:

- وكأن الرصاص أصابه عن قرب، لم تنغرس ها هي تحت الجلد.

أحسست بـ «دوست علي خان» يتحرّك، فقرّب رأسه من الجريح وقال:

- «دوست علي خان» هل تسمع صوتي؟

- نعم أسمع.

ثم فتح عينيه ونظر حوله:

- أين زوجتي؟

- سلامتك، لا أحد هنا، فقط أنا وهذا الشّاب.

وكأن «دوست علي خان» حبس صرخاته كلّ هذه الفترة:

- يا إلهي يا طبيب... ماذا حدث؟... أين أصبت؟

- سلامتك، لا شيء مهم، ثلاث حبات صغيرة... لكنها لم تؤثر فيك، إذا يمكنك تحمّل الألم سأخرجها... أو تحب أن يرسلوك إلى المشفى.

- أكاد أموت من الألم... لم أستطع الصّراخ.

- لماذا لم تصرخ؟

- خوفاً منها... خوفا من القاتلة، زوجتي... سأشرح لك الموضوع فيما بعد، ولكن لا ترسلني إلى المشفى، هل تقدِّم لي خدمة؟

قل لزوجتي أنَّ حالتي خطيرة، ولكن لا ترسلني إلى المشفى.

قاطعه الطّبيب:

- ولكنّي لا أملك هنا وسائل التّخدير، عليك تحمُّل الألم.

- سأتحمل... ولكن عليك أن تعدني أنّك ستقول لها إنني في حالة خطرة ولا أمل لي في البقاء على قيد الحياة، لأنها إذا علمت بحقيقة وضعي سوف تقتلني.

ثم التفت إليَّ وقال:

- أنت أيضاً أحلِّفك بأمّك لا تقل لها، أنت تعرف «عزيزة»...

- اطمئن، أعدك ألّا أقول للسّيّدة «عزيزة».

تنفّس «دوست علي خان» الصّعداء وطلب كوب ماءٍ.

خرج الطبيب ليرى المتجمهرين في غرفة الانتظار، وخرجت خلفه بعد أن ملأتُ الكوب بماء الحنفيّة.

أمر الطّبيب أن تعود «عزيزة السّلطنة» إلى البيت:

– سيّدتي عودي إلى البيت، صحة زوجك ليست على ما يرام، ولكنّي سأحاول معه...

وحين قال ذلك غمز لخالي العزيز وأفهمه بعض ما يرمي إليه، فجاءني «أسد الله ميرزا» وسألني:

– كيف حاله؟

– لا شيء مهمٌّ، خوفا من «عزيزة السّلطنة» فعل ذلك.

رغم إصرار الطّبيب، لم يكن أحد من الحضور على استعداد لترك الغرفة.

عاد الطّبيب إلى الدّاخل وأنا خلفه، «دوست علي خان» يعض المخدّة، والطّبيب يخرج الرّصاصات من مؤخرته، ويُطَهِّرُ الجروح.

رجا «دوست علي خان» الطبيب أن يضمِّد كلَّ جسده، وطلب منه أيضاً أن يأخذوه إلى بيت خالي العزيز.

حين خرج الطبّيب، من غرفته احتشد الجميع حوله، فصاحت «عزيزة السّلطنة»:

– أيها الطّبيب أخبرني ماذا حدث؟ كيف هو؟

– سلامتكِ، سلامتكم، في الوقت الحالي لا أستطيع قول شيء، الأمر يعود إلى قدرة جسده إذا تحمّلِ الألم إلى الصّباح سيبقى على قيد الحياة...

غمز مرة أخرى للحضور ثم أكمل:

– ولكن، دعوه الليلة يبيت عند السّيد لأنه الأقرب إليّ، وإذا ما حدث طارئ سأصل إليه بسرعة، حقنته الآن بالمورفين حتى لا يشعر بالألم إذا ما استعاد وعيه...

وُضِع «دوست علي خان» على سرير متحرّك وقد ضُمِّد أكثر جسده وأخذناه إلى بيت خالي العزيز.

جاء معنا شرطيُّ المحلّة «عزيز الله خان» إلى بيت خالي العزيز، فقال له خالي:

– ياسيّد «عزيز الله»، تحسّنت صحّة «دوست علي»، وبإمكانك الذّهاب الآن.

– ولكن عليَّ إرسال التّقرير، فهناك شخصٌ مصابٌ بطلق ناريَ.

– وقع حادث، كان يمسح البندقية فانطلقت الرّصاصة، وصحّته الآن مستقرّة وليس هناك شاكٍ.

– ما الذي تقوله؟ كيف كان ينظف البندقية وقد أصيب هناك؟وهل أنا طفل لتسكتوني بمثل هذا الكلام؟

غضب «مش قاسم»:

- «عزيز الله خان» لم تطرح كل هذه الأسئلة؟ أنتم يا أهل (ملاير)، لا شغل لديكم غير الاعتراض، المسكين كان يلعب بالبندقية وفلتت من يده.

قاطعه الشّرطي «عزيز الله خان»:

- من الأفضل لو تقول إن مؤخرته كانت تلعب بالبندقيّة...

- حسناً البندقية هي بندقية، أحياناً تصيب العين، أحياناً القلب، وأحياناً ذلك المكان، لدي صديق من مدينتي...

قاطعه خالي العزيز بعصبية:

- «مش قاسم» هل تتكرم ولا تتدخل.

أخذ خالي العزيز «عزيز الله خان» إلى غرفة، وشرح له ما حدث بالأدلة والبراهين ليثبت له أنّه من الممكن أثناء اللّعب بالبندقيّة، أن تنطلق رصاصة وتصيب ذلك المكان، لأنَ «عزيز الله خان» قال وهو يهم بالخروج:

- لقد أخجلتني، أعتذر كثيراً... سأذهب، بل أنا لم أسمع شيئاً... ولكن، لا سمح الله إذا حدث أي شيء لـ «دوست علي خان» فعليكم المجيء إلى المخفر.

حين دخلت الغرفة التي ينام فيها «دوست علي خان» على بطنه، وقعت عيناي على «ليلى»، جلست بعينين دامعتين إلى جانب الجريح، لم أستطع تحمل ألمها الظّاهر، ناديت عليها وقلت لها أنّ حالته مستقرّة وهو يتمارض خوفا من زوجته.

لم تستقر «عزيزة السّلطنة»، ومازالت تلطم على وجهها وتنوح:

– ليت يدي كُسِرَتْ... قتلني الله وجعل يومي قبل يومك، يا ناس فكّروا في حل... أَحضروا طبيباً آخر... لنأخذه إلى المشفى...

وخالي العزيز يحاول تهدئتها:

– سيّدتي لا فائدة من إحضار طبيب آخر، وفي هذه السّاعة من اللّيل، مَن من الأطباء سيحضر؟ ولا فائدة من تحريكه من مكانه، وقد انقطع النّزيف، وإذا أخذناه إلى المشفى سيحقّقون في الأمر... هل تودين دخول السّجن؟

أطبق الصّمت، أخرج الجريح صوتا يشبه التأوه، وتحرّكت شفتاه، وكأنّه قال كلمةً ولكنّها ماتت على شفتيه.

قال «أسد الله ميرزا» الذّي بقي كل هذه الفترة صامتا:

– ون منت، كأنه يودّ قول شيء.

ثم جلس قرب السرير، وقرّب أذنه من الجريح:

– تكلم يا «دوست علي»... إذا لا تزال حيّاً قل كلمة، وإذا ما قرّرت التّحرك، أوصل سلامي لمن في السّماء.

ما زالت شفتا «دوست علي خان» تتحركان:

– أين «عزيزة»؟

جلست «عزيزة السّلطنة» إلى جانبه وهي تلطم الوجه:

– أنا هنا يا «دوست علي»، ليت آلامك فيّ، أنا هنا.

قال «دوست علي خان» بصوت ضعيفٍ وعينين مغمضتين:

– لا، لا، أنت لست «عزيزة»...أنا... أنا أريد... «عزيزة».

– أنا «عزيزة» فديت صوتك.

– أنت... أنت... لست «عزيزة»... أنا أريد «عزيزة».

لطمت «عزيزة السّلطنة» صدرها وقالت:

– أماتني الله... لم يعد يعرفني... «دوست علي»... «دوست علي»... افتح عينيك أنا «عزيزة».

فتح «دوست علي خان» عينيه ونظر إلى وجهها:

– آخ... آخ... الحمد لله... رأيتُك للمرّة الأخيرة... «عزيزة»... ارضَيْ عنّي... دعيني أرحل بنفسٍ مرتاحة... ماء... ماء...

أخذ رشفةً من كوب الماء، فتح عينيه على اتساعهما وقال بنفس الصّوت الضّعيف:

– «عزيزة»... سامحيني... قد أكون قصّرت في حقّك كثيراً... في قضيّة «قمر» لم يكن لديَّ يدٌ... لا دخل لي... أنا مظلومٌ...

نظر «دوست علي خان» حوله وتساءل:

– أين «قمر»؟

- في الغرفة المجاورة جلست مع الأطفال... ليتهم يأتونني بخبر موتها فهي السّبب...

- اهتمّي بها... هذه الفتاة مجنونةٌ... قلت لها ذلك من أجل الحفاظ على العائلة... ولكن... لكن... لم يكن ذنبي... أين «شمس علي ميرزا»؟

- أنا هنا إلى جانبك.

- أرجوك، خذ ورقة وقلماً، ودوّن وصيتي حتى أوقعها مادام لديّ قوّة لفعل ذلك... كل ما أملك لـ «عزيزة»...

لطمت «عزيزة السّلطنة» وجهها:

- يا إلهي خذ «عزيزة»... لن تعيش «عزيزة» من بعدك.

صاح «دوست علي خان»:

- «شمس علي» هذا آخر رجاء أرجوه منك.

قال «مش قاسم»:

- يا رجل لا ترده... رحمه الله كان إنساناً شريفاً.

نظر الجميع إلى «مش قاسم» فأطرق رأسه.

أخذ «شمس علي ميرزا» قلما وورقة، وبدأ «دوست علي خان» بإملاء وصيّته، أعطى بيته والدّكان والأراضي لـ «عزيزة»، وقال:

– ها لقد نسيت أرض «محمود آباد»، أكتبها وكذلك قطعة الأرض في (قزوين) مع قناة الماء هي لزوجتي.

لطمت «عزيزة السّلطنة» وجهها:

– ليت «عزيزة» ما كانت لترى أملاك «محمود آباد»، على فكرة... هل (الكاروانسرا)[١٠] في (محمود آباد) لك أيضاً؟

– نعم... اكتب أيضاً (الكاروانسرا).

لم يتحمل «أسد الله ميرزا»، قال بوجه متأثر:

– لا تنسَ الخراف.

صرخت «عزيزة السّلطنة»:

– قطع الله نسل الخراف، لقد باعها العام الماضي.

– والآن أعطني الورقة لأُوَقِّع، وأنت عليك التّوقيع أيضاً... كلّكم...

قرب «شمس علي ميرزا» الورقة والقلم، أخرج «دوست علي خان» يده من تحت الملاءة، لكنّها وقعت، فجمع كلَّ قوَّته وقال:

– يا إلهي...يا إلهي.. يدي... يدي.

حاولت «عزيزة السّلطنة» مساعدته:

١٠– بيت كبير عادة يكون في وسط الطرق السفرية معد لإستقبال المسافرين.

– هل تريد أن أساعدك؟

عاد «أسد الله ميرزا»، فما يراه لا يطاق:

– ون منت، حتى لو شفيت كل أعضاء جسده، فيده اليمنى لن تتحرّك، المسكين، حسناً اتّضح الآن أنّ الإصابة بالمؤخرة تشلّ حركة اليد اليمنى، وقد ثبت علميّاً ارتباط المؤخرة باليد اليمنى.

أراد «دوست علي خان» الردّ عليه، ولكنّه تراجع، فحاول النّهوض لوحده، ولكنّه صرخ متألما، وسقط مغشيّاً عليه.

أبي الذي لم ينطق طوال هذه الفترة قال:

– أنتم ستقتلونه، دعوه يرتاح.

نظر خالي العزيز له شزراً وقال:

– أرجوك لا تتدخل.

لم أفهم سبب هذا الغضب المفاجئ، قد يعود السّبب إلى إرهاقه، ولكنَّ أبي لم يعجبه هذا التّصرف:

– على أي حال، بقائي هنا لا فائدة منه أنا ذاهب.

وخرج من الغرفة، وبعد لحظات صمت قال خالي العزيز:

– الآن، من الأفضل أن تدعوا المريض لوحده، ولتبق فقط زوجته معه، «قمر» أيضاً ستبقى عندنا.

حين خرجنا من الغرفة، ناداني «أسد الله ميرزا»، وهو يمشي مسرعا إلى البستان، حكيت له ما جرى بين «دوست علي خان» والطبيب، فهزّ رأسه وقال:

– هذه العائلة أصابتها اللّعنة، غداً ستقوم قيامة أخرى، هل لاحظت اليوم لقد اعترض خالك العزيز على أبيك عدّة مرّات، وفي كل مرّة أرى شرر الغضب في عيني أبيك، وأنا على ثقة أنّه في الغد ستكون لدينا أزمة جديدة تقع على رأس العجوز، هل لاحظت ذلك؟

– نعم حين قال خالي العزيز، ما يتعلق بالأصل والنسب.

– نعم وقد فعلها عدّة مرّات.

– أنا قلق جدا... أخاف ممّا سيحدث.

– اطمئن لقد بدأت، لو لم تكن قضية حمل «قمر» لبدأها أبوك باكراً، في الواقع هؤلاء القوم مضحكون، يتحدثون عن الأصل والنّسب وكأنّهم من سلالة «هابسبورغ»... وإذا وجدت فرصة لتأخذ رسالة خالك العزيز لـ «هتلر» فلا تتراجع.

– إلى الآن لم أستطع الحصول عليها، أظنّ أنّه خبأها في الدّرج وقفَّلَه.

أخذ «أسد الله ميرزا» يفكّر، ثم فجأةً لمعت عيناه وقال:

– أظنُّ أنِّي وجدت حلّاً، أظنُّ أنَّ عليّ غداً الهروبُ من العمل، غداً صباحا سأكون بانتظارك.

***

في صباح اليوم التّالي ذهبت إلى «أسد الله ميرزا»، وخرجنا معاً من بيته، سرنا في الجهة المخالفة لبيتنا، بعد أن مررنا من زقاقين، توقف أمام «إسكافي» جلس على الأرض، وضع رجله على الصّندوق وطلب منه أن يُلَمِّعَ حذاءه، وقفت إلى جانبه أنتظر.

أخذ «أسد الله ميرزا» في الحديث مع الإسكافي الشّاب الذي أظهر لباقةً وشطارةً في عمله وحديثه، سأله «أسد الله» عن عمله ووضعه المعيشي، وأنا أتابع مندهشا من توقيته السيء لهذه الأسئلة.

– ولكن لا أظنُّ أنَّ مكانك مناسب لعملك... لماذا لا تذهب إلى ذلك الشّارع؟ نحن نقطع كل هذا الدّرب لنأتي إليك أو نذهب إلى الشّارع الآخر لـ ...

– في الحقيقة يا سيّدي كل شيء بيد الله لا فرق في الأماكن.

– ون منت كيف لا فرق في الأماكن؟ لو كنت قريباً منا أنا بنفسي سوف آتي إليك في اليوم مرتين، وكل جيراننا أيضاً سيزدحمون عليك.

أثبت «أسد الله ميرزا» بآلاف الأدلّة للإسكافيّ كي يقنعه بإبدال مكانه، ورشّح له مكانا أمام البستان، ومقابل منزلنا ليكون عائده المالي ضعف ما يحصل عليه الآن.

رحّب الإسكافي بالفكرة، ووعدنا أن يغيّر مكانه منذ عصر هذا اليوم، فأعطاه «أسد الله ميرزا» إكراميّة، إضافة إلى حقّه وعدنا إلى البيت.

ولأنّه عرف ما يدور في ذهني قال:

- هذا الإسكافي سوف يفيدنا كثيراً، وستعرف ذلك فيما بعد، أمّا القضية الهامّة الآن فهي إيجاد هاتف لنتصل مع خالك العزيز.

أها تذكّرت، تعال معي، فلديَّ صديق قريب من هنا لديه هاتف سنتصل منه.

فتح لنا الباب خادم كهلٌ، وحين قال له «أسد الله ميرزا» أنه يريد الاتصال بالهاتف أخذنا مباشرة إلى الغرفة في الطابق العلويِّ، ونزل ليُعِدَّ لنا الشّاي.

اتّصل «أسد الله ميرزا» مع خالي العزيز، وحين رفع السّماعة حدّثه بلهجة تشابه لهجة مستشار «هتلر»:

- المرحوم السّيد الكبير، أكل الثّريد مع «جانيت مكدونالد»... اسمعني جيداً... كلامي مهمٌّ مهمٌّ مهم، وهو... أولاً، تغيير رمزنا المتّفق عليه، فإذا كان هناك جواسيسٌ إنجليز قد يطّلعون عليه، وحين يقول مندوبنا المرحوم السّيّد الكبير، أكل الثريد مع «جانيت مكدونالد» اسأله مع ماذا؟ إذا قال مع «الطّرشي»، فالرّمز صحيح... وإذا لم يعرف فهو جاسوس إنجليزي... ثانياً، سنضع حارساً خاصّاً لك أمام بيتك بثياب عامل...

مادام هذا العامل هناك، فلا تخش أيَّ شيء... واطمئن أنّه سيدافع عنك... ولكن لا تتحدّث أبداً معه... سوف نتّصل بك في أقرب فرصة وسنكون...

وكأنَّ خالي العزيز أراد معرفة على الأقل شخصيّة المبعوث لحمايته، قال له «أسد الله ميرزا»:

– هذا سرٌّ خطيرٌ جدّاً، أن أقول لك... عميلنا هو الإسكافي... ولكنّك لم تسمع منّي هذا الاسم... هل فهمت؟ مع السلامة... هايل «هتلر».

حين وضع سمّاعة الهاتف، ابتسم ابتسامة رضا، وقال لي:

– المسكين إنسانٌ ساذج، ولكن الآن سوف يهتم بما يدور حوله، وأبوك لن يستطيع اللّعب معه... وها قد انتهينا من الخال العزيز، وعلينا التّفكير في البنت المسكينة، «دوست علي خان» ذهب في رحلة إلى سان فرانسيسكو ويريد إسقاط الجنين، حتى لو أدّى ذلك إلى فقد حياة البنت...

– ما رأيك لو قلنا لخالي العزيز أن «هتلر» ينزعج؟...و لكنه لن يصدّق.

خرجنا من بيت صديقه:

– والآن علينا الذّهاب إلى «دوست علي خان» الحمار، لنراه في أيٍّ وضع هو.

– أنت قلق عليه جداً؟

– ون منت، أبداً، هذا لو أطلق عليه مدفع «تشرشل»، لن يؤثر فيه أنا قلقٌ على «قمر».

فتح الباب لنا «مش قاسم» وأجاب «أسد الله ميرزا»:

– والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... أظن أن حالته تحسّنت...

و«عزيزة السّلطنة» بقيت إلى جانبه حتى الصّباح، وذهبت إلى بيتها وستعود بعد قليل.

حين دخلنا الغرفة رفع «دوست علي خان» صدره وهو نائم على بطنه، يأكل بشهية من الصّينية التي وُضِعَتْ أمامه، ما إن سمع صوتنا حتّى غطّى رأسه بالبطّانيّة والصّينية أيضاً، وتماوت، قال له «أسد الله ميرزا»:

- لا تخف «دوست علي»، «عزيزة السّلطنة» ليست معنا، إملأ هذا البطن.

- الله شاهد أنّ حالتي ليست جيّدة، ولكنّ الطّبيب طلب إليّ أن آكل كي أعوِّض الدّم الذّي فقدته، ولكن أحلِّفك بأمِّك لا تذكر لـ «عزيزة» ذلك، أنا أكاد أموت من الألم.

- لا تقسم، بالطّبع من يزرع يحصد، قمت بالسّان فرانسيسكو والآن عليك تحمُّل ألمه.

- أماتك الله يا «أسد الله»، أقسم بأنّي لم أفعل، ولكنّي أخاف على البنت، فلو استطعنا إيجاد عريس لها، يقبل بالطّفل لزوّجناه من «قمر» حتّى ولو لبضعة أيّامٍ، وسأعطيه ما يطلب، وسأذهب معه إلى المحكمة لأتبنى الطّفل...

- ون منت، ومن يستطيع تحمُّل هذه الفتاة ليس أسبوعاً واحدا بل ساعة؟

- «أسد الله» لقد فكرت بالأمر... يعني قلت لنفسي... لو أنت... لو أنت...

- ون منت، هذا العمل يحتاج إلى نفقات... «دوست علي» عليك أن تفتح كيسك قليلاً...

لم يكن «دوست علي خان» متحضرا لهذه الإجابة من «أسد الله ميرزا»، فقال ثائرا:

- سأعطيك ما تشاء...

ولكنّه انتبه إلى أنّ صوته العالي، وحركتُه لا تتناسب مع وضعه، قال متأوّها:

- «أسد الله» نحن كبرنا معا، لو غضضنا الطّرف عن صبيانياتنا، فنحن أحببنا بعضنا كإخوة، ولم يبق لي من العمر الكثير، هذه آخر خدمة أطلبها منك فاقبلها.

- لا تذكرني يا «دوست علي» لقد قطّعت قلبي، أنت بكل هذا العنفوان لديك آلاف الآمال لتحقّقها، أعدك أن آتي كلّ جمعةٍ، لأضع باقة ورد على قبرك، واعذرني لا أستطيع إحضار باقة زهرة الكاميليا فوضعي المالي لا يساعد، ولكن لا مشكل، ستتحول إلى «مسيو أوختميا».

- أرجوك «أسد الله» لا تمزح معي، ليس هذا بالوقت المناسب، قل أي كم تريد؟

- تعطيني، كل ما أطلب؟

- تأكّد «أسد الله» من أجل إنقاذ هذه البنت...

- أرضك في (محمود آباد).

- ماذا؟ أرضي في (محمود آباد)؟ هل جننت؟ من أجل يومين زواج مع هذه البنت عليّ إعطاؤك الأرض؟

نهض «أسد الله ميرزا»، وأمسك مخدّة صغيرة، ملقاةً على جانب السّرير:

- ون منت، «دوست علي»، كنت أحبك كثيراً، كنت رجلا فاضلا ولكن ليس في اليد حيلة، ولكي لا يسمع النّاس منك المزيد من التفاهات سوف أسَرِّعُ عمل «عزرائيل».

رفع رأسه للسّماء وأكمل:

- سامحني يا إلهي، لم أؤذ في حياتي نملة، ولكنَّ هذا الرّجل كلما أسرعنا في ذهابه لحضرتك، سيعود النّفع على البشرية جمعاء، أرجوك تقبّله منا.

وأضاف وهو يقرّب المِخَدّةَ من وجه «دوست علي خان»:

- مع السلامة يا «دوست علي»، هذه آخر خدمة أقدِّمها لك في عالم الصّداقة، لأنّك مع كل دقيقة تعيشها تضيف لسيئاتك سيئات، هل أنت مستعد؟ أراك في جهنم، شارع (مالك الدّوزخ) زقاق «علي أصغر» القاتل، بجانب بائع الفحم اليزيدي...

«دوست علي خان» ينظر إليه برهبة، و«أسد الله» لعب دوره بإتقان:

- «أسد الله»... «أسد الله»...كنت أمزح معك... قسماً بروحك... قسماً بحياتك كنت أمزح معك...

ضغط «أسد الله ميرزا» على مؤخرة «دوست علي خان»، تصاعد صراخه:

– آخ... يا ظالم وضعتها على الجرح.

– حتّى لا تنطق بتلك التّفاهات مرّة أخرى.

– وما الذّي قلته لك؟ أنت قلت لو أرخيت، كيسي قليلاً ستقبل...

قاطعه «أسد الله ميرزا»:

– أيّها الحيوان ! توقّعت أن أجد لك شخصاً يسدُّ ما فعلته، ولكنّك حتّى في موتك، لا تبتعد عن خبثك ونذالتك.

يا «مسيو أوختميا»، من حسن حظّك أن زوجتك أطلقت النّار هنا، والمسكينة لا تعرف ما حدث، وإلّا لحُبِسَتْ خمسة عشر عاماً.

– «أسد الله» صدّقني لم أفعل... قسماً بحياتي، قسماً بحياتك...

«أسد الله ميرزا» الذّي وقف بجانب السّرير، ضرب بمقدّمة حذائه على ساق «دوست علي خان»:

– خسئت.

صرخ «دوست علي خان» من شدّة الألم، فدخلت علينا «ليلى» فزعة:

– ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

عادت الابتسامة إلى «أسد الله» وقال لها:

- لا تقلقي يا ابنتي، لم يحدث شيء، «دوست علي» تحرّك... رحمه الله، هو الآن يركض خلف زوجة حارس جهنم.

تأوّه «دوست علي خان»:

- سأشفى، وسأقتلك.

نظرت «ليلى» إليَّ متسائلة، فقلت لها:

- لا تقلقي «أسد الله» يمزح معه.

وضع «أسد الله» يده على كتفي وقال:

- بني اذهب إلى غرفة «ليلى»، أريد التّحدث مع «دون جوان» العجوز عن الفتاة المسكينة تلك.

أمسكتُ يد «ليلى»، وذهبنا معا إلى غرفتها.

نظرتها الدّافئة أنستني كلّ ما حدث، بقينا صامتين، أعادني حوار «أسد الله ميرزا» و«دوست علي خان» إلى لحظتنا الرّاهنة، فقلت لـ «ليلى»:

- «ليلى» هل تعلمين أنّي قلق جداً؟ البارحة عادوا إلى الحديث عن عودة «بوري».

شَحِبَ وجه «ليلى»، فأطرقت رأسها، وقالت لي:

– لم أنم يوم أمس، أنا خائفة، فالبارحة حين عدنا كان أبي يتحدث عن هذا الموضوع.

– ماذا قال؟

– ما يقوله عمّي العقيد... الخطبة... إذا أجبرني أبي لن أجرؤ على معارضته، ولكن لديّ حلّ...

– لماذا؟ وهل بإمكانهم إجبار بنت على...

– محال أن أعارض أبي، ولكن بإمكاني قتل...

تسارعت ضربات قلبي:

– لا «ليلى» سوف نجد حلّاً، بالتّأكيد سوف نجد حلّاً...

في هذه الأثناء تناهى إلينا صوت خالي العزيز، وهو ينادي «ليلى» من ساحة المنزل.

قالت:

– ابق هنا حتى أعود.

تابعتُ «ليلى» من النافذة وهي تذهب إلى أبيها، وكأنّه أوصاها برسالة، لأنّها نظرت إلى النّافذة، وبعد تردُّدٍ ذهبت إلى البستان.

ذهب خالي العزيز إلى الغرفة التي يرقد فيها «دوست علي خان» وصادف «أسد الله ميرزا» يخرج منها، فسمعت حوارهما:

– كيف هي حالة «دوست علي»؟

– يتجادل مع «عزرائيل».

– أعتقد أنّه الوقت غير المناسب للمزاح «أسد الله».

– أنا لا امزح، ولكن أعتقد ومن حسن الحظّ أنَّ طلقة «عزيزة السّلطنة» عطّلت عضوه الشّريف، بالطّبع، الذنب ذنبنا لأننا لو تركنا «عزيزة السّلطنة» في المرّة الأولى تنهي عملها وتقطعه، لما خسرنا طلقةً الآن.

أكمل «أسد الله ميرزا» طريقه، ودخل خالي العزيز إلى الغرفة، أصختُ السّمع، الباب منفرجٌ قليلاً، ودون أن أراهما كنت أستمعُ جيّداً لما يدور بينهما.

وبعد أن اطمأن خالي العزيز عليه وعلى صحّته سأله ببرود:

– «دوست علي» سأسألك سؤالا وأتوقع منك الصّدق، الخطأ جائز على البشر...

– قسماً بالله، قسماً بحياتك... قسماً بـ «عزيزة»... قسماً بروح أبي...

– «دوست علي»، لا تتلاعب معي، شعرت البارحة أنك أردت طرح موضوع معي، ولكنّ أولئك النّاس ليس من مصلحتهم أن تطرحه علي، فمنعوك، والآن قل لي ماذا أردت أن تقول؟

– أنا... أنا... يعني... في الواقع... قد يكون الحقّ معك، أردت

أن أقول ليس لي يد فيما جرى، ولكنّي مستعدٌّ بأي ثمن وفي أي ظرف...

- اصغ إليّ «دوست علي»، على حدّ تعبير «نابليون»، (المسافة بين الخادم والخائن خطوة)، فإذا أردت تعويض ما حصل سأساعدك، في الفترة الأخيرة لا حظت أنّك تدافع عن بعض السّياسات...

في هذه الأثناء قطع حديثهما صوت «عزيزة السّلطنة» الآتي من الساحة:

- كيف..؟ تفضّل أيّها الطّبيب...

دخلت «عزيزة السّلطنة» الغرفة يتبعها الطّبيب «ناصر الحكماء»، وبعد أن فحص المريض وطمأنهم على حالته الصحيّة خرج من الغرفة.

عادت «ليلى» إليّ، وبقينا صامتين نستمع لما يدور.

قال خالي العزيز:

- الحمد لله لقد استقرّ وضعه.

- الحمد لله، لقد نذرت إذا ما شفي «دوست علي» أن أذهب إلى الإمام «زاده داوود» لأذبح خروفا.

- ولكن ماذا فعلت لـ «قمر»؟ ماذا قال لك الطبيب؟

- قال لقد تأخرتم ولا نستطيع إسقاط الجنين، فهذا سيشكل خطراً على حياتها.

– دائماً ما يتفلسف الأطباء علينا، لماذا لم تذهبوا إلى إحدى الدّايات؟

– والله انا أخاف على ابنتي، أخاف أن يسبّبوا لها مشكلة.

– فكّري بمكانة العائلة أيضاً، لو كان أبوها على قيد الحياة لمات غمّاً، من حسن الحظّ مات و لم ير هذا العار، غداً ينتشر الخبر...

– أنا أيضاً أخاف من انتشار الخبر، وبالطّبع الآن وصل إلى كثيرين، وهذه الخبيثة لن تمسك لسانها، أعدك اليوم سوف أنهي عملي مع «فرخ لقا».

في هذه الأثناء ارتفع صوت خالي العقيد وزوجته، وكانا يناديان على خالي العزيز «نابليون».

خالي العقيد وزوجته كانا مرعوبين، أراد كلاهما الحديث في وقت واحد، أسكت خالي العقيد زوجته وقال:

– أخي تحدث مع هذه السّيّدة... منذ ساعة وهي تبكي دون انقطاع...

– ماذا حدث؟

– إذا كنت تذكر قبل وصول رسالة «بوري» كنت قد أرسلتُ رسالة إلى أحد أصدقائي في (الأهواز) ليطمئنني عليه، ثم وصلتنا رسالته كتب فيها أن «بوري» مريض، والآن هذه المرأة لا تكفّ عن البكاء رغم أن رسالة «بوري» وصلت بعد رسالة صديقي.

– أو لم تحمل الرسالتان تاريخاً؟

– لا ولكنني متأكد أنّ «بوري» أرسل رسالته بعد...

قالت زوجة خالي العقيد:

– يا ناس فكّروا في حل لهذه المصيبة، ابعثوا تلغرافاً...

سأل خالي العزيز:

– ماذا حدث له؟

لم تسمح زوجة خالي العزيز لزوجها بالكلام:

– كتب لنا أن «بوري» سمع صوت طلق ناري، يا ويلي عليه لماذا تركته يذهب لهذه الحرب؟

قال خالي العقيد:

– لماذا تتفوهين بما لا تدركين؟ لقد كتب ما كتب وانت تكررين ما كتبه، بالتّأكيد أنّه أكل طعاماً ملوّثاً فآلمه بطنه، وإلّا فـ «بوري» ليس ابني، ولن تجدي من بين آلاف الشّبان شابا شجاعا وجريئا مثله.

تبادلنا أنا و« ليلى» النظرات وابتسمنا، استمع «أسد الله ميرزا» وقد عاد مرّة أخرى إلى الجمل الأخيرة، قال وهو يقترب منهما:

– الحقُّ مع السّيد العقيد... وسط مليون شاب، لن تجدي أحدا بشجاعته، أنا أرى فيه «يوليوس قيصر».

التفت خالي العقيد إلى مصدر الصّوت، ونظر غاضباً إلى «أسد الله ميرزا»، لكنَّ الأخير كان وجهه يكشف عن صدقِ ما يقول، إلى درجة أن خالي العقيد تحوّلت نظرته الغاضبةُ إلى نظرة إمتنان وتقدير:

- مرسي «أسد الله»، رغم كلِّ عيوبك، لديك خصلة حسنة وهي أنك تعطي الشَّخص حقه وما يستحقه.

ثم التفت إلى خالي العزيز «نابليون»، وقال:

- ما رأيك لو ذهبت إلى (الأهواز) وتحقّقت من...

- أي توقيت هذا للسّفر؟ أَرْسِلْ تلغرافا لصديقك هذا، ليس الوقت مناسباً الآن للسّفر، فلا يمكن ترك الجبهة خالية، من أين تعلم؟ قد تكون هذه خطّة منهم لإبعادك عني، يبعدونكم عنّي ليصلوا إليّ بسهولة... هم الآن قرب (طهران).

لم يستطع «أسد الله ميرزا» السكوت:

- الحق معك... لا يُستَبْعَد منهم فعل ذلك... من الأفضل إرسال تلغراف.

تناهى الينا شجار بين شخصين من الزّقاق، أصاخ خالي العزيز «نابليون» السّمع، ثم نادى عليَّ:

- بنيّ اذهب لترى ما يحدث في الخارج؟

أمسك «مش قاسم» عصاً، ووقف أمام «الإسكافي» الذّي أراد الجلوس أمام البستان وهو يصرخ فيه.

- وهل هو بيت خالتك لتجلس هنا متى ما أحببت؟

- اخرس لماذا تصرخ في وجهي؟

– لن أصرخ فقط، إذا لم ترحل من هنا سأقذف بكل ما تحمل في قناة الماء وأقذف بك خلفه.

وقفتُ مندهشاً، ولكن وقبل أن يراني «الإسكافي»، عدتُ لأخبر خالي العزيز بما يحدث.

وما إن رآني خالي العزيز «نابليون»، حتّى قال:

– ماذا حدث؟

– والله يا خالي العزيز، هناك إسكافي يريد الجلوس أمام البستان، فمنعه «مش قاسم».

تجمد خالي العزيز في مكانه، ثمَّ صاح:

– ماذا؟... «مش قاسم»؟ إسكافي؟... تبّاً له.

وركض مسرعاً إلى الزُّقاق، غمز لي «أسد الله ميرزا»، لكنّه بقي في مكانه و لم يتحرك.

ذهبت خلف خالي العزيز حين وصلنا إلى الزُّقاق، رأينا «مش قاسم» يمسك بـ «الإسكافي» ويصيح:

– سأقتلك... أنت تقول لي حمار؟

وقف خالي العزيز أمامهما:

– «قاسم».

- لست من (غياث آباد) إذا لم أقتله.

تقدّم خالي العزيز منهما وصفع «مش قاسم» على رقبته:

- «قاسم»، أيها الأحمق قلت لك: اخرس، ماذا حدث؟

- أراد الجلوس هنا، فقلت له: غادرِ المحلّ، لكنّه أخذ يجادلني ويردُّ عليَّ...

حاولت الابتعاد عن عيني «الإسكافي».

قال «الإسكافي»:

- سيدي لقد جئت إلى هنا من أجل لقمة العيش، فجاء هذا الرّجل شاتماً... وهل هناك إنسان في العالم لا يمكنه التّفاهم باللّسان؟

وأضاف وهو يجمع عدته:

- أنا راحل من هنا... هذا الزقاق ملك لأبناء (غياث آباد).

صاح «مش قاسم» وهو مُكفهرٌّ الوجه:

- انتبه إلى ما تقوله، لو أتيت مرّة أخرى على ذكر (غياث آباد)، سأحطّم أسنانك.

- «قاسم» اخرس، وإلّا سأخنقك أنا بيدي، من أعطاك الحقّ بمنع النّاس من كسب لقمة عيشهم؟ وهل سيزاحمونك على لقمتك؟

ابستم «الإسكافي» لكن «مش قاسم» نظر إلى خالي العزيز:

– سيدي ألم تقل لي بنفسك: أن أمنع أيَّ شخص من الجلوس هنا أو قربنا؟ أو لم تقل لي: أنّهم يأتون نهارا ليسرقوا ليلاً؟

– أيها الأبله أنا قلت: النّاس المشكوكون بهم، لا هذا الإسكافي المسكين.

– والله لم الكذب؟ حتى القبر ها اها... لم أر في حياتي شخصاً مشكوفاً أكثر من هذا الرجل، انظر إلى عينيه كأنّهما تقطران سرقة ومشكوفاً...

قال «الإسكافي»:

– انتبه إلى ما تقوله...

ثمّ حمل صندوقه وقال:

– أنا ذاهب، ولكن من الخسارة أن مثل هذا السّيد لديه مثل هذا الخادم.

أراد «مش قاسم» الرّد عليه، لكن خالي العزيز عاجله بضربة على صدره وأرجعه للخلف.

– أيها الإسكافي... ما هو اسمك؟

– خادمك «هوشنك».

فغر خالي العزيز فمه، وحدّق في وجهه، وهمس:

– عجيب، عجيب، «هوشنك»...

أراد الإسكافي الذّهاب:

– إذا ما أردتني... تلميع حذاء، تصليحه... فأنا خلفكم بعد زقاقين إلى جانب بائع الفحم.

وذهب.

– ماذا يا سيد إلى أين أنت ذاهب؟ ابق في مكانك... نحن في اليوم الواحد لدينا مئات الأحذية التي تحتاج إلى إصلاح، لو استلمت أحذية عائلتي ستكفيك يوماً كاملاً.

– لا يا سيّدي أنا راحل لا أريد مِنّة أحد.

وسار هذه المرة، فرمى خالي العزيز نفسه عليه، وأمسك بذراعه:

– أرجوك... أعدك أن يعاملك «مش قاسم» مثل أخ له.

قال «مش قاسم» دون أن يسمعه خالي العزيز:

– في عرس أمه... سوف أريه نجوم الظهر.

التفت خالي العزيز إلى «مش قاسم»:

– أليس كذلك «مش قاسم» ؟ ألن تعامل «هوشنك» مثل أخ لك؟

أطرق «مش قاسم» رأسه وقال:

– والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... كما تأمر... ولكن لا تنس ما حدث مع المصوّر...

ولأنه رأى الشّرر يتطاير من عينه قال:

- أظن أني شبهته مع إسكافيٍّ آخر في السّوق.

وضع الإسكافي صندوقه على الأرض، تنفس خالي العزيز الصعداء وقال:

- حين يحين وقت الغداء سوف يحضر لك «مش قاسم» الطعام، «قاسم» قل للسّيدة إذا ما حان وقت الغداء أن ترسله هنا، لا تنسى الخبز والخضرواتَ واللَبن.

- حفظك الله لنا، سأكتفي بالعنب والخبز فقط.

- لا، لا أبداً... أنت ضيفنا اليوم، واذهب داخل البستان لتأكل طعامك.

حين أراد خالي العزيز الذهاب كان «مش قاسم» يغلي غضباً، ومشى خلفه لكنّ وجهه بدا مكفهرّاً، فتراجع وابتلع ما يغلي في داخله.

حين دخلنا الممر، نظر إليّ «أسد الله ميرزا»، متسائلاً فطمأنته بإشارة.

عادوا إلى مرض «بوري» لكنهم لم يصلوا إلى نتيجة لأن «ليلى» خرجت من الغرفة وعادت قائلة: إنّ هناك شخصاً من الشعبة الجنائية على الهاتف يريد الحديث مع «عزيزة السّلطنة».

ذهبت «عزيزة السّلطنة» لتردَّ على المكالمة وتجمَّعْنا حولها.

- ألو نعم... من؟... أهلا... شكراً جزيلاً... من أين حصلت على

الرقم؟... إلى بيتنا؟... نعم نعم، لا، «فاطم» ابنة خالة «قمر»... ماذا؟ يا إلهي ما الذي تقوله؟ وهل قبلت؟...

خالي العزيز يستفسر منها بالإشارة عن الموضوع، بينما «عزيزة السّلطنة» تتابع المكالمة الهاتفية:

- أرجوك ابق على الخط... هناك ضجة في السّاحة، انتظر حتّى أُغْلق الباب.

ثم وضعت يدها على سماعة الهاتف وقالت:

- رئيس الشّعبة الجنائية... نفس ذلك الشخص الذي ذهبت إليه سابقاً صديق المرحوم، يقول هناك مجهولٌ اتصل به وأخبره أنّني أطلقتُ النّار على «دوست علي» وخبأته في بيت...

رجفت شفتا خالي العزيز، ثم قال:

- هذا من فعلهم، قولي له أن يتكلم مع «دوست علي» بنفسه ليتأكد.

- ألو... نعم، ماذا قال لك أيضاً؟... بالتّأكيد أرادوا المزاح معك... أرجوك ابق على الخط لأنادي «دوست علي»... لا، لا، يجب أن تتحدث معه أرجوك.

أخذت «عزيزة السّلطنة» الهاتف مسرعةً إلى غرفة «دوست علي خان»، وبكلمتين وضّحت له الأمر:

- خذ الهاتف وتحدث لكن لا تئنّ.

لم يجد «دوست علي خان» أمامه غير الإنصياع للأوامر، فتحدث مع رئيس الشّعبة الجنائية بصوت طبيعي، بل نشط وطمأنه ثم أعاد السّماعة إلى «عزيزة السّلطنة»، وراح خالي العزيز يعطيها تعليماته.

- ألو... هل سمعته؟؟؟... والآن أعتقد أنهم يمزحون معك... بالأمس كان «دوست علي» يملأ رصاصة فأحرق البارود رجله... شكراً لك... سلامي للجميع...

ذكّرها خالي العزيز بما اتفقا عليه، وهزّت هي رأسها:

- على فكرة سيّدي عندي سؤال... هل بإمكانك أن تصف لي صوت من اتصل؟ يعني هل كانت لديه لهجة خاصة؟ مثلا لهجة هندية؟... لا...إذاً... ماذا؟ لهجة شيرازية؟... هل أنت متأكد؟... أها، نعم أنت كنت في شيراز لأعوام... حسناً سيدي... إذا عرفنا... بالطّبع لو كان شخصاً آخر لدخلنا في مشكلة... عسى الله أن لا يحرمنا منك...

لم أجرؤ على النّظر إلى خالي العزيز، ورغم أني مطرق الرأس، ولكني شعرت بما أحاط المتواجدين في الغرفة، استطعت اختلاس نظرة من وجه خالي العزيز، فعضلات وجهه منقبضة، تحدثت مع نفسي: (يا إلهي ارحمنا) لأن الوحيد الذي لديه لهجة شيرازية واضحة هو أبي.

-١٥-

وقف خالي العزيز مضطرباً.

قال «أسد الله ميرزا»:

- بالتّأكيد أنّه أحد الأصدقاء، أراد المزاح، فمنذ أن دخلت علينا الهواتف...

قاطعه خالي العزيز:

- سيدة «عزيزة» هل لديك رقم هاتف رئيس الشّعبة الجنائية؟

- هاتفه؟نعم لماذا؟

- أرجوك اتصلي معه الآن وقولي له، لديّ أمرٌ هام، وعليَّ لقاؤك اليوم.

- ولماذا أذهب إليه؟

- أرجوك اتصلي معه الآن ثم سأشرح لك.

لم تستطع «عزيزة السّلطنة» إلّا تنفيذ ما قيل لها، فأخرجت من حقيبتها رقم الهاتف وتحدثت مع رئيس الشّعبة وأخذت منه موعدا للقائه، عند السّاعة الرابعة والنصف عصر ذلك اليوم.

حين وضعت سمّاعة الهاتف، قال لها خالي العزيز:

- سأرافقك.

- هل تريد الحديث معه عن «قمر»؟... أرجوك...

- لا... لن أتحدث معه عن «قمر»، الموضوع أهم، عليّ معرفة من قام بالاتصال، بالنسبة لي معرفته أمر مصيري...

بعد أن خطا خالي العزيز بضع خطوات في الغرفة قال:

- اللّيلة أرجو من الجميع الحضور للعشاء عندي... علينا الحديث عن عدة موضوعات منها قضية «قمر» ومرض «بوري».

قالت زوجة خالي العقيد باكية:

- أرجوك يا سيدي أخاف أنّه لم يعد لدينا وقت... أخاف أن يقع...

- لا، لا لدينا الوقت الكافي... اللّيلة سوف ننهي الأمر وسنرى...

عاد خالي العقيد وزوجته إلى بيتهما، وذهبت أنا خلف «أسد الله ميرزا»، أردتُ الحديث معه عن المتّصل المجهول.

لا تنتهي المشاكل أبداً، في كل يوم وفي كل ساعة، يقف حاجز جديد أمامي أنا و«ليلى».

حين خرجنا من بيت خالي العزيز قلت له:

- عمي «أسد الله» ماذا عن الاتصال الجديد هذا؟ ألا تعتقد...

- ون منت، لا شكّ أنه هو وهذا أمر واضح، من قام بالاتصال هو

صاحب السّعادة أبوك، فمنذ أن عاد خالك العزيز إلى الإساءة إليه كنت أتوقع حدوث ذلك.

– لماذا يريد خالي العزيز الذّهاب إلى رئيس الشعبة الجنائية؟ ألا تعتقد أنّه تعرف على صوت أبي؟ هل تعتقد أنه سوف يخبر خالي العزيز؟

– لا أظن أنه يعرف أباك وحتى لو...

سكت «أسد الله ميرزا» ثم قال:

– على أيِّ حال، عليَّ الذّهاب قبل السّاعة الرابعة والنّصف إلى رئيس الشعبة الجنائيّة، لأطلب منه أن يكون لنا عونا، كي لا تكبر القضية أكثر مما هي عليه الآن.

رأيت «مش قاسم» يحمل صينية فيها صحن أرز مع فول، ثمّ نظر حوله، لم يرنا لأنّنا كنّا خلف الأشجار، مدّ يده في الصحن وأخرج منه شيئاً لم نتبينه، ولكنّي أحسستُ أنها قطعة لحم، ثم أخذ يصفرُّ، وبلمح البصر، اقتربت منه قطتان فرمى لهما القطعة، تصارعت القطتان على قطعة اللّحم وتصاعد صوتهما، قال «مش قاسم»:

– اخرسا... كُلا ولكن لا تتشاجرا.

ولأن القطتين لم تَكُفّا عن الشّجار، رفع حجراً ورماه عليهما:

– لعن الله كلَّ القطط... كش...

وكأن خالي العزيز «نابليون» كان يراقبه منذ البداية لأنه دخل البستان في هذه اللّحظة، وذهب مباشرة إليه، هربت القطتان:

– «قاسم» هل رميت اللّحم للقطط؟

– لا يا سيدي لا يمكن أن أفعل هذا، وهل أنا كافر لأعطي القطط لحماً؟

– ألم يكن في هذا الصحن لحم؟

– والله ماذا أقول لك أظن لا.

– عد إلى السّيدة وقل لها: لماذا لم تضعي لحماً فيه؟

تردّد «مش قاسم»، وأطرق رأسه خجلاً وقال:

– والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أهـا... وكأن الصّينية اهتزّت فسقطت قطعة اللّحم على الأرض.

– يا أحمق أخذ الموت المنحوسين الكذبة أمثالك.

– يا سيدي لم الكذب؟ حتى القبر...

– أنا من سيدفنك في القبر... عد وضع لحماً في الصّحن... لماذا تتخابث لهذا الحد؟... هذا الإسكافي المسكين ماذا فعل لك؟

عاد «مش قاسم» وقال هامساً:

– ليت السّكين في بطنه بدل اللّحم، حتّى إنّـه لا يستحق لحم الكلاب، عديم الشّرف.

عاد خالي العزيز خلفه، رجوت «أسد الله ميرزا» أن يخبرني بما سيحدث في لقائه مع رئيس الشّعبة الجنائية، ثم عدت إلى البيت.

***

بعد أن ذهب خالي العزيز «نابليون» و«عزيزة السّلطنة»، جاء «أسد الله ميرزا» ووجهه مشرقٌ، وحين رآني ابتسم:

– لقد حللت المشكلة، رئيس الشّعبة الجنائيّة إنسان جميل، حين رأيته عرفته، فقد رأيته عدّة مرّات في بيت زوج «عزيزة السّلطنة» السّابق، حين عرضت عليه الموضوع وعدني بالمساعدة.

– لكنّه قال إن المتّصل المجهول لديه لهجة شيرازيّة، والآن لن يستطيع تبديلها إلى لهجة أصفهانيّة أو غيرها من اللّهجات.

– فكّرنا كثيراً وتذكّر أنّه قال شخص مجهول، ولم يذكر هل المتّصل امرأةٌ أو رجل، وسوف يقول للخال العزيز أنّها امرأةٌ تكلّمت معه بلهجةٍ شيرازية.

– سيّدة بلهجة شيرازية من تكون؟ لن يصدّقوه...

– ون منت، هل نسيت السّيدة «فرخ لقا»، وهي عدوة لدودة لـ «عزيزة السّلطنة»، على أي حال اللّهجة الشيرازية أو الهمدانية...

– برافو عمّي «أسد الله»، أنت إنسان لا توصف، لولاك لحدثت حربٌ أسوأ مئة مرة من السّابقة، ولانفصلت عن «ليلى»، لا أعرف كيف أشكرك.

– هل تريد أن تعرف؟

– نعم عمي «أسد الله».

– قم بالسّان فرانسيسكو لترتاح وتريحنا... حتى المساء مع السّلامة.

ذهب و لم ينتظر ردّي.

بعد مرور نصف ساعة، توقّفت عربة أمام باب البستان ونزل منها خالي العزيز «نابليون» و«عزيزة السّلطنة»، ومن شدّة قلقي لم أجرؤ على النّظر اليه، جاء خالي العزيز إليّ، سلم علي وأنا مطرقٌ الرأس، ولكن حين تحدث معي:

– أهلا يا ابني... لماذا أنت وحدك؟ أين بقية الأطفال؟ هل أبوك في البيت؟

– نعم يا خالي العزيز هل أناديه؟

– أنا سأذهب إليه... سأغيّر ثيابي وأذهب إليه.

لا شك أن تدخُّل «أسد الله ميرزا» فعل مفعوله، وأخرج أبي من دائرة الإتّهام. حامت الشّكوك حول السّيدة فرخ لقا مرتدية السواد، ذات اللّسان السّليط.

بقيت أمشي في البستان، ثم خطرت لي فكرة وهي استغلال انشراح صدر خالي العزيز، لأمرّ على «ليلى»، ولكن الضجة الآتية من الزُّقاق جرتني نحوها.

المعلّم الهنديّ «مهارت خان» يتشاجر مع الإسكافي، يطالبه بالرّحيل إلى مكان آخر، أردت الذهاب إلى خالي العزيز لأخبره، لكنّه خرج مرتديا عباءته.

– ماذا حدث؟ ما الذي يحدث هنا؟

- خالي العزيز المعلّم الهنديّ يريد طرد الإسكافي.

- ماذا؟ المعلِّم الهنديّ؟... المعلم الهندي؟

أغلق عينيه وتمتم:

- ليس بعيداً عنه، فلا عجب في الأمر... هذا ما انتظرته، بالتّأكيد أنّه علم بالأمر، لعن الله الإنجليز...

ركض إلى ساحة بيته ونادى «مش قاسم»:

- «قاسم»... «قسام»... تعال... تعال بسرعة... اذهب وانظر ماذا يريد هذا الجاسوس؟ لماذا يريد طرد الإسكافيّ من زقاقنا... وهل هو ملك أبيه؟... بسرعة... فوراً... «قاسم» لو تباطأت فأنا أعرف ما سأفعله بك، ولكن لا تذكر اسمي...

عضّ «مش قاسم» على طرف شاربه وركض.

- ماذا حدث؟ ماذا حدث أيها المعلّم؟

- هذا الإسكافيُّ وضع صندوقه هنا... أقول له: ارحل فيعصي أمري.

اعترض الإسكافي:

- كل هذا الزّقاق والبستان للسّيد، ويأتي هذا المعلّم وكأنّه اشترى المكان كله...

- أنا أحد المقيمين في هذا الزّقاق، وأقول لك بصراحة لا أريد إسكافياً هنا.

– حسناً الأمر واضح، إما أن تمشي بحذاء ممزق، أو حذاء قماشي فما نفعك أنت بالتّلميع والتّنظيف...

قاطعه «مش قاسم»:

– أنت لا تكثر بالحديث... والآن أيها المعلّم، دع هذا المسكين يعمل هنا وعدَّها من خيرات أعمالك.

– خيرات أعماله؟ فليقدّمها لشحّاذي المدينة، أنا أكسب رزقي بعرق جبيني، ولا أريد عطاياه.

وقفت بقرب باب البستان، كنت أراهم، وأرى خالي العزيز وهو يمشي متوتراً سمعته يقول:

– الموت أشرف لك، لا تستطيع منع هذا الجاسوس الهنديّ.

مشيت نحو المعلّم وقلت:

– سيدي المعلّم، نحن بحاجة ماسّة إلى الإسكافي، إذا كنت متضايقاً منه بإمكانه الجلوس هناك.

رأيت «أسد الله ميرزا»، ومع أنّه رأى الموقف قال:

– ون منت، ون منت، ماذا حدث أيها المعلّم؟ لماذا أنت عصبي؟

ثم أرسل نظرة إلى شباك بيت المعلّم، قدحت عيناه وابتسم، وقفت اللّيدي «مهارت خان» في الشرفة، في حين سقط شعرها على وجهها تشاهد ما يجري.

تبدّل حديث أسدِ الله ميرزا مع المعلِّم:

- أيها المعلِّم العزيز لماذا أنت عصبي؟ أنت مثال للأخلاق الحميدة والنّقاوة... لا يمكن لي تصوُّرك عصبيّاً أبداً... أنا أعرف هذا الشاب ليس كما ظننت، إنّه يجلس أغلب الأوقات في ذلك الزُّقاق...

- يا سيّدي، لقد سكنت هذا المكان فقط لسبب واحد، وهو هدوءه، وإذا ما أصبح مكاناً لتجمع الأوباش...

كلمة الأوباش كانت موجعة للإسكافي، ورغم إشارات «أسد الله ميرزا» لتهدأة الموقف إلّا أنه صرخ:

- أنت من فصيلة الأوباش... أبوك... جدك... زوجتك...

«أسد الله ميرزا» مع سماعه للكلمة الأخيرة نظر إلى الشرفة وتمتم:

- يا إلهي لو فقط... يا سيدي أرجوك... أنت أيضاً ياسيدي المعلّم...

تقدّم المعلّم مهارت خان إلى الإسكافي:

- لو تماديت أكثر مرة أخرى...

- وماذا ستفعل؟ من يصفني بالأوباش هو وآباؤه أوباش.

رفع المعلِّم يده وصفع الإسكافيّ، هجم الإسكافيٌّ عليه وقامت معركة بينهما، لم يفلح صراخ «أسد الله ميرزا» في فضّ الشّجار، و«مش قاسم» الذي كان طرفا محايداً كلّما سنحت له الفرصة يمد يده صافعاً الإسكافي، دخل خالي العزيز وأمر «مش قاسم» بفضِّ الشِّجار.

اللّيدي «مهارت خان» كانت ترجو «أسد الله ميرزا» لينهي هذا الشّجار أيضاً، في هذه الأثناء مرّ «شير علي» القصاب.

ما إن رآه خالي العزيز، حتّى ناداه:

- «شير علي» افصلهما.

ركض «شير علي» إلى المتشاجرين وكان يحمل فخذ خروف رماه على «مش قاسم»، وأمسك رقبة كلا المتشاجرين، فاضّاً النِّزاع:

- ماذا يحدث؟ لماذا تضربان بعضكما؟

وقعت عمامة الرجل الهنديِّ على الأرض، وسقط شعره الطويل، حتّى وصل إلى أسفل ظهره صاح بأنفاس متقطِّعة:

- هذا الرجّل عديم الشّرف... لص.

وحاول مهاجمته، ولكن رقبته مسيطر عليها بيد «شير علي»، قال له شير علي:

- ماذا حلّ بك يا معلّم؟... بدل مهاجمة الآخرين اجمع شعرك.

وكأنّ الرّجل الهنديّ لديه حساسيّة حول شعره لأنّه صرخ:

- اخرس لا دخل لك بشعري...

ومن شدة غضبه أكمل شتائمه باللغة الهندية، وكرّر كلمة (رقّاصة) ثلاث مرّات، انتفخت أوداج وجه «شير علي»:

– لا أفهم، تصفني أنا بالرّقاصة؟

ترك رقبة الإسكافي، ولفّ يده حول ظهر المعلّم الهنديّ، ورفعه عن الأرض ومشى به إلى بيته، ثمّ رماه إلى الداخل وأغلق الباب عليه.

– تخيلوا هذا الهنديَّ، يقول لي: أنا رقّاصة... وحقِّكم لولاكم لسحقته.

ارتسمت ابتسامة على شفتي خالي العزيز، نفض «أسد الله ميرزا» التّراب عن ثيابه وقال:

– شكراً لك «شير علي»... حتى لم يسمحوا لي بالسلام عليك... كيف حالك؟و كيف حال السّيدة زوجتك؟

قال «شير علي» الذي مازال يمسك باب بيت المعلّم الهنديّ:

– أنا إلى آخر لحظة من حياتي خادم لك... والآن ماذا يقول هذا الإسكافي؟

قال «أسد الله ميرزا» بسرعة:

– رجل شريف أنا أعرفه حقّ المعرفة... جاء إلى هنا لكسب رزقه، ونحن أيضاً لنا حاجة فيه، اترك الباب الآن لا أظنه سيخرج أو يجرؤ على الخروج بعد ما رأى.

جمع شير علي عمامة المعلّم الهنديّ، ورماها إلى داخل البيت ثم أراد الذّهاب.

قال «أسد الله ميرزا» لـ «لإسكافي»:

– لا عيب في ذلك، فالإنسان أينما ذهب في هذه الأيّام يصادف مثل هذه الأمور، والسّيد يحمل لك محبّة خاصة، وهذا يكفي.

قال «الإسكافي» بعد أن هدأ:

– أولاً الله، ثم أنت...

ثمّ التفت إلى «مش قاسم»:

– وأمّا أنت، فوقت الشّجار، شعرتُ بك تصفعني؟

من شدّة خوفه من خالي العزيز قال «مش قاسم»:

– أنا !!! لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... قسماً بهذا الضّوء، لو لم يتركك لسحقته بنفسي، ولكنّي لا أريد رفع يدي على أحد، وإلّا فلن يقف أمامي مئةٌ، من مثل هذا الهنديّ، وتابع يقول:

– أنا لدي صديق من مدينتي...

قاطعه خالي العزيز:

– دع عنك ابن مدينتك، أسرع وأحضر كوب عصير لـ «هوشنك».

ثم قال لـ «لإسكافي»:

– وأنت لا تقلق، في الغد ستتحسن الأمور.

- لا ياسيّدي، لست عوداً طريّاً حتّى تهزّني هذه الرّياح، لقد قيل لي من الأعلى ابقَ هنا، وسأبقى هنا.

- من الأعلى؟

- نعم سيدي من الأعلى هو الذي يحدد عملنا ومعيشتنا.

نظر خالي العزيز نظرة من فهم الأمر ولمح له:

- نعم، نعم، بالتّأكيد عليك البقاء حيث عينّوك، لماذا لا تتفضل عندنا؟

قبل أن يذهب خالي العزيز، سأل «الإسكافيّ»، عن مكان نومه، وحين علم أنّه ينام في المقهى الواقع على رأس الزُّقاق، هزّ رأسه دلالة على اطمئنانه.

كنّا ندخل البستان، حين توقفت عربةٌ، وترجّل منها خالي العقيد:

- أخي بشرى... بشرى... للتّوّ كنت في البريد، أرسلت إلى صديقي «خان بابا خان» تلغرافاً، فطمأنني عن صحة «بوري»، وقال إنّها جيدة جداً وغداً سيصلون سويّاً بالقطار، سأذهب لأخبر أمه تكاد المسكينة تجنُّ.

حين كنت أسير إلى جانب «أسد الله ميرزا» قال لي:

- «يوليوس قيصر» غداً سيصل، خذ حذرك «مارك أنطونيو»، تعامل مع الأمور بجدية، وإلّا فستُخطف منك «كيلوباترا».

- وماذا سأفعل عمي «أسد الله»؟

- افعل ما قلته لك.

- ماذا قلت؟

- اسمعني جيّداً سان... فران... سيس...كو..

- عمي «أسد الله» لست في مزاج مناسب للمزاح.

- ون منت، ماذا تقول؟ مزاح؟ على حد تعبير المعلّم (الطبيعة هبطت في الكرتاهي).

***

حضر عددٌ محدودٌ من العائلة إلى بيت خالي العزيز «نابليون»، لمناقشة قضايا العائلة وبعد وصول خبر «بوري»، انحصر الأمر في قضية قمر.

حضر «أسد الله» وشقيقه «شمس علي ميرزا» وخالي العقيد و«دوست علي خان» والسّيدات، وانضمّ إليهم أبي متأخرا.

ما فهمته منهم، حين كنت في ساحة المنزل، أنهم لم يعودوا يريدون التّحقيق فيمن فعل هذا بـ «قمر»، ومن الممكن أن يعود سبب ذلك إلى خوف «عزيزة السّلطنة» مما حدث مع زوجها وإصابته بطلق ناري أو بسبب آخر، تقبلت أمر «الله وردي» على أنه هو الفاعل، وبين فترة وأخرى، تشتمه لتؤكد أنّه هو الفاعل، وهذا الأمر أعطى لـ «دوست علي خان» إحساسا بالطّمأنينة، وراحة الضّمير، خالي العزيز «نابليون» هو أكثر المتضرّرين.

بالطّبع، ما إن سمعت «عزيزة السّلطنة» بإسقاط الجنين، على يد الداية حتّى اعترضت.

قال «دوست علي خان» الذي مازال نائماً على بطنه:

– أعتقد أن الطّرق مسدودة أمامنا، علينا إيجاد شخص بأي ثمن ليتزوج «قمر» ولو ليوم أو بضعة أيام، أعتقد أن «محمد الكهربائي» مناسب لأنّه غير متزوج وإذا...

قال خالي العزيز «نابليون»:

– اخجل يا «دوست علي»! «محمد الكهربائي» يتزوج منّا؟ هذه هي الفضيحة الكبرى؟

بكت «عزيزة السّلطنة»:

– يا إلهي خلصني من هذه الحياة المؤلمة، أي مستقبل يخبئه القدر لهذه المسكينة؟

قال «مش قاسم» الذّي انشغل بتقديم الشّاي للضّيوف:

– لا تأتوا أبداً على ذكر «محمد الكهربائي».

سأله «أسد الله ميرزا»:

– لماذا يا «مش قاسم»؟

– لا تعتبروها جسارة منّي، لكن المسكين ليس رجلاً.

- كيف عرفت؟

صرخ خالي العزيز:

- رجل أو غير رجل لا يهمني، لا تذكروه أمامي.

قال «أسدَ الله ميرزا»:

- ونِ منت، التّحقيق لن يضرّنا، قد نُجبرُ في نهاية الأمر... حسناً أخبرنا يا «مش قاسم» كيف عرفت أن محمداً ليس برجل؟

- والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها، لم أر بعيني، سمعت ذلك من «إبراهيم البقال»، وهو سمع من زوجة صانع الخميرة، وقد سمعت زوجة صانع الخميرة من الخياط «رضا»، وسمع «رضا» الخياط من زوجة «شير علي»، وزوجة شير علي سمعت من ابن السّيد «أبو القاسم»، وسمع هذا الأخير من شخص لا أستطيع ذكر اسمه...

- لماذا لا تذكره؟

- لو قطّعتموني قطعاً، لن أذكره، لأن أسماءً أخرى سَتُطْرَح من عائلتكم.

- ون منت، لا يهمنا أنه رجلٌ أو غير رجل، ما كان يجب عليه القيام به، قام به شخص آخر.

- لكني أعرف شخصا ينفعنا في هذه القضيّة، فلو قبلتم به، فهو رجل ذو سمعة جيدة وكامل، يعني هو من أبناء (غياث آباد).

– من هو يا «مش قاسم»؟

– هل تذكرون في العام الماضي الغياث آبادي الذي جاء برفقة المفتّش «تيمور خـان»، أبعد الله الشّر عنكم كان يبحث عن جثّة «دوست علي خان»؟

– الدّركي «غياث آبادي»؟

– نعم هو بعينه، أتذكر ذلك اليوم حين جاء ورأى «قمر»، سال اللّعاب من فمه، أسرّ لي أنّه يود الحصول على امـرأة تملك مثل هذا الجسد، لأن رجال (غياث آباد) يحبون النّساء السّمينات.

قال خالي العزيز:

– اخرس «قاسم»... الدركي غياث آبادي؟!!! استحِ.

سأله «أسد الله ميرزا»:

– وهل هذا الـ «غياث آبادي» رجلٌ أم لا؟

– والله لم الكذب؟ حتّى القبر ها أها... لم أر بعيني ولكن لن تجد في (غياث آباد) كلّها من هو ليس برجل...

نساء (قم) و(كاشان) و(أصفهان)، ومرّاتٌ نساء (طهران) يقتلن أنفسهن للحصول على رجل من (غياث آبـاد)، لدي صديق من مدينتي...

لم يتحمّله خالي العزيز، فضرب مسبحته على الطّاولة فانقطعت ناثرةً حبّاتها:

– على الأقل اخجل مني يا وقح.

قال «أسد الله ميرزا» جادا:

– ون منت، أي وقاحة هذه؟ أي مصيبة حلّت بهذه البنت المسكينة، ناقصة العقل؟ إما أن يختار لها خادم الرّجل الهنديّ «الله وردي»، أو رجل فاقد كل شيء.

إسقاط الجنين يشكل خطر على حياتها، الحل الوحيد أمامنا هو تزويجها، وهو من أجل حفظ مكانة العائلة وذلك من أجلك أنت وإلّا فهي راضية أن تنجب الطفل حتى لو لم يكن إلى جانبها زوج، والآن هل تعتقد أن ابن «فهد السّلطنة» أو «نمر السّلطنة» سيطلب يدها؟

– عليك أن تعرف جيّداً...

– نعم أعرف جيّداً ما تريد قوله، ابنة فلان الدولة وحفيدة فلان الممالك لا يمكنها الزواج بدركي، لو كنت تعرف البارون «روشيلد»، فابعث له تلغراف ليُقْدِمَ على الزّواج.

الجميع ينتظرون ردة فعل خالي العزيز الحارقة، والتي سوف تجرف كلّ من أمامها، لكن وخلافاً لما توقّعوا، قال خالي العزيز:

– قد يكون الحقُّ معك، تدخُّلي لم يكن في محلِّه، أمها وزوجها هما اللّذان يقرّران.

عادت الابتسامة إلى «أسد الله ميرزا»:

– زوج أمِّها حقيقةً، رجلٌ محترمٌ وشريف، ويمكن الاعتماد عليه، الرَّجل نائم على بطنه، وكأن الأمر لا يعنيه.

«دوست علي خان» الذّي لم يتدخل طوال هذه الفترة رفع رأسه عن المخدّة قائلاً:

– «أسد الله»، قسماً بروح أبي، لو عدتَ مرّة أخرى...

– ون منت، ون منت، ون منت، أرجو المعذرة، فإنّي أزعجت نومة الملاك الطّاهر.

قال خالي العزيز:

– «أسد الله» أرجوك دع المزاح جانباً، لم يعد هناك لدي شكٌّ أنَّ هذه القضيّة هي جزء من المخطّط للإطاحة بي، خطّةٌ حيكت من قبل هذا المعلِّم الهنديِّ، وتمّت على يد خادمه، وقد دُرِسَتْ في مكان آخر لتُنَفَّذَ هنا.

ضحك «أسد الله ميرزا» وقال:

– إذاً، تعتقد أنّ الإنجليز إذا ما دخلوا في عداوة مع أحد، يرسلون شخصاً لإقامة علاقةٍ مع حفيدة العدو.

غضب خالي العزيز هذه المرّة:

– ما الذّي تقوله؟ أمامك الكثير لتعرف حيل هذا الذّئب العجوز.

– ون منت، إذاً بناءً على ذلك، فإنّ حفيدة «هتلر» و«موسوليني»، يجب أن تكونا حتى هذه اللّحظة قد حملتا ثلاث مرات.

– «أسد الله».

- عذراً لم أكمل حديثي، أعتقد أنّها فكرة جيّدة بهذا الأسلوب الإنجليزي، عليهم بدل كلّ مصانع الأسلحة التي يمتلكونها، أن يبدّلوها إلى مصانع لأقراص الحياة ماركة (دكتر راس)[11]، على أيِّ حالٍ، أنا مستعدٌّ للعمل في هذا الجيش المنتقم.

زاد الآن خوف الحضور لأن «أسد الله ميرزا»، تمادى وأبي يضحك بصوت عالٍ، ومن حسن الحظّ أنّ تدخُّل «مش قاسم» قطع تماديهما::

- الآن المهم، هل سيوافق الـ «غياث آبادي» أم لا؟

نزل غضب خالي العزيز على «مش قاسم»:

- ماذا؟ كيف؟ انتبه إلى ما تقوله يا «قاسم»؟

- والله يا سيدي لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... ابن مدينتي هذا قبل عام كان يود «قمر»، ولكن فكروا بموضوع هام، وهو أنّ كل مواطني هذه البلاد في كفّة، والغياث آباديون في أخرى، فيما يتعلق بحبِّ الشّرف، لديّ صديق من مديتني...

قاطعه خالي العزيز:

- مرّة أخرى ابن مدينتي؟ «قاسم» إلى متى...

تدخّل خالي العقيد:

- أخي العزيز دعه يكمل، علينا التّخلص من هذا المأزق.

١١- ماركة للمنشطات الجنسيّة.

أكمل «مش قاسم»:

– نعم يا سيدي، لدي صديق من مدينتي لديه ابنان وقد زوّجهما.

في أحد الأيام، تناهى إليهم أن شادور زوجة أحدهما، سقط من رأسها في حرم السّيدة معصومة، قبل الزّواج بها فطلقوها...

إضافة إلى ذلك، تعجّب الغياث آباديون من أنّهم لم يقتلوها؟ فدخل اسمهم في قائمة عديمي الشّرف، والزوج المسكين مات لشدّة حزنه. فهو لم يتحمّل العار.

وأنا ذكرتُ هذه القصّة، لتعرفوا فقط أنّ الأمر ليس سهلاً كما تتخيّلون لتزويج «قمر» من ابن مدينتي...

قال «شمس علي ميرزا» لأول مرة:

– ليس من اللّازم ذكر حمل «قمر».

– هل تعني أن الغياث آباديين حميرٌ؟

بعيداً عنك لدي صديق من مدينتي...

قاطعه «أسد الله ميرزا»:

– ون منت، إذا لم نقل له من أين سيعرف؟

– والله لم الكذب؟ حتى القبر.. ها...أها... لا تعتبروها جسارة، ولكن المرأة غير المتزوجة تختلف عن المتزوجة.

– مرسي «مش قاسم»، هذه المعلومات قيّمة ولأول مرة أسمعها، وأنا الذّي كنت أظن أن لا فرق بينهما.

عاد خالي العزيز «نابليون» إلى الصّراخ:

– «أسد الله»، لا تتحدّث هكذا أمام الأطفال.

– ون منت الحديث بحث علميّ محضٌ، وهو يدور حول النّساء اللّاتي جرّبن السّان فرانسيسكو، ومن لم يجرّبنه.

ثم التفت إلى «مش قاسم»، وقال:

– بعد تقديم الشّكر لهذه المعلومات العلميّة، على فكرة أنا أعرف أيضاً أن حضرة الدّركي «غياث آبادي» بعد السان فرانسيسكو، يعني بعد الدّخلة سيعرف أن هناك شيئاً حدث، ولكن مع حبِّ العرض والشّرف المعروف فيهما كميزة لن يخرج إلى الشّارع صارخاً بالفضيحة، أقصى ما سيفعله سيُطلّقها، وهذا ما نريده بالضبط، الزواج بـ «قمر» ثمّ تطليقها، وحين يُوَقِّعُ وثيقة الزّواج، نتحدث معه ونعطيه ما يطلب.

رفع «دوست علي خان» رأسه قائلاً:

– هذا أمر بعيد عن القيم، يجب أن نكشف الأوراق منذ البداية.

رفع «أسد الله ميرزا» يده ليردّ عليه:

– نجري اقتراعاً، أنا أصوّت للزّواج، وبالطّبع السّيّد «دوست علي خان» المعروف بـ «وجدان الدّولة» سيصوّت للشّرف والقيم،

ولكن ودفاعاً عن رأيي، أقول أن الأمر ليس مخالفاً للشّرف والقيم. سيأتي الدّركي الـ «غياث آبادي» يأكل ويشرب ويصبح صهر «عزيزة السّلطنة»، ولن يصرف ريالاً واحداً، ويذهب رحلة إلى سان فرانسيسكو مجانيّة، هل يحلم بأكثر من هذا؟

جعل الله مثل هذه الأمور من نصيبنا.

قال «دوست علي خان»:

- «أسد الله»، نطفتك معجونة بالخمرة والميسر.

- ون منت، ون منت، وهل نطفتك أنت معجونة بالدعاء وماء الورد، لو كنت أنت مكانه هل ترفض أن يعطوك مصروفك وكل ما تحتاجه من طعام وتقوم بالسان فرانسيسكو أربع مرات أو خمس، وعندها تقول (كخه)؟

وعلى فكرة أنت في مثل...

علا صوت «عزيزة السّلطنة»:

- أيّها الوقحان، الآن أصبحت ابنتي خرقة ترمى على الـ «غياث آبادي»؟

أَسْكَتَ «شمس علي ميرزا» وخالي العقيد «عزيزة السّلطنة»، فقال «مش قاسم»:

- على أي حال، عليَّ رؤية «غياث آبادي»، وأستفسر منه هل يوافق أم لا، فلعلّه لا يريد الزّواج...

قال «أسد الله ميرزا»:

– أعتقد اولاً، أنّ علينا حلَّ المشكلة هنا، ومن ثمّ الذّهاب إلى الرّجل... فعلى «عزيزة السّلطنة» التّحدث مع «قمر»، وإذا وافقت، نرسل «مش قاسم» إليه.

بعد حوار دار بينهم، وذهاب «عزيزة السّلطنة» مع «قمر» في غرفة، لتطرح عليها الموضوع، برفقة أختي و«ليلى»، عادت «عزيزة السّلطنة» والجميع ينتظر إجابتها:

– ماذا حدث؟ ماذا قالت لك؟

قالت «عزيزة السّلطنة»:

– لم أستطع فعل شيء معها.

قال «أسد الله ميرزا»:

– هل تسمحين لي ياسيدتي أن أسألها أنا؟

– لن تصل معها إلى نتيجة، منذ أن حدثت لها هذه المصيبة، وكأنّها فقدت عقلها...

– الآن دعيها تأتي، وسأسألها أنا بنفسي...

تردّدت «عزيزة السّلطنة» ثمّ ذهبت إلى «قمر» وأحضرتها، كانت تبتسم، أجلسها «أسد الله ميرزا» إلى جانبه، مدح اللّعبة التي ضمّتها إلى صدرها، ثمّ قال لها:

– ابنتي لقد وجدنا لك زوجاً، هل تودين الزّواج؟

رغم أن البنت لم تعد مثل السّابق، لكنّها أطرقت برأسها واحمرّ وجهها:

– لا، لا أحب، أنا أحبّ طفلي، وأريد حياكة قميصين أحمرين له.

– ابنتي أنا أيضاً سأشتري له قميصاً، ولكن يجب أن يكون إلى جانبك أب للطّفل، إذا لم تتزوجي سوف يغضب طفلك، لأنّ الطّفل يحتاج إلى أب.

نظرت «قمر» إليه مندهشة ثم قالت:

– حسناً.

– إذاً هل نمدّ سفرة العرس؟ فستانٌ أبيضُ ناصعُ البياض مع...

قالت «قمر» فرحة:

– مع تاجٍ برتقاليٍّ.

– نعم ومع تاجٍ برتقالي.

– والآن أين زوجي؟ هل تعرف عمي «أسد الله»، أودّ أن يكون شعره كثيفاً أسود وطويلاً ليكون لابني مثل شعره.

التفت «أسد الله ميرزا» إلى خالي العزيز، ونظر إليه نظرة تحمل تألّمه:

– حسناً، عودي للّعب الآن.

حين خرجت «قمر»، قال «أسد الله ميرزا»:

– المسكينة.

وقف «مش قاسم» في زاوية صامتا:

– لن يحصل... وكأنّ هذا الزّواج لا يريد الانتهاء إلى نتيجة.

– لماذا يا «مش قاسم»؟ ماذا هناك؟

– ألم تسمع ما الذّي قالته، تريد رجلا شعره طويل أسود.

– أوليس شعر الدّركي «غياث آبادي» أسود؟

– والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها...في الأيّام الثّلاثة التي رأيت فيها ابن مدينتي، كانت القبّعة على رأسه تغطّي أذنيه.

وفي أحد الأيّام غفل ورفع قبّعته، فرأيت صلعته، يعني خلا الوسطُ من الشّعر تماماً، وما حوله نُتَفٌ مبعثرةٌ...

– هل لون شعره أسود أم لا؟

– والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أأأأ... شعره فيه ألوان، بعضها بيضاء والأخرى سوداء، وبعضها بلون الحنّاء...

لطمت «عزيزة السّلطنة» وجهها:

– يا إلهي سوف تموت قهرا، لو رأت ابنتي مثل هذا الرأس على مخدتها.

قال «أسد الله ميرزا»:

- حسناً سيّدتي، الدّركي «غياث آبادي» ليس «رودلف فالانتينو»، سوف نشتري له باروكة.

هزّ «مش قاسم» رأسه:

- لا أظنّه سيقبل، الغياث آباديون يعشقون شرفهم وعرضهم.

- ون منت، وهل يحمل الغياث آباديون شرفهم على رؤوسهم؟

- والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... ليس فوق رؤوسهم، ولكنّ الرجل لا يضع باروكة على رأسه، لدي صديق من مدينتي...

- حسناً حسناً دعنا الآن من الشّعر والصّلع، من باستطاعته الحديث مع السّيّد «غياث آبادي»؟

- متى ما أحببتم، غداً سأذهب إليه وأفاتحه بالموضوع...

لم يعد خالي العزيز «نابليون» الذي جلس صامتا مُكفهرَّ الوجه، يتحمل أكثر من ذلك:

- حتى الطّفل، لا يفعل ما تفعلون؟ هل تعرفون ما أنتم فاعلون؟ يذهب «مش قاسم» إلى مركز الشّرطة، ويجد الدّركي «غياث آبادي»، ويقول له تعال واخطب حفيدة السّيّد...

- على أي حال لا يمكن طلب ذلك منه على الهاتف.

طال جدلهم، فقال خالي العقيد:

- برأيي أن تتصل «عزيزة السّلطنة» برئيس الشعبة الجنائية، وتقول له مثلاً أنّ منزلها سُرِقَ، ولكنّها لا تريد التّقدم بشكوى، بل تريد نفس الدّركي الذّي أرسله العام الماضي ليحقق مع الخدم، دون أن يُطْلِعَ أحداً على خبر السّرقة.

الأمور تسير أفضل عن طريق الصّداقات، وحين يأتي تقول له من حسن الحظ فإنّ الذّي فقد وجدناه...

- ماذا لو بعث شخصا آخر؟؟؟ ونفترض طبعاً أنه قبل بإرساله.

قال «أسد الله ميرزا»:

- سيكون أفضل، إذ لا أعتقد أن هناك شخصاً أقبح من هذا الدّركي، من يبعث يفوز بالزّوجة، يعني ما إن يدخل نغلق الباب ولا نفتحه، حتى نكتب عقد الزّواج.

- «أسد الله».

بعد فترة قُضِيَتْ في المناقشة، اتّفق الحضور على الأخذ بهذا الرّأي.

***

صباح اليوم التّالي، كان هناك نشاط ملحوظ في بيت خالي العقيد، لقد هيّؤوا البيت لقدوم «بوري».

واستعدَّ الجميع للذهاب بالعربات إلى محطّة القطار لاستقباله، كنت مضطرباً جدّاً، فدعوت الله أن يطيل مرض «بوري»، وما إن رأيتُ «ليلى» حتّى صارحتها بقلقي، فكرّرتْ بهدوء أنّها لن تعارض أباها،

ولكن إذا ما أُجْـبِرَتْ، سوف تنتحر، والوحيد الذي بإمكانه تقديم المساعدة لنا هو «أسد الله ميرزا»، وهو لم يعد إلى البيت بعد.

سمعتُ «مش قاسم» يقول إنّ «عزيزة السّلطنة» اتصلت مع رئيس الشّعبة الجنائيّة، ووعدها بإرسال الدّركي «غياث آبادي» قبل الظهر.

وأخبرني كذلك «مش قاسم»، أنّه قرّر منع «قمر» من رؤية الدّركي، حتّى إذا وافق على الزّواج يسهل إقناعه بوضع الباروكة.

– يعني الحقُّ معهم، الآن لا نقاش حول شرف الغياث آباديين، حتّى أهل (طهران) التي حَوَت كل أصناف النّاس، لن تجد بين ألف رجل من يرضى بوضع باروكة.

– «مش قاسم»، ما ارتباط الباروكة بالشّرف؟

– ما شاء الله عليك، وأنت المتعلِّم، وتذهب إلى المدرسة، لماذا تقول مثل هذا الكلام؟ وهل هناك أقبح من رجل عديم الشّرف يضع باروكة على رأسه مثل المرأة؟

أنا مرّة رأيت بنفسي... جاءت مجموعة، لتقديم العزاء إلى «غياث آباد»، إحدى النّساء كانت في الحرم، نذرت رمي شادورها وحلاقة شعر رأسها والدخول إلى الحرم، فقالوا: يجب وضع الشّعر أو الباروكة على رأس رجل.

عشرون يوماً كاملاً، يبحثون في (غياث آباد) كلها و لم يجدوا رجلاً يقبل بذلك.

– هل تعتقد أن الدّركي «غياث آبادي» سيقبل ويلبس الباروكة؟

– والله بني لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... هذا الرجل، له فترة في (طهران)، ومن الممكن أنَّ أخلاقه تغيّرت، وقد يقوم بمثل هذه الأمور عديمة الشّرف.

كنت أنا و«مش قاسم» في البستان، منشغلين بالحديث، فجأة... رأيت خالي العزيز «نابليون» يخرج من بيتهم، قاصداً بيتنا مُصْفَرَّ الوجه، فركضت خلفه.

بحث خالي العزيز عن أبي، ثمّ ذهب إلى غرفته، وكنت أنا خلف الباب.

– هل سمعت؟ هل سمعت؟

– ماذا حدث؟ لماذا لا تشرح لي ما حدث؟

– أسألك هل استمعت اليوم للإذاعة؟

– لا ماذا حدث؟

– وصلوا... لقد وصلوا... قرؤوا إعلان الدّولة، وقالوا إنّ الإنجليز وصلوا (طهران)، وعلى النّاس أن يقوموا بأعمالهم بصورة طبيعيّة...

– لا تقلق... ليس هناك دليل لقلقك... أنت تعرف الإنجليز أفضل مني ومن أنفسهم، فهم لا يقومون بهجوم ويصرحون عنه أبداً...

– ولأني أعرف هذه الذّئاب أنا قلق، أعرف أنّهم لا يهجمون من الأمام أعرف ذلك جيدا... لقد قضيت عمري أقاومهم.

- والآن أنت...

- ياسيدي لست قلقاً على نفسي، أنا أعرف نهايتي، فإن كنت هنا أو في أيّ مكان آخر لن أستطيع الهرب منهم، لست قلقاً على نفسي، فليذهب آلاف الأشخاص من أمثالي فداءً للوطن، أنا قلقٌ على البلاد، وا أسفاه إن أصبحت (إيران) زنزانة الأسود.

صوته يرتجف، حين نظرت من المساحة التي تسمح لي برؤيتهما من فرجة الباب، رأيته يمسح عينه بإصبعه.

قال أبي:

- وما الذي بيدنا لنفعله؟ على حد تعبيرك، بين أنياب الأسد، ليس هناك إلّا الاستسلام.

- لا يمكننا القيام بأيّ شيء... ولكن... ولكن كنت... تعرف ليس هناك جدار يفصلنا عنكم وأرجوك أن تقفلوا الأبواب، أنا أيضاً من ناحيتي سوف أوصي «مش قاسم» ألا يفتح باب البستان لأيٍّ غريب، خاصة الأطفال لا تَدَعُونَهم يخرجون، وإن كنت لا أظنّ أنّهم يريدون المساس بأطفالك، فهدفهم الأساس أنا وأطفالي.

سكت خالي العزيز، ثم خرج من الغرفة، وحين رآني ألعبُ قرب الباب، قال لي:

- ابني أنت رجل الآن، هناك أمور تجري حولنا، فقد لا تدرك عمق الموضوع، ولكن أرجوك إذا ما رأيت شخصاً غريباً يسأل عني، لا تجبه أبداً وأوص أختك أيضاً.

لا تفتح الباب لأيّ شخص غريب.

- وما الذي حدث خالي العزيز؟

- وصل العدو.

وضع خالي العزيز يده على كتفي، وقال:

- في هذه الأيام، حين ترى خالك العزيز قد تكون المرّة الأخيرة التي تراه فيها،... بالطّبع هذه إحدى قوانين المقاومة.

بقي خالي العزيز يحدق فيّ، ولكنّه بدا وكأنّ تفكيره ذهب إلى مكان آخر، فجأة اتّجه إلى البستان، سائراً بخطوات واسعة وسريعة، وسرت أنا خلفه.

وما إن فُتِحَ البابُ حتّى تجمّد في مكانه.

اتجهتُ نحوه محاذراً، لا أبعد عنه إلّا بضعة أقدام، وقد سمعت أنفاسه، التفتَ إلى «مش قاسم» الذي كان يسقي الورد، وقال له:

- «قاسم»، «قاسم» أين هو؟

- من ياسيدي؟ منه هو؟

- الإسكافيّ؟

- كان هنا، أليس جالساً في مكانه؟ صباحاً حين ذهبت لشراء الخبز كان يجلس هنا.

هزّ خالي العزيز «مش قاسم» وصرخ:

- إذاً أين هو؟ أين ذهب؟

- والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أأأأأ... لم أرَه بعيني، ولكن عليَّ البحث عنه...

- تَحَرَّكْ بسرعة، اذهب واسأل عنه، وأحضر إليَّ خبره،... أغلق الباب خلفك.

يدا خالي العزيز ترتعش، سار بخطوات مرتبكة، ومشى مثل نمر مسجون في قفص، ثلاثَ خطوات وعاد، خرج «مش قاسم» من البستان، قبل أن تقع عين خالي العزيز عليّ:

- ابني اذهب مع «مش قاسم» الأحمق، واسأل البقّال، النّاس، استفسرا أين ذهب الإسكافيّ؟

ثم أحسَّ بارتباكه غير المبرَّر:

- اذهب... فلديَّ حذاءٌ أجنبي تركته لديه ليصلحه.

عدتّ إلى البيت لأغيّر حذائي، ولكنّي حين وصلت باب البستان اصطدمت بـ «مش قاسم» وهو يدخل، فعدت معه إلى خالي العزيز.

- أين ذهب؟ أين ذهب يا «قاسم»؟

- والله يا سيدي لَم...

- تكلم يا إنسان أين ذهب؟

- والله رأيت «إبراهيم» فسألته عنه، كما قال فإنّ الشرطة قبضت عليه وأخذته إلى المخفر...

- المخفر؟ لماذا؟ ماذا فعل؟

- والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... لم أر بعيني ولكن وكما قال «إبراهيم» فقد سرق ساعة، وقد كانت عينا الإسكافيّ تفضحان لصوصيته...

- ساعة؟ سرق ساعة مَن؟

- هذا المعلِم الهندي ذهب إلى الشّرطة وقدّم شكاية... قال إنه في شجار الأمس سرق الإسكافي منه ساعة الجيب... ساعة من الذّهب...

صُدِمَ خالي العزيز، وقعت يداه إلى جانبه وهو فاغر الفم، ولكي لا يقع على الأرض اتّكأ على جذع شجرة ثم أغلق عينيه وقال:

- عديمو الشّرف لقد بدؤوا، بدأت الخطّة، يا إلهي أعتمد عليك.

-١٦-

حالة خالي العزيز بعد سماعه خبر القبض على الإسكافيّ لا توصف، عيناه مغلقتان وشفتاه ترتجفان، سأله «مش قاسم»:

- من الذي بدأ سيدي؟

قال خالي العزيز ومازالت عيناه مغلقتان وصوته لا يسمع:

- نفس الذئاب... الإنجليز... هذه خطة إنجليزية.

- هل تريد القول إنهم يريدون إظهارنا على أننا من أرسلنا هوشنك لسرقة ساعة المعلم الهندي؟

- لا، لا، لا، لم تفهمني، هناك أمور أنت لا تستوعبها يا «قاسم»، أسرار السّياسة أكبر من عقلك.

- والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... ليست القضيّة في أنّي لا أستوعب، ولكن إذا أردتَ الحقيقة...

دخول «عزيزة السّلطنة» البستانَ، قطع حديث «مش قاسم»:

- لم يأت هذا الرجل؟يا إلهي... يا سيّدي لماذا لونك مخطوف؟

– لا شيء... لا تهتمّي... قائد عليه تحمّل الهزيمة، على حد تعبير «نابليون» (في مدرسة الحرب على القائد تعلّم كيف يهزم قبل تعلم النصر).

– ماذا حدث؟ من أغضبك؟ «مش قاسم» من أغضب السّيّد؟

– والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... الإسكافيُّ سرق ساعة المعلِّم الهنديِّ، وقد أخذته الشّر...

صاح خالي العزيز:

– ما الذي تقوله؟ لماذا أنت ساذج إلى هذا الحدّ؟ أنت لا ترى إلّا ظاهر القضيّة لأنّك لا تعرف الإنجليز.

مَسَّتْ جملة خالي العزيز كرامة «مش قاسم»:

– أنا لا أعرفهم؟... أطال الله عمرك، لو كنت أنا لا أعرفهم، فمن يعرفهم؟ أنا من ربّيتُ الإنجليز بيدي هذه، أنا أعرفهم أكثر من والديهم.

كلُّ هذه الحروب التي خُضْتُها معك ضدهم، في حرب (كازرون) ذلك (السرجنت) الذي جاءك حاملاً العلم الأبيض، من وقف أمامه؟ من أخبره بأنّه ليس كفئاً للحديث معك يا سيّدي؟ من وقف وقفة أسد؟

الإنجليز عطشى للشُّرب من دمي، وتقول: إنّني لا أعرفهم؟ رحمه الله.

لديَّ صديق من مدينتي كان يقول دائماً (لو استطاع الإنجليز الوصول إليك)... عذراً... آسف عذراً...

– يكفي، «قاسم» دعنا نفكّر بحلٍّ.

أمسكت «عزيزة السّلطنة» ذراع خالي العزيز:

– لا تزعج نفسك، سوف تنهك قلبك، تفضل واسترح قليلاً في البيت.

ثم أخذته إلى البيت، في الطّريق عاد خالي العزيز إلى طبيعته، شدَّ ظهره، أفلت ذراعه من يد «عزيزة السّلطنة»، وقال:

– أنا بخير، لا أحتاج إلى مساعدة أحد، القائد يخرج على قدميه من ساحة الحرب.

ثم التفت إلى «مش قاسم»:

– اذهب يا «قاسم» وناد «أسد الله ميرزا»، قل له أن يحضر بسرعة... أعتقد أنه لم يذهب اليوم إلى العمل...

ثم سار بخطوات واسعة حاول أن تكون ثابتة.

التفتت «عزيزة السّلطنة» متسائلة:

– ما الذّي أصابه؟ وما الذّي يربطه بساعة المعلّم الهنديّ، وتوقيف الإسكافيّ؟

قال «مش قاسم»:

– والله لم الكذب؟ حتى القبر آآ... أنت لا تعرفين هؤلاء الإنجليز... وتلك المرأة التي تلد له الأطفال في بيته لها يد في هذه العملية... لدي صديق من مدينتي...

قاطعته:

– أنت لم تُطْلعني على القضيّة... فالمعلّم الهنديُّ عاند خالي العزيز لأنه سمح للإسكَافيِّ بالجلوس هنا، فقام بتقديم شكاية ضدّه في المخفر، وخالي العزيز غاضب عليه الآن.

ثم قلت لـ «مش قاسم»:

– وكأن خالي العزيز أوصاك بالذّهاب إلى «أسد الله ميرزا»؟

سار «مش قاسم» إلى ساحة البيت، ونادى الخالة «بلقيس» طالباً منها الذّهاب إلى بيت «أسد الله ميرزا»، «مش قاسم» لا يريد الابتعاد عن أصغر مستجد، ثم جاء إلى «عزيزة السّلطنة» التّي تتلفت حولها، ولا تستقرّ.

– سيّدتي لا تعتبريها جسارة مني، وددتُ أن أقول لك، إذا ما جاء ابن مدينتي دعي الأمور لي، فأنا سآخذ موافقته وأُرْضيه ليقبل، تعرفين الـ «غياث آبادي» يعرف لغة الغياث آباديين.

– ماذا؟... الآن انقلبت الأمور ويجب أن تأخذ موافقة هذا الأصلع العفن ليتزوج ابنتي؟!

عسى الله ألّا يريك خيراً، يوم أوصلت ابنتي إلى هذا اليوم الأسود.

– هل أوصيت «قمر» بألّا تفتح فمها؟...

– لقد نبت الشّعر على لساني من كثرة توصيتي لها، لكي لا تذكر موضوع الشّعر الأسود الطّويل أمامهم، بل تنسى هذا الموضوع للأبد.

– قضية شعره سوف تُحل، أنت لا تعرفين الغياث آباديين جيّداً، لو شمّ أن هناك مثل هذا الكلام يدور بيننا، لن يقبل بالزّواج بأيِّ شكلٍ من الأشكال، وهذا لا يذكر أمام حكاية أخرى، فلدي صديق من مدينتي...

صوت قرع الباب، قطع حكاية «مش قاسم» فركض ليفتح ثمّ قال:

– أظنه هو ابن مدينتي، لا تتكلّمي دعي الأمور لي...

ما إن فتح «مش قاسم» حتى تجمّد في مكانه وتراجع خطوةً إلى الخلف:

– يا أبتاه أنت؟... ألم...

– نعم، نعم... أنا... ابتعد عني سكوت.

امتدت يد دافعة صدر «مش قاسم» عن طريقها، أنا و«عزيزة السّلطنة» تجمدنا في مكاننا.

دخل المفتّش «تيمور خان» رئيس الدّركي «غياث آبادي» الذّي جاء قبل عام، ليحققَ في قضية ضياع «دوست علي خان».

سار المفتّش «تيمور خان» إلى البستان يتبعه الدّركي «غياث آبادي» واضعاً قبّعته القديمة على رأسه، وهي تصل إلى أذنيه.

قالت «عزيزة السّلطنة» دون شعور:

– السّيّد المفتّش!... أنت؟...

- السّلام عليكم يا سيّدتي، نعم أن بنفسي هل أثار حضوري تَعَجُّبَكِ؟ وكأنك لم تكوني تنتظرينني... سكوت.

- يعني... يعني... لا... ولكنّي لم أتوقّع... ولم نكن نريد إزعاجك...

- سكوت الوقت من ذهب، تفضلي واذكري لي ما سرق منك؟ أجيبيني؟ بسرعة فوراً.

سرعة الكلمات التّي انطلقت في وجه «عزيزة السّلطنة» أربكتها:

- أنا... هو... يعني...

- ماذا؟... ما الذّي سرق منك؟ تفضلي اذكريه لي بسرعة فوراً ما هو؟...

- هو... يعني... ساعة المرحوم...

- هل هي ذهب؟

- يعني... طبعا... نعم... نعم...

- فيها سلسلة؟ بسرعة فوراً أجيبي.

- نعم... يعني سلسلتها... نعم مع السّلسلة...

- سكوت... هل تشكّين بأحد؟ ها بسرعة فوراً سكوت.

مازال «مش قاسم» غير مستوعب قدوم المفتّش «تيمور خان»، ومازال فاغراً فمه، ينظر إلى التّحقيق الذي بدأ سريعاً، التفت إليه المفتّش:

– ماذا كان اسمك أنت؟

– والله لم الكذب؟... الكذب...

– هل قلت الكذب؟ لماذا تذكر الكذب؟... اعترف بسرعة فوراً...

– أنا لم أقل الكذب، لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... اسمي «مش قاسم».

– تذكرتك... المتّهم رقم اثنين في قضيّة العام الماضي... سكوت.

أردت أن أخطو لأبدِّل مكاني، علا صوت المفتّش «تيمور خان»:

– قف، من سمح لك بالذهاب؟ قف مكانك لا تتحرك.

انشغل «مش قاسم» بتبادل التحيّات مع الدّركي «غياث آبادي» فقاطعه المفتّش:

– سكوت، هل تريد أن ترشو مساعدي؟ لماذا؟ ها أجب بسرعة فوراً سكوت.

قرّب وجهه العملاق من وجه «مش قاسم»:

– حسناً ياسيّد، «مش قاسم» قلت لي... كيف حالك؟

– الحمد لله، الشكر لله، نحن ندعو لك.

– هل تغذيت يا «مش قاسم»؟

ضحك «مش قاسم» وقال:

- بالطبع فنحن نقترب من العصر...

صاح المفتّش:

- ومن أين عرفت أننا نقترب من فترة العصر؟ هل نظرت إلى السّاعة؟ وأي ساعة؟ ساعة المرحوم ذات السّلسلة الذهبية؟ أجب بسرعة فوراً... أين خبأتها؟ بسرعة فوراً سكوت.

في البداية ضحك «مش قاسم»، ثم فجأة أدرك موقفه الحرج:

- وكأنك تريد القول أستغفر الله... السّاعة...

قالت «عزيزة السّلطنة»:

- ما هذا الكلام الفارغ؟ هؤلاء النّاس لهم عشرون عاماً يعملون لدينا، هم أطهر من الطّهر، من قال لك أن تأتي إلى هنا؟ كان من المفروض أن يأتي السّيّد «غياث آبادي» وحده.

خرج خالي العزيز بعد تناهي الصّوت إليه، إلى ساحة المنزل:

- ماذا حدث يا سيّدتي؟ هذا السّيّد...

صاحت «عزيزة السّلطنة»:

- أنا لا أعرف أيَّ فوضى حلت علينا؟ لقد طلبت من رئيسهم أن يبعث «غياث آبادي»... وإذا بهذا السّيّد يلعب دور السّيّاف.

تقدم منها المفتّش «تيمور خان»:

– ماذا؟ لم أستوعب ما قلتيه؟ إهانة موظّف الحكومة أثناء القيام بواجبه؟

حاول خالي العزيز تهدئته:

– لا تغضب يا سيدي لم تقصد إهانتك، السّيّدة فقدت شيئاً وحاولت...

– أنت اسكت، السّاعة الرجاليّة لا توضع في حقيبتها لتفقد، أنا متأكّد من أن السّاعة سرقت، هناك سرقة تمّت، لص، خيانة.

– وكيف تأكدت؟ من أخبرك؟

– حاسّة الشّم لديّ أخبرتني، حاسة شمّ المفتّش «تيمور خان» مبدعة نظام المباغتة الدّولي.

نظر خالي العزيز إلى «عزيزة السّلطنة» مندهشا، فهم لم يتّفقوا على شيء محدّد ليذكروه حين قدوم الشّرطة، وبالطّبع لم يكونوا في حاجة للتّحديد لأنّهم لم يتوقّعوا قدوم المفتّش «تيمور خان».

ومن جانب آخر، اتّفقوا بعد أن يأتي الدّركي «غياث آبادي» على أن تقول له «عزيزة السّلطنة» أنها وجدت ما فقد وينتهي الأمر، ولكن نظام المفتّش «تيمور خان» المعروف أربك «عزيزة السّلطنة»، وقالت له أوّل ما تبادر إلى ذهنها، على أيّ حال المفتّش «تيمور خان»، فُرِضَ عليهم الآن وعليهم التّعامل معه، إلّا أنّه لن يتراجع بهذه السّهولة، في

هذه الأثناء جاء خادمنا يحمل سلّة على رأسه، ما إن رآه المفتش حتّى صرخ فيه:

- توقّف... تعال... من سمح لك بالخروج؟ من؟ أجب بسرعة فوراً.

خاف خادمنا من هذه المباغتة.

تدخل «مش قاسم»:

- لا تخف هذا المفتّش، وهذه طريقة تعامله... جاء من المخفر ليعرف من سرق السّاعة...

- «مش قاسم»، اخرس.

تقدم المفتّش من خادمنا، قرّب وجهه العملاق حتى كاد يلامس وجه خادمنا، وقال:

- أنت، أنت لو اعترفت الآن سوف أساعدك، اعترف بسرعة فوراً، اعترف، قل لي أين أخفيت السّاعة؟

خادمنا يرجف خوفاً، فقال بكلمات متقطّعة:

- قسماً بـ «علي المرتضى» وجدتها، لم أسرقها لقد وجدتها.

- وجدتها؟ أين؟ متى؟ مع من؟ كيف؟ أجب بسرعة فوراً، سكوت.

نظر إلينا متبختراً، وقال:

– لا يمكن لنظام المباغتة الدّولي للمفتش «تيمور خان» أن يخطئ.

فُتِحَ باب البستان ودخل «أسد الله ميرزا» برفقة «شمس علي ميرزا»، وما إن ارتفع صوته حتّى رفع المفتّش يديه، دون أن ينظر إلى مصدر الصوت وصاح:

– سكوت، عرقلة العمل أثناء التحقيق.

«أسد الله ميرزا» يرسل إشاراته متسائلا عن الموضوع، ولكن الجميع مازال يعيش حالة الصّدمة، عاد المفتّش وقرّب وجهه من وجه خادمنا:

– والآن أين الساعة؟

– في الغرفة...

– يا «غياث آبادي» خذ الرّجل إلى غرفته، وليبق تحت المراقبة حتى تحضر السّاعة.

قبض الدّركي «غياث آبادي» على ساعد خادمنا، وأخذه إلى غرفته.

في هذه اللّحظات، تبادل الجميع نظرات الاستفهام، فسأل «أسد الله» خالي العزيز عن الأمر بكلمتين فرنسيتين، فقاطعه المفتّش:

– من تكلم باللّغة الروسية؟ سكوت.

أوضح «مش قاسم» لهما الأمر، ولكنّ المفتّش لا يسمح لأحد بالحديث، عاد خادمنا مع الدّركي.

– سكوت، أين وجدتها؟ بسرعة فوراً أجب.

– في قناة الماء، أقسم بـ «علي المرتضى»...

– سكوت متى؟

– يوم أمس.

انتقلت السّاعة ذات السّلسلة من يد الدّركي إلى يد المفتّش، فجأةً... علا صوت «مش قاسم»:

– أظن أنّها ساعة هذا المعلّم الهنديّ، التي سقطت من جيبه في الأمس، أثناء الشّجار... وقبضوا على الإسكافيّ المسكين.

تقدم المفتّش من «مش قاسم»:

– ماذا؟ الهنديّ؟ شجار؟ الإسكافيّ؟ ما هو الموضوع؟ أجب بسرعة فوراً.

– والله لم الكذب؟

– قلت بسرعة فوراً.

– حضرتك ما شاء الله عليك، وكأنّك ولدت ابن سبعة أشهر لا تدعني أكمل لك...

– تكلم بسرعة فوراً.

– نسيت ما أردته مني.

– قلت الهنديّ، الشّجار، الإسكافيّ، ما هو الموضوع؟

– والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... جارنا المعلّم «مهارت خان» تشاجر مع الإسكافيّ يوم أمس، وذهب اليوم وقدّم شكاية للشّرطة بأن الإسكافيّ سرق ساعته... وإذا بساعته سقطتْ من جيبه أثناء الشّجار في قناة الماء، وهذا الشّاب وجدها...

أوضح «مش قاسم» الصورة للجميع، وانشرحت أسارير خالي العزيز إذ قال:

– «قاسم» خذ الساعة واذهب بسرعة إلى المخفر، ليطلقوا سراح المسكين.

قطّب المفتّش جبينه:

– يأخذ السّاعة وبكل هذه السّهولة إلى المخفر؟ من وضع هذا القانون؟ أنت؟ أم أنت؟ أجب بسرعة فوراً، سكوت.

تدخّل «أسد الله ميرزا» لأول مرة:

– ون منت، ون منت سيّدي المفتّش...

لم يهتمّ المفتّش «تيمور خان» بـ «أسد الله ميرزا»، استدار وألقى عليه نظرة، فجأة رفع حاجبيه تَعَجُّباً، وقال:

– أليس أنت القاتل؟ أجب بسرعة فوراً سكوت.

أجابه «أسد الله ميرزا» بصوت ينمُّ عمّن يخفي سرّاً:

– نعم أنا ذلك القاتل...

ثم رفع يديه، وتقدّم نحوه قائلاً:

- واليوم أريد الانتقام من المفتّش الذّي كشفني، قتلُ المفتِّش على يد قاتل «ديوسيرت»...

تراجع المفتّش «تيمور خان» وصاح:

- «غياث آبادي» الأصفاد.

أمسك «شمس علي ميرزا» بذراع أخيه:

- «أسد الله» ليس هذا هو الوقت المناسب للمزاح، دع الرجل يقُمْ بعمله ويذهب.

- أنت اخرس... أذهب؟ بهذه السّهولة؟ إذاً، ماذا عن ساعة السّيّدة المسروقة؟

قالت «عزيزة السّلطنة»:

- هل تعرف؟ لا أريد منك العثور على ساعة المرحوم زوجي السّابق... على فكرة أعطني هذه السّاعة...

وخطفت السّاعة من يد المفتّش، وسلّمتها لخالي العزيز.

رمى خالي العزيز السّاعة على «شمس علي ميرزا»، وقال:

- أرجوك «شمس علي»، اذهب إلى مخفر الشّرطة، وسلّمهم ساعة المعلّم الهنديّ ليطلقوا سراح الإسكافيّ.

قبض «شمس علي ميرزا» على السّاعة، وسار ولكن صرخة المفتش «تيمور خان» أوقفته:

- قف كيف تجرؤ على أخذ السّاعة؟ أعدها إليّ، بسرعة فوراً سكوت، أنا من يأمر هنا.

قاطعته «عزيزة السّلطنة»:

- وما دخلك أنت بالموضوع؟

- سكوت أنتِ يا سيّدتي، ليس لديك الحقّ في الحديث...

نظرت «عزيزة السّلطنة» حولها باحثة، ثمّ رفعت غصن شجرة مرمياً، وخطت خطوتين إلى المفتّش، رافعة الغصن:

- أعد مرة أخرى جملة أن ليس لدي الحقّ في الكلام؟

قال «أسد الله ميرزا»، ضاحكاً:

- سيدي المفتّش، ألم تسمع؟ تقول لك السّيدة، أَعِدْ مرّة أخرى جملتك التي قلتها للتوّ، هل ترفض طلب السّيّدة؟

- ماشاء الله، ما شاء الله، إهانة موظّف الدّولة أثناء القيام بواجبه... قصد ضرب وجرح موظّف الدّولة...

أنزلت «عزيزة السّلطنة» الغصن على بطنه، وقالت:

- تحرّك أمامي، سر أمامي إلى مخفر الشّرطة حتّى تتّضح الصورة.

– إلى أين تأخذينني يا سيّدتي؟

– أريد الحديث مع رئيسك.

لان المفتّش «تيمور خان»:

– لم أقل ما يزعجك، لو كنت مكاني، إذا لم تكن لديك شكاية على أحد سأرحل... يا دركي «غياث آبادي»، سر أمامي.

تدخّل «أسد الله ميرزا»:

– اصبر ياسيّدي إلى أين أنت ذاهب؟ علينا معرفة مصير السّاعة، يجب على أحد أن يكمل التّحقيق.

وبعث إشارة إلى «عزيزة السّلطنة» لتكمل الموضوع.

أعطت «عزيزة السّلطنة» الغصن لـ «مش قاسم» وقالت:

– «مش قاسم» احتفظ بهذا حتى أُنْهي المكالمة الهاتفيّة...

بعد لحظات جاءت «ليلى» من بيت خالي العزيز وقالت:

– تقول «عزيزة»: ليأت المفتّش، ويردَّ على الهاتف.

سار المفتّش بخطواتٍ واسعة، وخلفه خالي العزيز إلى داخل البيت، «أسد الله ميرزا»، بدأ بتبادل التحيّات الودّيّة مع الدّركي «غياث آبادي»، وأنا نسيت نفسي مثل كل مرّة، حين أراها، أنسى ما أنا فيه، ولكنّ هذا النّسيان لا يدوم لأنّ ذاكرتي أعادتني إلى «بوري» ابن خالي العقيد الذي سيصل هذه اللّيلة، فتبادلنا النّظرات، لا كلمة لدّي لأقولها لها.

بعد مرور دقائق، خرج المفتّش «تيمور خان» و«عزيزة السّلطنة» يتبعهما خالي العزيز، فقال المفتش:

– يا دركي «غياث آبادي»، ابق هنا لتُحقّق في موضوع ساعة اليد، لقد طلب مني سيدي الضّابط العودة، سكوت، والمتّهم في الوقت الحالي يُطْلَقُ سراحُه.

– أمرك سيدي.

حين مرّ المفتّش من أمام «أسد الله»، همس له:

– أنا ذاهب، ولكنّي سأراك مرة أخرى، أنا مُجْبَرٌ على الذّهاب... أود أن أشدَّ حبل المشنقة بنفسي حول رقبتك.

– يا سيّدي، أرجوك بسرعة فوراً، عد إلى إدارتك.

ما إن خرج المفتّش «تيمور خان»، حتّى اكفهرَّ وجه الدَّركي «غياث آبادي» وقال:

– حسناً فلنبدأ التّحقيق... أين كانت السّاعة يا سيّدتي؟ أجيبي بسرعة فوراً.

قال «أسد الله ميرزا» مبتسماً:

– ون منت، سيّدي الدّركي لا تتعجل، أولاً، اشرب فنجان الشّاي، سوف نبحث عنها ونجدها، أنا واثقٌ أنّ السّيّدة وضعتها في مكان نسيتها، وإذا ما كانت قد سرقت صدفةً فبذكائك الخارق سوف تجدُها لنا.

سيدي ملامحك تنمّ عن ذكاء خارق.

- شكراً لك.

- لا، لا، أقول الحقيقة لك، فأنا أعرف الشّخص من أوّل نظرة، أنا متأكّد أنّ كلّ هذه القضايا الجنائية تُحَلّ، والفضل يعود لك، ولكن وكما هو الحال دائماً، تذهب في صالح من هم أعلى رتبةً منك، حتّى الرّضيع حين يراكما، يدرك أنّك أفضل وأذكى من هذا المفتّش، ولكنّ الحظّ رماك تحت إمرته.

احمرّ وجه الدّركي «غياث آبادي» وقال:

- هذا لطف منك، بالطّبع يختلف الأمر مع من لديه معارف ووساطات ومن يفقدها.

- لو أنت أردت ذلك فليس بالأمر الصعب، لدينا مئة صديقٍ، ومحامٍ ووزيرٍ، ولو حرّكت شفتيك، يرسو القرار عليك.

أنت صاحب فضل علينا، ونحن ندين لك بالكثير.

- شكراً لك يا سيّدي... لقد أحرجتني.

- أنت ومع كلّ هذا الذّكاء والكمال، من المؤسف أن تضع يداً على يد ولا تقم بأيّ حركةٍ لكي تتقدّم، كنت أظنُّ أنّك الآن رئيس الإدارة...

وما ذنب أبنائك وزوجتك لكي يتحملوا ما تعانيه يا سيدي.

- أنا لست متزوجاً، يعني كنت متزوجاً ثم انفصلت عنها، ولديّ طفلٌ يعيش معها، وأنا أرسل إليه نفقته.

– غريب !!! «مش قاسم»، أحضر فنجان شاي للدّركي.

– أهلاً به... تفضّل يا ابن مدينتي... تفضّل معي لنذهب إلى غرفتي ونشرب الشاي.

– إذاً، ماذا عن الساعة...

– يا أخي لدينا متّسعُ من الوقت، تعال لنذهبَ الآن ونشرب الشّاي.

سار «مش قاسم» والدّركي «غياث آبادي» الذّي لم يحرّك قبّعته إلى الغرفة.

قال «أسد الله ميرزا» لخالي العزيز، الذّي وقف كلّ هذه الفترة صامتاً:

– وكأنّنا سنصل إلى مرحلة متقدمة.

ظلّ الحضور يتحدّثون عن أمور جانبية، خالي العزيز ينتظر عودة «شمس علي ميرزا»، ليطلق سراح الإسكافيّ، «عزيزة السّلطنة» تسير بخطواتٍ عصبيّة، غمز لي «أسد الله ميرزا»، وسار إلى داخل بيت خالي العزيز، وأنا خلفه.

– عمّي «أسد الله» إلى أين أنت ذاهب؟

– أريد الاطّلاع على آخر أخبار صهرنا، هل وافق أم لا؟

نزلنا أنا و«أسد الله» إلى ممر القبو حيث تقع غرفة «مش قاسم»، واقتربنا وأصخنا السّمع من خلف الباب، سمعنا صوت «مش قاسم» وهو يسأله:

- بشرفك لا تمزح معي؟ أقسم لي بروحك.

- بروحي... أُصبت في حرب (لرستان)، وكنت في المشفى لمدّة ستة أشهر، لهذا السّبب طلبت مني زوجتي الطّلاق.

- يعني ولا...؟ وكأنّه لم يكن؟ حتّى لم يبق ذرّة منهِ؟

نظر «أسد الله» إليَّ مرتبكاً، وقال:

- اللّعنة عليه من حظ،... البيت مهدوم.

قال «مش قاسم»:

- يا بنيّ، ألم تعالج عند الأطباء أو الحكماء؟

- أيُّ دواءٍ وأيّ علاج تتحدّث عنه؟ يجب أن يكون هناك شيء ليعالج.

- يا أبتاه، أيّ حظٍّ عاثر، هذه رصاصة عديمة الشّرف، أصابتك في مثل هذا المكان، وأنا الّذي مدحت (غياث آباد) ورجولتهم.

أراد «مش قاسم»، أن يترك الدّركي «غياث آبادي»، ليَطَّلِعَ البقيّة على آخر ما حصل عليه لأنّه قال:

- يا ابن مدينتي، ابقَ هنا، سآتيك بعد دقيقةٍ لأني سأذهب إلى المطبخ، ما إن تنهي «شايك» سأعود، تفضل كل من هذه الحلوى، لا تخجل، تفضل كل.

خرجت أنا و«أسد الله ميرزا» من مخبئنا وعدنا إلى ساحة المنزل،

«أسد الله» يفكر ولأنه سمع صوت «خالي العزيز» و«عزيزة السّلطنة» في غرفة «دوست علي خان»، ذهب إليهم وأنا خلفه.

جلست «عزيزة السّلطنة» على السّرير بقرب «دوست علي خان»، بينما خالي يذرعُ الغرفة ذهاباً وإيّاباً.

– ماذا حدث يا «أسد الله»؟ ألم تطّلع على ما دار بينهما؟

– والله على حدِّ تعبير «مش قاسم» لَم الكذب؟ حتى القبر ها أها... وكأن الموضوع اصطدم بمشكلة سان فرانسيسكوية.

رفع «دوست علي خان» رأسه وقال:

– «أسد الله»، أنت لو وضعوك في القبر فلن تترك عاداتك السّيئة هذه.

– ون منت، ون منت، في الوقت الحالي البطل الذّي أصيب برصاصة هو الأقرب إلى القبر.

لم تكن هناك فرصة للشّجار لأنّ «مش قاسم» دخل عليهم.

سأله خالي العزيز:

– ماذا حدث «مش قاسم»؟ هل تحدثت معه؟

– نعم، وقد كان لديه الكثير ليقوله.

– والنتيجة؟

- والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... لم أجرؤ على ذكر قضية حمل «قمر» لابن مدينتي، لقد وافق ولكن فيه نقص.

- ماذا تعني بالنقص؟

- والله أبعده الله عنك، لا تعتبروها جسارة مني، ابن مدينتي هذا أظنّ أنّه ليس ابن مدينتي.

- ماذا تعني؟ كيف ليس ابن مدينتك؟

- صحيح أن لقبه «غياث آبـادي»، ولكن لا يعني أنه من نفس (غياث آباد)، لأنه أصيب في حرب (لرستان) برصاصة...

- وهل الغياث آباديون لا يصابون بالرّصاص؟

- بالتّأكيد يصابون، ولكن ليس في ذلك المكان الأخرس... خلاصة القضيّة ولا تعتبروها جسارة مني، هذا الرجل ثكلتْه أمه، لا معدة لديه ولا قلب.

سألت «عزيزة السّلطنة»:

- «مش قاسم» كيف لا معدة لديه ولا قلب؟ وما علاقة القلب والمعدة بـ ...

قال «أسد الله ميرزا»:

- ياسيّدتي، «مش قاسم» يخجل من قول ما يقصده بصوره مباشرة، يقصد بالقلب والمعدة، برج سان فرانسيسكو المعروف.

لطمت «عزيزة السّلطنة» وجهها:

– يا الله، «أسد الله» ما الذي تقوله؟

قال «دوست علي خان»:

– حين يفقد الإنسان الحياء، لن يكون أفضل من...

أجابه «أسد الله ميرزا»:

– ون منت، ون منت، أرجوك، قل لي أنت يا من تمثل رمز الحياء والأخلاق والفضيلة، كيف نُعَبِّر عن اسم ذلك العضو؟

– الإنسان العاقل لا يذكر الاسم و...

– علي أيّ حال هناك واقع، فإما أن نُصَرِّحَ بالأسماء الحقيقيّة أو نشير إليها، ولن نقدر على قول بديل لذلك العضو بالأنف أو الأذن أو الحاجب...

قاطعهما خالي العزيز:

– أرجوكما توقّفا... على أيِّ حالٍ، وجوده أو عدم وجوده ما أهميته؟ وهل سيكون زواجهما إلى نهاية حياتهما؟

لطمت «عزيزة السّلطنة» وجهها:

– يا إلهي، عسى أن يكون نصيبَ أخرى، وليس هذه المسكينة.

قال «مش قاسم»:

– سلبيّة هذا الأمر، لا يمكن الادّعاء فيه أنّ الطّفل منه، علينا أن نذكر له الحقيقة.

قال «دوست علي خان»:

– على الأكثر عشرة أو خمسة عشر يوماً... ثم يطلِّقها... لم يبق إلّا هذا الدّركي «غياث آبادي»، ليفرض نفسه علينا، يجب إفهامه أنه سيقبض مبلغا محترماً ويعقد على البنت ثم يطلّقها بعد أيّام ويذهب في حال سبيله.

قال «أسد الله ميرزا»:

– «مش قاسم» اذهب وتحدّث معه، ليس أمامنا إلّا مصارحته بالموضوع، وحين يعرف الدّركي سبب الزّواج سيدرك أن نقصه هو جزئي في مثل هكذا زواج وليس له أي أهمية، ففاقد الشيء لا يعطيه.

هزّ «مش قاسم» رأسه:

– والله في الحقيقة، أنا أخاف من مصارحة ابن مدينتي بالموضوع، لو تعرفون كم يعشق الغياث آباديون عرضهم وشرفهم، فمن سابع المستحيلات أن يجرؤ...

– بإمكانك إقناعه.

– من الأفضل أن نذكر له الموضوع دفعة واحدة، ونمسك يديه ورجليه لكي لا يسوء الأمر.

بعد حوار طال، تقرّر أن يفاتحه «مش قاسم» بالموضوع ويرافقه

بذلك «أسد الله» وأنا، جلسنا عن يمين الدّركيّ وعن يساره، وحين يرسل «مش قاسم» العلامة المتّفق عليها، نمسك ذراعي صهر المستقبل خوفاً من اعتدائه على «مش قاسم».

حين قرّرنا الذّهاب إلى القبو، رفع «دوست علي خان» صدره، وقال راجياً:

– ولكن لا تدعوه يعلم بالثّروة التّي تملكها «قمر»، وإلّا فلن يرضى بما نقدّمه له.

ألقى «أسد الله ميرزا» عليه نظرة تحقير وهمس:

– لا تخف، فهذه اللّقمة لن تُؤْخذ منك، نم يا بطل.

أعطى «مش قاسم» آخر أوامره، قبل النّزول إلى القبو:

– كونا على استعداد، فحين أسعل مرّتين، أعني أنّي سأطرح أصل الموضوع، وحين تتشبّثا بذراعيه أطرح الموضوع، وإذا لم أسمح لكما لا تتركاه أبداً.

تسلّل خالي العزيز «نابليون» و«عزيزة السّلطنة» إلى نافذة مطلّةٍ على القبو، حين نزلنا ودخلنا الغرفة وقف الدّركي «غياث آبادي» احتراماً لنا، ومازالت قبعته تغطي شعره ونصف أذنيه.

– تفضل اجلس... ليس بيننا مثل هذه المجاملات.

بإصرار من «أسد الله ميرزا»، جلس الدّركي «غياث آبادي» على السجادة، ونحن نحاصره.

تحقّق «مش قاسم» من الأواني الموجودة في الغرفة، وأن لا شيء بالقرب منه، أخفى كلابه و(كاسر القند)[١٢] خلف الستارة.

بدأ «أسد الله ميرزا» الحديث:

– نعم سيّدي الدّركيّ، هذه الفتاة رأتك وقد أعجبتها، أمّها وأبوها أيضاً موافقان وأنت مازلت شابا، ولا يمكن أن تبقى هكذا عازباً.

أطرق الدّركيّ رأسه وقال:

– أنا خادمكم، ولكنّي ذكرت لـ «مش قاسم» أني... يعني بحت له بسرّي.

– ون منت، يا سيّدي ذلك الموضوع ليس له أهميّة، للنّاس مثل هذه المشاكل وهي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، وقد عولجت، مع تطور الطّب اليوم...

قاطعه الدّركيّ قائلاً، وهو مازال مطرقاً رأسه:

– ولكن يا سيدي، لن ينفع معي العلاج، من حظي العاثر لم يبق منه جزء... لو قبلتم بي كما أنا فأنا موافق، ولكن أرجو أن تعلم البنت بكل شيء، حتى لا تعاتبني في المستقبل، وأنا أقبل من أجل خدمتكم فقط.

– أبوها وأمها موافقان.

١٢– قنـد شكن، آلة لكسر السكر الذي جمع على قطع واحدة عصية، وهي آلة تشبه الهاون الحديدي.

قال «مش قاسم»:

– نعم هما موافقان، حين ترضى البنت، فإنّ أباها وأمّها أيضاً موافقان، والآن أنت تتدلّل علينا!

– ولكن، أريد أن أعرف لماذا يريدان تزويجي من ابنتهما؟ ففي المدينة من هو أكفأ منّي؟

نظر «مش قاسم» إلينا وسعل أكثر من مرتين، فقبضنا على ذراعي الدّركي، وقال «مش قاسم»:

– لأنّ البنت حامل.

ثم أغمض عينيه منتظراً ردة فعل الدّركي، وضغطنا نحن بدورنا أكثر على ذراعيه، وخلافاً لتوقعاتنا كان يبتسم، ويقول:

– لقد شككت، الفاكهة مضروبة إذاً، وإلّا لما أصبحت من نصيبنا.

تركنا ذراعيه، فقال «أسد الله ميرزا»:

– نعم هذه هي الحقيقة... هذه البنت المسكينة، ذهبت في إحدى المرّات إلى حمّام الرجال ومن سوء حظها حملت...

قاطعه الدّركي ضاحكاً:

– نعم حمام الرّجال مكان سيئٌ.

همس «مش قاسم»:

– تفو على عدم الحياء هذا.

– ماذا قلت يا «مش قاسم»؟

– لا شيء... خلاصة الأمر كما ذكرنا.

– والآن علي تزوجها ثم أطلّقها بعد أيّام، هذا هو ما تطلبوه مني؟

أجابه «أسد الله ميرزا»:

– نعم لعشرة أيام أو خمسة عشر.

– لعشرة أيام أو خمسة عشر لن تغيرنا... سوف يشكُّ النّاس وأنا لدي شخصيتي ومكانتي في المجتمع، على الأقل نصبر بعد الزّواج ثلاثة أشهر حتى نجد حجّة...

قال «أسد الله ميرزا»:

– لا مانع من ذلك... لقد نسيت عليّ الاتصال... ابق هنا سوف أعود بسرعة.

خرج «أسد الله ميرزا»، فأحسست بأنه ذهب ليقنع عزيزة السلطنة بالمدّة الجديدة للزّواج لأنّه عاد بعد لحظات:

– حسناً ما هو رأيك؟... حول الفترة... نعم... لا مانع فلتكن ثلاثة أشهر.

– ولكن عليّ أن أقول لكم أنّي لا أملك مالاً، وليس لديّ مصاريف...

- لا... أنت تقوم بعمل إنساني فما حاجة المصاريف؟... كل المصاريف ستتكفّل بها أمّها، أنت تحدّث مع «مش قاسم» ونحن سوف نرتّب الأمور...

غمزني «أسد الله ميرزا»، وخرجنا معاً من القبو، فالتصقت «عزيزة السّلطنة» وخالي العزيز بالنافذة، أراد «أسد الله» التّحدث، ولكنَّ «عزيزة السّلطنة» منعته بإشارة منها، وأخذت تستمع لما يدور في القبو وتهمس:

- الجاحد يطلب ألفي تومان.

قال لها «أسد الله»:

- يا سيدتي يستحقُّ الأمر هذا المبلغ، فلا يمكن الحصول على سعرٍ أقلّ.

مازالت «عزيزة السّلطنة» تسترق السمع، فجأةً... انتفضت وقالت بصوت خفيض:

- الجاحد هذا أخذ يمسّني... فلننه الزّواج، وسوف أريه من هي الدّميمة... أيها الأصلع.

***

بعد دقائق أُكمِلَت الجلسة النِّقاشيّة في غرفة «دوست علي خان»، فجلس الدّركيّ «غياث آبادي» على الأرض مطرقاً رأسه.

قال خالي العزيز «نابليون»:

– أرجو يا سيدي، أن تعرف قيمة ارتباطك بعائلةٍ ذات شأن ومحترمة وعليك طوال هذه الفترة أن تتصرف بشكل لا يسيء إلينا.

– أنا خادمكم، سأكون كما تشتهون، وسوف أفعل ما تأمرون.

قال «أسد الله ميرزا»:

– هل فكرت بالمنزل؟

كان يوجّه حديثه إلى خالي العزيز فقال:

– بالطّبع علينا التفكير بمنزل و...

قالت «عزيزة السّلطنة»:

– وهل بإمكاني إبعاد ابنتي عني؟ عليه أن يسكن معنا... الغرفة العلويّة فارغة وسوف أُعِدُّها لهما.

قال الدّركي دون أن يرفع رأسه:

– والله يا سيدي، لديَّ أمٌّ عجوز لا يمكنني تركها لوحدها...

قال «أسد الله ميرزا»:

– حسناً فلتأت معك والدتك.

تدخّل «دوست علي خان»:

– ما الذي تقوله يا «أسد الله»؟... كيف تأتي إلى...

قال «أسد الله ميرزا» هازئاً:

– ليس أمامنا حل آخر يا «دوست علي»، السّيّد «غياث آبادي» لا يمكنه ترك أمّه العجوز المريضة بلا معين.

وأكمل الدّركيّ:

– نعم يا سيّدي، ليس هناك في الدّنيا أحد لها غيري، مع أخت أرملة...

لمعت عينا «أسد الله ميرزا»:

– لديك أخت؟ كم عمرها؟ وماذا تفعل؟

– والله في الحقيقة زوّجناها قبل عامين، وفي العام الماضي صدمت سيّارة زوجها... والآن تعمل مغنّيةً في حانةٍ...

سأل خالي العزيز و«دوست علي خان» و«عزيزة السّلطنة» في وقت واحد:

– ماذا؟ في حانة؟

ولكنّ «أسد الله ميرزا»، لم يعطهم فرصة:

– ما شاء الله برافو... حسناً بالطّبع لا يمكن ترك شابّةٍ مثلها في هذه المدينة تعيش لوحدها... الحقّ مع السّيّد «غياث آبادي».

صاح «دوست علي خان»:

- «أسد الله» هل يمكن لك إغلاق فمك؟

- ون منت، ون منت هل تقصد أن يترك الدّركي أمّه وأخته ويأتي إلى منزلكم؟

لو يستطيع فعل ذلك فلا بأس، وما الذّي يربطني بالموضوع.

قام الدّركيّ من مكانه:

- لا وكأنّ السّيّد لا يودُّ رؤيتي هنا... أنا لا أستطيع ترك امرأة عجوز مريضةٍ وشابّةٍ بلا رجل... اعذروني أنا ذاهب...

تشبّث «مش قاسم» و«أسد الله ميرزا» به:

- إلى أين يا بني... اجلس، هذا الرّجل قال كلمة فلنر ما تقوله السّيّدة.

كانت «عزيزة السّلطنة» تبكي:

- أنا مستعدّة لفعل أيّ شيء...

صاح «دوست علي خان»:

- يا سيّدتي هل تعين ما تقولينه؟

الدّركيُّ وأمُه العجوز، وأخته المغنّية في بيتنا.

عاد الدّركيُّ إلى الوقوف ليذهب:

– لو سمحتم لي أنا راحل، لا يمكنني تحمُّل شخصٍ يَمَسُّ أمِّي وأختي...

أجلسوه مرة أخرى، ثمّ قال «أسد الله ميرزا»:

– «دوست علي»، اخرس وإلّا فسوف افتح التّحقيق مرّة أخرى لأكشف من هو أبو الطّفل؟ ونجبره هذه المرّة على الزّواج منها.

صرّ «دوست علي خان» أسنانه وهمس:

– حسناً، افعل ما تحب.

قُرِّرَ حفلُ الزّواج يوم الخميس، ولكن الدّركيّ أصرّ واحتراماً لوالدته أن تأتي وتطلب البنت بنفسها.

قال «أسد الله ميرزا»:

– بالتأكيد عليها الحضور اليوم، ولتأت أختك أيضاً، نحن عائلة واحدة.

قام الدّركيّ ليذهب، بعد أن اتفقوا لكنّه عاد مرة أخرى:

– ولكن يا سيّدي، علي ذكر أمرٍ، قضيّة حرب (لرستان) يجب أن تبقى سرّاً بيننا، ولا يَطّلع عليها أحد، إذا ما أُفْشي السّر سوف يضرُّني ويضرُّ ابنتكم، ولا تطرحوا أمر حملها أمام أمي لأنّها لو علمت لن يتم الزّواج أبداً.

ثمّ خرج ورافقه «مش قاسم» و«أسد الله ميرزا» حتّى باب البستان، عاد «أسد الله» بعد دقائق وقال:

- موضوع الباروكة انتهينا منه أيضاً، عصراً سوف آخذه إلى سوق (لاله زار)[١٣] وأشتري له واحدةً حتّى نُرضي السّيّدة «قمر»، يجب التّفكير بالثّياب أيضاً، «دوست علي» ادفع في الوقت الحالي نقود الباروكة.

- وهل عليَّ أنا أن أُعطي نقود الباروكة؟

- لا تسلّمها... حينها سترفض «قمر» الزّواج بالدّركي، وسنُجْبَرُ مرّة أخرى على البحث عن الأب الحقيقي للجنين.

صاح «دوست علي خان»:

- «أسد الله» قسماً بأرواح أجدادي، لو كرّرت هذه الجملة مرّة أخرى سأحرق أباك.

- ون منت، ون منت، لماذا أثارتك هذه الجملة؟ كلُّ ما قلته هو البحث عن الأب الحقيقيّ عديم الشّرف، فلماذا تزعجك هذه الجملة... ها أنت؟

قامت ضجّةُ اعتراضٍ على «أسد الله ميرزا»، أمسك «دوست علي خان» قنّينة الدّواء ورماها عليه، إلّا أنّها اصطدمت بالجدار، هرب «أسد الله ميرزا» ضاحكاً.

***

١٣- شارع لاله زار من شوراع طهران القديمة، واعتبر في العصر القاجاري وفي بداية الحكم البهلوي من الشوارع الممثلة للفن الايراني. ولقب سابقا بشارع شانزيليزيه طهران.

حين عدتُ إلى البيت، كان أبي قد خرج منذ الصّباح الباكر، وللتّوّ عاد يمشي في ساحة المنزل، نادى عليّ وأخذني إلى غرفته:

– ماذا كانت تلك الضّجّة اليوم؟ قالوا لي حين كنت في الخارج أنَّ المفتِّش «تيمور خان» جاء إلى هنا؟

حكيتُ لأبي كل ما حدث، وحين علم بأمر الزّواج ضحك عالياً:

– جميل جدا، عصارة أرستقراطيّة البلاد تنام إلى جانب الدّركيّ «غياث آبادي»، الحمد لله وجدوا شخصا أحطّ مني.

ضحكة أبي كانت مرارة بالنّسبة إليّ.

بعد مرور أعوام من الملامة والتّحقير، ها هو يأخذ ثأره، الانتقام من خالي العزيز «نابليون» وعائلته، همس وهو يحدّق في المجهول:

– يجب أن يتم هذا الزّواج دون ضجّة... علينا دعوة كلّ الشَّخصيات المحترمة والمعروفة والأعيان.

أمام دهشتي وانبهاري، كان يركض في الغرفة مثل الأطفال:

–آخر الأنباء، آخر الأخبار... تلوُّث الأعيان...

صمت يفكِّر، ثمّ وكأنّه وجد فكرته، خرج من الغرفة دون أي اهتمام بي وركض إلى ساحة المنزل.

– إلى أين تذهب يا أبي؟

– سوف أعود بسرعة.

تبعته بضع خطوات، وبقيت أنظر حيث يقصد إلى نهاية الزقاق، وبعد دقائق عاد «شمس علي ميرزا» ومعه الإسكافيّ، الذّي عاد إلى العمل مرة أخرى.

ذهب إليه خالي العزيز:

– أنا سعيدٌ جدّاً لانتهاء الأمر.

– أطال الله عمرك، هذا الهنديُّ اتّهمني بالسّرقة، ليس لدى هؤلاء لا دين ولا مذهب.

– لا تحزن، الله يجازي على مثل هذه الأمور.

بينما كان الإسكافيُّ يُخْرِجُ بقيّة عِدَّتِه، قال:

– أنا أيضاً، سوف أعرف كيف أتعامل معه، القليل من الصّبر وسوف يحين الوقت لأصبَّ عليه نار غضبي.

لمعت عينا خالي العزيز وكرّر خلفه:

– سوف يحين الوقت... سوف يحين الوقت...

بعد لحظات صمتٍ، أراد بها إعطاء جملته معنىً عميقاً، قال خالي العزيز:

– لا تكترث بهم لديك أعمال أهمّ، قم بعملك.

قال الإسكافيُّ دون أن يعلم فحوى ما قيل له:

- نعم يا سيدي، سأقوم بعملي.

هزّ خالي العزيز رأسه راضياً، وقال:

- قم بعملك، فهذه التّخريبات أمر طبيعيّ.

قال الإسكافيُّ دون أن يرفع رأسه:

- نعم يا سيّدي، لو لم أستطع التّعامل مع هذا الهنديّ، فلن أكون رجل حرب، فالأدنياء سيحين وقتهم.

- نعم الأدنياء... هذا هو المهمّ... يا «مش قاسم» أحضر كوب عصيرٍ لـ «هوشنك خان».

كان «مش قاسم» بقربي، فسمعته يقول:

- يا الله، عسى أن يكون آخر عصير له.

-١٧-

في غروب ذلك اليوم، ذهب خالي العقيد مع أفراد من العائلة بالعربة إلى محطّة القطار لاستقبال «بوري»، وقد كان موعد وصوله في حدود الساعة التاسعة مساء.

تألّم خالي العقيد، لأن أفراد العائلة لم يأتوا بأجمعهم للاستقبال، فخالي العزيز «نابليون» و«أسد الله ميرزا» و«عزيزة السّلطنة» مجبرون على البقاء لاستقبال الدّركيّ وأمّه وأخته الذين أتوا لطلب يد «قمر».

جلس «أسد الله ميرزا» بعد أن سارت عربة خالي العقيد، فكان فرحاً جداً، إذ ما إن دخل حتّى قال:

– ذهبت مع الدّركيّ واشتريت له باروكة في غاية الرّوعة، وأصبح مثل «رودلف فالانتينو»، سوف يأتي وسترونه.

كانت «عزيزة السّلطنة» تعطي آخر أوامرها لـ «قمر»:

– ما أجملك وأحلاك، اجلسي مثل السّيدات، ولا تتكلّمي، أنا سأجيب على كل أسئلتهم.

مدّ «أسد الله ميرزا» يده إلى خدّ «قمر» وقال:

- نعم يا طفلتي، لا تفتحي فمك، النّاس يحبّون البنت التّي لا تتكلّم، يحبون البنات الخجولات أكثر، إذا تكلمت سوف يرحل زوجك، وحينها سيكون الطّفل بلا أب هل فهمت؟

«قمر» التّي ارتدت قميصاً أخضر ابتسمت وقالت:

- نعم فمهت، أنا أحبّ طفلي كثيراً، أريد حياكة قميص له.

- ولكن إذا تكلّمت عن طفلك أمـام من سيأتون سيرحلون، وستكونين لوحدك... لا تتكلّمي عن الطّفل أبداً، يجب ألّا يعرفوا بأمره، هل فهمت؟

- نعم يا عمّي «أسد الله»، لن أتكلّم أبداً عن طفلي أمامهم.

ثم ذهب خالي العزيز و«عزيزة السّلطنة» و«قمر» إلى غرفة الضّيافة يتبعهم «دوست علي خان»، وقد جلس على الكنبة بصعوبة، كنت أنا و«أسد الله ميرزا» في ساحة المنزل حين دخل علينا «مش قاسم»، يهرول قائلاً:

- يا ويحي ابن مدينتي لم يضع الباروكة.

- ماذا؟ لم يضع الباروكة؟ إذن ماذا وضع على رأسه؟

- نفس القبعة القديمة.

- أي حمار هذا، «قاسم» اذهب بسرعة أخبر النّساء وابعثه إليّ لأراه...

– أمّه أيضاً لا توصف... أخاف أن تفزع «قمر».

– ماذا تقصد بأنّها لا توصف.

– الشادور على رأسها... ولكنّ وجهها...

– ماذا به؟

– والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... ما رأيت بأمِّ عيني، أبعده الله عنكم، لديها لحية وشارب بحجم شارب الواعظ السّيّد «أبو القاسم».

لطم «أسد الله ميرزا» جبهته:

– ألم يكن باستطاعته إلغاء حضور ملكة الجمال هذه؟ «مش قاسم»، اركض وابعث هذا الحمار إلي.

خرج «مش قاسم» راكضاً، وبعد لحظات دخل الدّركيّ، معتمراً القبّعة، وقد أنزلها حتّى أذنيه، ألقى «أسد الله ميرزا» نظرةً على غرفة الاستقبال، ثمّ أمسك يد الدّركيّ، وأخذه إلى أحد الممرات وقال له:

– أيها الدّركيّ؟ هل هذه هيئة تظهر بها؟ أين الباروكة؟

أطرق الدّركيُّ رأسه:

– سيّدي سامحني، قالت لي أمّي، لو وضعت الباروكة على رأسك لن أرضى عنك.

– طيّب أين الباروكة؟

أشار الدّركيّ إلى جيبه وقال:

- هنا.

فكر «أسد الله»، ثم قال له:

- يا سيّدي الدّركي، أرجوك أشغل أمّك وأختك قليلاً في البستان، حتّى أرتّب الأمور.

ثمّ التفت إلى «مش قاسم»:

- «مش قاسم» خذ شاياً وأَكْثِر السُّكر للسّيّدتين... أجلسهما تحت العريشة حتى أعود.

ما إن خرج الدّركيّ و«مش قاسم» من ساحة المنزل، حتّى نادى «أسد الله» بإشارة من يده «عزيزة السّلطنة» وقال لها:

- سيّدتي لدينا مشكلة جديدة، أمُّ صهرنا قالت له: لو وضعتَ الباروكة، لن أرضى عنك، فهل تظنين أنّه لو دخل بلا باروكة ورأته «قمر»...

- يا إلهي، «أسد الله» فكّر بحلٍّ، هذه البنت منذ فاتحناها بموضوع الزّواج وحتى هذه اللّحظة، لا تتحدّث إلّا عن مدى طول شعره...

أقنعه بأيٍّ شكل من الأشكال ليضع الباروكة، على الأقلّ هذه الليلة فقط.

- سوف أحاول والباقي على الله... قد يقنع.

– نعم يا عزيزي افعل شيئاً، أنت تعرف لغة النّساء جيِّداً، ولا توجد امرأة في العالم لا تستمع إليك.

– ولكن كما ذكر لي «مش قاسم»، فأمّ العريس ليست امرأة، لديها لحية وشارب بحجم شارب، ولحية الواعظ «أبو القاسم».

– أرجوك «أسد الله»، افعل شيئاً، أنت تعرف كيف تطوّع العجائز أيضاً.

– ون منت، ون منت، أنا لم أطوِّع إلى الآن عجوزا، دعيني الآن أذهب وسأرى ما أستطيع فعله معها.

ولكن تذكّري، لا تتركي «قمر» تبقى في الغرفة أكثر من اللّازم، بعد أن تجلس لدقيقتين، دعي إحداهن تناديها ولا تتركيها أبداً تدخل وحدها، لأنها لو تكلّمت سوف تفضحنا.

سار «أسد الله» إلى البستان، وأنا خلفه.

حين أحس بي أنّي أسير خلفه قال:

– يا بني أنت أيضاً عليك مساعدتي، إذا رأيت شفرتي لا تعمل اسحب أنت شفرتك، فالعجائز ذوات اللحى يُحْبِبْن الشّباب.

– وما الذي أستطيع فعله؟

– مازحها، تغزّل بها... صف لها بشرتها الناعمة.

– عمّي «أسد الله» أصف بشرة عجوز ذاتِ لحية؟ سوف تظنُّ أنّي أسخر منها.

– ون منت واقعاً، ون منت، لماذا أنت ساذج إلى هذا الحدّ؟ إذاً، افتح عينيك جيداً وتعلم.

حين وقعت عيوننا على أم الدّركي من بعيد، تجمدنا في مكاننا، فقال «أسد الله» دون شعور:

– «يا علي المرتضى»، من أين جاءت فرس النّهرِ هذه، لم أرَ طوال حياتي في حديقة حيوان حيواناً شبيهاً لها.

رغم أنّنا لم نرَ سوى نصفِ وجهها لكنّنا ارتعبنا، فقال: الحقيقة لا أذكر أني رأيت حيوانا بهذه البشاعة، حتى إنّها لا توصف بفرس النّهر، كانت واضحة الشّارب، واللّحية، وتتنفّس كمكواة قديمة، رغم ذلك تقدّم «أسد الله»مسلّماً:

– السلام عليكم يا سيدتي... أهلا بك.

قام الدّركيّ «غياث آبادي» بتقديمها:

– هذه أمّي أمّ رجب... وهذه أختي...

لمعت عينا «أسد الله ميرزا»، فأخت الدّركي سمراءٌ فاتنة، لكنّها سمينة قليلاً، ولديها صدر نافر، وقد أكثرتْ من وضع أحمر الشفاه.

ما إن شاركناهم الجلوس على المقعد تحت العريشة، شربت أمّ رجب بقيّة عصيرها، وقالت بصوت ذكوريٍّ:

– عليّ أن أذكر لكم، أنا لا تعجبني هذه الألعاب، ربّيت ابني مثل زهرة ليس فيه أيُّ عيبٍ أو نقص، هو يعمل، ومكانته معروفة في

المجتمع، درس ستّة صفوف، والآن تساقط شعره، وهو أمرٌ لا يُشَكِّلُ عيباً... تتمنّاه البنات، أبعدوا عنكم هذه الألعاب، يلبس باروكة...

كانت جادة وعصبيّة إلى درجة أنّي ظننتُ للحظة أن الزّواج انتهى، ولكنّ «أسد الله» كان فطناً فقال:

– ون منت سيدتي، حين تقولين إنّك ربيت هذا الرّجل، أصاب بحيرة، مازلت لا أستطيع تَصَوُّرَك أمّه... إذا أردت المزاح معي، قولي لي أمراً آخر...

نظرت إليه العجوز وقالت:

– ما الذي تقصده؟ وهل لدي ستة أصابع حتى لا يكون لديّ ابن؟

– يا سيدتي العزيزة، يجب أن يكون لديك ابن، ولكن ليس بعمر هذا الرّجل... كيف يمكن وأنت بكل هذا الشّباب أن يكون لديك ابن بهذا العمر؟

برزت أسنانها المحطمة والصفراء من بين شاربها، فترت عيناها وأرجعت رأسها:

– أنتم الرجال تختارون الكلام المعسول، بالطّبع أنا حين تزوّجت كنت صغيرة في العمر، كان عمري أربعة عشر عاماً حين أنجبت «رجب علي»، وهذا المسكين «رجب» صغير في السّن، بعد تلك المصيبة التّي حلّت به، تحوّل إلى ما تراه الآن...

– رغم كلِّ ذلك، حتى ولو أضفنا عشرين عاماً على عمر سعادة الدّركيّ فلن يصرف الإنسان مما يراك عليه الآن.

إضافة لذلك، أنت لا تضعين مساحيق التجميل، المرأة التّي اخضرت الورود على رأسها، ربتت على صدر «أسد الله ميرزا» وقالت:

– تبّاً للسانك هذا... على فكرة هل تمتُّ للعروس بقرابة؟

قال «أسد الله ميرزا» دون أن يبعد عينيه عن ثدي أخت الدّركي:

– أنا عمُّها.

بعد دقائق تبدّلت الأمور كلُّها، تقدَّمت «أمّ رجب» وخلفها ولداها، ثمّ أنا و«أسد الله» نتبعهم.

دخلنا البيت، ووضع الدّركيّ قبعته على رأسه بيد وممسكاً الورد باليد الأخرى، وحين وصلنا الصّالة، تجمّد خالي العزيز، بينما كان أثر الصّدمة أقوى على «دوست علي خان» ما أدّى به إلى إغماض عينيه من شدّة قباحة العجوز التّي لا تطاق.

بيد أن «قمر» لم تُبْعِد عينيها عن الدّركي، و لم تعر انتباهاً للأم ولا لابنتها.

حين دخل أبي وأمّي جلس الضّيوف.

ما إن سألتها أمّ الدّركيّ عن «قمر» حتى بدأت «عزيزة السّلطنة» بحكاية لا نهاية لها، جلس خالي العزيز صامتاً وكذلك «دوست علي خان» الذي حدّق بجسد أخت الدّركي وكأنّه يزن مصاهرة هذه العائلة التّي تعتبر مصيبة، وخاصّةً أمّهم والمتعةَ من مصاحبة الأخت، في هذه الأثناء كانت الأمّ تلتهم الحضور بنظراتها المتعالية.

بدأ خالي العزيز بالحديث عن مكانة العائلة الاجتماعية ومركزها في البلاد، ثمّ دخل «مش قاسم» منقطع الأنفاس، وقال:

– سيدي السّيّدة «فرخ لقا» في الطّريق إليكم.

اصفرّت الأوجه خاصّة وجه خالي العزيز و«عزيزة السّلطنة»، فقد جمّدهم خبر وصول سليطة اللّسان، مكتسيةً بالسّواد، قال خالي العزيز بصوت حاول أن يجعله طبيعيا:

– «قاسم» لدينا ضيوف... قل لها لا أحد في البيت.

قال أبي:

– تبّاً لها دائماً ما تختار أسوأ الأوقات...

كانت قبضته تتحرّك أمام وجهي، فتأكدت أنّه هو من وجّه الدّعوة لها، سيضمن أبي في الأربع والعشرين ساعة القادمة انتشار الخبر على يد «فرخ لقا خانم».

التفت خالي العزيز إلى الدّركي وقال له:

– هي من عائلتنا، ولكن أينما حلّت يدخل الشر معها.

في هذه الأثناء تناهى إلينا صوت «مش قاسم»:

– سيّدتي لَمَ الكذب؟ حتى القبر أأأأأأ... الجميع ذهب لاستقبال «بوري»، وبإمكانك أنت أيضاً الذّهاب إلى...

– ابتعد عن طريقي، للتّوّ سمعت أصواتهم...

نظرت من الشّباك إلى ساحة المنزل، رُمي «مش قاسم» إلى زاوية، بينما كانت «فرخ لقا خانم» تتقدّم إلى الأمام بخطوات ثابتة مرتدية السواد المعتاد ووجهها مُكفهرٌّ.

مع دخولها إلى الصّالة، سيطر صمتٌ قاتل، فقالت وهي ترمي حلوى في فمها:

- مبروك، وصلت لي أخبار تقول أن هناك خيرٌ قادمٌ... بالتّأكيد، أنّ هذه السّيّدة أم العريس؟

أجابها خالي العزيز مرغماً:

- نعم، نعم السّيّدة أمُّ العريس، من الجميل حضورُك معنا، ما قصدتُه هو أنَّ السَّيِّدات والسّادة دخلوا علينا فجأةً، وقلت لـ «مش قاسم» أن... يعني ظنّنا أنَّ شخصاً غريبا جاءنا... فأوصيتُ «مش قاسم» إذا ما جاء شخصٌ غريبٌ أن...

قاطعته «فرخ لقا خانم»:

- لا بأس.

ثم التفتت إلى أمّ الدّركي وقالت:

- مبروك يا سيّدتي، لن تجدي فتاةً مثلها في كلِّ المدينة، جمال وأخلاق وعِفَّة... على فكرة ما هو عمل العريس؟

أجابها خالي العزيز:

- السّيّد من أصحاب المناصب الرفيعة في الشّرطة.

- جميل مبروك، وكأنّني رأيت وجهه سابقا... حسناً كم تقبض في الشهر؟

قال خالي العزيز حانقاً:

سيدتي هذا الكلام ليس من مستوانا...

تدخل «أسد الله ميرزا» ليغيِّر مجرى الحديث:

- على فكرة «فرخ لقا خانم» سمعت أن ذلك المسكين، توفي، فُتحَتْ نافذةٌ أمامها للحديث، لأن ليس هناك أمرٌ يجذبها، أكثر من الموت ومجالس العزاء، ارتسم الحزن على وجهها وأجابته:

- تقصد السّيّد «ميبن»؟ نعم المسكين أُصيب بالسّكتة القلبيّة، أنت تعرف أنّه كان يقرب لنا... غداً أيضاً نهاية مراسم العزاء، من الجيّد لو مررت عليهم وقدّمت التّعازي لأسرته، والسّيّد أيضاً لو ذهب إليهم معك فذلك أفضل.

تنفّس الجميع الصّعداء، ولكنّ «فرخ لقا خانم» عادت إلى موضوع الزّواج، ووجّهت حديثها إلى أم الدّركيّ قائلة:

- هل أبو العريس على قيد الحياة؟

- لا يا سيدتي كانوا صغاراً حين مات.

- ماذا كان يعمل؟

أجابها خالي العزيز:

- من أصحاب الأراضي في مدينة (قم)، بالتّحديد في (غياث آباد)...

لكنّ أم الدّركيّ عارضته:

- لا يا سيّدي... أنا أقولِ الحقيقة، حتّى لا تحدث مشاكل في المستقبل، المرحوم كان لديه محلٌ لبيع الباجه (الكوارع)...

أغلق خالي العزيز عينيه، ووضع يده على جبهته، صرّت «عزيزة السّلطنة» على أسنانها مخرجة أصواتاً لا تفهم.

نظرت لأبي، تلامعت عيناه، أحسّست سعادته لما يجري، تلخبطت الأوضاع، والجميع في بحثٍ عن مخرج.

ولكن «فرخ لقا خانم» التّي ضربت ضربتها الأولى بدقّة، لم تعطِهِم فرصةً، فهزّت رأسها وقالت:

- حسناً كان بائعاً، ليس عملاً معيباً، ولماذا تخفون الحقيقة؟ لم يكن الرّجل لصّاً.

نظرت «عزيزة السّلطنة» إلى «أسد الله ميرزا»، وكأنّها ترجوه تخليصها من شرِّ «فرخ لقا خانم»، لكنّها لا تترك مجالاً لأحد للتّحرك، مدّت يدها إلى الدّركي «غياث آبادي»، الذّي جلس في زاوية، لا يُحَرِّكُ ساكناً وقالت:

- أنا رأيتك من قبل، أنا متأكدة.

أراد الدّركي، الإجابة على سؤالها لكنّه تراجع أمام إشارات خالي العزيز و«دوست علي خان»، فجأة صرخت:

– آه، ألم تكن أنت؟؟؟؟

في هذه الأثناء رمى «أسد الله ميرزا» نفسه على «فرخ لقا خانم» ضاربا مؤخرتها صارخاً:

– فأر... فأر...

تصاعد صراخ «فرخ لقا خانم» وقفزتْ من مكانها هاربة إلى الخارج، فقام الجميع من أماكنهم، هربت «عزيزة السّلطنة» وأخت الدّركي وانفضَّ المجلس.

حين كان البقيّة واقفين، و«مش قاسم» يبحث عن الفأر، ممسكاً مكنسةً، اقترب «أسد الله ميرزا» من «فرخ لقا خانم» وأمسك ذراعها وهمس لها:

– سيّدتي، تعالي معي، لدي حاجة ماسّة عندك.

وأخذها إلى إحدى الغرف الواقعة قرب باب المنزل، ذهبت خلفهما، صُدمت بجمل «أسد الله ميرزا»، الواصفة لجاذبيّة بعض مفاتن «فرخ لقا خانم»، وكأنّه أغلق فمها لأنّ صرختها لم تخرج مكتملة:

– يا فاسد... يا منحرف... عديم الحياء... أنا بمثابة أمّك... أنقذوني... عديم الشّرف هذا... ساعدوني... يا حقير...

فتحت الباب، ورمت نفسها خارج الغرفة، مصفرّة الوجه، ترتجف ثم ركضت خارجةً من البيت وهي تصرخ:

- يا عديم الشّرف... يا فاسق...

خرج «أسد الله ميرزا» خلفها مرسلاً جملاً شبقية، وحين هربت إلى خارج البيت أغلق الباب خلفها وعاد، رتّب ربطة عنقه وثيابه، وقال ضاحكاً:

- لم يكن أمامي حل آخر، كان علي فعل ذلك.

- حسناً عمّي «أسد الله»، أنت كنت تتقرّب منها، ماذا لو قبلت بمجاراتك؟

- لا شيء، سوى رحلة «سان فرانسيسكو».

- مع هذه العجوز؟

ابتسم، وهزّ رأسه:

- لا، لا مانع... لم ألمسه بعد، ولديها جسد ممتلئ.

عدنا إلى الصّالة، فرأينا الجميع ما زالوا يبحثون عن الفأر، فوقف «أسد الله ميرزا» أمام الباب، وانحنى فجأة واضعا منديله على الأرض ثم رفع يده:

- قبضت عليه.

وخرج راكضا رامياً منديله في البستان.

عاد وعاد الحضور ليكملوا ما بدأوا فيه، فاعتذر خالي العزيز «نابليون» قائلاً:

– يجب أن تعذرينا يا سيّدتي، هذه المرأة كما لاحظت، فقدت عقلها وهي دائماً ما تسبِّب لنا المشاكل.

أضاف «أسد الله ميرزا»:

– العجوز المسكينة... لقد فقدت عقلها.

قالت أم الدّركي:

– لا مشكل يا سيّدي، لدى عائلتي حالة مماثلة.

ثم وجّهت عينيها إلى «دوست علي خان» وقالت:

– بين مئة زهرة لن يزعجنا الشّيح.

جلستُ بجانب «أسد الله» و«دوست علي» على الكنبة، وقد سمعت الثّاني يقول للأوّل:

– «أسد الله» هل تذكر بندقيتي البلجيكية التي أعجبتك؟ سوف أمنحها لك بشرط واحد، دع هذه المرأة بعيداً عني، أجِّرها غرفة بعيداً عني، سوف أعطي الإيجار بنفسي، ولكن لا تضع رجلها في...، بل أيُّ فائدة تُرجى من وراء ترك الدّركي منزله، ناقلاً أمّه وأخته إلى منزل لن يقضي فيه إلّا شهرين أو ثلاثة؟

– ون منت، ون منت وكأنك تقصد أن يسكن الدركي عندك وأخته، بينما ترمي العجوز في مكان آخر؟

– فلتأخذ ابنتها معها، يا رجل تخيَّل سوف أقضي كلَّ هذه الفترة

مُصَبِّحاً وجه العجوز الملتحية، «أسد الله» لو بحثت المدينة كلّها لن تجد مثلها بندقية.

– سأحاول، ولكن من الصّعب إرضاء هذه المرأة، هذه الـ «جانيت مكدونالد» تفكر فيك الآن مستلقياً إلى جانبها.

بحركةٍ من «أسد الله ميرزا»، قام الدّركيّ من مكانه، وذهبا خارج الصّالة، ثم عادا بعد دقائق.

آسف كثيراً يا «دوست علي» لا يقبل الرّجل بأي صورة أن يفارق أمّه، أصررت عليه وذكرتُ أنّه سيتعب أمه بنقلها من بيت إلى آخر، لكنّه رفض، فقال لي إنّه في هذه الأيّام عزموا على تغيير بيتهم، وقد جمعوا كلَّ أثاثهم.

– «أسد الله» أعرف أنّك لم تقل له ما طلبته منك، أعرف جيدا خبثك.

– ون منت، مهما كنتُ خبيثا، فأنا لا أتنازل عن البندقيّة البلجيكيّة، بهذه السّهولة، ولكنّ الحقيقة أنّه لا يقبل...

وأنت أيضاً لا تُصَعِّبْ الأمور، فصحيح أنَّ لديها لحية لكنّها ناعمة، وأعتقد لو اشتريت لها موسىً وفرشاة، وأهديتُها لها لطمأنت نفسك.

دمدم «دوست علي خان»:

– قتلك الله.

– ون منت، «دوست علي»، إذا لم تسكت سوف أنادي الدّركيّ، وأطلب منه أن يحضر أبناءه من زوجته السّابقة ليعيشوا معك.

قالت أم الدركي:

- صدّقوني، أنا غير موافقة على زواج ابني قبل وفاتي، في المرّة الأولى تزوج بلا درايتي، دعوت عليه فأصابته رصاصةٌ في الحرب، كادت تقضي عليه... ولكن الحمد لله، بعد مرور أربعة أشهر أعاده سبحانه إليّ.

قال «أسد الله ميرزا»:

- الحمد لله ألف مرّة... أدعو الله أنْ يحفظَه لك...

قالت العجوز:

- من كثرة نصاعة قلبه سيحفظه الله... والآن، الحمد لله التفتُّ إليه وسوف يوصله إلى أعلى المراتب، وإن شاء سيتزوّج ويستقر تحت ظلال السّيّد «دوست علي خان»، وأرجو أن يبعده عن بعض العادات...

أزعجت هذه الجملة الدّركي «غياث آبادي»، فحاول إسكات أمّه لكنّها أكملت:

- أعرف أنَّ «رجب علي»، لا يقبل أن أطرح هذا الموضوع الآن، ولكنّي إنسانة لا تجامل، ولا تحابي، وأريدكم أن تعرفوا كل شيء عمّن ستزوّجونه ابنتكم...

قال «أسد الله ميرزا» ضاحكاً:

- خيراً إن شاء الله، والآن ما هي تلك العادات؟ يسعد نفسه بنفسه؟

أطلقت العجوز ضحكة عالية:

– سوف يغمى عليّ من كلامه المعسول...

ثم قالت بعد ضحكة أطالتها:

– لا ليس لديه تلك العادات السّيئة، ولكنه منذ ثلاث سنوات ارتبط بأصدقاء يتعاطون.

أطلق كلّ من خالي العزيز، و«دوست علي خان» تعجّبهما من الأمر، فقالا بصوتٍ واحد:

– يتعاطون؟

– نعم ولكن ليس كثيراً في اليوم الواحد ١٠٠ غرام، وإن أسرفوا مئتين... وقد أخذته مرة إلى الطّبيب، وقام بمعالجته لكنّه عاد مرّة أخرى.

قال «أسد الله ميرزا»:

– ليس هذا بعيب، السّيد «دوست علي خان» أحياناً يدخنها... والآن بات لديه صديق كانون[١٤].

«دوست علي خان» الذي جلس على جانبه، عدلّ جلسته إلى درجة صراخه من الوجع:

– آخ... ما الذي تقوله «أسد الله»؟ أنا أدخّن التّرياق؟

عادت «عزيزة السّلطنة» التي أخذت «قمر» إلى الغرفة الأخرى،

١٤– الحديث يدور عن تعاطي الترياق (الأفيون) ويدخن الترياق عن طريق حرقه بالفحم لذلك قال صديق كانون.

فجأةً...رأيت بريق الفرح يتلامع في عيني أبي، رويدا رويدا أخذ يتعرف على العادات السيئة للزّوج الجديد، فسأل عن طفله من زوجته السّابقة، نظرت أمّه حولها سائلة عن العروس:

– أين هي عروسنا؟... تعالي يا «قمر».

دخلت «قمر» إلى الغرفة خجلة، فأجلستها العجوز إلى جانبها، وقبّلتها:

– يا إلهي ما أجملك.

قامت «قمر» وذهبت إلى أمّها وهمست لها بشيء سمعه الجميع:

– ماما... لقد نمت لحية في ذقنها.

أخذ «أسد الله ميرزا» يتحدث بصوت عالٍ، ليُغَطّي على صوتها:

– إن شاء الله بعد الزّواج، سنأكل حلوى زواج السّيّدة إختر.

ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجه أم الدّركي:

– إختر خادمتك... إن شاء الله سوف نزوجها تحت ظلالك.

– نعم على أيٍّ حال، فإنّ الشباب في عائلتنا كثر، وسوف نرى ما الذّي سنفعله من أجلها، فما دمنا على وجه الأرض لن نتركها وحيدة.

بعد أحاديث عن مراسم الزواج وشروطه، تقرّر أن تأتي أم الدركي في اليوم الثّاني، إلى بيت «عزيزة السّلطنة» لكي تحضِّر أثاثها وترتِّب الغرف لها ولابنها.

حين ذهب الزّوج الجديد وعائلته، ساد صمتٌ في الصّالة، خاصة على «دوست علي خان»، الذّي أخذ يلتفّ على نفسه مثل حيوان جريح.

«مش قاسم»، وقف في زاوية منذ فترة، بلا أدنى حركة، كسر الصّمت:

– والله لمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... ابن مدينتي هذا إنسان طيّب، ولكن إذا أردتم الحقيقة أنا أخاف أمّه.

هل رأيتموها، صوتها أشبه بالشخير حين تتحدث؟

بإشارة أسكته «أسد الله ميرزا»، ثمّ التفتَ إلى «قمر» التي جلست في زاوية وقال:

– عزيزتي هل رأيته جيّداً؟ هل قبلت زوجك؟

– نعم عمّي أسد الله.

– هل تحبينه؟

– نعم عمّي أنا أحبه كثيراً... والآن يمكنني أن أتحدث عن طفلي.

– نعم يمكنك... بارك الله فيك من بنت مطيعة، لم تتحدث أمام الضّيوف عن طفلها.

– أنا أحبُّ طفلي، أكثر من زوجي، أريد حياكة قميص أحمر له...

– هل أنت راضية أيضاً عن أخته وأمه؟

- نعم عمّي أسد الله، ولكنّ أمه نبتت لها شعيرات في ذقنها، آلمتني حين قبلتني.

- لا عيب في ذلك، في المرّة القادمة سوف تحلق لحيتها... وقد وعدنا البابا «دوست علي» أن يشتري لها أدوات الحلاقة كاملة.

هناك من يطرق باب البستان، قال «مش قاسم»:

- أظنّه «بوري»... سيّدي جهّز هديّتي.

وركض إلى الباب.

تبادلنا أنا و«ليلى» النّظرات، الحمد لله لم يكن «بـوري»، عاد «مش قاسم» حاملاً صحف العصر، أخذ أبي الذّي جلس قرب الباب الصّحف من «مش قاسم»، وقرأ عنوان الصّفحة الأولى بصوتٍ عالٍ، دخول قوّاتٍ الحلفاء إلى (طهران) واحتلال منشآت سكّة الحديد...

قال خالي العزيز:

- منشآت سكة الحديد؟... لماذا سكّة الحديد قبل أي مكان؟ كان الله في عون أخي العقيد.

- تدخّل «أسد الله ميرزا» ليزيح شكوك خالي العزيز:

- عليهم أن يبدؤوا من مكان على أيِّ حال...

هزّ خالي العزيز رأسه، وقال:

- «أسد الله» صحيح أنّك دبلوماسي، ولكن أمامك طريق طويل لتعرف خفايا السّياسة الإنجليزيّة.

– ون منت، ون منت، هل تقصد، لأنّ أخاك ذهب اللّيلة إلى محطّة القطار، احتلّها الإنجليز قبل جميع الأمكنة؟

همس خالي العزيز قائلاً:

– لم يكن لذلك فقط، ولكنّه ليس بعيد عن هذا المعنى...

ثم أخذ يتحدث وكأنه يخاطب نفسه:

– أنا خائف على هذه العائلة المسكينة، فالمسكين أخي العقيد لم يخطئ في حياته، والآن عليه تحمل تبعات نضالي.

قال «أسد الله ميرزا» الذّي حاول أن يكون جادّاً في حديثه:

– فلنفترض أنّهم أرادوا معاقبته، من أجل الانتقام منك، من أين يعلمون أن العقيد ذهب اللّيلة إلى محطّة القطار؟

قال خالي العزيز باسما:

– من الأفضل ألّا نتحدث حول الموضوع، وهل تظنُّ أنّهم لم يتعرّفوا على «بوري»؟ وهل تظنُّ أنّهم لم يتعرفوا على ابن أخي؟ أنت ساذج، أعدك أن ملفّ الدّركي «غياث آبادي» وموضوع زواج «قمر» وضع على مكتب رئيس المخابرات، وهل ظننتَ أنَّ هذا العميل الهنديَّ، وآلاف العملاء الآخرون يجلسون للفرجة؟

لاحت فرصة مناسبة لـ «مش قاسم»، هزّ رأسه وقال:

– السّيّد «أسد الله ميرزا» لا يعرف الإنجليز، نحن، يعني أنا وسيّدي،

قضينا ثلاثين عاماً في مجابهة الإنجليز، لم نعرفهم إلى هذه اللّحظة، فما هو حال البقيّة؟

... لدي صديق في مدينتي...

قاطعه خالي العزيز:

- لو ذكرت لك ما رأيته من الإنجليز لأصابك الجنون، في حرب (كازرون) حين رمى قائد الإنجليز سيفه أمام قدمي، وكأنه الأمس، قال لي أحسنت لقد تغلبت على عدّة جحافل إنجليزية بألفٍ وأربعة عشر جنديٍّ، وهذا يُكْتَبُ في التّاريخ بماء الذّهب... لا تتخيّلوا مقدار الدّهشة التّي أصابتني... لأنّني في اليوم السّابق، أحصيتُ أفرادي فكانوا بالتّحديد ألفاً وأربعة عشر جنديا...

تدخّل «مش قاسم»:

- كانوا ألفاً وخمسة عشر.

- ما الذي تقوله؟

أتذكر جيداً قال الكونيل ١٠١٤ جندياً وكان صادقاً في قوله.

- والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... أنا أتذكّر جيّداً أن...

- هل تخرس يا «قاسم» أم؟

- ولكن يا سيّدي، أنا لا أختلف معك، قال الإنجليزي ١٠١٤ جنديّاً، وقد صدق، وأنت أحصيت، وكانوا ١٠١٤ جنديّاً...

- «قاسم» بدأت تخرف...

- وأنت حفظك الله لا تدع الإنسان يُكْمِلْ، وذلك الرّجل الذّي ضاع رحمه الله «سلطان علي خان» في نفس ذلك اليوم، قُتِلْ.

نعم صحيح الحق معك، خلاصة الأمر، أنّه في أحلك ساعات الحرب، وأشدّها قسوة، كانوا يعلمون عدد جندنا...

أطلق «مش قاسم» آها وقال:

- قسماً بالخمسة الأطهار، المسكين «سلطان علي خان»... يعني الحقيقة، لو لم يكن السّيّد لأكلني الدّود منذ زمن طويل، زاد الله في مكانته، من أجلي أنا الحقير جاء نحوي، وسط وابل الرّصاص مثل أسد، وحملني وأخرجني من ساحة المعركة، حتى الإنجليز تعجّبوا، أنا نفسي رأيت تجمّع الدّمع في أعينهم اليسرى... لأن أكثر الإنجليز بأعينهم اليسرى...

هزّ خالي العزيز رأسه، وقال:

- ولكن «مش قاسم» هل ترى تتابع الأيّام ما الذّي يفعله بنا؟ صبروا حتى وصلوا إلى هدفهم، واليوم يجب عليّ أن أتحمّل عاقبتي، لكوني إنسانيّاً...

وفجأةً صرخ:

- يا عديمي الضّمير، تعالوا للنّيل منّي، ما الذي تريدونه من ابن أخي المسكين؟

قال «أسد الله ميرزا»:

– لا تكن متشائماً إلى هذا الحد، ولنفترض أنّهم احتلوا سكّة الحديد، ومحطة القطار، من أجل القبض على أخيك، فمن أين تعلم أنّهم سيجدونه في هذه الزّحمة؟ والعقيد ليس طفلاً ليوقع نفسه في تهلكة...

ولكي يغيّر الموضوع، قال:

والآن هل سنقوم بدعوة أحد ليوم الخميس أم لا؟ على أيّ حال يجب حضور الأقارب.

قاطعه «دوست علي خان»:

– إذا ما تمّ العقد، يجب إنهاؤه بسكوت تام.

– وهذا ما سيحرّك الألسن، سيقول الجميع هناك أمرٌ ما أجبرهم على إقامة الزّواج دون أيّ مظاهر للفرح.

أرسلت «عزيزة السّلطنة» «قمر» إلى غرفة أخرى، وقالت بعد أن خرجت «قمر»:

– بإمكاني القول: إننا أقمنا الزّواج بلا حفل، بحجة وفاة أحد أقاربنا.

– ولكن وفاة مَنْ؟ هذه الأيّام، والحمد لله جميع أفراد عائلتنا بأفضل صحّة وعافية.

– اضرب على الخشب يا «أسد الله»، إن شاء الله يكون الجميع بصحّة وعافية.

– ون منت، قالت «فرخ لقا خانم»، أن «مبين حضور» توفيت، هل هي قريبتنا؟

قال خالي العزيز:

– لا تفكر بالأمر؟

«مبين حضور» قريبة زوج أم «فرخ لقا خانم»، وهو على علاقة بالإنجليز...

قال «أسد الله ميرزا»:

– على أيّ حال علينا إيجاد شخصٍ ما، على فكرة يا «دوست علي»، ما رأيك بعمي «منصور السّلطنة»؟

– قطع الله لسانك، وهل عمّي «أعواد» بيعت لك لتتمنى موته؟

– ون منت، متى تمنيت أنا موته؟

تذكرت أنّنا منذ فترة طويلة، لم نسمع عنه أيّ خبر، لذلك سألتك عنه، لقد وصل عمره إلى خمسة وتسعين عاماً، وإن شاء الله رغم المرض الرئوي والكُلَويّ والمعديّ، فسوف يضاف على عمره عامٌ آخر، فلست أنا ببخيل، العتب عليك لو أنّك أثرت «فرخ لقا خانم»، لكانت الآن تبحث لنا عن جنازة تحت الحجر.

قال أبي:

– اطمئنّوا لو كان هناك مجلس عزاء، لأبلغتنا بخبره.

ضحك «أسد الله ميرزا» وقال:

– ما رأيكم لو رجونا أم الدّركي «غياث آبادي»، أن تذهب في نصف الليل إلى عمّنا «منصور السّلطنة»... فقد يرحمه الله بسبب الخوف...

ثار «دوست علي خان»، لكن «عزيزة السّلطنة» قاطعته:

– كم نحن أغبياء، حسناً بإمكاننا القول أنّ أقرباء الزّوج في حالة عزاء.

كانت فكرةً جيّدة، وافق عليها الجميع.

في تلك اللّيلة، كان الجميع ينتظر وصول خالي العقيد و«بوري»، ومع اقتراب منتصف اللّيل، عاد خالي العقيد وزوجته، فكان حزيناً، وكانت زوجته تبكي، فقد وصل القطارُ، بيد أنّ «بوري» لم يكن فيه.

حاول خالي العزيز «نابليون» التّخفيف عن أخيه قائلاً، أنّ الأحداث الأخيرة أخرّتهم، بيد أنه كان يفكر بأمرٍ آخر.

في الصّباح قال لي «مش قاسم»:

– السّيد بقي مستيقظاً حتى الصّباح، الحق معه، فبالتّأكيد أن الإنجليز قاموا بأمرٍ مع هذا الفتى، فحين يخاصم الإنجليز شخصا، سيستمرون في تحطيمه حتّى نسله السّابع، أعمى الله أعينهم اليسرى.

– «مش قاسم» ماذا يريد الإنجليز فِعْلَهُ مع شخصٍ مثل «بوري»؟

– بُنَي أمامك دربٌ طويلٌ لتعرف الإنجليز...

لم يصلنا الخبر بعد...

ولكنّي أعلم ما الذي ارتكبه الإنجليز في (غياث آباد) وبقومي وأبناء مدينتي...

لدي صديق من مدينتي كان يلعن الإنجليز، وجدوا عاملاً كان يعمل في دكان عديله في الكاظميين، ربطوه بذيل فرس وتركوه في الصّحراء... لا تعلم ما الذّي بإمكانهم فعله... أعان الله سيّدي وأعانني... ورحمك الله أنت أيضاً، لأنك من أقرباء السيّد.

عاد خالي العقيد من مركز التلغراف وأحضر معه خبراً أنّ «بوري» و«خان بابا خان» حصلا على تذكرة، ولكن بسبب الأوضاع غير العاديّة لم يجدا مكاناً وسوف يأتيان مع أوّل قطار قادم.

-١٨-

لا تسعفني ذاكرتي مع الأسف بصور عن زواج «قمر»، لأن هناك أمراً شدّني إليه، ما أذكره هو حضور ما يقارب عشرين شخصاً من أقارب العروس، ومن أهل العريس أمّه وأخته والمفتّش «تيمور خان»، ما بقي عالقاً في ذهني أكثر من بقية الأحداث هو ثياب الدّركي «غياث آبادي» الواسعة والتي اشترتها له «عزيزة السّلطنة»، وربطة العنق التي ربطها له «أسد الله ميرزا»، كلها باتت مضحكة أكثر من إعطائه رونقاً اجتماعيّاً، ومن حضر العرس من خارج العائلة هو «شير علي القصّاب» وزوجته.

ولكنّ الحادثة التي وقعت في تلك اللّيلة هي:

أنّ عقد قرانٍ كبيرٍ، تقرّر أن يكون في بيت خالي العزيز «نابليون»، وفي نفس اللّيلة صادفت «بوري» وجها لوجه، كان قد حضر البارحة مع «خان بابا خان»، كان جالساً على السّلّم، ثمّ أشار إليّ لكي أتبعه إلى البستان، وقال لي هامساً:

- أريد الحديث معك.

أخرج من جيبه ورقة مطويّةً وفتحها، وهو يحاول منعي من رؤية ما

تضمنته، كاد قلبي يقفز من صدري، هي نفس الورقة التي أُرسلتها إلى «ليلى» قبل أيّام، ووضعتها بين دفّتي الكتاب.

قال «بوري» هازئاً:

– منذ متى تحوّلت إلى عاشق؟

– أنا... أنا... أنا...

– نعم أنت.

قلت له دون إدراك:

– أنا لم أكتب هذه الورقة، أنا...

– إذن لم تكتبها أنت؟...

أخذ بقراءة قصاصة الورقة، وهو يبعدها عنّي خوفاً من خطفها:

– (حبيبتي «ليلى» تعرفين كم أحبّك أنا، تعرفين أن لا معنى للحياة من دونك...)

قلت له بصوت راجف:

– «بوري» قسماً بالقرآن...

– دعني، اسمع البقيّة: (منذ أن سمعت بأنّ هذا الحصان العربيّ يريد العودة...)

رفع «بوري» رأسه وقال:

- لو لم يكن عرساً، للكمك هذا الحصان العربيّ على فمك، وأسقط أسنانك، هذا الحصان العربيُّ سوف يريك ما لن تنساه طيلة حياتك.

- «بوري»، قسماً بحياة أب...

- اخرس، أبوك أيضاً مثلك إنسان خائب.

لم أستطع تحمُّله، جمعت قبضتي، وبكل ما بقي لديَّ من قوّةٍ، لكمته على رقبته، وحاولت سحب الورقة من يده، ولكنّي لم أستطع، صفعني على وجهي، وقد غطّى الدّم عيني، فهجمت عليه مثل نمر مجروح.

تتالت صفعاته على وجهي، فركلته بين فخذيه وهربت إلى البيت، وكانت حدّة صراخه قد أكدت لي الألم الذي أوقعته فيه.

وصلت إلى مخبأ الطّفولة، الذي كان شقّاً في السّقف، وتجمّدتُ هناك، جاء خلفي من يبحث عنّي لكنهم لم يجدوني، أبي وأمي أيضاً كانا يصرخان، وأحياناً يرجوان منّي الخروج، بيد أنّي بقيت أسمعهم يقولون: لقد اختبأ هنا وسوف نجده.

حين خفّت الأصوات، سمعت صوت «أسد الله ميرزا» يبحث عني في الغرف، وحين اقترب مني ناديته:

- عمّي «أسد الله» أنا هنا.

- كيف دخلت هنا... تعال... لا تخف أنا وحدي.

حين نزلت، قال لي ضاحكاً:

- سَلِمَتْ يداك... لقد حطَّمته... هذه أيضاً طريقة ليست بالسّيئة، ولأنّك لم تذهب في رحلة إلى (سان فرانسيسكو)، قمتُ بإغلاق (سان فرانسيسكو) الفتى من أعماقه.

- كيف حال «بوري»؟

- لا شيء جديد؟ فاقد لوعيه وسط السّاحة، أحضروا له الطّبيب «ناصر الحكماء»، لقد تحسّنت حالته الآن...

ما الذّي دفعك لفعل ذلك؟

- لقد سرق مني رسالةً بعثتها إلى «ليلى» وسبّ أبي، على فكرة هل ذكر لخالي العزيز شيئاً؟

- لا، ولكنّه تحدّث مع أبيك.

- والآن ما الذّي سأفعله؟

- في الوقت الحاضر ابق في مخبئك حتى تنام الضّجة، فلقد حضّر لك العقيد خطّة، وستعرف ولو بعد حين أن الطّريق الذّي وصفته لك، هو الأفضل والأسهل.

- أي طريقٍ عمّي «أسد الله»؟

- طريق (سان فرانسيسكو).

هذه الحادثة أجبرتني على عدم المشاركة في حفل عرس «قمر»، وحين عاد أبي وأمي ليلاً، كنت في غرفتي، أغلقتُ الباب احتياطاً.

طرق أبي الباب وأمرني بالخروج، وكان صوته يدلُّ على غضبه، ففتحت البابَ وأنا خائف، دخل أبي وجلس على السّرير الحديديّ، أطرقتُ رأسي، بعد لحظات صمت، قال أبي:

– سمعت أنّك على علاقة بـ «ليلى»؟

– يكذبون، لا تصدّق أنّني...

– لا تكذب عليَّ، لقد سلّمني «بوري» الورقة التي كتبتها.

سكَتُّ مرغماً، أبي أيضاً سكت ثم قال، ما لم أكن أنتظره منه:

– ابني، هل فكّرت ولو للحظة، بأن خالك لو علم بالموضوع، ما الذّي سيفعله بك؟

– أنا أحبُّ «ليلى».

– منذ متى؟

– منذ الثّالث عشر، من شهر مرداد من العام الماضي.

– بارك الله فيك، حفظت التّاريخ بدّقة، ولا بدّ أنك تعرف الساعة أيضاً؟

– نعم في الثانية وخمسٍ وأربعين دقيقةً.

وضع أبي يده على كتفي، وقال:

– بنيَّ، هل قمتَ بأمرٍ آخر معها؟

لم أدرك ما يقصده:

– كتبت لها بعض الرّسائل...

– هل تحبّك هي؟

– نعم «ليلى» تحبني.

– حسناً.. قل لي الحقيقة، ما الذّي قمتما به؟

– هل تقصد مواعيدنا الغراميّة...

قال أبي، وقد ملّ من المماطلة:

– لا يا بقرة، ما أريده هو على حدِّ تعبير «أسد الله ميرزا» هل قمتما بالـ «سان فرانسيسكو» أم لا؟

صدمت، لم أتوقّع سماعُ مثل هذه الكلمة من أبي، كانت علاقتي به غيرُ مستقرّة بين جزر وجزر، وتطغى البرودة بيننا، انقطعت أنفاسي، بعد لحظاتِ حيرة وصدمة، قلت له وأنا مُطْرَقُ الرّأس:

– ما الذّي تقوله يا أبي؟!

– لا تتحامق، سألتك هل قمت بذلك أم لا؟

لم يكن أبي يمزح، قلت له بسرعة:

– أبي أنا أحبّ «ليلى»، ولم تطرق ذهني أبداً مثل هذه الأفكار الوسخة.

ها أنا أفهم ما يرمي إليه أبي، ولكي يوجه ضربة لخالي العزيز وجد ما يدعم مشروعه، فشعرتُ بأنّي لو قلت له إنّي قمت بما يظن لما حزن.

طال صمته، وبانَ اليأس عليه ساعياً للتّماسك أمامي:

– كنت أمزح معك، ولكن يا ابني هذه الفتاة مخطوبة لابن عمها، ولن يزوّجوها لك، وعليك الآن أن تنهي دراستك...

طبعاً لو حدث أمرٌ طارئ فهو أمر آخر، فأَبْعِدْ هذه الأفكار الطفوليّة عن ذهنك...

والحمد لله لم يحدث شيء حتى الآن، عد لدراستك...

اذهب الآن ونم.

خرج أبي وتركني وحدي في الغرفة، ورغم أنّي لمست لديه حسَّ الانتقام، ولكن لأوّل مرّة تصدر عنه أفكار جديدة تخصني.

كان الوقت متأخّراً، حين سمعت صوت «أسد الله ميرزا»، جاء يسأل عني، سمعت صوته في الممرّ يتحدث مع أمي:

– هذا الولد لم يأت اللّيلة للحفل هل حدث له مكروه؟

بعد لحظات دخل الغرفة، وقال:

– لا تحزن لقد تحدّثت مع العقيد وأنهيتُ الأمر، المسكينة «ليلى» كانت مشتّتة الذّهن...

الفتاة تكره هذا الشّاب، ولا يمكن إخفاء الكره هذا.

– عمّي «أسد الله» هل لمّح «بوري» إلى خالي عن الأمر؟

– لقد ترك الأمر كما هو، ولا أظنُّ أنّه ذكر له شيئاً حول الموضوع.

ضحك «أسد الله» حين رأى صمتي وقال:

– ولكني أظنُّ أنّه سوف يفكّر بالخطوبة في هذه الفترة، لأنّك ضربته بقسوةٍ في ذلك المكان... عليه أن يضمّد (سان فرانسيسكوه).

قلت له دون أن أرفع رأسي:

– عمّي «أسد الله» أردت سؤالك عن أمر.

– اسأل.

– أريد أن... إذا... يعني... إذا...

– إذاً ماذا؟

– يعني... أنا... إذا أنا... ما قلته لي... إذا أنا مع «ليلى»...

– إذا ماذا؟... إذا تزوّجت «ليلى»؟

– لا يعني ما الذّي عليَّ فعله لكي أتزوج «ليلى»؟ ما الذي أفعله لكي لا يتزوج بها «بوري»؟

– قلت لك مئة مرّة، (السّان فرانسيسكو)...

– إذا أن... إذاً، (السّان فرانسيسكو)...

علت ضحكة «أسد الله ميرزا»:

- أحسنت... أحسنت... كدتَ تصبح رجلاً...

- لا أردتُ أن أقول...

- ون منت، هل تراجعت؟

- لا ولكن كيف؟؟؟

- أها، كيف؟ أنا من سُيعلّمك، اجلس لأرسم لك...

أحضر لي قلما بنفسجيّاً، وآخر ورديّاً.

لم أجد فرصة لأعترض، لأنَّ أصواتاً عاليةً تناهت إلينا من البستان:

- اركض... أحضر المسحاة...ذلك الدلو... لا من هذه النّاحية...

ركضت أنا وأسد الله ميرزا إلى البستان:

- ما الذّي حدث؟ ما الذّي حدث يا «مش قاسم»؟

- والله، لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... لقد هجم الإنجليز... أعمى الله أعينهم اليسرى.

شرح «مش قاسم» سبب كل هذه الضّجة لـ «أسد الله ميرزا»:

حين كان الضّيوف مشغولين بالفرح، حضر مجهولون، وأزاحوا سِكر مجرى ماء مخزن خالي فأغرق الأرض.

سأله «أسد الله»:

– من الذّي أزاح السّكر؟

– يقول السّيّد أنّ الإنجليز هم من قاموا بذلك، ولكنّي لا أظنُّ أنّهم الإنجليز، إذْ لم يجفْ بعد عرق جبينهم، وهم للتّوّ وصلوا...

إضافة إلى ذلك، إذا ما أرادوا فتح معبر الماء علينا، فذلك من أجل...

نظر «مش قاسم» إليّ وقال هامساً:

– بنيَّ، لديك أنت قلب أسد لتأتي... إذا ما قبض عليك السّيّد أو العقيد لقطعاك.

– على فكرة «مش قاسم»، لماذا أنت غاضب؟

– والله لِمَ الكذب؟ حتى القبر ها أهـا... مع تلك الضّربة التي وجهتها له، إذا بقي على قيد الحياة، فهذا من حسن حظّه، ولكن إذا لم أكن مخطِئاً، فإحدى خصيتيه تَلِفَتْ، لقد رآه الطّبيب، وأنا كذلك لقد انتفخت مثل تفاحة...

دفعني «أسد الله ميرزا»، وقال:

– اذهب واختبئ حتى تصفو المياه، شرف النّاس ليس لعبة.

أكمل «مش قاسم»:

– ضمّد الطّبيب «ناصر الحكماء» المكان المصاب، وقال، يجب أخذه صباحاً إلى المشفى، لقد ضربته ضربةً، أظنُّ أنَّ أنفاسه اشتبكت مع شرفه.

اختبأت بين الأغصان، وذهب «أسد الله» إلى خالي العزيز الذي وضع بندقيته على كتفه.

صاح خالي العزيز:

– لماذا توقفت يا «قاسم»؟ اذهب، وساعدهم ليخرجوا الماء...

– والله يا سيدي، كنتُ ذاهباً لأُحَضِّرَ الدلو من بيت السّيّدة...

قال خالي العزيز:

– من حسن الحظّ، أنَّ الضّيوف غادروا.

سأل «أسد الله ميرزا»:

– هل ذهب العريس أيضاً؟

– نعم، هذا أيضاً ذهب ليرجِع غداً مع أمّه وأخته، ويحضروا عفشهم إلى بيت «دوست علي خان»، ولو كان النّائب «تيمور خان» هنا، لحلّ هذا اللّغز الجنائي.

انضمَّ خالي العقيد إليهم، فقال أبي:

– ولكن هذا أمر عجيب، أيّ إنسان عديم الشّرف قام بهذا...

قاطعه خالي العزيز «نابليون»:

– سؤالك طفوليّ... أنا أعرف استراتيجيّة الإنجليز... ليست هذه المرّة الأولى التّي يستخدمون فيها الخدعة الحربية هذه، في الجنوب أيضاً قطعوا مياه النّهر، وجعلوها تنساب إلى خيمنا ثم شنّوا هجومهم.

«مش قاسم»، الذّي كان يمشي مبتعداً عنهم، مع سماعه هذه الجملة عاد وقال:

– قطع الله نسلهم، هل تذكر يا سيّدي أيّ ماءٍ تدفق علينا؟ هذا أيضاً من الخطط الشّمريّة[١٥] فالشّمر أيضاً قطع طريق الماء، والإنجليز فتحوه ليغرقونا...

الحمد لله، أنّنا كلُّنا كنّا سبّاحين.

قال «أسد الله ميرزا» ليُهَدِّئ خالي العزيز:

– ولكن، فكّر بالأمر، دخل الإنجليز المدينة بالمدافع والدّبابات وإذا ما أرادوا ضربك فهل يقومون بفتح الماء على أرضك؟

– أسد الله، أسدَ الله، أرجوك لا تعلّمني ما يفعله الإنجليز؟

– ون منت، ون منت.

صرخ خالي العزيز:

– ون منت، وسمٌّ هارٍ... الإنجليز هم أشرف النّاس... بل هم يحبّونني ويحبّون عائلتي.

وأكمل كلامه بالحديث عن «شكسبير» الكاتب المسرحيّ الإنجليزي:

– بل لقد كتب شكسبير مسرحية «روميو وجولييت»، وَصْفاً لعلاقتي مع الإنجليز...

١٥– نسبة إلى الشمر بن ذي الجوشن.قاتل الإمام الحسين بن علي.

قال «مش قاسم» الذّي لم يدرك ما يدور:

- بعيداً عنك يا سيدي... لا جعل الله الإنجليز يعشقون شخصاً، وهل يستطيعون أن يحبّوا مع تلك الأعين اليسارية؟

لدي صديق من مدينتي، قال بأنّ الإنجليز أعزّكم الله، ليس لديهم رجال، ومن لديه ذلك الشيء، فمن كثرة إحولالهم يذهبون إلى نساء الجيران.

صرخ خالي العزيز:

- «قاسم» بدل هذه الخزعبلات اذهب إلى المقهى وأحضر الإسكافي لدي أمر معه... يمكن أنه رأى من فتح الماء...

- ولكن يا سيدي الإسكافي لم يكن هنا...

- لا تهلوس افعل ما آمرك به.

خرج «مش قاسم» مسرعا من البستان، بينما كان خادمنا، وخادم خالي العقيد وبقية الخدم ينزحون الماء بالدلاء.

سمعت أبي يقول لخالي العقيد:

- هل تحسّنتْ حالة «بوري»؟

- علي أخذه صباحا إلى المشفى، لقد أعطاه الطبيب حقنة مورفين لتسكين ألمه.

- آسف على ما حدث، سوف ألقّنه درسا لن ينساه.

قال خالي العزيز «نابليون»:

– لا يحتاج إلى كلّ هذه الشّدة، فهو طفل ولا يفهم الأمور.

فهمت منه، أنّه يريد إبعاد أيِّ قصّة أخرى غير الإنجليز، دخل «مش قاسم» مسرعاً إلى البستان وذهب مباشرة إلى خالي العزيز.

– سيّدي، يقول صاحب المقهى أن الإسكافيّ لم يأت اللّيلة إلى المقهى...

نظر خالي العزيز إليه مندهشاً، ثمّ وضع يده على جبينه وهمس:

– الخطة اكتملت، لقد ضاع الشّاب.

سأل «أسد الله ميرزا»:

– من الذّي ضاع؟

– لا شيء لا شيء...

على أيِّ حال، علينا أن نبقى مستيقظين حتى الصّباح.

قال أبي مؤيداً:

– نعم، الأوضاع ليست على ما يرام.

قال «مش قاسم»:

– نعم صحيح... في الحقيقة لم أُصدِّق حديث سيدي، حتّى فهمتُ

أنّه إنسانٌ عارفٌ بخفايا الأمور، سيدي هو فقط من يعرف الإنجليز على حقيقتهم.

– وكيف ذلك يا «مش قاسم»؟

– والله لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... قال السّيّد إنّ هذا الأمر من فعل الإنجليز، فلم أصدِّقه، ولكنّي الآن تأكدت من صحّة كلامه، إذ سألت صاحب المقهى هل رأيت اليوم رجلا أشقر بعينين ملوّنتين؟ فأجاب بأنّه رأى بائع سمك مرّ من امام المقهى يشبه أزرق الشّامي.

قال «أسد الله ميرزا»، وهو يحاول كتم ضحكه:

– أوصافه تنطبق على الجنرال «فيول» الإنجليزي.

قال خالي العزيز:

– تصبحون على خير.

***

في صباح يوم الجمعة، لم أجرؤ على الخروج من غرفتي، وأبي لم يأت اليّ، بيد أنّ أمّي أحضرت لي الفطور، فسمعت منها أن العائلة كلّها رافقت «بوري» إلى المشفى، وبعد مرور ساعة، جاءني «أسد الله ميرزا»، وكنت قد قضيت اللّيل كله مُرعَباً مما حدث، فلمّا تناهى صوته إليّ أزال خوفي، وقال لي:

– الأوضاع ليست على ما يرام، لقد تحدّثت مع أبيك، واتفقنا على أن تذهب إلى بيت «رحيم خان» في (دزاشيب) حتّى تهدأ الأوضاع.

سألته:

- ما الذي حدث يا عمِّي؟

- لقد أقسم العقيد بأن يطلق على رأسك طلقتين، لأنَّ عليهم إجراء عملية لـ «بوري»، وهناك حديث عن استئصال إحداهما.

- إحداهما؟

- كم أنت أحمق! كيف أشرح لك... إحدى أعمدة برج (سان فرانسيسكو)، أو على حد تعبير «مش قاسم» (إحدى عرضه وشرفه).

- هل قلت أنّ خالي العقيد، يريد إطلاق رصاصتين على رأسي؟

- وهل يريد فعل ذلك برأسي أنا؟ بالتأكيد لك الرّصاصتان.

قلت له وأنا في عالم آخر:

- رصاصتا مسدس...

قاطعني «أسد الله»:

- أنا أيضاً مندهشٌ من هذا، فهم يريدون استئصال عمود واحد من أعمدة (السّان فرانسيسكو) فلماذا يريد إطلاق رصاصتين؟!

قطع دخول أبي المفاجئ حديثنا:

- يا حمار يا أحمق.

فردّ «أسد الله ميرزا» بكل برود:

– لن يفيد ذلك الآن، فأنت لو كنت مكانه، وقام أحدهم بلعن أبيك ستقوم بما قام به، والآن وكما قلت لك من الأفضل، أن يذهب إلى بيت «رحيم خان» حتى تهدأ الأوضاع.

– اتصلت به، وقد سُعِدَ «رحيم خان».

فقلتُ راجياً:

– لا دعوني أبقى هنا... أريد البقاء مع «ليلى».

ردّ أبي وهو يهم بالهجوم عليّ:

– اخرس، لعنك الله أنت وحبك.

حمداً لله أنَّ «أسد الله» سدَّ الطّريق أمامه، وإلّا لكانت الصّفعة تلحقها ركلة.

قال «أسد الله»:

– على فكرة أنا اليوم مدعوٌّ على الغداء في (شميران)، سوف أذهب لأغيّر ثيابي وآتي لأخذه معي.

ثم التفتَ إليَّ وقال:

– اسمع يا فتى ما يقال لك، نحن أدرى بمصلحتك.

لم يمنحوني فرصة توديع «ليلى»، وبعد ساعة كنت في الحافلة مع «أسد الله» متجهين إلى (شميران)، وبعد صمتٍ تكلّمتُ وقلت:

– عمّي، ما الذّي تتوقّع حدوثه الآن؟

– ماذا سيحدث؟

– أقصد «بوري».

– سوف يفقد جسده توازنه.

– لماذا؟

– لأنه إذا ما قاموا باستئصال إحداهما، فسوف يكون جانبٌ من جسده خفيف والآخر أثقل وزناً.

– أرجوك لا تمزح معي، أنا قلق جداً.

– ون منت، ون منت... لماذا أنت قلق على ذلك الأحمق، أعتقد أنّك قلق لأنه حُرم من المرحوم (سان فرانسيسكو).

– على فكرة حين لن يقدر على...

– على ماذا؟

– على... يعني... (السّان فرانسيسكو)...

– برافو. برافو هذه المرّة الأولى التّي تذكر (السّان فرانسيسكو)، لقد حصلت في الجغرافيا على أعلى درجة، أما فيما يتعلق بإمكانية ذهابه إلى (سان فرانسيسكو) فالأطباء على خلاف حول القضية، فبعضهم يرى أن...

– عمّي، أرجوك لا تمزح معي، من شدّة قلقي لم أنم البارحة.

– هل أنت قلق إلى هذا الحدّ على أنّ «بوري» لن يقدر على الذهاب إلى (سان فرانسيسكو)؟

– لا ولكن أخاف لو حدث له مكروه فلن أرتاح ولن يرتاح ضميري.

– أنت مسؤول ضميريّاً وقانونيّاً، ولكن لا تشغل بالك بالأمر، لن يُقَدِّموا شكوى ضدك، العائلة العريقة لا تُقدِّم شكوى أبداً.

– ماذا عن «ليلى»؟

– في الوقت الحالي «ليلى» في أمان، ولكن حين يخرج هذا الفشفوش[١٦] من المشفى، ومع مرور الأشهر سيعود لها مرّة أخرى.

– إذن بعد أشهر...

قاطعني «أسد الله»:

– وهل تظن أنه بعد أشهر سوف يسلّمونك «ليلى»؟ لو أنّ «بوري» حُرِمَ من (السّان فرانسيسكو) فأنت بالوراثة معدوم منه...

– على كلٍّ، أرجوك قل لـ «ليلى» إنّني أُجبِرْتُ على تركها وحدها، قل لها، لو تستطيع بعد أن ينام خالي العزيز السّاعة الثّانية ظهرا، أن تتصل بي، وأنت يا عمّي إذا ما طرأ طارئٌ اتصل بي، هل تعدني؟

١٦– في الأصل (فش فش) للدلالة على أن الرجل مخنث أو جبان.

- وعد شرف.

أعطاني «أسد الله» رقم هاتف عمله، وطلب أن لا أطيل الحديث عبر الهاتف.

بعد ساعة، ودّعته، وهنا بدأ أوّل بعاد لي عن «ليلى».

طالت فترة إقامتي في منزل «رحيم خان» مدّة أسبوعين، وقد كنتُ صديقا لابنه.

في هذه الفترة كنت أتصل مع «أسد الله» وأستفسر عن الأوضاع، أخبرني أنّ عمليّة أُجريت لـ «بوري»، وقد استُؤْصِلت إحدى خصيتيه، واستبدّ بالجميع القلق على الأخرى، وبعد حوالي عشرة أيّامٍ من إقامتي في منزل «رحيم خان» أخبرني «أسد الله» أنّ الرّصاصتين اللّتين كان خالي العقيد عازما على إطلاقهما على رأسي، لن تطلقا.

فسألته:

- كيف حدث ذلك؟

- على ما يبدو أن العمود الثّاني (للسّان فرانسيسكو) اجتاز الأزمة، والآن يمكننا بشرط بقاء العمود الثّاني سالما أن يعفو عنك.

- وهل يمكنه الزّواج؟

- الآن، لا، ممكن بعد أشهر، وعلى حد تعبير المعلّم الهنديّ (فقد هبطت طبيعته)، ثمّ نصحني أن لا أبرح مكاني في الوقت الحالي، وطمأنني أنّ «ليلى» في أفضل حال.

بعد مرور خمسة عشر يوماً على ضربة «بوري»، وكانت ليلة الجمعة، وبمناسبة دعوة أبي لـ «قمر» وزوجها الدّركي «غياث آبادي»، تمّ العفو عني، وجاءني «أسد الله ميرزا» لأخذي.

– أعتقد أن اللّيلة سيزدحم المجلس، لأنّ «دوست علي خان» و«عزيزة السّلطنة» قد فهما أنّ عضو الدّركي «غياث آبادي» الذي فُقِدَ في الحرب كان كذبة، وفهمت مما يدور بين النّساء أنَّ لديه ما لديه ويمكن الاعتماد عليه.

– إذاً، لماذا قال إن...

– يبدو قد فكّر بأنّه إذا لم يقل ذلك فسوف يَبْخَسون حقّه...

– كم هو دجال.

– ليس ذكيّاً إلى هذه الدرجة، هو أبله أيضاً، ولكني أرى يداً للسّلطان.

– ماذا تقصد؟

– أقصد أباك... فسير الأمور يشير إلى تدخُّل أبيك.

– وما الذي تقوله «قمر»؟

– يبدو أنها سعيدة جداً، أرادت الطّفل، وهو لديها وليس لديها أمل في الحياة لتعيش من أجله، خلاصة الأمر، سوف نضحك اللّيلة، طبعاً، إذا لم تشتعل حرب.

- عمّي «أسد الله» ما هو رأي خالي العزيز؟

- إلى الآن لم يفضح «بوري» أمر الرّسَائل، وإذا ما أخبر خالك فهو مشغولٌ بأمر الإنجليز.

- عدنا للإنجليز.

- نعم، لقد غاب الإسكافيُّ كلياً، ويقول خالك: إنَّ الإنجليز قتلوه، ثمّ وضع المسدّس في حزامه.

وأمّا «مش قاسم» فالبندقيّة على كتفه، وهو ينام على السّطح ليلاً وأبوك يضعُ الحطب على النّار.

- وما رأي أبي؟

- يختلق حكايا عن سرقة الإنجليز لأعدائهم، ويغرسها في ذهن العجوز المسكين، من حسن الحظِّ أنَّ المعلّم الهنديَّ سافر.

- عمّي، عليك إفهام خالي العزيز أن الإنجليز لا شأن لهم معه.

- ون منت، وهل يقبل؟ لو أشار أحد أمامه إلى أن الإنجليز لا يهتمّون بأمره، سيشن حربا عليه، المسكين «شمس علي»، قبل أيام أراد الحديث معه حول الأمر، لكنّه هجم عليه، و«مش قاسم» يختلق دائماً القصص عن اغتيالات الإنجليز لأعدائهم.

- إذن الأمور متدهورة؟

- كثيراً... ولكنّ الأسوأ فيها، هو قضيّة الدّركي «غياث آبادي»،

فعلاوة على عدم مشاركته في الحرب، فإنّه لم يفقد شيئاً، بل على الظّاهر لديه ما لديه، وقام بسلب قتلى الحرب ما يحملونه بين أفخاذهم، وهو الآن مشغول إلى آخر درجة في توزيع كراماته.

– وما الذي يفعله الآن «دوست علي خان»؟

– سوف يتوقف قلبه، لأن الدّركيّ سرق قلب «قمر»، ويخاف «دوست علي» فَقْدَ ما تملكه «قمر»، ومن جانب آخر، أخت الدّركي التّي جهز من أجلها «دوست علي» أفخاخه، أحضرت معها صديقاً اسمه «أصغر ديزلي»، وهو نسخةٌ مطابقةٌ لـ «شير علي القصّاب».

– وهل أحضرت صديقها إلى بيت «دوست علي خان»؟

– لا، ولكنّه بين يوم وآخر، يسكر ويأتيها، وإذا لم يفتحوا له الباب يخلعه.

– عمّي، وكأنك سعيد بما يحدث؟

– في حياتي كلّها، لم أكن سعيدا كما أنا الآن، دع وجوههم تتعفّر بالتّراب، عائلة الأكابر أبناء نمور السّلطنة وفهودِ الدّولة الذين يقولون لمؤخراتهم: «لا ترافقننا، لأن الرّائحة المنبعثة منكنَّ كريهة»، الآن عليهم التّعايش مع «أصغر ديزلي» والدّركي «غياث آبادي».

– هل لدينا ضيوف كثيرون الليلة في منزلنا؟

– نعم لقد قام أبوك بدعوة الكثيرين، بل أعتقد أن المخرج الأساس هو أبوك، لأني سمعته البارحة يقول للدّركي، إذا ما أرادت أختك دعوة

أحد معارفها فلها ذلك، وبالإمكان معرفة المقصود من هذه الدّعوة فليس هناك غير «الدّيزلي».

خلاصة الأمر، أنّ أباك لن ينسى بهذه السّرعة سباب «بوري».

– ألا يمكننا فعل شيء لكي لا يأتي «أصغر ديزلي»؟

– ون منت، ون منت، بل أنا أفكّر في حثّ أخت الدّركي على دعوته، فـ «دوست علي» مدين لي بأكثر من هذا، وسوف أذيقه أشدّ العذاب حتى قيام السّاعة.

حين وصلنا إلى البيت وقبل أن نفترق قال «أسد الله»:

– إن شاء الله سوف أراك مساءً، علي الآن الذّهابَ إلى الدّركي، وأخته...فمن غير «أصغر» لن يكتمل حفلنا.

أخذتني أمي، إلى خالي العقيد، قبّلت يده وطلبتُ العفو منه، فأمرني بالذّهاب إلى خالي العزيز «نابليون».

وبينما كاد قلبي يخرج من صدري وصلنا إلى منزل خالي العزيز، ورأيت «ليلى» في السّاحة بعد أيّام فراق مرّت ثقيلة.

حلاوة اللّقاء أخرستني، فانطلق لساني بكلمة سلام فقط، تجمّدت «ليلى» وهي تنظر إليَّ، ثم ركضت إلى غرفتها بعينين دامعتين، لم أجرؤ على اللّحاق بها.

أجلسني خالي العزيز إلى جانبه وأخذ بنصحي، وتركّزت نصائحه على أنّهم عاشوا أكثر منّا، وعلينا نحن الشّباب الحفاظ على العلاقة

العائلية المقدسة، ثم قال: إنَّ «بوري» تعافى بحمد الله، وسيخرج من المشفى بعد أيام، وأمرني بالذّهاب إليه، والاعتذار منه قبل مجيئه إلى البيت.

قال «دوست علي خان» غاضباً:

– إذاً، أنا أيضاً سأدعو كل من أراه إلى بيتك، هل ترضى؟

أجابه أبي و لم يبرح هدوءه:

– أهلاً بهم... ليسوا أقل من البقيّة، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[١٧]...

– جيّدٌ جداً... ممتاز، إذاً، سوف أحضر أحد أكرمكم عند الله أتقاكم إلى حضرتك، فالمكان الذي يحضر فيه «أصغر ديزلي» لِمَ لا أدعو الآخرين إليه؟

عدت إلى «أسد الله ميرزا» وقلت له ما حدث، ثمّ سألته:

– ما الذي يرمي إليه «دوست علي خان» من دعوته لأشخاص آخرين؟ من يريد أن يدعو؟

هزّ «أسد الله» رأسه، وهو يلتهم العنب الياقوتي، قائلاً:

– لا أعلم، هذا الرّجل يفعل ما لا تتوقعه، علينا انتظار كيفية انتقامه.

– أي انتقام؟

١٧– ثمّة تعمّد من المؤلّف في تحويل الآية إلى حديث، للدلالة على اللعب بالكلام.

- ون منت، ألم تفهم ما هو السّبب الأساس من هذه الدعوة؟

- وهل هناك سبب خاص؟

- وهل أنت ساذج إلى هذه الدرجة لكي تظنّ أنّ أباك أقام كل هذا من أجل عيني الدّركي «غياث آبادي»؟

فكّر بالأمر، لم يقم أحد من الأقارب بإقامة عزومة، أو دعوة حتّى الخال العزيز كبير العائلة، في حين يقوم أبوك بكل هذا؟

- والله جرت أمورٌ كثيرة لخبطت كل شيء في ذهني، قل لي، ماذا يحدث الآن؟

- لماذا أبوك على عداوة مع خالك العزيز؟

لأنه يُحَقِّرُهُ دائماً، ويقول إنّه ليس من عِلْيَةِ القوم.

دبَّـتْ حركة غريبة في بيتنا، فقد أُحيطت ساحته بالكراسي والطّاولات.

ورغم أن الظّلام لم يحلِ بعد، إلّا أنّ الأضواء الملوّنة أضيئت في قسم كبير من البستان، جاء المعلّم «أحمد خان» مع ضارب الطبل الأعمى قبل الضّيوف، وانشغلا بشرب الخمرة والمزّة، فجأةً... وقعت عيني على «أسد الله ميرزا»، وهو يرتدي بدلة من لونين، وقد شدّ ربطة عنق حمراء، كانت عيناه تلمعان، فركضت نحوه وما إن رآني حتّى قال لي:

– ون منت، ون منت، ون منت، سيموا... افرح هذه اللّيلة فلقد اكتملت فرحتنا، فأخت الدّركي لم تأت فقط بـ «أصغر ديزلي» بل بأخيه أيضاً «أكبر» ذو الرأس، أتمنى لو كانت لديَّ كاميرا لألتقط صورة لـ «دوست علي».

بعد دقائق دخل «دوست علي خان» بوجه مُكفَهِرٌ.

سأل عن أبي وقصده، انشغل «أسد الله» بإلتهام العنب الياقوتي، ثمّ همس:

– أعتقد أنَّ ثمة خبر... ما الذّي تتوقع حدوثه؟

وجد «دوست علي خان» أبي في الممرّ، فقال له بصوت راجف:

– أي دعوة هذه؟ سمعت أن هذه المرأة عديمة الشّرف قد دعت ذلك الغول أيضاً.

أجابه أبي بكل هدوء:

– قل لي ماذا أفعل أنا؟

– عليك ألا تدعو هؤلاء الأراذل والأوباش إلى بيتك.

– كن مكاني، ليس بإمكاني منع نسائبك من القدوم، هل يأتي صديق أخت نسيبكم وأمنعه من الدّخول؟

لا، عليك إعادة النظر.

– برافو، والآن لكي يوصل أبوك إلى الجميع، وخاصة إلى خالك، فكرة تقرّبهم من الدّركي «رجب علي غياث آبادي»، ابن طباخ الباجه وأخا الرّاقصة، أراد القيام بهذا الأمر في عرس «قمر»، ولكنّه لم يستطع.

والآن...

– ولكن العائلة كلها تعلم أن «قمر» باتت زوجة للدّركي «غياث آبادي».

– ولكن، اللّيلة إضافة إلى الأقارب، فقد دعا أناساً معروفين، مثل «السّيّد سالار».

– «السّيّد سالار»؟

– نعم هذا الرّجل أحد كبار التّجار في المدينة، إنسان له سلطة وهو معروف، وأبوك بدعوته له يضرب عصفورين بحجر، أولا يُلوِّثُ سمعة الخال العزيز و«دوست علي خان» والعائلة، ثانيا يُسْقِطُ الخال في رعبٍ، لأنّ «سالار» يدعم الإنجليز.

– إذاً، خطر قيام حرب بين أبي وخالي العزيز قائمة.

– نعم والأمر الوحيد الذي يخيفني هو هذا، وأنا أحترق من أجلك أنت فقط، وإلّا لأشعلتُ نار الحرب ليحترقوا، حسناً تعال الآن، مادام هناك فسحة، ما الذي تريد فعله؟

– ماذا تقصد؟ لا أفهم ما ترمي إليه؟

– أقصد أولاً خالَك العزيز، لن يعطيك «ليلى» لأنّه لا يحبُّ أباك، ثانياً، حتى لو أراد إعطاءك إيّاها، عليك أن تصبر سبعة أعوام حتى تتمكن من الزّواج، ثالثاً، ما الذي ستفعله مع ذلك الفتى الملقى في المشفى؟

خلاصة الأمر، أنّ هناك الكثير أمامك وليس فيك قدرة (السّان فرانسيسكو)، فأنا حين أنظر إلى الأمر، أرى أن الدّركي «غياث آبادي» مرّة أخرى...

– عمّي «أسد الله»...

– سمٌ... انظر ما فعله الدّركي «غياث آبادي»...

كان من المقرّر أن يقبض مبلغاً من المال ليتزوج «قمر» ثم يطلّقها، والآن جلس بثباتٍ إلى حدٍّ أنّ «دوست علي» أراد طرده فلم يستطع.

حتّى إنّه سرق قلب «قمر»، وهي على إستعداد للتّخلي عن أمّها من أجله...

- انظر عمّي، لقد جاء الدّركي «غياث آبادي» مع «قمر»...

دخل الدّركي «غياث آبادي» ممسكاً ذراع «قمر»، تتبعهما «عزيزة السّلطنة»، كان في أجمل حُلّةٍ، إلى درجة أنّه لا يمكن مقارنة وضعه الحالي مع ما كان عليه في السّابق، «قمر» التصقتْ به كعاشقة ولهانة.

- عمّي، أين هي قبعته؟

- قضية القبّعة انتهت... لقد طرح الموضوع على «قمر» وكأنّها تعشق الصّلَع، وفي كلّ عصريّة تُشْعِلُ الفحم له ليدخّن ترياقه... وكأنَّ (السّان فرانسيسكو) أعاد إليها عقلها، علينا تقبل فكرة أنّ (السان فرانسيسكو) أفضل علاج نفسي.

تقدم «أسد الله ميرزا» خطوات لاستقبالهم:

- أهلا بالسّيّد الدّركي، كيف حالك؟

أجابه الدّركي بكل تواضع:

- شكراً لك... بفضل بركاتك... اليوم قلت لـ «قمر» أنّني لم أر حضرتك، وعليّ دعوتَك عندنا.

- لماذا لم تحضر معك والدتك؟

- سوف تحضر ولكنّها تنتظر أختي.

- ياه، أيّ سيّدةٍ جميلةٍ أصبحتِ... كم أنتِ رائعة!

ابتسمت «قمر» وقالت خجلة:

- عمي «أسد الله»، انظر إلى قميصي كم هو جميل! لقد خاطته لي أمي.

- ما شاء الله! السّيّدة «عزيزة السّلطنة»، كلّ إصبع منها تقطر فنّاً.

- لا لم تخطه لي «عزيزة» بل أمّي «أم رجب»...

اكفهرّ وجه «عزيزة السّلطنة»، بيد أن كلمات «أسد الله ميرزا» عنها وعن حسنها، وقَدْرِها أعاد البسمة إليها.

احتشد الضّيوف في هذه اللّحظات، وتقدّم خادم خالي العقيد، بصينيّةٍ ممتلئةٍ بالعصير، نظر «أسد الله» إلى الكؤوس، وقال:

- مرسي، أنا لا أشرب العصير، قل لـ«مش قاسم» أن يأتي لنا بالعصير الخاص.

قال خادم خالي العقيد هامساً:

- «مش قاسم»؟... ألم تعلم؟... لقد طلبوه في مخفر الشّرطة قبل ساعة.

- ماذا؟ المخفر؟ ما الذي فعله؟

نظر الخادم حوله وقال:

– لم تسمعوا مني، لأن السّيّد أمرنا بعدم... ولكن في الغروب رمى طابوقة من فوق السّطح على رأس إنجليزيٍّ...

– لا تمزح معي؟ طابوقة على رأس إنجليزيٍّ...

– لقد قلت الحقيقة... لقد سبح الرّجل بدمه... وقد ذهب السّيّد الآن إلى مخفر الشرطة...

قفز «أسد الله»، وقال لي:

– تعال لنرى ما حدث... أخاف أنها ألاعيب أبيك مرّة أخرى.

لفت انتباهنا في الغرفة، شابٌّ مدّمى الوجه، وقد شدّ رأسه جالساً على مقعد. تيبّس الدّم أيضاً على شعر رأسه.

وقف «مش قاسم» ينظر أرضاً إلى جانب الباب، جلس أمامه خالي العزيز والضّابط، ثمّ وقف إلى جانب «مش قاسم» جنديٌّ في حالة تأهُّب.

قال خالي العزيز بصوت مبحوح:

– أنا بنفسي سوف أعاقبه، رغم أنّي متأكِّد من أنّه لم يقم بذلك عمداً...

قال الرّجل المجروح، ذو العينين اللّوزيّتين بلهجته الغيلانيّة:

– كيف لم يقم بذلك عمدا؟ هل تقول إنّ الطّابوقة أفلتت من يده وسقطت على رأسي؟... وذلك السّباب المخزيُّ لشرفي، هل أفلت أيضاً كما أفلتت الطّابوقة؟

قال الضّابط:

- أنتَ الآن قد قبضتَ مالك، وسحبتَ الشّكوى، إذا ما أراد السَّيِّد أن يؤدّب خادمه، فالأمر لا يرتبط بك، قم واذهب.

- أنا خادمك.

قام الرجل المجروح، حاملاً سلّة سمكٍ وخرج.

عدنا إلى البيت برفقة «مش قاسم»، ولكن، ما إن خرجنا من مخفر الشّرطة، حتّى أخذ خالي العزيز يكيل الشّتائم لـ «مش قاسم» الذّي قال وهو مطرق الرأس:

- قل ما تشاء... ولكني مازلت عند كلمتي، إذا لم يكن عديم الشّرف هذا إنجليزيّاً فهو من أتباعهم، منذ ثلاثين عاماً أعيش في هذه المحلّة، كيف لم ألمح هذا الرّجل إلى الآن؟ إضافة إلى ذلك، بعد ثلاثين عاماً من الحرب مع الإنجليز مستحيل ألّا أعرفهم؟

فردَّ عليه خالي العزيز غاضبا:

- «مش قاسم»، اخرس وإلّا سأخنقك بيدي.

- ها أنا أخرس، ولكنَّ هذا الإسكافيَّ مهدورُ الدّم، سوف يقبض على رقبتك يوم القيامة... مطالبا بدمه الذي أهدره الإنجليز.

عدنا إلى الحفل، جاء أكثر الضيوف، والآلـة الموسيقية التّار لـ «أحمد خان»، المعلّم غطّى الأجواء، كان الجميع يقدم احتراماته للسّيّد «سالار» بصورة مثيرة، ممّا جعل المكان الذّي جلس فيه مركزَ

الصّدارة، حتّى خالي العزيز «نابليون»، رغم كرهه للإنجليز، جلس إلى جانبه بكلّ وقار.

كان أبي يراقب الباب، فهمست في أذن «أسد الله ميرزا» مستفسراً:

- عمّي هل ترى قلق أبي؟ أعتقد أنه ينتظر ضيوفاً أهمّ.

احتسى «أسد الله» جرعة خمر، قبل أن يجيب ضاحكاً:

- ينتظر قدوم اللّورد «أصغر ديزلي» واللّيدي «أختر خانم».

لم أجرؤ في هذه الأثناء على التّقرّب من «ليلى»، خوفا من خاليّ، خاصّة أنّ خالي العقيد، يُمطِرُني بنظراتٍ حارقة، ولكن على أيِّ حالٍ، كلما تحدّثتُ مع أحد ألقي عليها نظرة، المسكينة بعد ما حدث مع «بوري» لا تجرؤ على الاقتراب منّي، وكأنّنا نشعر بالذّنب سويّاً.

بعد أن فقد أبي الأمل، دخلت «أختر» أخت الدّركي «غياث آبادي»، مرتدية قميصا أحمرَ، يتقدمها ثديان ناهدان، يرافقها «أصغر ديزلي» وأمُّها، لفت منظر «أصغر ديزلي» الجميع، بنيةٌ قويّة، وطول فارع، آثار جروح السّكاكين، والخناجر على رأسه تلمعُ بعد أن قصّ شعره، ربطة عنقٍ خضراء، بالإمكان التّكهُّن أنّها لـ «دوست علي خان» وهو لا يتحمّل إلتفافها على رقبته، إلقاء تحيّته فضح إلى أيّ طبقةٍ ينتمي.

مع دخولها انشرحت أسارير أبـي، واكفهرّ وجه خالي العزيز «نابليون»، وخالي العقيد.

ما إن انتهى مقطع التار حتّى بدأ أبي بضيافة المدعوّين:

- السّيد «أصغر خان» ماذا تودُّ؟ شاي، عصير، شراب؟ هذا بيتك، ولا مجال للمجاملة.

قال «أصغر»، وقد كان إحساس عدم الانتماء واضحاً:

- شكراً جزيلاً لك.

قال «أسد الله ميرزا»:

- لا تجامل... لدينا بيرة أيضاً.

- أشكر لطفك... ولكن لو...

قالت «أختر» وهي تطلق ضحكة هستيريّة:

- السَّيِّد المحترم «أصغر» خجول بعض الشيء، كل ما تأتونه به يناسبه.

- ون منت، ون منت، ليس للمجاملات مكان بيننا، أحلّفك بأختر لا تجامل أرجوك.

قال «أصغر ديزلي»، وهو مطرق الرأس:

- مادمتَ تصرُّ، لو كان لديكم شراب الزّبيب، ولكن لا عيب إذا لم يكن لديكم مشكلةٌ في أن أحتسي البيرة...

رد «أسد الله ميرزا» عليه واقفاً:

- كيف تقول ذلك؟

يا «مش قاسم» أحضر قنّينة شراب الزّبيب.

أحضر «مش قاسم» قنّينة الخمر، مع كأسَين ووجهه مكفهرٌّ، وضعها إلى جانب صحن الفاكهة على الطاولة.

- بصحتك.

- بصحتك.

شرب «أصغر» كأسه دفعةً واحدة، ثمّ بعد ذلك، قدّم «أسد الله ميرزا» كأساً لأمّ الدركيّ، سائلا إيّاها:

- سيدتي، هل تودّين أن تبلّلي شفتيك به؟

قالت المرأة ذات اللّحية، والتّي تساقطت أسنانها السّوداء ضاحكةً:

- أطال الله عمرك يا أمير... ولكنّي لا أشرب الخمرة.

- وما المانع من ذلك في هذه اللّيلة؟

ما شاء الله! ابنٌ بهذا الجمال اعطيتِه لامرأةٍ...

ثم رفع الكأس لها مصرّاً.

سمعت صوت «مش قاسم»، وهو يقول:

- رحماك يا الله... قالوا الحقيقة، إنّ قاتل الإمام امرأةٌ ملتحيةٌ...

طوال هذه الفترة كان خالي العزيز «نابليون»، كبركانٍ أوشك على

الانفجار، إذ إنّ جميع من جلس إلى جانب السّيد «سالار» أنصتوا يستمعون لما يدور أمامهم من حوار.

الوحيد الذّي جلس فرحاً هو «سالار» ناظرا لصدر أخت الدّركيّ، من غير أن يزيح نظره عنه، قدم «أسد الله ميرزا» كأساً لها، وقد اغتنم أبي الفرصة، وقال مُصِرّاً على كلماته:

- حضرة السّيّد «سالار»، في الحقيقة، نحن سعداءٌ بحضورك...

عريسُنا السَّيِّد «غياث آبادي»، صاحب منصبٍ رفيع في الشُّرطة.

عرف خالي العزيز ما يرمي إليه أبي، فجلس صامتاً، قال السّيّد «سالار» الذّي جلس يحتسي الكونياك:

- برافو... أنا أيضاً سعيد... مبروك.

ثم التفت إلى الدّركي، وقال:

- في أيِّ قسمٍ تعمل، يا سيد «غياث آبادي»؟

- في القسم الجنائي.

- مع من تعمل؟ من هو رئيسك...؟

- في الحقيقة رئيسي السَّيِّد «تيمور خان»، والذي أتوقّع حضوره اللّيلة، لا أعلم لماذا تأخر؟

- أيُّ «تيمور خان»؟ هو نفسه الذّي كان رئيساً لمخفر (خراسان)؟

- لا يا سيدي لم يكن في يوم رئيساً...

مع دخول الطّبيب «ناصر الحكماء»، استغلّ خالي العزيز «نابليون» الفرصة، وقطع الحديث:

- أهلاً بالطّبيب... تفضل، تفضّل هنا، لماذا تأخّرت؟... سيّد «سالار» هل تعرف الطّبيب «ناصر الحكماء»؟

في وقت طال تبادل التحيّات بين السّيِّد «سالار» والطّبيب، كان «أسد الله ميرزا» يبحث عن «دوست علي خان» متسائلاً:

- لا أعرف أين ذهب هذا الحمار؟... انظر، ابن حلال،... «دوست علي خان» تفضل... أين كنت؟

كان وجه «دوست علي خان» مكفهرّاً وحزيناً، إذ بدا ممكناً تَوَقُّعُ فشلِ خطته، فقال وهو يحاول الظهور سعيداً:

- ذهبت باحثاً عن مغنّين.

ثم أكمل وهو يؤكد على كلماته:

- بين المغنّين، هناك «عباس خان» و«عبد الله الأسود» والأخير حين يُسَلْطِنُ، يميتنا من الضّحك.

عرفت ما يرمي إليه، فـ «عبد الله الأسود» حفيد أخت أبي، وكان منذ صغره كسولاً، ولا يخجلُ من فعل بعض الأمورِ القبيحة، وقد

أصبح الآن مدمناً على الشيرة[١٨]، فهرب من البيت، وقبل عام من هذا الحدث، ظهر فجأةً في عرسٍ كمغنٍ، وأصبح أحد المغنِّين المحليِّين المعروفيين.

قلبَ «دوست علي خان» المدينة رأساً على عقب، بحثاً عن «عبد الله الأسود» ليدعوه إلى الحفل، ولكنَّ محاولاته ذهبت أدراج الرياح، ورغم ذلك أراد لسع أبي.

احتسى كأس خمر وأكمل:

– نعم في الحقيقة هو إنسان جـذاب... طبعاً هو مدمنٌ، وغير منضبطٍ، ولكنّه جذاب... مع الأسف لم أجده.

قاطعه السَّيِّد «سالار» قائلاً:

– ليتك وجدته، أنا أحبُّ هذا الكاكا[١٩] الأسمر... لو تعرف أين بإمكاننا أن نجده؟ سوف أرسل سيّارتي مع السّائق.

شرب «أصغر ديزلي» كأسه دفعةً واحدة، وقال وهو يطلق ضحكة عالية:

– قسماً بحياة السَّيِّد «سالار»، أنا أيضاً أحب هذا الكاكا الأسمر، لو تعرف أين هو سوف أذهب إليه بنفسي...

حكّ «دوست علي خان» أذنه، وقال وهو يوجه نظراته إلى أبي:

١٨– الشيرة خلاصة التِّرياق وسرعان ما يدمن عليها الشخص.

١٩– كاكا بمعنى «أخ» باللهجة الشيرازية.

- أنت لا تعرف أين نجده؟... لأنّه... وكأنّه قريب لك، أظنّه حفيد أختك...

صرّ أبي على أسنانه، حتّى سمع صوت صريرها، فتح فمه ليلقي كلمة لكنّه تراجع.

تدخّل «أسد الله»:

- الآن ما دام الغرامافون موجودٌ، لَم لا نضع إسطوانة؟ وإن كان «أحمد خان» موجوداً...

يا سيد «أحمد خان» لماذا جلست صامتاً؟ اعزف لنا يا أخي.

ونهض لينهي هذه الحرب الباردة وهو يغني:

- ما هي اللّيلة؟ ليلة زفاف... العروس مع العريس تحت اللّحاف...

أخذ «أحمد خان» يعزف التّار، وهو يرافقه الغناء، فهبَّ الجميع يغنون، ما جعل الحفل يأخذ منحىً آخر، وهذه أفضل فرصة لأبي كي يبرد غضبه.

حين جلس «أسد الله ميرزا» يرشح عرقاً، وخمدت الأصوات، جدّد أبي قواه ورسم استراتيجيّةً جديدةً ليهاجم.

وبينما كان «أصغر ديزلي» يخلي كأسه قال لأم الدّركيّ:

- رحم الله المرحوم أبا الدّركيّ... روحه الآن في الجنة ترانا، كلُّ أب يتمنّى رؤية عرس ابنه.

قالت الأمّ التي احتست كأسين بإصرار من «أسد الله»، وقد لعبت الخمر برأسها، واحمرّ وجهها رغم لحيتها:

– رحمه الله... قبل يوم من وفاته كان يجلس في الدّكان أمام النّار، فاشتدّ الحر عليه، وشعر بألم، فعاد إلى البيت، وأحضرنا له طبيبا، قال لي وأنا واقفة إلى جانبه:

– يا «أم رجب» تعرفين ليس لديَّ إلّا أمنية واحدة، وهي زواج «رجب»، ولكن ما فعله هذا الفتى، انقلب ضدّه، مما جعله في هذه الحال و لم يتزوج...

تدخّل أبي خوفا من أن تطول الحكاية، أو أن يتدخل شخص آخر:

– أمام النار؟ رحم الله زوجك ماذا كان يعمل؟

– رحمه الله، عمل في آخر حياته بائعاً للباجه... في شبابه كان مغنّياً ثمّ...

أحسّت «أم رجب» بوقع جملتها والخطأ الذي ارتكبته، وأن جملتها لم تكن في المكان المناسب، فوضعت يدها على لحيتها، وقالت نادمة:

– اعذروني لأنه لم يكن خطئي، بل خطأ هذا الأمير الذّي أعطاني العرق... سامحوني... مرت مدّة طويلة لم ألمسه...

قال أبي الذي لا يريد إضاعة فرصة:

– لا مشكلة يا سيدتي، هل تريدين القول، لأنّ زوجك كان يبيع الباجه خجلت؟

هذا الكلام لا معنى له في زمننا، يقال إنَّ أعزَّ شخصٍ عند الله، هو المواظب، العمل ليس دليلاً، أليس كذلك يا سيادة «دوست علي خان»؟

كان أبي يوجه حديثه إلى «دوست علي خان»، بينما قصده كان خالي العزيز «نابليون»، الذي أخذ لونُه يتبدّل مع كل كلمةٍ، وتنقبض عضلات وجهه، حتى بات مرعباً.

نظر «دوست علي خان» إلى خالي العزيز، وهو يرتجف من شدّة الغضب، وقد احتقنت أوردة رقبته.

نظرة خالي العزيز «نابليون» دعته إلى الهدوء وعدم التّسرع، فأبي الّذي ضرب ضربته أخذ يقشّر خيارة، أراد «أسد الله ميرزا» تبديل الموضوع، ولكنّ «دوست علي خان» بدأ الهجوم:

– مادام أنك تحمل فكرة المساواة والأخوّة، فلماذا لم تمدُّ يد العون لأختك حين طلبت منك ذلك؟ هل تذكر تلك المرة حين جاءت أختك إلى باب منزلك لتساعدها، فأخرجتها بقوة البوليس؟

قال أبي وهو يحاول الحفاظ على برودة أعصابه:

– لم يكن الأمر من أجل ما فعلته، بل لأنّها سحقت بقدميها القيم الإنسانيّة... لأنها أدمنت... لأنها أدمنت على الشّيرة... وقد فضحتني بين النّاس...

لم يستطع «دوست علي خان» السّيطرة على نفسه فصرخ:

- كيف تقول أنّ مكانتك مهمّة، ولكن عائلة محترمة وعائلة أعيان من الطّراز الأوّل، مكانتها ليست مهمة...

أراد خالي العزيز أن يهدئه، ولكنّ من فرط غضبه لم يخرج صوته، فاستغلّ أبي الفرصة:

- هل تعني أنك تضع السَّيِّد «غياث آبادي»، الرّجل المحترم مع فتىً مدمنٍ على الشِّيرة في كفّة واحدة؟

صرخ «دوست علي خان»:

- أوليس هذا الرّجل مدمن على الترياق؟

لم يجد المدعوون فرصةً لفضِّ الخلاف، إثر صدمتهم مما جرى، فجأةً... سحبت أم الدّركيّ «غياث آبادي» سلّة الفاكهة، وصاحت صيحةً مرعبة:

- انتبه إلى ما تقوله... أنت وعائلتك لا نقبل بكم خدما لـ «رجب»... لو عدت إلى مثل هذا الكلام سأحطِّم أسنانك...

ألا تخجل، قم يا «رجب»، ليس هذا بمكاننا.

قال «دوست علي خان»:

- اخرسي يا عجوز السِّحر، اللّعنة على لحيتك وشاربك.

قفزت «أمّ رجبٍ» من مكانها ولطمته على وجهه بقوّة، فرفسها على بطنها، فانطلقت منها صرخة.

صاحت أخت الدركي لاعنة:

- قتل أمي، عديم الشّرف هذا.

وهجمت عليه، فبدأ الضّرب بينهما غريباً وعجيباً، في هذه الأثناء تحرّك «أصغر ديزلي»، الذي كان طوال هذه الفترة يحاول السّيطرة على أعصابه، وبحركة واحدة وصل إلى «دوست علي خان»، وحمله على ظهره وركض به إلى حوض الماء وسط فناء الدّار، ثمّ قذفه وسط الحوض، مما سبب في رشق الحضور بالماء.

ما حدث بعد ذلك لا يوصف، فبعد نصف ساعة خلا البيت من كل الضيوف، قُلبت الطّاولات والأواني، جلست أمي في زاوية تبكي، وأبي يمشي بحالة عصبية في الفناء، واضعا يديه على وسطه، يقف أحياناً أمام البستان، ويقول جملا غير مفهومة، ثمّ يعود متابعاً سيره.

قضيت أسوأ ليلة وأشدها حزناً في عمري، وفي صباح اليوم التالي رجوت أمي الذهاب بضعةَ أيّام إلى منزل أحد أقاربها، كنت بحاجة إلى الابتعاد عن هذا المكان.

بعد يومين حين عدتُ إلى البيت، رأيت أسلاكاً شائكةً بعلو مترين، تفصل بين بيتنا وبيت خالي العزيز «نابليون»، إلى حدٍّ أنّ القطط لم يعد باستطاعتها العبور منها بسهولة.

-٢٠-

- أهلا «مش قاسم» صباحك خير.

- وعليكم بني، ما الذي أيقظك في هذا الوقت المبكر؟

بني، ما دمتَ تستيقظ مبكّراً، فقم بأداء ركعتين، لأنّ هذه الدّنيا لا عاقبة لها، فكّر في تلك الدنيا.

- حاضر «مش قاسم»، لقد اتخذت قراراً حين أكبر، أي حين أنهي دراستي سوف أقوم بأداء الصّلاة...

- بنيّ، ليس في الصّلاة كبير أو صغير

... لدي صديق من مدينتي...

لو تركته يكمل قصّته، لن تواتني فرصة أخرى، فقاطعته:

- «مش قاسم»، هل يمكنك إيصال هذه الورقة لـ «ليلى»؟

- هل عادت لك مرة أخرى حكايا العشق؟

هذا العمل ليس بعيداً عن المعاصي، تلهي بنت النّاس، وهي مخطوبة ثمّ تتركها..

- أردت أن أقول لك... ولكن في الحقيقة لا أعرف...

وقف «مش قاسم» مفكِّراً، أدركت مَن ملامح وجهه أن هناك أمراً ما، فسألته:

- هل هو مرتبط بي وبـ «ليلى»؟

- لا لا، لا يرتبط... أعتقد أنَّ...

- أرجوك «مش قاسم»، أرجوك قل لي.

- لا إله إلّا الله... الإنسان لو أن لسانه... يعني في الحقيقة لمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... لم يحدث شيء.

أخذت أرجوه، فعطف عليَّ، ولأنّه لم يستطع التّغلب على عادته في الثّرثرة، هزّ رأسه وقال:

- في الحقيقة، إن زواج «ليلى» على «بوري»، اقترب موعده.

- ماذا؟ زواج؟ كيف ذلك يا «مش قاسم»؟ أرجوك صارحني، بحق كل عزيز على قلبك قل لي كلّ ما تعرفه.

أرجع «مش قاسم» قبّعته قليلاً للخلف، حكّ جبهته، وقال:

- أظن أن المرض الذي أصاب «بوري» قد تعافى منه، أي فعل مفعوله دواء الطّبيب «ناصر الحكماء».

- «مش قاسم» أرجوك كن صريحاً معي، ماذا حدث؟

– والله بني لَم الكذب؟ حتى القبر ها أها... أظن أنّ القوّة الكهربائية التّي وضعها الطّبيب على قلبه ورئته أعطت مفعولها، والآن يريدون التّأكد منها...

– كيف يتأكدون؟ وهل يمكن...

– نعم بُني... وجدوا امرأة لـ ... ولكن ما أقوله لك عليك كتمانه.

– أقسم قسماً بحياة أبي... بالقرآن المجيد... بروح «ليلى»...

– هذا الفتى توقّف شَيئُهُ عن الرّجولة الظّن... يعني...خاصة الأمر شُفي...يريدون قذف امرأةٍ أمامه ليمتحنوه، وإذا لم يرسب في الامتحان سوف يزوجونه بـ «ليلى» في اليوم التالي.

رغم أنني لم أفهم الموضوع إلّا أنّي اختنقت، بقيت أحدِّق في «مش قاسم»، منتظرا منه توضيحاً، فقال:

– بني انتظرني سوف أذهب لشراء الحليب، وأعود لأكمل لك.

خرج «مش قاسم» من باب البستان، وبقيت مصعوقاً في مكاني.

كان صباح يوم الجمعة، ربيع العام ١٩٤٣، حين اطّلع «مش قاسم» على سرّي الدّفين.

مرّت ليال منذ الحفلة التي أقامها أبي احتفاءً بالدّركي «غياث آبادي»، وأنا مازلت أتحمّل الألم والعذاب.

بعد تلك اللّيلة المشؤومة التّي انتهت بالمشاجرة والضّرب، ووُضِعت

الأسلاك الشائكة فيما بعد، بيني وبين «ليلى»، أُوصدت كلُّ الأبواب في وجهي، وها هي أربع أشهر تمر.

إضافة إلى عزل خالي العزيز بيته عن بيتنا بالأسلاك الشّائكة، منع أيَّ فرد من عائلته أن يقترب منّا.

فمن جانب، كان مطمئناً أنّ الإنجليز لن يتركوا عائلته دون انتقام منهم بالتّعذيب والتّرهيب، وطلب من خالي العقيد إيجاد حارسٍ خاصٌ لمهمة الحفاظ على العائلة.

هذا الحارس من الأتـراك، ولا يعرف من اللّغة الفارسية إلّا بضع كلمات، رجلٌ قويُّ البنية وخشن، في الصباحات يرافق «ليلى» حتّى باب المدرسة، وظهراً يعود بها إلى البيت، وكذلك هو الحال عصرا، إذ لا يمكنني الاقتراب منها، وفي أحد الأيّام عزمت على الاقتراب منها، لأتبادل معها بضع كلمات، فأخرج الحارس حزامه الجلديَّ وإنهال عليّ، ولو لم أركض لقتلني بحزامه.

الهاتف أيضاً مراقب، وبعد مدة قضيتها محاولاً التّواصل معها أو رؤيتها، لم أجد طريقاً أمامي غير كشف سرّي لـ «مش قاسم» الذّي اطلع على بعضه، وطلب العون منه.

استمع «مش قاسم» بدقّةٍ لما أقوله، ثم أجابني وهو مطرق الرأس:

– بني كان الله في عونك، سيّدي في حفاظه على شرفه، لن تجد شخصا يشبهه في المدينة كلّها، لو علم أنَّ هناك من يحب ابنة الجيران، لمزَّق بطنه، فما بالك مع ابنته.

- «مش قاسم» بالتّأكيد أن خالي العزيز يعلم، إذ من المستحيل أنّ لا يكون «بوري» قد ذكر له الأمر أو خالي العقيد.

- يا طفلي، وهل جُنَّ «بوري» أو أبوه ليذكرا الأمر له؟

ذكر «مش قاسم» في ذلك اليوم قصصاً مرعبة عما أنزله خالي العزيز بالعاشق لفتياتٍ من نفس العائلة أو من خارجها، ولكن، لم تعد مثل هذه القصص تعنيني، وعشقي لـ « ليلى» أكبر من ذلك، فأنا أستطيع إقناع «مش قاسم» ليوصل رسائلي إلى «ليلى»، وقد اشترط ألّا يكون فيها مفردات عديمة الشّرف، وكلّما سلّمته رسالة يسألني:

- بني ليس فيها مفردات عديمة الشّرف؟

- أقسم لك أنّي لم أكتب كلمة قبيحة.

مرت فترة طويلة لم أتواصل مع «ليلى» عن طريق هذه الرسائل التي يحملها «مش قاسم» بين أسبوع وآخر، وأحياناً يمتنع، وقد رأيتها طوال هذه الفترة صدفة ثلاث مرّات، وأنا أتحمّل مشقّةً لا توصف.

من حسن الحظّ، أن الحرب بين أبي وخالي العزيز لم تطل أكثر من أربعة أشهر، وعلى إثر سعي العائلة نهاراً ومساء توصّلا إلى صلح، وبالإمكان معرفة السّبب الأساس في هذا الصلح.

فمنذ بداية هذه الحرب، ومخاوف خالي العزيز تكبر من الإنجليز، حتى وصلت إلى درجة أنّه حبس نفسه في غرفته، حتى حين ينام، لا يُبْعِدُ مسدّسه عنه، ينام «مش قاسم» كلَّ ليلةٍ أمام غرفة نومه، غطيت نوافذ غرفته جيّدا بالقضبان.

وتحت إصرار زوجة خالي العزيز، والتّي لم تعد الحياة معه تطاق لها، ولا لأبنائها تشكّلت عدّةُ جلساتٍ عائليّةٌ محدودةٌ، ضمّت خالي العقيد، «أسد الله ميرزا»، «شمس علي ميرزا»، وشخصان آخران من العائلة.

كنت على علم بما يدور في الجلسات عن طريق «أسد الله ميرزا»، فكلُّ فردٍ منهم كان يعقد جلسة خاصّة مع خالي العزيز الذّي وجد فكرة جديدة، وهي أن الإنجليز وبالتعاون مع أيادي هتلر يريدون الإطاحة به، أي أنّهم قد قدّموا لهتلر صفقةً بشرط تركهم لينتقموا من خالي العزيز، ولهذا سحب هتلر «هوشنك الإسكافيّ».

قام «أسد الله ميرزا» دون علم أحد بالاتصال بخالي العزيز عدة مرّات، منتحلاً شخصية هتلر، وبذكر العلامة المتّفقِ عليها، سعى ليطمئن خالي العزيز على أن سحب «الإسكافيّ» لا يشكل خطرا عليه، وقد أُرسِلَ إلى مهمّة خطيرة، بيد أن خالي العزيز لم يصدّقه، وأرسل رسائل حادّة إلى هتلر وغورينغ، حتّى إنّه وصف «هتلر» بالعميل وخادم الإنجليز، وقال له لا مكان للاطمئنان إلّا بعودة «الإسكافيّ» إلى مكانه.

وقد حاول «أسد الله ميرزا» إيجاد «الإسكافيّ»، وبعد تحقيقاتٍ واسعة، ظهر أنّه هرب خوفاً من «شير علي القصّاب»، في نفس ذلك اليوم الذي تصادم معه، إذ قام بمغازلة زوجة «شير علي»، وصادف الأخير أن كان في طريقه إلى البيت، فضربه بفخذ الخروف على رأسه، ثمّ ركض إلى البيت صارخا وأحضر ساطوراً، هذه الهجمة كانت كافية ليفرَّ «الإسكافي» من موت محتّم دون النظر خلفه.

حاول «أسد الله» إقناع «شير علي القصّاب» بالعفو عن

«الإسكافي»، وبعد بحث حثيث وجد «الإسكافي» في شارع (أميرية) الذّي يبعد عن شارعنا كثيراً.

عاد «الإسكافي» بعد غيابٍ دام ثلاثة أشهر، إلى مكانه السّابق أمام باب البستان، فهدأت هستيريا خالي العزيز «نابليون»، بيد أنه بعد مرور خمسة عشر يوماً عادت مرّة أخرى، فعلى أيٍّ حال لن ينسى الإنجليز ما فعله بهم.

اليوم بإمكاني تحليل وتفسير الأسباب الأساسيّة للمشاجرات التي قامت بين أبي وخالي العزيز، فقد كان جميع أفراد العائلة يسعون لكي يثبتوا لخالي العزيز أنّ الإنجليز لم يعودوا يهتمّون به، بيد أنّ ذهنَه لم يكن مستعداً لقبول ذلك، ومن بين الجميع لم يكن هناك شخص على استعداد لتقَبُّل هذا الواقع الخَطِرْ، وكان بحاجة إلى شخص يؤمن مثله، بأن الإنجليز لن يغفروا لأحدٍ، خاصة إذا كان الأمر يتعلّق بإبادة أفواجٍ من جنودهم، ولن يسكتوا إلّا بعد أخذ الثأر.

وهذا الشخص هو أبي.

في نهاية الأمر، ومع الوضع النّفسي له، خطا خالي العزيز لعقد صلح، بالطّبع... «أسد الله ميرزا» كان له دورٌ مهمٌّ في هذه المرحلة.

خلاصة الأمر، بعد أربع أشهر من التباعد والشّجار، أُزِيحَ قسمٌ من الأسلاك الشّائكة، وأصبح باستطاعتي رؤية «ليلى» مرّة أخرى، وبالطّبع، ليس كما في البسّابق لأنّ «بوري» كان يراقبنا.

هدّدني «بوري» بأنّه إذا رآني قرب «ليلى»، فسوف يسلّم الرّسائل

إلى خالي العزيز «نابليون»، ولكي يطمئنَّ، اتّفقتُ مع «ليلى» على التّظاهر بنهاية العلاقة، ولكن من حسن الحظّ أن «بوري» لم يتقدم للزواج، ولم أكن أنا السّبب، فيما بعد عرفت أن السّبب هو سماعه لطلق ناري قرب أذنه، أثناء هجوم قويٍّ للحلفاء، وكذلك العقدة التي أصابته من فقد إحدى خصيتيه، ما أسفر عن مداومته لزيارة الطّبيب «ناصر الحكماء» دون علمٍ من أحد.

عودة «مش قاسم» إلى البستان وهو يرفع بنطاله ليسقي الورود، قطعت خيط أفكاري:

– تذكر بني، لقد أقسمتَ بأنّك لم تسمع مني.

– «مش قاسم»، أنا على استعداد للقسم ألف مرّة، أعدك بشرفي لو قَطّعوني لن أُفشي السّر، لماذا لا تكمل؟ أكاد أموت ماذا حدث؟ وما هو موضوع الامتحان؟

– والله يا بني لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... تناهى إليّ...

سكت «مش قاسم»ونظر حوله ثمّ أكمل هامسا:

– البارحة، جاء العقيد إلى بيت السّيّد... دخلا الغرفة، وأغلقا الباب، وصادف أن وضعت أذني على ثقب الباب فسمعت ما يدور، كان السّيّد يتحدّث عن «بوري»...

– ماذا كانا يقولان؟

– والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها...تعلم جيّداً أنّ السّيّد «بوري»

منذ أن استؤصلت خصيته، لم يعد في حالة جيدة، أعتقد أنّ صاحبه ليس بحالة جيّدة، وقد قام الطّبيب «ناصر الحكماء» بإيصال الكهرباء له وإعطاءه الدواء...

– أعرف ذلك «مش قاسم».

– ومن أين تعرف؟

– لقد قال لي ابن الطّبيب... بين يوم وآخر يذهب «بوري» إلى الطبيب وهو يعالجه.

– وأنا كنت أظنّ أن لا أحد يعلم غيري والعقيد، خلاصة الأمر، حاول الطّبيب إقناع «بوري» بأنّه في أفضل حال، لكنّه لا يقبل، يعني يظنُّ أنَّه فقد صاحبه، وقال الطّبيب للعقيد لا حلَّ إلّا بتزويجه زواج صيغةٍ ليُمْتَحَنَ صاحبه، ولكنَّ «بوري» يصرُّ على الزّواج من «ليلى» أو لن يتزوج.

وأكمل:

– وقد وجد العقيد حلّاً... ضرب موعداً مع «أختر» أخت الـ «غياث آبادي»، وسوف يعطيها مبلغاً جيّداً ليمتحن «بوري» صاحبه فيها.

– ماذا؟ مع أخت الـ «غياث آبادي»؟ وهل يُعقل؟ وهل هذه الأمور...

– نعم بني، وهذه المرأة سليطة اللّسان حتّى إنّها لم تقل...

– وماذا قال خالي العزيز؟

– في البداية رفض، بيد أنه رضخ للواقع...

– وماذا عن الدّركي غياث آبادي؟ هَل يعلم؟

– والله لِمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... ابن مدينتي هذا منذ ولادة «قمر» أراد القدر أن يخرج الطّفل شبيهاً بأخت الدركي، ولا يعرف معنى الإنسانية ولا الشّرف.

ألم ترَ كيف طرد «دوست علي خان» وعزيزة السّلطنة من البيت؟... إضافة إلى ذلك، لو علم بأنَّ هناك مال لن يفتح فمه.

– ومن سيقوم بترتيب الأمور؟

– والله لِمَ الكذب؟ حتى القبر أأأأأ... حين وصلا إلى هذه القضية، لم أعد أسمع ما يدور بينهما، أعتقد اليوم أو غداً سوف يترك العقيد وزوجته البيت لـ «بوري»، يعني وجدا ذريعة لكي يخرجا دونه، إذ يجب أن لا يعلم بما يدور، حينها تذهب أختر إليه لتقوم بالواجب.

– هل تظنُّ يا «مش قاسم»... يعني تعتقد أن هذا الامتحان... يعني ينجح؟

– والله بني إذا كان الأمرُ يعود إلى هذه المرأة فباستطاعتها القيامُ بكلّ ما لا يخطر على البال، هذه المرأة عذراً، عذراً... أعتذر لو أراد المرحوم الكبير، فبإمكانها إسعاده في القبر...

أنا أيضاً لو أعطيتها المجال لجرّتني إلى معصية...

ودون إدراكٍ لما أقوله:

– ما رأيك لو نمنعها من الإختلاء بـ «بوري»؟

– حسناً لو فعلت ذلك، سوف يجد فكرةً أخرى، وعليك القيام بالأمر، وكأنّك لا تعلم، فلا أحد يعلم غير السَّيِّد والعقيد وتلك الفتاة الهوجاء.

لو حدث شيء سوف يطلق السَّيِّد على رأسي رصاصة، ولو شمَّ الإنجليز الخبر سوف يُسيئون إلى سمعة السَّيِّد، وهذه هي الحقيقة، وأنت رأيت الإنجليز.

– «مش قاسم» أنا لا أعرف ما الذّي أفعلُه الآن، فعلينا إيجادُ طريقةٍ ما، ولكنْ أرجوك، إذا علمت متى يحين موعد اللّقاء أخبرني.

– ثق بي سأخبرك... ولكن لا تقم بعمل يسيء إليّ، فأنا أكثر منك أريد إنهاء هذا الموضوع، شرف فتاة (غياث آباد) هو شرفي، ولو بحثت في طول البلاد وعرضها لن تجد مثل أبناء (غياث آباد) يعبدون شرفهم.

جعلني «مش قاسم» أقسم له مرّة أخرى، على ألّا أُفْشِيَ السِّر، وأكَّد خاصة على خطر تدخُّل الإنجليز.

عدتُ مسرعاً إلى غرفتي، وبقيت أفكِّر لفترة طويلة، إلّا أنّي لم أصل إلى حل، أي كل الحلول التي توصلّت إليها كان فيها نقص كبير.

خرجت قاصداً منزل «أسد الله ميرزا»، لكنّي لاحظت أنّ بيته كان مظلماً، وقد علمت أنه مسافر، حين وصلت أمام منزله، شعرتُ فجأة وكأنَّ الله فتح أمامي باب الجنّة، إذ سمعت صوت الغرامافون.

- أشكر الله لأنك هنا عمي «أسد الله»، متى عدت؟

- البارحة... ما الذي حدث؟ لماذا اصَفر وجهك؟ هل عاود خالك وأبوك الشّجار، أو أن الجنرال «فيول» شنّ هجمة على بيت خالك العزيز؟

- أسوأ من ذلك يا عمّي... أسوأ بكثير.

أسكت «أسد الله ميرزا» الغرامافون وقال:

- ون منت، ون منت، تريد أن أتكهّن بالأمر؟ ذهبت مع «ليلى» إلى (سان فرانسيسكو)، ووضعت فيها هدية.

- لا يا عمي... لا تمزح معي الآن، الموضوع أهمُّ من هذا.

- آه اخرس يا رجل، إذن لا (سان فرانسيسكو)؟ و(لوس أنجلس) ها هي في الخلف إذا كان الثّاني فلا بأس به.

- لا يا عمّي، ولكن عليك أن تُقْسِمَ على بقاء الأمر سرّاً بيننا.

- ون منت، الموضوع لا يتعلق بأي صورة بـ (سان فرانسيسكو)؟

أجبته وأنا أفقد السّيطرة على أعصابي:

- يرتبط، ولكنّه يرتبط بـ «بوري».

- أخـزاك الله هل... تراجعت ثمّ تراجعت، حتى أخذها منك «بوري» إلى (سان فرانسيسكو).

- لا لا لا... أنت لا تستمع لي، «بوري» مع فتاة أخرى...

- إذن ما دخلك أنت؟ هل تريد قطع كل دروازات مدن (سان فرانسيسكو)؟

كان «أسد الله ميرزا» في أحلى لحظاته، ولا يمكن الحديث معه في هذه الحالة فصرخت في وجهه:

- اسمعني ولو لحظة.

- حاضر، حاضر، أنا مصغٍ إليك... تكلّم.

وبعد أن جعلته يقسم بكلّ أرواح موتاه والأنبياء وأولياء الله لكي يبقي الموضوع بيننا، شرحت له، شرع في الضّحك حتى سقط من على السّرير، وبعد أن هدأ مسح دمعه وقال وهو يمسك ضحكاته:

- على هذا فقد أجاز الطّبيب (السّان فرانسيسكو) من أجل امتحانٍ علاجيٍّ، أيُّ طبيبٍ جيّدٍ هذا! لقد قلت سابقاً إنّ «ناصر الحكماء» نابغة، ليتني كنت أنا مريضه، ولو كنُت لجلبت الدواءَ من الصّيدليّة.

ورغم أني لم أكن في حالة تسمح لي بالضّحك، إلّا أنّني شاركته وقلت:

- هل لأنك تناولت الدواء سابقاً؟

- لا، والله شاهد علي أنّي لم ألمسها.

وأخذ يُقْسِمُ حتى تيقَّنْتُ أنَّه يكذب، فقلت له بعد لحظة صمت:

– والآن ما الذّي سنفعله؟ إذا ما نجح في الامتحان فبالتّأكيد سوف يخطُب في الأسبوع القادم، ثمّ يليه بعد أسبوع الزّواج.

عليَّ منعه بأيِّ شكلٍ كان، لكي لا ينجح في الامتحان.

– ون منت، من أين تعرف أنه سينجح؟ طالب بهذا الغباء...

– عمّي، سمعت أنّ «أختر» تقوم ب...

قاطعني:

– نعم ما سمعته صحيح... هي ممتحن جيِّد جدّاً، ولا يسقط عندها الطّالب...

تبّاً لي، لو تركتك تمتحن أوّلاً، فأنت ضعيف في مادّة الجغرافيا، لا تعرف أين تقع (سان فرانسيسكو) ولا (لوس أنجلس).

– عمّي «أسد الله»، أرجوك لا تمزح معي الآن، أنا أعتمد عليك لتخرجني من هذه المصيبة.

– الأمر سهل، هي رفسةٌ لا أكثر... ما الذي يقوله «مش قاسم»؟ برفسة أطرتَ خصيته، والآن الأخرى تطير... حينها يصبح السَّيِّد «بوري» خاجه... وسوف تطمئن...

– عمي «أسد الله».

– وسوف يأتي خاطب آخر، ثمّ ثالث، وعليك أنت أن تترك كل أعمالك وتتشبّث برفس الخُطّاب بين أرجلهم.

– عمّي، كنت أفكّر في صديق «أختر»، «أصغر ديزلي»...

- برافو على نبوغك، هل وصل بنا الحال أن ندخل مدمني الكحول في الأمر؟ بالإمكان بطريقة أسهل إنهاء الأمر، خذ بيد «ليلى» إلى العشب لترى جلسة الامتحان.

- لا أستطيع، لأنّني أقسمتُ ألا أكشِفَ شخصيّة من قال لي... فكيف آخذ «ليلى» إلى...

- ما شاء الله أيَّ وعدٍ قطعت !؟

- أنا لم أذكر لك من الذي أخبرني.

- وهل تظنُّ أنّي لم أعرف من هو الذي أخبرك؟ يُسْمَعُ صوته من بعيد.

- ومن تظن؟

باعد «أسد الله» أصابع يديه اليمنى عن بعضهما وقال:

- لِمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... ليست إلّا أربع أصابع.

- لا يا عمّي، صدِّقني ليس «مش قاسم».

- حسناً حسناً، لا تقسم... أعتقد إمّا أن تخبر «ليلى» وتشعل فتنة، أو تُطْلِع «أصغر ديزلي» على الأمر، ليشرب من دم الطّالب والممتحن، أو تلتصق بـ «بوري» و«أختر»، وما إن تحين السّاعة حتّى تصرخ بأعلى صوتك.

بقيتُ فترةً أتحدّث مع «أسد الله ميرزا»، وهو ما بين مازحٍ وجادٍّ، يقدِّم لي النّصائح، إلى أن توصّلت إلى هذه النتيجة:

حتى لو أبعدنا «أختر»، فسيجدون أخرى، قال «أسد الله ميرزا»، وهو يشعل سيجارة:

- أعتقد أنّ عليك تَرْكَ جلسة الامتحان تُعقَدُ، عندها تقيم أنت الدّنيا ولا تُقْعِدُها، حتى ينسى المُمْتَحَنُ مرّة أخرى ما تعلّمه، ويستمرّ في الدّوران حول نفسه لأشهر، وخلف الطّبيب «ناصر الحكماء»، والله كريم... ومن المُمْكِنِ أن يقوم الإنجليز بذلك... وينتقموا من خالك العزيز باختطاف «بوري».

فجأةً خطرت لي فكرةٌ صرختُ بها:

- عمّي، وجدتُها، إذا علمتُ الوقت المحدّد للامتحان فبإمكاني إطلاق النّار أو إشعال مفرقعة تخيف «بوري»، فأنت تعلم أن الطّبيب «ناصر الحكماء» قال لخالي العزيز، إنّ ما أصابه لستُ أنا سببه، فقط خوفه من الهجمة التّي شنّتْها قوات الحلفاء، كان لها تأثيرها، إذ سمع إطلاق النّار فخاف.

- ولكن، احذر من إصابته بالمفرقعات، لقد أربكتَ توازنه السُّفليَّ، فلا تربك توازنه العلويّ، فنحن بحاجةٍ إلى هذا النّابغة لمستقبل الشّعب والبلاد، خاصّة أنّه وُظِّفَ في الإدارة المالية...

- اطمئن، فأنا أعرف ما سأقوم به.

- ولكن أرجوك لا تخفِ عليَّ وقتَ وتاريخَ الامتحان، متى ما أخبرك جاسوسك.

- حاضر عمّي «أسد الله».

قال «أسد الله ميرزا» ضاحكاً:

– وأرجوك لا تؤذي المُمْتَحنَة، فأنا أريد أن أطلب منّها امتحانك امتحانا نهائيّاً، ولكي تعلِّمَك أنَّ (السّان فرانسيسكو) مكان طيّب الجوّ والماء، والأفضل منه (لوس أنجلس).

– مع السّلامة.

– مع السّلامة، يا مانع (السّان فرانسيسكو).

***

– هل تسمح لي؟ يا الله... السّلام عليكم.

كان باب الصّف مفتوحاً، فدخل «مش قاسم»، الأعينُ مدهوشةٌ تتنقَّل بين «مش قاسم» وأستاذ الفصل.

معلِّم الرّياضيات شخص عديم الأخلاق، وسريعُ الغضب... حتّى إنّه لا يسمح لناظر المدرسة بالدّخول أثناء حصّته، بعضلات وجهٍ منقبضة، نظر إلى الدّاخل من خلف نظّارات سميكةٍ... طلّاب الفصل انكمشوا في أماكنهم، وبإمكانك معرفة شعوري في تلك اللحظة.

نظر «مش قاسم» بكل برودة أعصابٍ إلى وجوه الطّلاب، ثمّ نظر إلى المعلِّم وقال:

– كيف حالك؟ قال الأقدمون: إنّ السّلام مستحبٌّ، ولكنَّ ردّه واجبٌ، يجلس في هذه الغرفة ما يقارب الخمسين شخصاً، وأدخل مسلِّما فلا يجيبني أحد.

أجابه المعلّم بصوتٍ مختنق:

– ومن تكون أنت؟

– أنا خادمكم «مش قاسم»... السلام عليكم.

– ومن سمح لك بدخول الفصل أثناء الحصّة؟

– والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... قلت لنفسي إنّه مسموح لي، وأنت لم تعارض فدخلت، وسلمت عليك ولكنّك إلى هذه اللّحظة لم تجب.

قال المعلم بصوتٍ يحاول كظم غيظه:

– وعليكم السّلام... من أنت وما الذي تفعله هنا؟

أشار «مش قاسم» إليّ، بينما كنت اجلس في صف الكراسي الثاني، وقال:

– أنا خادم خال هذا الفتى... وقد توعّكتْ حالة أبيه، وقد أرسلوني إليه لأخذه إلى البيت...

غمز لي «مش قاسم» وهو يقول هذه الجملة، وإن رآه قسم من الطّلاب، لكنَّ الغمزة غابت عن المعلم.

تلاشت ملامح الغضب للحظةٍ عن وجه المعلم، وأشار برأسه طالباً منّي الوقوف:

– هل أبوك مريضٌ؟

– أبي... يعني... لا يا سيّدي... يعني...

التفت إلى «مش قاسم»:

– إذن كيف مرض فجأة؟

– في الحقيقة يا سيدي أنا أيضاً لا أعلم... أي أنّه كان جالساً يُدَخِّن النّرجلية، فجأة اختنق، فدار حول نفسه، وأطلق صيحةً ثمَّ سقط على الأرض...

عاود «مش قاسم» غمزه لي بلا أي حيطةٍ، ومن حسن الحظِّ هذه المرّة أيضاً مرَّت على المعلِّم.

– حسناً، اذهب إلى البيت... وأنت يا سيِّد، مرّةً أخرى لا تدخل الفصل كما فعلت الآن.

جمعتُ كتبي بسرعة، ولكنّي حين أردت الخروج من الصّف نادى عليَّ المعلِّم:

– لحظة... في يوم الأربعاء الماضي، مرضتْ إحدى أمهات التّلاميذ، فخرج من الفصل ليراها، هل تريد الهرب من المدرسة لأنّك لم تحفظ الدرس؟... اذهب إلى السّبّورة.

أراد «مش قاسم» الاعتراض لكنّي أسكتُّه، أعطاني المعلم سؤالاً فكتبته على السّبّورة، بيد أن ذهني لا يمكنه حلُّ أي مسألة، وكنت متأكِّداً أنَّ «مش قاسم» جاء ليخبرني عن أمر طارئ يتعلّق بامتحان «بوري»، إذ رجوته أن يطلعني في أسرع فرصة تتاح له على أيِّ طارئ قد يحصل، حتى لو لزم الأمر حضوره إلى المدرسة.

من الطّبيعي أن أعجز عن حلّ المسألة، فصرخ بي المعلّم:

– هذا ما توقعته... يا أحمق اكتب...،

– آسف أستاذ... أنا... يعني ذهني مشغول... أبي.

– عجيب... تعال... تعال... تعال... أنا سوف أُصَفّي لك الذّهن.

اقتربت من المعلّم وأنا أرجف خوفاً، صفعني فشعرت برنين يُدوّي في أذني، ثمّ وضعت يدي على خدّي، وأطرقت رأسي بيد أنّ «مش قاسم» تقدّم منه وقال:

– لماذا صفعته يا سيّد؟ لو سقط أبوك، بعيد الشّر عنه، فهل ستتذكّر درسك؟

– الأمر لا يتعلّق بك، اخرج.

– ماذا؟ ماذا قلت؟ لا يتعلّق بي! عليَّ أن أعرف هل هذا فصلٌ مدرسيٌّ، أم دكّان «شير علي القصّاب»؟ لم يبقَ إلّا أن يُحْضِرَ أحدُهم ساطوراً مثلما يفعل «شير علي»...

أردت الصّراخ لإسكات «مش قاسم»، بيد أنّ صوتي لم يخرج، فصاح المعلّم وهو يرتجف:

– ليذهب أحدكم وينادي الحاج «إسماعيل» ليطرد هذا الرّجل.

قال «مش قاسم»:

– لا تخف أنا بنفسي سأخرج لن أبقى هنا... أشكر الله أنّي لم أدخل المدرسة، رحمه الله كان لديَّ صديق من مدينتي في (غياث آباد)...

- اخرج.

قبضتُ على يد «مش قاسم» وركضت خارج الفصل، وبعد لحظات ذهبنا بالدّراجة الهوائية إلى البيت.

- «مش قاسم» لقد حطّمت أبي... والآن سينتقم منّي المعلّم، ولكن قل لي ماذا حدث؟

- هؤلاء المعلمون أنفسهم، هم أساس هؤلاء الطّلاب عديمي التّربية، الذّين نراهم منذ شروق الشّمس وحتى غروبها في الأزقّة يتضاربون.

- قل لي ماذا حدث؟

- والله بني... بعد الغداء رأيت السّيّد العقيد أمام منزله يتحدّث مع «أختر خانم»...

وبعد ساعة، حين رأيت العقيد مع زوجته يخرجان من منزلهما، أحسستُ أنّ هناك أموراً تجري في الخفاء...

وقبل نصف ساعةٍ، رأيت هذا الفتى الشّبيه بخصلة شعر، فقلت لنفسي بالتّأكيد هناك ما يجري في الخفاء، فأتيت إليك، لأنّي أقسمت لك، ولكن قسماً بأبيك... قسماً بروح «ليلى» لا تفضح...

- «مش قاسم» أعدك... مهما حدث لن أذكرك أمامهم.

- بنيَّ لا ترفسه... فحينها لن يرضوا إلّا بقتلك.

- اطمئن، أعدك لن ألمسه... ولكن «مش قاسم» لماذا في هذا الوقت؟

- لأنَّ البيت في هذه السّاعة، يخلو... الاولاد في المدرسة... والموظّفون في العمل.

- وهل يذهب «بوري» إلى العمل؟

- والله، لا أعلم كيف سمح العقيد لـ «بوري» بالبقاء في البيت... وهذا ما جعلني أشكّ أكثر.

من حسن الحظّ، أنّ الطّريق بين المدرسة والبيت قصيرٌ، فقد وصلنا بسرعة، ومن كثرة ضغطي على دواسة العجلات تعبت، أنزلتُ «مش قاسم» في بداية الزّقاق، وقلت له:

- «مش قاسم»، علينا أولاً أن نعرف هل ذهبت «أختر خانم» إلى بيت خالي العقيد أم لا؟

- ولكن بني، قل لي ما الذّي تريد فعله؟ أنا قلق جدّاً.

- أعدك ألا أؤذي «بوري»، ولكن، إذا ما شعرتُ بانسداد الطّرق سوف أقوم بضجّةٍ تمنعه من مضاجعتها.

- عافاك الله... أعجبتني أنت رجلٌ شريف، وليس في الدّنيا كلّها ما هو أغلى من الشّرف، لدي صديق من مدينتي...

- «مش قاسم» احكِ لي فيما بعد... أنا ذاهب الآن، تحسّس لي الخبر... سأصعد إلى السّطح لأرى ما يحدث في بيت خالي العقيد.

-٢١-

حين دخلت بيتنا، كان والداي يهمّان بالخروج.

– لماذا جئت مبكّراً؟

– معلّمُنا مرض اليوم، و لم يكن لدينا دروس، إلى أين أنتما ذاهبان؟

قالت أمي:

– «فرخ لقا خانم» مريضة، ونحن ذاهبان إليها، هل تودُّ المجيء معنا؟

– لا لديَّ دروس كثيرة.

– لقد وضعت لك العنب هناك، إذا أحببت خذ منه.

خرج والداي، وهذا فالٌ حسن، بإمكاني الصّعود من غرفتي إلى سقف الحمام ومن هناك بقفزةٍ صغيرةٍ، أنتقل إلى السّطح لأرى ما يدور في بيت خالي العقيد.

وعلى خلاف ما توقّعت، لم أجد «أختر»، كان «بوري» منشغلاً بالسباحة في حوض الماء، لافّاً على جسده قطعة قماش فعدتُ.

أخذت من صديقٍ لي أربع مفرقعات، كلٌّ واحدةٍ بحجم الجوزة، ولا أعرف من أيِّ مادةٍ صُنِعَتْ، ولكي أفرقعَها، عليَّ رميها على الأرض، ولكي أضاعف قوةَ الصوت جمعتها كلها في قطعة قماش، وربطتها ببعضها، ثمّ توجّهت إلى البستان، حين اقتربت من «مش قاسم» همس لي:

– بني كنت أريد المجيء اليك لأخبرك، أنّي للتّوّ كنت إلى جانب «الإسكافيّ»، وبينما كنت أنظر للأعلى رأيت «أختر» وهي بكامل حُلّتها، مرتديةً الشادور، ومتّجهةً إلى البستان.

مشيت خلفها، فرأيتها تتّجه إلى بيت العقيد.

– مرسي «مش قاسم»... مرسي...

أردتُ الذّهاب إلى غرفتي، ولكنَّ «مش قاسم» أمسك يدي وقال:

– بني احذر، لو علم العقيد سوف يقتلك.

– لا تهتمّ، سوف أكون حذراً، ولدي رجاء منك، اذهب إلى منزل «أسد الله ميرزا» لكي يأتي إلى هنا، وإذا ما تطورت الأمور إلى الأسوأ فسيقف إلى جانبي...

– لا أعتقد أنه عاد من العمل.

– إذاً، حين يعود.

قلت له ذلك، وعدت مسرعاً إلى غرفتي، وضعت المفرقعات في جيبي، وذهبت إلى مخبأ.

أرتدت «أختر» قميصاً أخضر، فاتحةً الأزرار الأولى، وأسقطت شادورها عن رأسها، وجلستْ على كرسيٍّ في البستان.

ارتدى «بوري» بيجامةً رمادية، إلّا أنّ الحوار لم يبدأ بعد.

– سأكون شاكرة لو قمت يا سيّد «بوري»، بهذا العمل من أجلي؟

سألها «بوري»:

– ماذا عن العام الماضي؟ هل أخذوا منه نفس المبلغ؟

– لا، في العام الماضي كان لديه صديق ساعده، فأعطى أقلّ مما طلب منه هذا العام.

– حسناً تعالي غداً إلى الدّائرة، وسوف أرى ما أستطيع فعله، يجب رؤية الملف.

أمسكت «أختر» شادورها بكلتا يديها، وقد وقع على كتفها، وقالت:

– ولكن عجيبٌ أمر هذا الجوّ، فالحرارة مرتفعة.

واضح أنّها تقصد جلب انتباهه إلى ثدييها.

بيد أن «بوري» قال:

– هل تودّين عصير كرز بارد؟

– أود كأس بيرة أو خمرة، من تلك التّي سقانا إيّاها أبوك.

- يضع أبي أشربته في صندوق، ويُحْكِمُ عليها.

- بالتّأكيد خوفاً منك، كي لا تنهبها؛

- لا، أنا لا أشرب.

ضحكت وقالت:

- لا تسخر مني... بالتّأكيد حين تدعو الفتيات إلى الحانة تقدِّم لهنَّ المثلّجات؟

احمرَّ وجه «بوري»، وقال وهو مطرق الرّأس مُخْفِياً خجله:

- أنا لا أقوم بذلك.

- حسناً، حسناً لا تكذب علي، شابٌ بكل هذا الجمال والكمال لا يقوم بذلك؟! علاوة على ذلك حتى لو لم تكن راغبا فهل تتركك النّساء؟

- أرجوك.

- والآن، قم لترَ هل بقي شراب في البيت؟

نهض «بوري» واتّجه إلى الغرفة وهو يقول:

- أنا متأكِّد أنَّه لا يتركها في الخارج.

ما إن نهض «بوري»، حتى فتحت «أختر» زِرّاً آخر من قميصها، صَدَقَ «مش قاسم»

(إن النّساء فتنة)، أنا حيث أجلس على هذا العلو، يحدِّق بي الخطر، أحسست بجفاف حلقي، تذكّرتُ ما قاله لي «أسد الله ميرزا» وشكرت الله أنَّ الامتحان لم يكن لي، حاولت إبعاد هذه الفكرة عن رأسي، ووضعت يدي في جيبي وأخذت ألعبُ بالمفرقعات، لم أكن أعلم الوقت المناسب لرميها على الأرض، فارتفع صوت «بوري»:

- صدفةٌ عجيبة، وجدت قنّينة على الطّاولة.

قالت «أختر» ضاحكة:

- كنت أعرف... إذاً، لماذا لا تأتي هنا؟

- أبحث عن فتّاحة هذه القنّينة... لقد وجدتها.

عاد «بوري» حاملاً صينيّة فيها القنّينة والخمرة وكأس.

- يا إلهي لماذا واحد فقط؟

- قلت لك أنا لا أشربها.

سكبت «أختر» الخمرة في الكأس وأخذت رشفةً وقالت:

- ياه... أيُّ شرابٍ هذا !!!و هل ترضى بردِّ يدي؟ اشرب القليل منه لترى أيَّ طعمٍ لا يُوصف.

- لا أستطيع، فقد شربت منه مرة... ليس مناسباً لي، يؤلم رأسي.

- لا يا الله لا.

وقرّبت الكأس من شفتي «بوري»، فأخذ رشفة وانقلب وجهه:

- طعمه سيء.

- سوف تعرف طعمه فيما بعد، رشفة أخرى... ياه.

وسكبتْ كلَّ ما يحتويه الكأس في فمه، ثمّ صرختْ فجأةً:

- ياه لقد انسكب على قميصي...

ونهضت رافعةً تنّورتها، مظهرة فخذيها اللامعتين.

ضحك «بوري» وقال:

- ألمْ أقل لك، لا تجبريني لقد عاقبنا الله.

كان أبله إلى درجة وددتُ فيها إزاحة كلِّ ما بيننا من خلافات ورمي كل المفرقعات على رأسه، أخرج منديلاً من جيب بيجامته ووضعه في حوض الماء ثمّ ارتمى إلى جانب «أختر»:

- خذي، امسحي.

- لا سوف يتلف، أنا أشده، وأنت امسح.

رفعت «أختر» تنورتها أكثر، حتّى بات فخذاها في مرمى النّظر، بينما التصق وجه «بوري» بصدرها، كنت أشعر بثورة «بوري» الدّاخلية، وكانت «أختر» تزيد من ثورته، فقالت وهي تسيح:

- لو قلتُ: إنَّ «بوري» وسَّخ قميصي فلن أكذب؟

ضحك «بوري» ضحكة غريبة، وقال:

– من الجيد أن أبي ليس هنا، وإلّا لفضحنا.

– وأنا أيضاً لو كان أبي هنا لما خلوت بك آه... آه... أي بَعُوْضٍ هذا؟... لقد لسعني تحت ركبتي... أظن أنها تورّمت، ضع يدك عليها.

قبضت «أختر» على يديه، قادتهما إلى الركبة، ثمّ قالت:

– ألا يوجد لديكم عطر؟

– نعم لحظة.

ذهب «بوري» إلى الغرفة، ثم تبعته «أختر»، فلم أعد أراهما، ولكني أسمع صوتهما من الباب الموارب.

قالت «أختر»:

– آخ تحرقني، دلّكني هنا ولكن لا تتشيطن، هل قلت لي إنّك لا تذهب مع الفتيات؟

– أنا !! لا تقولي... ممكن أن يأتي أبي وأمي في أيِّ لحظة.

– لا لن يأتيا الآن، لقد صادفت العقيد أمام باب المنزل وقال إنّهما لن يعودا حتى المساء.

– قد يدخل خادم...

– لا تتحدّث يا روحي... لن يأتي أحد.

مع انقطاع الصّوت، وتناهي جمل غير مفهومة لـ «بوري»، تخيّلت ما قامت به «أختر» بإغلاق فمه، فهل حان دور المفرقعات أم لا؟

ليت «أسد الله ميرزا» كان إلى جانبي ليعطي أمر الإطلاق، أحسست أنهما على السّرير الآن، إذ أنّ صريره واحتكاك الأجساد تناهى إليّ.

واحد... اثنان... ثلاث...

رميتُ بكلّ قوّتي، المفرقعات على أقرب نقطةٍ من الباب...

كان صوت الانفجار أكبرَ ممّا توقعت، لم يكن فقط صوت انفجار، بل وكأن حجراً كبيراً رُمِيَ في مخزن زجاج، فقد تناثرت قطع الزّجاج في الهواء، حتّى كادت تصلُ إليّ، الأمر الذي أفزعني وجعلني أفقد توازني، ولكنّني لم أقع.

امتزجت صرخة «أختر» بصرخة «بوري».

– عزيزي «بوري»... عزيزي «بوري»... ماذا حدث لك؟ ما كان هذا الصّوت؟ يا ويلي.

– لا... لم... لم... لم يحدث لي شيء... هذا صوت... صوت المدافع... والبنادق...

– أنا راحلة.

وضعت شادورها على رأسها، واتجهت ناحية الباب، أصوات حشودٍ خلف الباب، بيد أنّ «بوري» لا يملك القدرة على النّهوض:

- آه... أنا آتٍ آ...

كنت في وضعٍ لا يُحْسَدُ عليه، لم أجد موضعاً لرجلي، ولم تعد يداي تتحمّلان وزني، وقبل أن أُبَدِّلَ مكاني تحرّكت لبنةٌ، فوقعت على الأرض.

أحسستُ بألمٍ شديد، ولكنّي استطعت النّهوض، وقبل تمكُّني من الهروب، خرج «بوري» من الغرفة، وجهه مثل وجه الخارج من الموت، حين رآني أحسَّ بالغضبِ والخوفِ فصرخ:

- إذن فعلتك أنت... هذا الصّوت... كان منك أنت؟

- لا، لا قسماً بأبي «بوري»... قسماً بخالي العزيز لم أكن أنا.

بيد أن ارتباكي عراني أمامه ولم يأبه بقسمي، استفدت من تردده وألقيت نظرةً حيث انفجرت المفرقعات، لقد وقعت بين زجاجة كبيرة وُضِعَتْ في ساحة المنزل، فهجم «بوري» وأخذ يضربني، وفي لحظة استولت عليَّ غريزة الدِّفاع فرفعت رجلي لأوجه له ضربة بين رجليه، بيد أن وعدي لـ «مش قاسم» و«أسد الله ميرزا» أوقفني، وكان الناس في الخارج يدفعون الباب، حتى نُزِعَ المزلاج عنه.

دخل خالي العقيد وخلفه جمع من الناس، فطغت صرخته على كلّ الأصوات:

- ماذا حدث «بوري»؟... ما كان ذلك الصّوت؟

- ابن الزّنا هذا رمى قنبلة يدوية.

مازلت أدافع عن نفسي بيدي ورجلي:

- قسماً بروح أبي... قسماً بروحك يا خالي لم أكن أنا...

أخذني خالي العقيد من بين يدي «بوري»، وهو يضغط على رقبتي:

- أيها البائس اعترف.

- قسماً بروح أبي... بروح أبي... أنا أيضاً سمعت الصّوت فصعدت إلى السّطح لأرى... فانزلقت قدمي...

نظرت يائساً إلى الباب الموارب، آملا بدخول «مش قاسم» أو «أسد الله ميرزا» لينقذاني ولكنّهما لم يأتيا، فقال خالي العقيد، وهو يزيد الضغط على رقبتي:

- الآن سوف أعلّقك من رجليك لأبرحك ضرباً ثم أرميك في السّجن... «بوري» أحضر العصا.

ذهب «بوري» إلى شجرة وكسر غصنا وأحضره، كنت أحاول تخليص نفسي قبل سقوط أول ضربةٍ على رأسي، بيد أن صوتاً قطع كل هذه الضّجة:

- توقفوا.

صمت الجميع لكنّي تخشّبت من الخوف، دخل خالي العزيز «نابليون»، رأيته يخفي مسدّسه بعباءته، وقد وقف إلى جانبه «مش قاسم» بوجهٍ مطمئنٍّ، حامًلا بندقيّته على كتفه.

حاول خالي العقيد و«بوري» الحديث، إلّا أنّ خالي العزيز «نابليون» قاطعهما:

– هل فقدتما عقلكما؟ بدل أن تتخذوا في مثل هذا الوقت مواقعكم الدّفاعية انقلبتهم على هذا الفتى.

– عمّي، هذا الفتى عديم الأصل رمى قنبلة يدوية... أراد قتلي.

– اخرس، للحماقة حدود، لقد أضعت الوقت ليهرب الفاعل.

في هذه الأثناء، كان «مش قاسم» يمشي إلى الأمام والخلف يراقب الطّريق:

– فاقدي البصر، إمّا أنّهم هربوا من هذا الزقاق... أو أنهم رموه بالمنطاد.

التفتت جميع الوجوه إليه، «مش قاسم» الذي كان يتحدّث لنفسه أكمل بصوت أعلى:

– أظنُّ أني سمعت صوت منطاد... قتل الله الإنجليز...

ارتفعتِ الأصوات معارضةً، خاصّةً خالي العقيد و«بوري»:

– مرّة أخرى الإنجليز؟ لا تخرّف يا «مش قاسم»...

سكت خالي العزيز «نابليون»، لم يتقبّل ما يقولونه، ثمّ انفجر في وجوههم مثل بركان:

– نعم الإنجليز... الإنجليز... هل تظنّون أن عداوتي مع الإنجليز

مزحة؟... إذاً، أنا مجنون... كلُّ ما يقال خرافة، ووهم... إذاً، أنا خرَّفت... لم أعد أتحمّل... لا أنام اللّيل ولا النّهار، لأحافظ على أرواحكم من شرِّ الإنجليز، وضعت روحي على كفّي، وهل هناك دليل أفضل؟... وهل هو بعيدٌ رمي القنبلة من الزُّقاق أو من طيّارة على منزلنا؟ كيف لي أن أفهمكم أنتم أيها الحمقى؟

أرحني يا إلهي من هؤلاء القوم.

بات وجه خالي العزيز مرعباً، أخذ كلُّ جسده يرتجف، رفع يده إلى جبهته وإتكأ على الجدار، ثم وقع على الأرض، أغمض عينيه وأمسك مسدّسه.

ركض «مش قاسم»، قد يكون صراخه خوفاً عليّ من المجتمعين:

– يا ناس قتلوا السَّيِّد... مع هؤلاء القوم، لِمَ يتعب الإنجليز أنفسهم؟

قال «بوري»:

– أنا متأكد أنه هذا الفتى، سوف أثبت لكم.

«مش قاسم» الذي انشغل بتدليك خالي العزيز «نابليون» وقف فجأة، وصوّب فُوّهةَ البندقيَّة ناحية «بوري» وقال:

– لقد قتلت السَّيِّد... سوف أقتل الجميع، اعفُ عنّي يا إلهي، ولكن ليس باليد حيلة... تشهّدوا.

اصفر وجه خالي العقيد و«بوري»، وأخذ الجميع يتراجع إلى الخلف غير مبعدين أعينهم عن الفُوَّهة الموجَّهة إليهم:

- مش... مش... «مش قاسم»... أيها العزيز «مش قاسم»... لا تجن...

ورغم أنّي أعرف أنّ «مش قاسم» لا يجيد استعمال البندقيّة، أو هو لا يعرف هل هي محشوّةٌ أم لا، رغم كل ذلك خفتُ ممّا يجري أمامي، في هذه الأثناء تناهى إلينا صوت القادم الجديد:

- ون منت، ون منت، ون منت ون منتي مسيو.

دخل «أسد الله ميرزا» رافعا حاجبيه متعجّباً مما يدور، قال «بوري»:

- أنقذنا عمّي «أسد الله»... يريد «مش قاسم» قتلنا.

قال «أسد الله ميرزا» ضاحكاً:

- بارك الله فيك يا «مش قاسم»، لم أعلم أنك صائد للحيوانات الأليفة أيضاً.

لكنّ «مش قاسم» قاطعه:

- هؤلاء القوم، قتلوا سيّدي، وعليّ الانتقام... لكلٍّ منهم طلقة، والأخيرة لي أنا.

أخذ «أسد الله ميرزا» يعد الحاضرين:

- ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧ وأنا الثّامن، «مش قاسم» كم طلقةً في بندقيّتك أليست إثنتان؟ إضافة لواحدة لك أيضاً،...

حسناً يكفي، قل لي ماذا حدث؟ من أراد قتل سيّدك؟

قال «مش قاسم» بصوت عالٍ:

– والله لِمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... عليَّ قتل هؤلاء القوم، لأنّهم قتلوا سَيِّدي.

– اعذرني... هذا الولد حمار ولا يعقل ما يفعله، ما الذّي حدث؟ وهل قتلوا السَّيِّد؟ أين هو؟...

وقع نظره على جسد خالي العزيز «نابليون» الممدّد، فركض نحوه وصاح:

– بدل أنْ تُحْضِرَ الطَّبيب تريد الانتقام؟ ماذا حدث؟ سيّدي كيف حالك؟

جلس «أسد الله ميرزا» على الأرض، وأخذ يدلِّك كتفي خالي العزيز، رمى «مش قاسم» البندقيّة على كتفه، وجلس إلى جانبه مُدَلِّكاً، فسأل «أسد الله ميرزا» قلقاً:

– ماذا حدث؟

« «مش قاسم» أحضر تلك السّجادة لنضعها هنا، نُرقِدَ السَّيِّد عليها... أنت يا ولد أحضر العطر بسرعة.

هيجان «أسد الله ميرزا» أثّر علينا كلّنا، فركض الجميع منصاعين لأوامره، ثمّ صاح وهو يدلّك رجلي وكتفي خالي العزيز:

– أليس من أحد هنا، يذكر لي ما حدث؟ لماذا فقد السَّيِّد وعيه؟...

قال «بوري»، وهو يمدُّ إصبعه نحوي:

– هذا سبب كلّ ما جرى... ابن الحرام رمى قنبلة على بيتنا... أراد قتلي...

– ون منت، هل وقعتِ القنبلة على السَّيِّد؟

– لا فقط أحدثت صوتاً لا أعلم... كسرت زجاج النّوافذ، ولكنّها لم تصبني.

– ثم سقط السَّيِّد مغشيّاً عليه؟

نفى «بوري» الأمر بحركة من رأسه وقال:

– لا يا عمّي، ثم جاء، فقلت له إنّها فعلة ابن الحرام هذا، فقال بل هي فعلة الإنجليز.

– الآن، إن كانت فعلته أو فعلتهم لا بدَّ...

قاطعه «بوري»:

– لقد غضب.

قال «أسد الله ميرزا» وهو يضرب وجه خالي العزيز:

– ليس بعيداً عن الإنجليز هذه الفعلة، من أين لهذا الفتى المسكين بالقنبلة؟

– عمّي «أسد الله»، لا تَنظر إلى وجهه البريء، ابن الزّنا هذا ألم يقم العام الماضي بـ ...

وكأنّ «بوري» أحس بزلّة لسانه، فذكر قضيّة ضربه، لم تكن في صالحه، فاغتنمت الفرصة وقلت:

– صدّقني يا عمّي «أسد الله»، لم أكن أنا على علم بما جرى، بإمكانك سؤال «أختر خانم».

رفع «أسد الله ميرزا» حاجبيه وقال:

– ون منت، ما الذي تفعله «أختر» هنا؟

وجد «مش قاسم» فرصة للتّدخل فقال:

– والله لم الكذب؟ أنا أيضاً لم أفهم دخول هذه الضعيفة هنا، حين انفجرت القنبلة رأيتها تخرج راكضة إلى بيتهم...

قاطعه خالي العقيد:

– جاءت «أختر» أخت الدّركيّ إلى هنا، لأنَّ لديها توصيةً تتعلّق بأحد أقاربها، وطلبت مساعدة «بوري»...

هزّ «مش قاسم» رأسه وقال:

– لو كنت مكانك، لما تركتها مع «بوري» وحدهما في البيت، هذه الأمور ذريعة لانحراف الشباب.

قلت:

– لو عرف «أصغر ديزلي» بالأمر سوف يمزّق بطنه، سوف يقطع «بوري».

ظهر الاضطراب على خالي العقيد و«بوري»، لمس خالي العقيد كتفي وقال:

- بني لا تعد إلى مثل هذا الكلام مرّة أخرى... فقد يصل إلى ذلك الرجل فـ ...

أحضروا العطر، أزاح «أسد الله ميرزا» سدادته وقربه من أنف خالي العزيز «نابليون». دخلت «ليلى»، وحين رأت أباها على تلك الحالة بكت:

- أبي... أبي...أبي...

كاد دمعي يتساقط حين رأيتُها تبكي مرعوبة، فتح خالي العزيز عينيه، فقال له «أسد الله ميرزا»:

- ألم أقل لك... الحمد لله لا شيء مهم... لقد أصابه البرد... يا سيّدي كيف حالك؟

رفع خالي العزيز يده إلى جبهته، وقال بصوت لا يسمع:

- لماذا أنا بالذّات...لماذا... وكأنّي فقدت الوعي...

أخذ خالي العزيز ينظر حوله في الوجوه الواجمة، ثمّ عاد بنظره حيث تناثرت قطع الزجاج، فجأةً، وكأنّه تذكر ما دار، فصاح:

- يا أحمق لا تلمسْ شيئاً... من قال لك أن تكنس؟... فليذهب أحدكم ويأخذ المكنسة منه.

جمّد الخادم الذّي كان يكنس الزّجاج المتناثر.

ركضتُ وأخذتُ المكنسة من يده، انحنيتُ ووضعتُ في جيبي قطعة قماش محترقة.

قال خالي العزيز وهو يقوم بصعوبة:

– فليذهب أحدكم وينادي الدّركيّ «غياث آبادي».

مرّةً أخرى لفّت الحيرة والقلق، خالي العقيد وابنه فقال:

– أخي وما الذّي سيفعله الدّركي هنا؟ أنت لا تُصدِّق ما يقوله... أقصد أنّه ثبّتَ لنا أنَّ هذا الفتى لا دخل له...

قاطعه خالي العزيز «نابليون»:

– أريد رأي الدّركي كخبير.

– ولَمَ الدّركي؟... أنا أفضل منه...

قاطعه خالي العزيز مرّةً أخرى، وقال بصوتٍ ضعيف:

– لا تتفوّه بالحماقات، لقد قضيتِ كلَّ عمرِك في القسم المالي، ولا تفقه هذه الأمور.

استغلَّ «مش قاسم» ضُعْفَ خالي العزيز، وأكمل بعده:

– علاوةً على ذلك، السَّيِّد يعرفُ أكثر من الجميع، لقد ترعرعنا أنا والسَّيِّد بين المدافع والبنادق والبارود...

كان زمان، الإنجليز أنفسهم حين تنحشر كرة الحديد في مدفعهم، يطلبون السَّيِّد ليخرجها لهم... أيُّ زمان كان... وكأنّه أمس... أتذكر جيّداً، في حرب ممسني كان لدينا رجلٌ متخصِّصٌ بتصويب المدفع، لو قلت له أصب (كهريزك) لأصابه...

في ذلك اليوم، خسرنا كل القذائف، وبقيت واحدة، السيد حفظه الله جاء خلف المدفع مثل أسد، حدّد الجهة بيده...

انطلقت القذيفة فأصابت خيمتهم، أحرقتها كلها، وتساقطت أعلامهم... وحين تقدمنا وجدنا القذيفة أصابت بالتّحديد وسط سفرة الإنجليز، تحطّمت الأواني كلها...

قال العقيد بصوتٍ غاضب:

- «مش قاسم» للتخريف حدود.

«مش قاسم» الذّي يستمدّ قوّته من سيّده صاح فيه:

- هل تعني أنّ السَّيِّد لا يعرف كيف يصوِّب المدفع؟ هل تقصد هذا؟. هل تقصد أنّ الحرب التّي قادها السَّيِّد ضد الإنجليز لا صحّة لها؟

قال خالي العقيد:

- أنا لم أقصد ذلك... قصدت أنّ الوقت غير مناسب لهذا الكلام...

من حسن الحظِّ، أنَّ هذا الجدل لم يتطوّر، دخل الدّركي «غياث آبادي» حاملاً الطِّفل تتبعه «قمر».

لم يعد يشبه ذلك الدّركيّ الذي رأيته قبل عام، ورغم أنّه مازال يدخِّن التِّرياق إلّا أنّه بات أفضل حالاً، لرتدى ثياباً زرقاء، ياقة قميصه تلمع، وتدلّت من رأسه خصل شعرٍ مُخْفِيَةً صَلَعَه، و«قمر» أيضاً لم تعد البنت السابقة، خفّت سمنتها وهناك سعادة تلمع في عينيها.

هزّ «أسد الله ميرزا» خالي العزيز وقال:

- سيدي... سيدي... لقد وصل الدّركي، افتح عينيك.

فتح خالي العزيز عينيه بصعوبة، وقال:

- أيّها الدّركي، لقد وقع اليوم في هذا البيت انفجار، وقد يكون صوته وصل إليكم، أريد منك رؤية ما حدث والتعرّف على نوعية المواد المستخدمة.

- أنا متعجِّب لأني لم أسمع صوت الانفجار، وإن بعد بيتنا من هنا وكنت في غفوة...

قال «مش قاسم»:

- أعماهم الله... فليرحمنا من الإنجليز...

وكأنّه أراد إعطاء الدّركي رأس الخيط، ولكن الأخير قال:

- سكوت... بشرط عدم تدخُّل أحدٍ في عملي... عزيزتي «قمر» أمسكي علي.

أعطى الدّركي الطّفل لـ «قمر»، وأخرج من جيبه عدسته المكبِّرة،

وأخذ ينظر في الزّجاج المتكسّر، طفل «قمر» جميل، ورغم إصرار العائلة على أنه يشبه أخت الدّركي، إلّا أن شَبَهه مع «دوست علي خان» واضحة، فقد الحدث حضور «دوست علي خان»، فالمسكين بعد مرور ثلاثة أشهر من زواج «قمر» بالدّركي «غياث آبـادي»، وتراجعه عن وعده بطلاقها، لم يعد يعلم ما الذّي يفعله، خاصّةً بعد أن علم الدّركي بالثّروة التي سوف تحصل عليها «قمر».

ورغم أنّه حصل على مبلغٍ لا بأس به ليفي بوعده ويطلّق «قمر»، بيد أن «قمر» في آخر لحظة أقامت الدّنيا فلم ينته الأمر بالطلاق، لأنها باتت تعشق الدّركي، ومع وجود أمّه وأخته، في البيت اضطرّ «دوست علي خان» و«عزيزة السّلطنة» إلى مغادرته والسكن في بيت آخر قربه، ظلّت «عزيزة السّلطنة» محافظة على علاقتها مع «قمر» وزوجها، بيد أن «دوست علي خان» يكره حتى سماع اسميهما.

خاصة حين علم أنّ الدّركيّ هو على عكس ما ذكره في السّابق، فعضوه في مكانه و لم يفقده في الحرب، وليست «قمر» وحدها كانت راضية عن أدائه، بل جاراتهم أيضاً، واللاتي كنَّ يأتين إلى «دوست علي خان» سابقاً.

وقد سمع أنّ الدّركيّ على علاقة مع «طاهرة» زوجة «شير علي».

توقّف الدّركيّ فجأةً ورفع رأسه:

– حسناً، من منكم سمع أيَّ صوتٍ قبل حدوث الانفجار؟

قال خالي العقيد، الذي جلس على الدّرج مثل دبٍّ مصاب:

- وما علاقة هذا السّؤال بالموضوع؟

- لقد قلت من كان الأقرب إلى مكان الانفجار وسمع الصّوت أولاً؟

أجاب «مش قاسم»:

- والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها...

ثمّ أضاف وهو يشير إلينا:

- لم أر بعيني، ولكني سمعت الصّوت... أظنُّ أنَّ هذان سمعاه قبلنا...

التفت الدّركي إلى «بوري» وقال:

- ما الذي سمعته؟ هل هو شبيه بصوت المفرقعات أم يدلُّ على صوتٍ آخر؟

- كان يشبه صوت المفرقعات ولكنّه...

تدخّلت وقلت:

- لا لم يكن يشبه صوت المفرقعات... كان صوت قنبلة.

- من أين تعرف صوت القنبلة؟... أجب بسرعة فوراً.

- شاهدتها في الأفلام الحربيّة التّي تعرض في دور السّينما، تعرف أخبار الحرب.

تدخّل «بوري»:

– لقد جُنّ، بل كان صوت...

لم أدعه يكمل:

– لا إنّه يكذب، هل تريد الاستفسار من أحدٍ كان هنا... من...

– مِن مَنْ؟ أجب بسرعة فوراً.

فطن «بوري» إلى ما أرمي إليه، ولكي يمنعني قال:

– نعم، هو كان يشبه صوت القنبلة...

بيد أنّ الدّركيّ لم يدعني:

– قل لي، قلت من من أسأل؟... من من؟... بسرعة فوراً.

– من؟ «مش قاسم»... كان بالقرب من المكان...

صاح خالي العقيد:

– حتى متى تريد الاستمرار في هذه المسرحيّة؟ دعنا نكمل عملنا؟

صاح الدّركي مقلّداً المفتّش «تيمور خان»:

– سكوت، أثناء التحقيق الكلام ممنوع... إذا لم أسأل...«مش قاسم» أكمل، ما هو الصّوت الذي سمعته؟

رفع «مش قاسم» حاجبيه وقال:

– والله لمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... ما سمعته كان صوتا... أظنُّ أنّه قنبلة وبندقيّة وقذيفة دُمِجَتْ مع بعضِها... كان بين صوت بندقية وقنبلة... وأظنُّ منطاداً أيضاً...

قاطعه «أسد الله ميرزا» ضاحكاً:

– ون منت، ألم يكن مع هذه التّشكيلة صوت أبو العطا[20] مع كمانه؟

نظر الدّركيّ إليه شزراً، بيد أنّ العلاقة التي تجمعه مع «أسد الله ميرزا»، منعته من الصّراخ فيه فقال له:

– يا صاحب السّعادة هل تسمح لي أن أكمل تحقيقي؟

وبعد أن عاد إلى إخراجِ العدسةِ المكبِّرةِ، انحنى لينظرَ إلى الأرض وقال:

– لقد اتّضح الأمر... هذا النّوع من القنابل، يُقال له غرناد...

زمَّ خالي العزيز «نابليون» عينيه وحاول الوقوف:

– أين صنعت؟

حكّ الدّركيّ رأسه وقال:

– والله... صُنعتْ في (بلجيكا) أو (بريطانيا)... في فترة كانت (بريطانيا) تصنعها.

٢٠– مغنٍّ إيراني معروف.

سقط خالي العزيز «نابليون» مرّة أخرى، على المخدّة التي وُضِعَتْ تحت رأسه وسأل:

– هل صدَّقتم؟ الآن فهمتم؟ هل اقتنعتم بما أقوله؟ هل مازلتم متردّدين؟ هل مازالت عداوتي مع الإنجليز وهماً؟

وعلى حدٍّ تعبير «نابليون» (ذلك هو الاستحمار الذي لا حدّ له).

ارتفع صوت خالي العقيد، فقالت «ليلى» بصوت راجف:

– أبي العزيز لا تغضب، سوف تؤذي نفسك...

بيد أن خالي العزيز لم يتراجع.

– حين أقول لكم، أصيح بأعلى صوتي فلا يسمعني أحد، لا يريد أحد منكم سماع الحقيقة...

صوته يرتفع أكثر:

– لكن... لكن... لن تصل يد الإنجليز إليّ... سوف أحطِّمهم... سوف أحرقهم... دعهم يلقون القنابل، دعهم يرمون القنابل اليدوية... آخ...

أُغْلِقَتْ عيناه، ثمّ عاوده التّشنج.

ارتبك الجميع، تعالت الأصوات، لكنّ صوت «أسد الله»غطّى على جميع الأصوات:

– ما الذّي يحدث؟ هل تريدون قتل الرّجل؟

«مش قاسم» اذهب إلى الطّبيب «ناصر الحكماء».

قال «مش قاسم» وهو يركض خارجاً:

- قلت لسيّدي دعني أنه أمرهم... هؤلاء أعداؤه...

مرّت دقائق من البكاء والصّراخ والإرتباك، حتى دخول الطّبيب «ناصر الحكماء»:

- سلامتكم، سلامتكم، ما الذّي حدث؟

أخذ الطّبيب يفحص لدقائق، بينما كان الجميع يترقب صامتاً:

- سلامتكم، قلبه، يجب أخذه الآن إلى المشفى.

- وهل بإمكاننا أخذه وهو على هذه الحالة؟

- علي أي حال، نقله أفضل من الوقوف هنا، سوف أحْقِنُهُ الآن خذوه... أحضروا السّيّارة...

ذهب شخصان لإحضار السّيّارة، بينما الطّبيب يُسَخِّنُ إبرتَه لحقنه، ومازالت «ليلى» تبكي، وزوجة خالي العزيز التي وصلت للتّوّ كانت تلطم على خدّيها.

وقف «أسد الله ميرزا» إلى جانبي شاعراً بالذّنب لما حصل، فهمس لي:

- اخرس ولا كلمة، لأنّك لا تملك شجاعة (السّان فرانسيسكو)، انظر ماذا فعلت؟

– عمّي «أسد الله»، وما أدراني...

ابتسم «أسد الله ميرزا» وقال:

– اذهب وأعدَّ صندوقا من القنابل اليدوية، لأنّه إذا ما تحسّنت حال هذا الحصان العربي، فسوف يحتاجها، وتليها الثّانية بعد ثلاثة أشهر وقم بزيادة حصته في كل مرة.

أطرقتُ رأسي وقلت:

– عمّي، صمّمت على...

– الذّهاب إلى (سان فرانسيسكو)؟ برافو، أحسنت... ألم يكن بإمكانك اتّخاذ القرار قبل ثلاثة أيّام حتى لا توقع هذا الرّجل في هذه المصيبة؟

– لا يا عمّي أنا...

– أها لم تكن الأمور على ما يرام قبل ثلاثة أيّام، والآن تهيأت الأجواء لسفرك؟ حمداً لله.

– لا، لا، لا، لماذا تسخر منّي؟ صمّمت على أمرٍ آخر لا يرتبط بـ (السّان فرانسيسكو).

– (لوس أنجلس)؟

كدت أصرخ، لكنّي سيطرتُ على أعصابي بصعوبةٍ، فقلت:

– صمّمت على الانتحار.

نظر إلي «أسد الله ميرزا» ثمّ قال، وهو يبتسم:

– برافو، هذا تصميم جيد، منذ متى؟

– انا جادٌّ يا عمّي «أسد الله».

– ون منت، ون منت، إذن اخترت الطّريق الأسهل، فالإنسان دائماً يختار الطّريق السهل.

وتابع يقول:

– كُثُرٌ يرون الذّهاب إلى الوليّ «عبد الله» أسهل من الذّهاب إلى (سان فرانسيسكو).

حسناً الطبيعة البشريّة هي، ولا يمكن فعل شيء حيالها، وعلى حد تعبير المعلّم (حين تسقط الطّبيعة)، إنهاء (سان فرانسيسكو)، والولي «عبد الله» هَي هَي...

– عمّي «أسد الله»، أنت أمام إنسانٍ صمّم، وانتهى الأمر، ولا تسخر مني.

– حسناً، وهل اخترت ما ستفعل؟

– لا، ولكني سأجد طريقة.

– تعال مساءً إليّ، سوف أجد لك طريقة لا ألم فيها.

ثمّ أضاف وهذه المرّة لم يسخر:

- رحمك الله، كنت شابّاً لطيفاً، دعهم يكتبوا على شاهدة قبرك:

أيّها الباقون على أديمها والآتون إليها، أنا من يرقد في هذا التّراب، ومن لم يذهب إلى (سان فرانسيسكو)...، ومن الممكن أن يرحموك في تلك الدّنيا ويرسلوك إلى (سان فرانسيسكو).

في هذه الأثناء، ارتفع صوت الطّبيب «ناصر الحكماء»:

- إذا ما وصلت السّيّارة سوف نذهب، فهذه الحُقْنة ستساعده ولكن علينا أخذه.

بعد لحظاتٍ، جاءت السّيّارة، وبأمر من الطّبيب أُحْضِرَ سريرٌ، أرقدوه عليه بكل حيطةٍ، رفع «مش قاسم» وخادمان آخران السّرير، أخذوه حتّى البستان، وحين وضعوا السّرير على الأرض، فتح خالي العزيز عينيه، نظر حوله والدّهشة تَلُفُّه قال:

- أين أنا؟... ماذا حدث؟... إلى أين تأخذونني؟

اقترب خالي العقيد منه، وقال له:

- أخي لقد سقطتَ مغشيّاً عليك، وقال لنا الطّبيب يجب أن نأخذك إلى المشفى.

- المشفى؟... أنا تأخذونني إلى المشفى؟

- سلامتك، سلامتك لا شيء مهمٌّ، ولكن، قد تحتاج إلى رعاية لا نستطيع توفيرها لك، وقد تحتاج إلى الأكسجين...

- تبّاً لكَ ولمن معك، من قال لك إنّي بحاجةٍ إلى المشفى؟ هل تريد تسليم الخروف للذئب؟ هل تريد تسليمي إلى الإنجليز...

تداخل صوت خالي العزيز مع بقيّة الأصوات، وافقت الأكثريّة على أخذه إلى المشفى رغم اعتراضه، حتى إن تطلّب الأمر أخذه بالقوة، وسط هذه الضّجة دخل والداي، فصاحت أمي:

- يا إلهي ماذا حدث لأخي؟

عادت الأصوات تضجّ لتوضيح ما حدث، وخالي العزيز «نابليون» مازال راقداً على السرير، لكنّه ما إن رأى أبي حتى صاح:

- أنقذني يا أخي... يريد هؤلاء الحمقى قتلي، في هذه المدينة التي يترصّد الإنجليز فيها مثل ذئبٍ يريد الانقضاض، يريدون أخذي إلى المشفى.

قال أبي:

- لا، مع وجود الإنجليز في المدينة ليس من صالحه أخذه إلى المشفى، دعوا الطبيب يأت إليه.

قال «ناصر الحكماء»:

- سلامتكم، ولكن قد يحتاج إلى عناية غير متوفرة هنا.

قال أبي بصورة قاطعة:

- أحضروا كلّ ما يحتاجُه، وأنا من سيتكفّل بالدّفع.

نظرة امتنان لا توصف، أطلّت من عيني خالي العزيز، ثم أغمضهما.

-٢٢-

– سلام.

– أهلاً «ليلى» كيف حالك؟

– تعال، لديّ ما أودُّ قوله لك.

كانت «ليلى» تتحدّث بسرعة، اصفرّ وجهها، وفي عينيها السوداوين ارتباكٌ غريب.

ذهبتُ خلفها وجلسنا تحت النّرجسة.

– ماذا حدث «ليلى»؟ خالي العزيز كيف...

– لديّ رسالة من «مش قاسم».

– «مش قاسم»؟

– نعم، وكأنّ أبي قد فقد عقله، إذ استيقظ من النوم في هذا الصباح، حاملاً بندقيّته يريد قتل «مش قاسم»...

– يقتله؟ لماذا ما الذّي فعله «مش قاسم»؟

- يقول: إنه جاسوس للإنجليز.

كنت على وشك إطلاق ضحكةٍ، بيدَ أنّ «ليلى» القلقة صدّتني:

- ماذا؟ «مش قاسم» جاسوس للإنجليز !؟... أنت تمزحين معي؟

- لا القضيّة جديّة، فقد ركض خلفه حاملاً البندقيّة، المسكين لو لم يهرب لقتله.

- والآن؟

- هرب «مش قاسم» منه، وهو الآن في المطبخ وقد أغلق عليه الباب، ولا يجرؤ على الخروج، وقد أوصاني لأخبرك، وبدورك تخبر أباك و«أسد الله ميرزا»...

- ألم تفعلي شيئاً له؟

- أردت التّدخُّل، ولكنّ أبي صرخ بي فهربت، إنّه يمشي الآن في ساحة المنزل، حاملاً بندقيّته متحدثاً مع نفسه.

- حسناً، اذهبي الآن وسوف أخبرهما.

كان صباح يوم الجمعة، وقد خرج أبي قبل استيقاظنا من النوم، فذهبت بسرعة إلى بيت «أسد الله ميرزا».

مرّ الآن أسبوعان على حادثة المفرقعات، رقد خالي العزيز «نابليون» لأيّام، كان يأتيه طبيب قلب وطبيب أعصاب إلى البيت، طبيب القلب متأكّد أنَّ السّبب هو قلبه، بينما طبيب الأعصاب يرى طبيب القلب

مُتَطَفِّلاً، والسّبب الرّئيس هو أعصابه، وبعد مرور أسبوع من تعاطيه الأدويّة استقرت حالته، ولكن خالي العزيز لم يكن يسمح لأحدٍ بالدّخول عليه، إلّا أبي أو«أسد الله ميرزا»، وكلما حاول أحد أقربائه زيارته يتناوم.

حين يكون تحت تأثير المهدئات يبقى طبيعياً، وحين يزول مفعولها يرى كلّ الموجودات بريطانية.

كنت أخاف على «ليلى»، أكثر من خوفي على خالي العزيز، لأنّني كلّما رأيتها أرى عينيها دامعتين، و«ليلى» تحب أباها فوق ما يتصور، أنستني كلَّ همومي وآلامي.

كان «أسد الله ميرزا» نائماً، و لم تسمح لي الخالة بالدخول، فرجوتُها حتى سمحت لي.

وحين سمع صوتي صاح من داخل غرفة نومه:

– لحظة وسوف أكون معك، اجلس في الصالة.

– عمّي، افتح الباب، الموضوع مهمٌّ جدّاً.

– ون منت، حتى أرتدي ثيابي...

قاطعته:

– حياة شخصٍ في خطر، افتح الباب.

– قلت لك اجلس فيْ الصّالة حتى أخرج إليك... ما إن تحضّر ما تحتاجه عملية الانتحار سأكون إلى جانبك.

يشير «أسد الله ميرزا» إلى ما قلته له قبل أيام...

لم يكن أمامي غير الرّضوخ له، خاصّة أنّي فهمت من تململه بأنّه ليس وحده، جلستُ في الصّالة أنتظره، وهذه الأيام كنتُ غارقاً في «ليلى» لدرجة أنّني نسيت ما قلته لـ «أسد الله ميرزا» عن الانتحار.

بعد دقائق، دخل «أسد الله ميرزا» بالرّوب الأحمر الحريريّ إلى الصّالة، و لم يُتِحْ لي الفرصة للحديث:

– هل تريده لليوم؟ ظننتُ أنكَ ذهبت في رحلة سان فرانسيسكويّة، وعدلت عن الأمر، الحق معك، حين لا يذهب الإنسان إلى (سان فرانسيسكو) لا يعود له مكان في هذا العالم، فكلما انتهى من هذا العالم فذلك أفضل.

– لا يا عمي أسد الله، «ليلى» تعبةٌ جدّاً، لا يمكنني التّفكير بنفسي و...

– واضح، هذه الطّفلة تتوقّع شيئاً، مثلا (سان فرانسيسكو)، (لوس انجلس)... تعفّن قلبها في هذه المدينة.

– عمّي «أسد الله»، الموضوع هو مشكلة «مش قاسم»، المسكين...

– ون منت، ون منت... «مش قاسم»، (سان فرانسيسكو)؟... هذا الـ «غياث آبادي» أيضاً يعيّرك و...

– لا، يريد خالي العزيز قتله.

– لأنّه ذهب في سفرةٍ إلى (سان فرانسيكو)!

- لا، يقول بأنّه جاسوس انجليزي.

تصاعدت ضحكات «أسد الله ميرزا» عالياً:

- بالتّأكيد أنّ تلغراف «تشرشل»، المبعوث من (لندن) إلى (غياث آباد) وجده في جيبه.

- لا أعرف كيف حدث الأمر؟

ولكن، اليوم فجأةً ركض خالي العزيز خلفه حاملاً بندقيّته، ومن خوفه خبّأ نفسه في المطبخ وأغلق الباب، كان يرجو «ليلى» من خلف الباب أن أحضرك أنت وأبي... لأن خالي العزيز ينتظره في السّاحة حاملاً بندقيّته.

- حسناً اذهب أنت، وأنا بعد ساعة سوف آتي.

- عمّي «أسد الله» اسمح لي بالبقاء، وسوف أذهب معك، لأنَّ أبي أيضاً خرج من البيت، قد ينتهي كل شيء.

حكّ «أسد الله ميرزا» شعر رأسه وقال:

- ولكن لا أستطيع... من المقرَّر أن... أي، أنّ البنّاء سيحضر إلى هنا لأن سقف مطبخنا يكاد ينهار...

- عمّي، قل للبنّاء أن يبقى حتى تعود، القضيّة قضيّة حياة.

في هذه اللّحظة سمعت صوت ضحكٍ أنثويٍّ يتناهى من غرفة النّوم:

- اسي اسي... أين أنت؟

- عمّي، وكأن البنّاء قد حضر...

على فكرة صوت البنّاء ليس غريباً عليَّ.

دفعني «أسد الله» إلى باب الصالة وقال:

- لا تتغابى، هذا البنّاء ليس من هذه المدينة، اذهب إلى السّاحة حتّى أرتدي ثيابي.

وكأنّه خاف أن أسمع صوت البنّاء مرّة ثانية، فسرت بقلقٍ في السّاحة حتى نزل، واتّجهنا سويّةً إلى البيت.

- على فكرة ماذا حدث مع الحصان العربي؟ هل أثّرت مفرقعاتك أم لا؟

- لا أعرف يا عمّي... ما أعرفه أنّه يذهب بصورة منتظمةٍ إلى الدّكتور «ناصر الحكماء».

- مادام الدّكتور «ناصر الحكماء» هو الطّبيب المعالج، يمكنك الاطمئنان أنّ «ليلى» بأمان، لأنّه ومنذ أربعين سنة، مازال يعالج نفسه وإلى الآن لم يصل إلى نتيجة، لديه زوجتان، طلّق الأولى، وهذه الثّانية، لو لم يكن «دوست علي» الحمار لتطلقتْ منه.

- عمّي، هل لدى الدّكتور أطفال من زوجته؟

- ون منت، ون منت وهل قام هو بولادة الأطفال؟

حين وصلنا إلى باب البستان رأيت «ليلى» وكانت قلقلة من تأخُّرِنا، قال لي «أسد الله ميرزا»:

– انتظر لأدخل أنا، وادخل بعدي، لكي لا يظهر سبب مجيئنا.

دخل «أسد الله ميرزا»، فيما بقيت أنا و« ليلى» أمام الباب للحظة.

ارتدى خالي العزيز «نابليون» عباءته، حاملا بندقيّته ذاتُ الطّلقتين.

دخل «أسد الله» ضاحكاً بصوت عالٍ:

– أهلاً أهلاً، هل ستذهب للصّيد؟ أي الأماكن ستقصد؟

التفتَ خالي العزيز «نابليون» وحدّق فيه، فلملم «أسد الله» ضحكاته:

– وإن كنت أعتقد أن هذا ليس وقت الصيد.

نظر خالي العزيز شزراً، وقال بصوت لم يكن يشبه صوته الطبيعي:

– بل هو فصل الصّيد.. فصل صيد الجواسيس وخدم الإنجليز.

تظاهر «أسد الله ميرزا» بالتفاجؤ:

– هل تقصدني أنا؟

– لا، لست أنت... وإن كان يمكن... قد يأتي يوم يظهر فيه أنّك من خدمهم.

بقي ينظر إليه للحظات، ثم صاح:

– من كان يظن أن الإنجليز اشتروا «قاسم»؟ من يتخيّل أنّ «قاسماً» يطعنني من الخلف بخنجر.

– ون منت، ون منت... «مش قاسم» خانك أنت؟

– وأيُّ خيانة... آلاف الرّحمات على خيانة «غروشي» لـ «نابليون»، يستطيع «غروشي» الذّهاب إلى (واترلو) فقط عن طريق ولي نعمته و لم يذهب، ولكنّه لم يطعنه من الخلف بخنجر.

– ولكن، يا سيّدي لو تفكّر قليلاً...

أراد «أسد الله» أن يقول له أمراً، ولكنه تراجع، وكأنّه فطن إلى أنَّ الدّخول يجب أن يكون من طريق آخر.

– أمر عجيب، الحقيقة أنّي توقّعت أيَّ شخصٍ، إلّا «مش قاسم» لأنّك أظهرت له الكثير من الود.

تعاطُفُ «أسد الله» هدّأه قليلاً، فقال بصوت شبيه بالصّرخة:

– يا «أسد الله» قل لي أنت، لماذا لا يفي لي أحد، أنا الإنسان الذّي خاطر بنفسه عدّة مرّات في الحروب، وأنقذ حياته الوسخة، هل يخونني هكذا؟ لماذا باع نفسه للإنجليز؟...

– قل لي الآن، كيف اكتشفت خيانته؟

– شكّكت به، واليوم صباحاً قبضتُ على يده واعترف، هل تسمع؟ اعترف بلسانه المقطوع أنه خادم للإنجليز.

في هذه اللحظة ومن خلف باب المطبخ الكبير علا صوت «مش قاسم»:

- يا سيدي سدّدوا البندقيّة إلى قلبي، وقالوا اعترف وإلّا سوف نقتلك، ففعلت ما طلبوه.

مع سماع خالي العزيز لصوته بدأ بالارتجاف، أراد اطلاق صراخه لكنّ صوته خانه.

أجلسه «أسد الله ميرزا» على الدرج، وقالت «ليلى» وهي تبكي:

- أبي العزيز لا تغضب، هذا الأمر يضر بقلبك.

- اذهبي يا عزيزتي، وأحضري كأس ماء لأبيك.

المطبخ الذي اختبأ فيه مش «قاسم» له وضع خاص، فبعد الدّخول من بابه الذي يطل على ساحة البيت كان عليك النّزول عدّة أدراج، وبعد النزول من الدّرجات، تقع على يمينك المرافق، وعلى اليسار حنفية مخزن المياه، وفي المقابل المطبخ، وفي الواقع مع إغلاق «مش قاسم» لباب المطبخ أُغْلِقَ طريق الذّهاب إلى المرافق ومخزن المياه والمطبخ، وكنت آمل أنّه بسبب احتياج أهل البيت لهذه الأماكن الثّلاث سوف يجدون طريق نجاةٍ لـ «مش قاسم».

شرب خالي العزيز الماء، وبات أفضل حالاً.

ذهب «أسد الله ميرزا» إلى باب المطبخ الذّي كان «مش قاسم» يختفي خلفه وصاح:

- «مش قاسم»، «مش قاسم»، أخرج وقبّل يد السيّد وتُبْ.

- ليس لديّ مانع، قل للسَّيِّد أن يعطيَني الأمان، أنا خادم سيِّدي... غلامه...

صرخ خالي العزيز:

- السّارق، الجاسوس، تشهّد على نفسك لتموت جوعاً في مكانك، أو أملأ رأسك بالرصاص.

سمعنا صوت «مش قاسم» مرة أخرى:

- يا سيدي قسماً بـ «قمر بني هاشم» لو رأيت الانجليز طوال عمري،...

منذ قرن أحارب الإنجليز، وأنت كنت شاهداً فكيف بي...

قال «أسد الله ميرز»ا:

- «مش قاسم»، لا فائدة من الإنكار، لقد علم السَّيِّد بكل شيء، من الأفضل أن تتوب عن ذنبك.

- ولِمَ الكذب يا سيدي؟.. لم نفعل شيئاً.

قال «أسد الله» بصوت خفيضٍ، لا يسمعه خالي العزيز:

- يا «مش قاسم»، لا تصرَّ على رأيك، قل اخطأت.

- قضيت عمراً أحارب الإنجليز، والآن آتي لأقول أني جاسوسهم؟

وهل يرضى الله بذلك، عندها كيف سأنظر في أعين الغياث آباديين؟ الغياث آباديون متعطِّشون لدماء الإنجليز.

ذهبت كل جهود «أسد الله» لحلّ الخلاف أدراج الرياح، أبي وخالي العقيد وكثيرون آخرون جاؤوا ودخلوا في مفاوضات طويلة ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة.

ومازال الجاسوس متحصِّناً في المطبخ، وخالي العزيز واقفٌ أمام بابه قابضا على بندقيّته، شاتماً إيّاه...

كنت أذهب هنا وهناك حائرا، وفي البستان استمعت لحديث «أسد الله ميرزا» مع أبي:

– أخاف على «مش قاسم» أن يقع من الخوف، فلو استطاع أن يصمد لساعتين بعد، قد نجد طريقة حل...

– أي طريقة حلٍّ يا صاحب المعالي، السَّيِّد اختلّت حواسه، وإذا ظننت أنهم سيحتاجون في النهاية للمطبخ الموجود فيه «مش قاسم»، فلا تترك هذه الفكرة تخدعك، أرسل السَّيِّد ليحضروا كباباً للجميع.

– ون منت، ون منت هل هناك حمّامٌ آخرٌ غيرَ الذّي في المطبخ؟ يرسلون العائلة إلى بيتك لكي يفعلوها، ولو مسّته الحاجة سيكون مجبراً أن يقصد بيتك، حينها يهرب «مش قاسم».

– لا أظنُّ ذلك، هو يفكر بالإنجليز لدرجة...

قاطعه «أسد الله»:

- كنت أطيل الفكر بأنّه ينبغي بعد الكأس الخامس من الماء الذّي أعطيته إياه، أن ننتظر مفعوله.

مرّت فترةٌ، الجميع ينتظر أثر الماء الواجبة على خالي العزيز، ولكنّه مازال قابضا على بندقيّته جالساً على الدّرج، لا يبعد عينيه عن المطبخ.

ظهراً، سرقت النّظر من فوق باب الدّخول، نهض خالي العزيز من مكانه وأخذ يمشي، وكأنّ تحرُّكه دعاني لأزفّ الخبر لـ «أسد الله» الذّي كان ينتظر مع أبي، ولكن عليّ الاطمئنان أوّلاً.

مرّت دقائق على هذه الحال، ثمَّ سمعت صوت خالي العزيز:

- يا خالة «بلقيس»، أحضري لي مبولتي.

تحوّل الأمل إلى يأس، حين سمع «أسد الله» الخبر، هزّ رأسه وقال:

- علينا التّفكير بحلٍّ ثانٍ... السّجّان حلّ مشكلته في مكانه... توصلت إلى حلٍّ ثانٍ، لا بأس من تجربته... تفضل أنت معي لنذهب سويّاً...

أجابه أبي:

- وما الذي يمكنني فعله؟

- بالعكس أنت وحدك تستطيع فعلها، لأنّك الوحيد الذي لم تحرجه، يحتاج السَّيِّد الآن، أن يُعْلِمَ العالم كلّه، أنَّ الإمبراطوريّة البريطانيّة لا تفكّرِ إلّا بتحطيمه، وليس هناك أحد مثلك ليقوّي نفسيَّته... فأنا لوحدي لن أستطيع العبور من هذا المجنون.

ذهب الاثنان إلى خالي العزيز، وكنت خلفهما كالظّل.

فتح «أسد الله» باب الحديث:

- لو تلاحظ يا سيّدي، أنّ باب الخيانة لم يُفتح للتَّوِّ في هذا العالم... ألم يخن المارشال «ني»، «نابليون»؟

نظر خالي العزيز بغضبٍ من خلف نظّارته الشّمسية إلى «أسد الله»، وقال:

- لو خان المارشال «ني» فقد غسل خيانته فيما بعد، وذلك حين كان «نابليون» يعود من (جزيرة ألبا) وأرسلوه إليه، وساعة وقعت عيناه على وليٍّ نعمته ترجّل عن فرسه وقبّل يده... ووضع سيفه في يده.

- وهل خدم «نابليون» بذلك حقا؟

- نعم، لقد خدمه.. بموته أثبت وفاءه.

تدخّل أبي:

- على فكرة، مثل هؤلاء النّاس الّذين يتراجعون عن خيانتهم يصبحون أكثر خدمة من كل الخدم.

قال «أسد الله»:

- بالطّبع، كان عفو «نابليون» هو الذّي أوصل المارشال «ني» إلى هذه الدرجة من التّضحية.

كانت آثار الهدوء تتّضح على وجه خالي العزيز، فقال وهو ينظر بعيداً:

– نعم، جربت بنفسي هذا الموضوع عدة مرات في الحروب... فكنت حين أمنح الأمـان لرئيس جيشِ العدو، تتحوّل العداوة إلى صداقة حميمة...

غمز «أسد الله» لأبي وقال:

– والآن أعتقد أنّ هذا الرّجل إنسانٌ حسنٌ، كان في حالة ضعف... خدعوه...

يحتاج الأمر إلى الكثير من القوّة للهروب من شباكهم، وحتّى أنت لو لم تكن على هذا القدر الكبير من قوة الشّخصية، فهل تظنّ أنّك كنت ستنجو من خداعهم؟

عادت الحياة إلى وجه خالي العزيز، فارتسمت ابتسامةٌ على زاوية فمه:

– كم مرة حاولوا... وأيَّ وعود قدّموا، مال، أرسلوا نساء... فعلوا أموراً..

– ون منت، لدي سؤال، لو كان أيُّ شخص آخر إلّا أنت، فهل تظنُّ أنّه لن يلين؟ لن يخدع؟

– بالطّبع سوف يخدعون... بالطّبع سوف يُلَوِّثون.

– على هذا ماذا تنتظر من قرويٍّ مسكين؟... المسكين خدعوه.

قال خالي العزيز غاضباً:

- ولكن عديم الفائدة هذا لا يريد الاعتراف بصدق، يطلب العفو، يظهر ندمه.

- ولَم لا؟ فهذا المسكين مسجونٌ في المطبخ، وأنت تحمل بندقيّتك وتقف خلف الباب، ما الذّي تتوقعه؟ اسمح له بالخروج، وسوف أتحدث معه وسترى أنّه نادمٌ حقّاً.

بعد فترة صمتٍ، رفع خالي العزيز رأسه وهمس:

- حسناً لنمتحنه.

تنفّس الجميع الصّعداء، أخذوا البندقيّة إلى الغرفة، وفتح «مش قاسم» الباب بعد شعوره بالأمان، دخل «أسد الله ميرزا» إلى المطبخ، وبعد دقيقة خرج «مش قاسم» مطرق الرأس يتبعه «أسد الله».

نهض خالي العزيز من مكانه، ووقف دون حركة ينظر إلى لا شيء، فقال «أسد الله»:

- سيّدي هل تسمح أن يقبل «مش قاسم» يدك ويعتذر عمّا اقترفه.

بعد لحظات صمت، قال خالي العزيز، دون أن ينظر إليه:

- عليه أولا أن يجيب على أسئلتي.

- أي سؤال تسأله سوف يجيبك عليه.

كان خالي العزيز يتكلّم فقط مع «أسد الله ميرزا»:

- أولا، عليه أن يقول لي، أين اتّصل به الإنجليز؟!

– هل سمعت يا «مش قاسم»؟ أين اتصل بك الإنجليز؟

قال «مش قاسم» دون أن يرفع رأسه:

– والله يا سيدي لمّ الكذب؟ حتى القبر، ما هي إلّا ها.. في... يعني... الحقيقة في المخبز.

– متى؟

– والله.. يعني... الثّلاثاء... لا أستغفر الله يوم الأربعاء.

– كيف اتصلوا بك؟

كرّر «أسد الله ميرزا» سؤال خالي العزيز على «مش قاسم».

نظر «مش قاسم» إلى قامة خالي العزيز، ثمّ قال:

– والله لَم الكذب؟ حتى القبر ها أها... كنّا نشتري الخبز... حينها رأيت انجليزيّاً يخرج من زقاقنا ينظر إليّ، وأحياناً يغمز لي... الحقيقة ظننت في البداية أنّ لديه فكرة سوء، على حدٍّ قول ابن مدينتي قال...

قال خالي العزيز بعصبية، دون النّظر إليه:

– لا تبتعد عن الموضوع.

ضرب «أسد الله» مؤخرة «مش قاسم» وقال:

– لا تبتعد عن الموضوع «مش قاسم»، قل لنا كيف اتّصلوا؟

– والله اتّصلوا... ما إن أردنا الهروب منهم حتّى قبضوا علينا.

– ما هو مقدار المبلغ الذي خُصِّصَ لقتلي؟

– أستغفر الله، نحن نقتل السَّيِّد؟ ليت يدي تُشَلُّ.

تدخّل «أسد الله» بسرعة:

– لا يا سيّدي، لم يكن حتى الآن موضوع القتل، كان عليه فقط توصيل أخبارك إليهم...

– والآن، ما الذّي صمّم عليه؟

– والله يا سيّدي...

أرسل «أسد الله ميرزا» إشارة إليه، وقال:

– القصد هو هل أنت نادم أم تريد خدمة الإنجليز؟

– والله لمَ الكذب؟ تبّاً لي لو خدمتهم... سأشتمهم شتائم تمسُّ عائلاتهم ليرحلوا من هنا، سأقول لهم نحن لا نأكل من هذا الخبز، نحن خدم سيّدنا...

– متى ستوصل هذا الجواب إليهم؟

فجأةً، ارتبك «مش قاسم»:

– قسماً ب «قمر بني هاشم» لو أنّي...

تدخّل «أسد الله ميرزا» وصاح:

– أجب يا «مش قاسم»، متى تجيبهم؟ اليوم أو فيما بعد؟

– والله يا سيدي.. يعني... اليوم.. الآن.

– والآن، اذهب لتُقَبّلَ يد السّيد.

استمرَّ خالي العزيز واقفا، دون حركة بقامته العالية، ناظراً من علوٍّ، وأنا على يقين أنّه الآن يضع نفسه مكان «نابليون» في موقع تلاقي جيشي المارشال «ني» وجيشه.

اتّجه «مش قاسم» إليه بخطى متردّدة، فانحنى وقبل يده.

فتح خالي العزيز أحضانه، وضمّه إليه:

– من أجل خدماتك السّابقة أسامحك... وبالطّبع الشرط هو أنّك نادم عمّا فعلت، وتبقى ذراعاك لخدمة وليٍّ نعمتك.

لمعتْ دمعةٌ في عيني خالي العزيز «نابليون».

***

بعد ساعةٍ من ذلك كان «أسد الله ميرزا» وأبي يتناقشان في صالة بيتنا.

– أنا قلق كثيراً على السَّيِّد... رويداً رويداً يصل أمره إلى الجنون، علينا التّفكير بحلٍّ جذري.

- والله يا صاحب السّعادة، أنا حائرٌ كيف وصل الأمر بإنسان عاقلٍ مثله إلى هذا الحد؟

- ون منت، من العجب أنّك لا تعرف كيف وصل به الأمر إلى هنا! ولكن على أيِّ حال حدث الأمر، وعلينا ايجاد حلٍّ، وكأن عداوة الإنجليز باتت حاجةً ملحّةً له.

- كذلك وجود جاسوسٍ وخائن...

- أعتقد أن طريقة علاجه الوحيدة، هي أن يقبض عليه الإنجليز، ويسجنوه لفترة.

- وهل الأمر بالقوة؟ وهل يمكننا إجبار الإنجليز على القبض على نائبٍ متقاعدٍ لفوج (لياخوف القوزاقي)؟ وهل من المعقول أنّه ليس لديهم أمر آخر غير؟؟؟

- لدي فكرة جيدة سوف أعرضها الآن...

انهض بُنَيَّ، وأغلق باب الصّالة.

قال لي أبي:

- أنت أيضاً، ابقَ في الخارج.

- لا دعه هنا، ابنك ليس غريباً، قد يساعدنا، ولكن، بالطّبع لن يخبر أحداً.

هذه المرّة الأولى، التّي يُعْقَدُ فيها اجتماع تشاوريٌّ للعائلةِ بحضوري، قال «أسد الله ميرزا»:

- أرى أن نقوم بعمل سريع، العجوز بات يقترب من الجنون، فاليوم كاد «مش قاسم» يتحوّل إلى ضحيّة رؤى السَّيِّد.

قال أبي:

- حتى الآن، قلت للعقيد عدة مرات يجب إعداد جلسة تشاورية مع مجموعة من أطباء نفسيّين وإلا...

قاطعه «أسد الله» قائلاً:

- ون منت، لا تفكِّر بهذا الأمر بتاتا، فلو تعرّى السَّيِّد وسط ميدان المدفع عازفاً على مزمار فمن المستحيل أن يرضى العقيد أو أفراد العائلة، بإخبار طبيب نفسي، وهل من الممكن أن يُجَنَّ ابن السَّيِّد المرحوم، وحفيد السَّيِّد الكبير!؟ أستغفر الله، لا تذكر الأمر.

- إذاً، لننتظر حتى يقتل شخصاً بتهمة أنّه جاسوس الإنجليز ويُسجن...

تخيّل لو تأخر «مش قاسم» دقيقةً اليوم، لكانت جثّته الآن في المشرحة، والسَّيِّد في السّجن...

الحكومة لا تعرف المرحوم الكبير والسَّيِّد الصغير، القاتل يرمى في السّجن.

هزّ «أسد الله ميرزا» رأسه قائلاً:

- على أيّ حالٍ، هو كما قلتُ، أخرج فكرة الطّبيب النَّفسيّ من ذهنك، ولو أردنا مساعدته علينا التّفكير بحلٍّ آخر.

- ولكن أيُّ فكرة أخرى يا صاحب السُّمو؟ إذا ظننت أن «تشرشل» سيأتي ليُقدِّم اعتذاره للسَّيِّد، لا أعتقد أن هذه الفرصة متاحة.

- ليس «تشرشل»، ولكن لو مندوبٌ بريطانيٌّ يأتي...

قاطعه أبي:

- مثلا قائد الجيش البريطانيٍّ في إيران، أو وزير البحريّة؟

- لا، اسمح لي، لو استطعنا خلق مشهدٍ، مثلاً، أن يأتي ممثِّلٌ من الجانب البريطانيٍّ للمفاوضة قد...

مرة أخرى، قاطعه أبي:

- هل تمزح يا صاحب السُّموّ؟

صحيح أن ذهن السَّيِّد مرتبك، ولكنّه لم يتحوّل إلى طفل ليصدِّق أيَّ موقفٍ.

- الإنسان المستعدُّ لكتابة رسالة إلى هتلر أليس طفلاً؟

اندهش أبي، لكنّ «أسد الله» أكمل كلامه مبتسماً:

- إذا كان المرحوم السَّيِّد الكبير يأكل مع «جانيت مكدونالد» المرق، فبإمكان ممّثل «تشرشل» الحضور لرؤيته.

احتار أبي وتلكأ في الرّد:

- يعني... أنت... أقصد... الحقيقة...

ضحك «أسد الله ميرزا» وقال:

- نعم أنا اطّلعت على الأمر.

- من أخبرك؟

- السَّيِّد بنفسه، دعنا الآن.

ضحك أبي وقال:

- حدث أن مزحنا ذات مرّة... السَّيِّد نفسه لم يصدِّق...

- لا بل صدَّق... الآن دعنا من هذا الكلام، القضية هي هل أنت مستعدٌّ لمساعدة هذا العجوز، لنريحه في الأيام الباقية من عمره؟

قال أبي بصوت يحمل رائحة الصدّق:

- قسماً بأطفالي... قسماً بروح أبي، ليس لديَّ أيَّ حقدٍ في قلبي وأتمنّى أن يعود إلى طبيعته.

- حسناً، على هذا أعتقد يمكننا القيام بعمل، لم يكن العقيد في البيت، أوصيتهم حين يعود أن يحضر إلى هنا، سوف ندخله أيضاً في المشورة، أعتقد لو خلقنا مشهداً، وهو حضور انجليزي ليتفاوض مع السَّيِّد ويعده أن الإنجليز عفوا عن ذنوبه، ستتغير الأوضاع كثيراً إلى الأحسن.

هزّ أبي رأسه وقال:

- لا أعتقد ذلك، حتى لو جاء «تشرشل» بنفسه، وقدّم ورقة

ضمان، لما خرجت فكرة عداوة الإنجليز من رأسه، الحقيقة أنّه لا يريد تصديق ذلك، إضافة لذلك دعنا من الواقع، الإنسان الذّي قتل وجرح في حروب عديدة آلاف الإنجليز، وحطّم كل خططهم الاستعمارية... هل يصدِّق حينها هذا الإنسان أن الانجليز عفوا فجأة عن كل ذنوبه؟

- ون منت، ون منت، ولكن لو كان للانجليز عدوٌّ كبير ثالث فمن الممكن، وإن لم يكن من صميم القلب، أن تتوقّف النّار لفترة، على أيِّ حالٍ، تجربة الأمر لا ضرر منه.

- ولكن يا صاحب السّعادة، من أين نحضر ممثِّلاً للإنجليز؟

- عن طريق القائد «مهارت خان» الهندي، فقد سمعتُ أنّه سيعود من الجنوب في الأيام القادمة، ويمكنني إقناعه لكي يجد لنا ممثِّلاً عن الإنجليز.

لمعت فكرة في ذهني، سمعت في الصباح صوتاً ليس غريباً في بيت «أسد الله ميرزا»، عاد يرنّ مرة أخرى في أذني، قلت بصوت خفيض:

- عمّي أسد الله، هل سمعت ذلك من البنّاء؟

ارتبك «أسد الله» وهو ينظر إليّ وأكمل بعجالة:

- هذا القائد لديه علاقات مع الإنجليز، ولذلك يسافر بصورةٍ دائمة إلى الجنوب...

في هذه الأثناء، دخل خالي العقيد، حين سمع أحداث اليوم، وشرح له «أسد الله ميرزا» خطّته فقال ساخطاً:

– ولكن هل كان ينبغي طرح مثل هذه القضايا بحضور الأطفال؟

ربت «أسد الله» على ظهري وقال:

– ون منت، يا سيدي العقيد، أولاً هذا ليس طفلاً، بل شابٌ عاقل، ثانياً، لو منعنا اليوم وقوع كارثة فهي بهمّة هذا الشاب، على أيِّ حال هو شخص يُعْتَمَدُ عليه ونحتاجه.

لم يعد خالي العقيد لهذا الموضوع، ولكنّه أخذ يعترض على خطة «أسد الله ميرزا»، إذ يرى أنّه لا يمكن تحويل الشخصيّة الأولى في العائلة إلى لعبة، قال «أسد الله ميرزا»:

– ون منت، سيدي العقيد، اليوم لم تكن هناك لترى الخطورة التّي عبرت بقرب السَّيِّد، إما أن نأخذه إلى مشفى الأمراض العقلية، أو...

قاطعه خالي العقيد بشدّة:

– لا تُخَرِّف يا «أسد الله»، أُفَضِّلُ إطلاق النّار على رأسي، على قبول وضع أخي في مشفىً للأمراض العقلية، مكانةُ مئة عام لعائلة النّجباء ليست مزحة، أنا مستعدٌّ أنْ أفدي سلامة أخي بروحي، ولكن فكِّروا بحل منطقيّ!

بعد جدل طويل لانَ خالي العقيد، ولكنّه قال بصوت فاقدٍ للأمل:

– القضية هي، لا أعتقد أنّ أخي سوف يصدِّق بأنَّ الإنجليز فجأةً وبسهولة سوف يسامحونه.

– ون منت، ون منت، لو وجدنا الشَّخص سوف ندرس القضيّة من

كلِّ الجوانب، هذا المندوب سوف يضع شروطاً صعبةً، ثم وعن طريق تدخُّلِنا سوف يتنازل حتى نرضيه، فلو أنّ السَّيِّد -وحتّى نهاية الحرب- لا يعارض أو يتدخّل في شؤون الإنجليز سوف يمرِّر ملفه إلى المقامات العليا.

فكر خالي العقيد وقال:

- وبأيِّ دليل، تطرحون الموضوع على أخي؟ تقولون فجأةً قرّر الإنجليز الاتصال به؟

- نقول لأن وضع الإنجليز في هذه الحرب حَرِجٌ، قرّروا أن يعقدوا الصّلح مع معارضيهم في كلِّ الممالك.

- هذه المرة سوف أُرْضِي السَّيِّد.

في هذه الأثناء جاء بوري خلف خالي العقيد، وقال له أنّ هناك ضيوفاً جاؤوا إليه، بعد خروج خالي العقيد قال أبي:

- يا صاحب السّعادة، لن أتوانَ عن فعل كلِّ ما يمكنني فعله، ولكنّي أكرّر لمرة أخرى بأنّي لا أرى أمام خطّتك حظوظاً للنجاح، فهذا الرّجل الذّي أراه قد حدّد مصيره، على الإنجليز أن يعذّبوه وتتحوّل نهايته مثل نهاية «نابليون» المأساوية، أؤكد لك أنّه منذ الآن يرى التّلال والمساحات الخضراء لجزيرة (سانت هيلين)[٢١].

كنتُ أتبع «أسد الله ميرزا» حتّى الباب، وحين وصلنا إلى الزُّقاق شدّ أذنيَّ وقال:

٢١- الجزيرة التي نفي إليها «نابليون».

– يا ابن الجنّي، ما هي قضيّة البنّاء؟ الآن يمكنك سرد الحكاية على النّاس؟

– والله لم أقصد، عمّي «أسد الله»، أنا...

– أنا وسُمَّ الأفعى... القائد «مهارت خان» صديقي الحميم.

– ولكنّي لم أرك حتى الآن مع القائد...

– هذا خوفاً من خالك العزيز، أخاف أن يتّهمني بالعمالة للإنجليز.

– ولكن، في تلك اللّيلة، أوصلت السَّيِّدة «مهارت خان» بالعربة إلى البيت...

– ون منت، ذهب القائد في سفر وترك زوجته عندي... هل أتركها في البيت لتتوجّع؟

أخذتها إلى المطعم وأعطيتها مثلّجات.

– فقط مثلجات يا عمّي؟

– نعم فقط مثلّجات... من المستحيل أن أفكّر بـ(السّان فرانسيسكو) مع ربّة بيت، ولها زوج، هل تفهم ما أقوله؟ مستحيلٌ وممنوع! الحمد لله هذه التُّهم لا تليق بي.

– عمّي، ألم يكن الدّرس السّابع عشر، الذّي اعطيتني إيّاه، هو إذا صادفك (سان فرانسيسكو) تقدّم أولاً، ثمَّ فكّر بمن كان يرافقك في السّفر؟

- طفلٌ وقح ! ذكرت أمراً هل عليك أن تعيده عليَّ؟... كلُّ قوَّتك وضعت في فكيك !... على حدِّ تعبير القائد (الطّبيعة خامدة هيْ، والفك قوي هيْ).

- الآن عمّي «أسد الله»، هل تعتقد أنّ الخطّة التّي رسمتها لخالي العزيز سوف تنجح؟

- عليك بالدعاء أن تنجح، لأنّ مُسبِّب هذا الأمر هو أبوك وأنت، أبوك ولأنّهم قالوا له أنت قرويٌّ، ولا أصل لك ولا حسب، حطَّم العجوز، وأنت لأنّك لا تملك جرأة (السّان فرانسيسكو)، فجّرت مفرقعات، وجنّنت الرجل.

***

بعد أربعة أيّام، كان الوقت عصراً، حين جاء «أسد الله ميرزا» مع خالي العقيد لرؤية أبي، قبض على يديَّ أيضاً، وأخذني إلى الصّالة.

- وكأنّ الأمور بدأت تتحسّن، تحدّثت مع القائد بصورة مفصّلة.

المسكين، حَسَنُ النِّيَّة، ولكنّه يقول لا يمكنه أن يجد رجلاً إنجليزياً، لديه صديق هنديٌّ برتبة عريف في الجيش الإنجليزي، وبإمكانه إرضاؤه ليشارك في مشهدنا، بالطّبع مقابل بعض الامتيازات.

لم يقل خالي العقيد ولا كلمة.

هزّ أبي رأسه، وقال:

- أرى من المستبعد أن يقبل السيّد بالتفاوض مع عريفٍ وهنديٍّ، ما هو شكل هذا الهنديّ؟ ألا يمكن تحويله إلى شبه إنجليزي؟

– دعنا من تحويله إلى شبيه لإنجليزيٍّ، حتى لا يمكننا تحويله إلى شبيه لبلوشي، كما نقل لي هو من السِّيخ ذوي بشرة قهوة بالحليب.

– حتى لو أقنعنا صاحب السُّموِّ بالهندي، ما الذِّي سنفعله لرتبته العسكرية؟ لن يقبل السَّيِّد بأقلَّ من الجنرال.

– ليس مهمّاً، السَّيِّد لا يعرف رتب الجيش الإنجليزيّ، فلنقل له: إنه كولونيل.

– هل فاتحت السَّيِّدَ بالأمر؟ يا صاحب السّعادة؟

– في المرّتين اللتين التقيته فيهما، قلت له: إن الإنجليز في كلّ الممالك الصّديقة لهم وغير الصديقة، والمحتلّة باتوا يُقَبِّلون الأيدي والأرجل لضمِّ المعارضين إليهم.

– وما كانت ردّة فعله؟

– بالطّبع قال الكثير، مثلا لو أنّهم حاولوا الاتّصال به، فمن المحال أن يقبل، ولكن أعتقد لو وصل الأمر إلى التّنفيذ لسوف يقبل.

– إذاً، لم تتحدَّث معه بما يخصّه هو بالذّات؟

قال «أسد الله»:

– أشرت إلى ذلك، يقول: إنّه لا يثق بالإنجليز ولا بوعودهم، وإذا جاء يومٌ وقرّروا أن يرسلوا ممثِّلا عنهم، سوف يُصْدِرُ أوّلاً أمراً بتجريده من سلاحه، ويخفي «مش قاسم» خلف السِّتارة، حاملاً بندقيّته، ولو أراد المندوب الإقدام على حركة ما، سوف يتغدّى بهم قبل أن يتعشّوا به.

– هل تلاحظ يا صاحب السّعادة؟ أنا أتخوَّف من وقوع مشكلة لنا جميعاً، مع كل هذه المحن، لو أراد الهنديُّ وضع يده في جيبه لإخراج منديلٍ ومسح أنفه، وفي نفس اللّحظة يأمر السَّيِّدُ «مش قاسم» باطلاق النّار، ساعتها هل تعرف ما الذي ستؤول إليه أمورنا؟

غاب «أسد الله ميرزا» للحظةٍ في التّفكير وقال:

– باعتقادي أن نضع «مش قاسم» أيضاً في الموضوع.

وبعد دقائق من الجدل، طلب «أسد الله» منّي أن أُحْضِرَ «مش قاسم».

– السلام عليكم.

– أهلا يا «مش قاسم»، كيف حالك؟ أرجو ألّا تكون متعباً؟

أصرّ عليه «أسد الله» أن يجلس، وبعد مجاملات طويلةٍ جلس على الأرض في الصّالة.

– اسمع يا «مش قاسم»، أعرف أنّك تحمل وِدّاً كبيراً للسَّيِّد، وأعرف أيضاً أنّك غير مرتاح لما يمرُّ به.

– والله يا سيِّدي، أنا لا أؤمن بدواء هؤلاء الأطباء، أعتقد أنَّ السَّيِّد نُفِخَ بهواءٍ حارٍّ، لدي شخصٌ من أبناء مدينتي...

– اسمع يا «مش قاسم»، السَّيِّد منذ فترةٍ دخل في حالات تَوَهُّم، في ذلك اليوم، ومن أجلِ فكرةٍ واهيةٍ خطرت له أوشك على قتلك، الإنسان العاقل لا يتَّهمُك بمثل هذه التُّهم الواهية، بأنك متعاون مع الإنجليز لتتجسّس على السَّيِّد...

وعلى هذا، من الواضح أن السَّيِّد ليس على ما يرام، هل تقبل ما قلتُه؟

- والله لَم الكذب؟ حتى القبر ها أها... لا أضيف أيَّ كلمة على ما قلته، ولكن لا تستصغر الإنجليز.

تفاجأ «أسد الله ميرزا» وقال:

- «مش قاسم»، على الأقل أنت تعرف أنّ هذا ليس له أيُّ صِحَّة.

- ومن أين لي أن أعرف؟

قال «أسد الله ميرزا» فاقداً السّيطرة:

- ولكن يا «مش قاسم»، نعرف أن الإنجليز سيِّئون وخبثاء، ولكن أن تكون لديك علاقة معهم؟

قال «مش قاسم» وهو مطرق الرأس:

- والله الأمر لا يخلو من صِحَّة.

تدخَّل أبي منفعلاً وقال:

- إذاً، اتّصل بك الانجليز؟

- والله لَم الكذب. حتى القبر ها أها... الحقيقة نعم.

- تدخل خالي العقيد لأوّل مرّة، وقال بصوتٍ يُلْمَسُ فيه الغضب:

- «قاسم» لم نجتمع هنا للسُّخرية، لا تتفوَّه بخزعبلات.

- حسناً يا سيّدي، تعتقد أنّ ما أقوله مزخرفاً، من الأفضل لي السّكوت، هل تسمحون لي بأن أذهب لأسقي الورد؟

- ون منت، ون منت، سيّدي العقيد دعه يقل ما عنده.

قام والتفت إلى «مش قاسم» وقال بصوت رقيق:

- تكلّم، ولكن بسرعة لدينا أعمال.

- والله يا سيّدي، ليس لدي ما أضيفه، أنتم سألتم ونحن أجبنا.

كاد «أسد الله ميرزا» أن ينفجر، ولكنّه سيطر على أعصابه:

- في النّهاية يا «مش قاسم»، كيف يمكن للإنجليز الاتصال بك؟ السَّيِّد توهَّم أمراً، تفوَّه بتهمة، وكنتَ تُقْسِمُ أنّه كذب و...

- والله لَم الكذب؟ حتى القبر ها أها... كذب، لم يكن كذباً.

- نعم، يا «مش قاسم»، ألم أخبرك بأن تقبل بالأمر، ألم أعلِّمْك في المطبخ كيف تقول جملتك؟ والآن عليَّ أنا...

قاطعه «مش قاسم» مرّة أخرى:

- والله يا سيّدي، إذا أردت الحقيقة أنت علَّمتني، ولكني لم أكن أكذب.

- يعني أن الإنجليز اتصلوا بك؟ يا «مش قاسم» فكِّر قليلا، لماذا تُخَرِّف؟ كيف اتصلوا؟ متى؟ ولماذا اتصلوا بك؟

– أنت لا تدعُني أُكمل.

صرخ خالي العقيد:

– خنقتنا يا رجل تكلّم، كيف اتصلوا بك؟

ضمّ «مش قاسم» ركبته وقال:

– والله يا سيّدي، لِمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... أرادوا قتلي حتّى هذه اللّحظة مئة مرّة،... في.. أتذكّر في (غياث آباد) جاءني مرّة رجل إنجليزي...

قال «أسد الله ميرزا» بصوتٍ حاول السّيطرة فيه على غضبه:

– «مش قاسم»، أرجوك دع (غياث آباد) هذه المرّة جانباً.

– حاضر... هذه المرّة فقط، يعني قبل عِدَّةِ أيّامٍ، ذهبت إلى المخبز، لمحت إنجليزياً تردّد عدة مرات على المخبز، وبعينه الحولاء، كان ينظر إليَّ وكأني فتاةٌ في الرابعة عشر...

بداية قلتُ قد يكون السّبب هو الحول، إذ من الممكن أنّه ينظر إلى شخصٍ آخر، ثمّ استفسر في داخل المخبزِ من البائع عن أمور.

ما إن خرجت حتّى تبعني رِجلاً على رجلٍ...

خفتُ أعزكم الله أعزكم الله أنه يقصدني، ثم وحين وصلت إلى البيت نادى عليَّ بصوتٍ... عسى ألا يريكم ذلك اليوم، كان صوته نمريّاً... تكلّم معي بلغة، لغة بين الترّكيَّة والرّشتيّة والخراسانيّة...

سألني هل أنت من هذه المنطقة؟

لم أجبْه، ولكن قلت في نفسي، عسى أن تعمى أعين كل الإنجليزِ...

دلفت إلى داخل البيت، ولكنّي تابعته من الفرجة تحت الباب... رأيته يسير خطواتٍ هنا وهناك، ينظر إلى أبواب المنازل، ثمّ طرق باب ذلك الهنديّ، ودخل البيت...

– انتهيت يا «مش قاسم»؟

– لا يا سيّدي هذه البداية، ثمّ رأيته مرّتين، نظر إلي نظرةً أصابت قلبي بِصدْع...

نظر «أسد الله» نظرةً يائسةً إلى أبي، وقال:

– بالطّبع، بالطّبع أنّهم قاموا بهذه الاتّصالات، بل الموضوع طُرِحَ من أجل هذه الاتّصالات...

وبعد أن غمز لأبي التفت إلى «مش قاسم» وقال:

– «مش قاسم» دع بقيّة القصّة لما بعد، أرى أنك فهمت بوضوحٍ كيف يضع الإنجليز خططاً خطيرةً للسَّيِّد لكي...

قاطعه «مش قاسم»:

– لذلك أنا...

– طبعاً، أكيد... والآن اطّلَعْنا على أنَّ الإنجليز يودُّون الاتصال بالسَّيِّد، بصورة رسميّة، فقد يصلون إلى حلِّ الخلافات القائمة بينهما، وإن شاء الله تنتهي القضيّة بسلام وصفاء.

- ولكن يا سيّدي، يجب عدم إغفال دهاء الإنجليز...

- صحيح، ولكنَّ رجاءنا منك هو أنْ تساعدنا، وبالطّبع، حين يأتي ممثل الإنجليز إلى السَّيِّد، سوف يطلب منك السَّيِّد أن تعتني به خوفاً من خداعهم و...

ابتسم «مش قاسم» وقال:

- الإنجليز يخدعوننا؟

في إحدى المرّات، في تلك الأيّام في (غياث آباد)، تحلّق حولنا عشرة إنجليزيّين...

رفعت المجرفة فوق رأسي، من المساء حتّى اللّيل، ملوِّحاً بها في كل مكان، و لم يجرؤ أحد على التّقدم...

في النهاية، كان رئيسهم من القرية المنحدرة، قال لرفقائه:

- دعونا نرحل، أنا فقط من أعرف «مش قاسم»، ليس من أولئك الذين توقّعناهم...

فأطرقوا رؤوسهم ورحلوا.

وصرخت أنا:

- يا أشباه الرّجال، قولوا لرؤسائكم أنّه ليس من أولئك النّاس، لو على جنازتي لن أدعهم يأخذون الماء، لأن الشِّجار كان من أجل الماء...

صرخ خالي العقيد:

- «مش قاسم»، ما دخل ماء (غياث آباد) بالإنجليز؟

هزّ «مش قاسم» رأسه وقال:

- يلزمك الكثير حتّى تعرف الإنجليز...

في هذه الدّيار ليس للإنجليز أعداء مثل مدينة (غياث آباد،) أرادوا أخذ المياه لتدميرها وإذلالها...

تدخل «أسد الله ميرزا»:

- سيدي العقيد، «مش قاسم»، لا يقول كلاماً غير مترابط، بالطّبع حين يقطع الماء عن مدينة أو قلعة سوف يستسلم في النّهاية أهل المدينة.

- فديت فمك.

- الآن «مش قاسم»، رجاؤنا هو إذا جاء ممثّل الإنجليز لرؤية السَّيِّد، احذر أن يصيبه مكروه، لو لم يتمّ التّوصُّل إلى نتيجة، لأنَّ جيش الإنجليز هنا، لو مسّ أحد أعضائه، لنثروا دخاننا في كلِّ الجهات...

سوف يحضر الممثِّل ليتحدث، ولو وصل الحديث إلى نتيجةٍ فجيّد، ولكن أيضاً، لو لم يصل...

حتى لو أمرك السَّيِّد في حالة غضب، عليك الحذر لكي يخرج الممثِّل من البيت سالماً.

قَبِلَ «مش قاسم»، وبعد عدة اعتراضات على الآراء، بأيِّ صورة كانت أن يحافظ على حياة الممثِّل.

بعد أن ذهب «مش قاسم» قال «أسد الله ميرزا»:

– أصبت بصداع... «مش قاسم» لا يشكُّ أنّه يرى نفسه كـ «تاليران»...

حسناً، الآن القضية الثّانية، يقول القائد «مهارت خان» أنّ العريف صديقه، لا يمكن إقناعه إلّا عن طريق إعطائه سجّادة أصفهانيّةً ليُمَثِّل هذا الدّور، من ناحيتي شخصيّاً ليس لديَّ في البيت إلّا سجّادتين، قد يكون العقيد...

– أخي لديه سجّاد أصفهاني، قد أستطيع الحصول على واحدة منها و...

– ون منت، ون منت سيّدي العقيد، تريد القول للسَّيِّد، بأن عليه أن يقدِّم لكولونيل الجيش الإنجليزي، وممثّل «تشرشل» سجّادةً لكي يعفو عنه؟...

– لا، ولكن ليس هناك حلٌّ ثانٍ.

تدخّل أبي الذّي كان غارقاً في التّفكير:

– لا يا سيّدي العقيد، يجب أن تقدِّم ذلك، وما قيمة السَّجّادة أمام آلام السَّيِّد؟

– أنا مُسْتعدٌّ من أجل زوال آلام أخي، أن أفدي روحي له، ولكن لديَّ فقط سجّادتان متشابهتان، لو أعطيت واحدة سوف يحدث نقص.

مرّت فترةٌ من الزّمن، حتّى اقتنع خالي بمنح السّجّادة للعريف الهنديِّ، وتركها عند القائد «مهارت خان».

نوقشت في اليوم الثّاني نتائج المباحثات، أقنع «أسد الله ميرزا» خالي العزيز «نابليون» بمساعدةٍ من أبي وخالي العقيد، ليقابل ممثّل جيش الإنجليز، وبالطّبع، لم يجرؤ أحدٌ على ذكر أنّه من أصول هنديّة، لأنّه رضي بصعوبةٍ، مقابلة كولونيل بدل جنرال، وطالت المباحثات حول مكان عقد اللّقاء، فخالي العزيز يرى أنّ على ممثّل الإنجليز المجيء إلى بيته، فيما يرى «أسد الله ميرزا» ومن معه، أنَّ على خالي العزيز الذّهاب إلى مركز جيش الإنجليز.

في النّهاية، توافق الجميع على أن يتمّ اللقاء في بيتنا.

أُرْسِلَتْ سجّادة خالي العقيد عن طريق القائد «مهارت خان» إلى العريفَ الهنديّ، وتقرّر أن يلتقي أوّلاً في عصر الأربعاء «أسد الله ميرزا» وأبي في بيت القائد بالعريف الهنديِّ ويطلعوه على جزئيات الأمور.

كان خالي العزيز «نابليون»، يضع نفسه مكان «نابليون»، حين كان في (فونتن بلو) قبل وصول ممثّلي جيش دول الحلفاء، فلم يخرج من غرفته.

-٢٣-

حلّ يوم الأربعاء، المقرّر فيه لقاء ممثّل الإنجليز لبدء التّفاوض مع خالي العزيز «نابليون».

وقبل حلول الظّهر، أرسل أبي كل من في البيت، حتّى الخدم إلى بيت عمّات أمي، الكائن في منطقة (تجريش)، متذرّعاً بقدوم ضيوف رجال إلينا، أصررتُ عليه، ورجوته لكي لا أذهب معهم، و أن أبقى في البيت.

حُدِّدَ اللّقاء في السّاعة الرّابعة عصراً، وذهب أبي و«أسد الله ميرزا» منذ السّاعة الثّانية ظهراً ثلاث مرّات إلى بيت القائد الهنديّ.

كانت ملامح وجوههم تتغيّر بين سعيدة وحزينة بالتّناوب، وكأنَّ هناك قضايا ومشاكلُ عديدةٌ يقومان بحلّها، ثم وصل خالي العقيد إلى بيتنا.

عرفت من الكلمات المتبادلة بينهم همساً، أنّ القضيّة الوحيدة الباقية هي مشكلة موضوع هنديّة المفاوض، وكان «أسد الله ميرزا» أكثرَهم تفاؤلاً، فكرّر عدّة مرّات (إن شاء الله هذه أيضاً سَتُحَل).

في السّاعة الثّالثة، أرسلوا خالي العقيد خلف خالي العزيز «نابليون».

كنت منذ الأمس أتجنّب الاقتراب أو الحديث مع «ليلى»، لأني لا أعرف ما الذّي سأقوله لها، لا أعرف لو أنّها شمت رائحةً عن خبر هذا اللّقاء وسألت عنه كيف سأجيبها؟ لأنّي متأكِّدٌ أن خالي العزيز لن يسمح بحضوري في المفاوضات، فوجدت مكاناً مناسبا للاختباء خلف أحد أبواب الصّالة يُفتح على غرفة صغيرة، ومن حسن الحظّ، أنّ هذه الغرفة الصّغيرة تنتهي إلى الممر، ولن أُسْجَنَ في مكان اختبائي.

أوصاني «أسد الله ميرزا»، أينما كنت أن أكون مستعدّاً في حال احتاجوني للمساعدة في سير الأحداث.

حين وصل خالي العزيز إلى باحة بيتنا، كنت أشاهده من خلف نافذة في الطّابق العلويّ.

ارتدى ثياباً سوداء، واضعاً وساماً يقول إنّه تلقّاه من «محمد علي شاه»، وضعه على ياقة سترته، وعلى القميص الأبيض وضع ربطة عنق مخطّطةٍ بالأسود والأبيض، يُذَكِّرُني شكله بـ «دلادييه» رئيس فرنسا قبل الحرب العالمية الثّانية.

حين دخوله صالة اجتماعات «ميونيخ»، هكذا رأيتُها في الأخبار، كان «مش قاسم» خلفه، وكأنّه ارتدى أحد بدلات خالي العزيز، لأنَّ كُمَّ الجاكت والبنطلون بدا طويلين عليه.

ذهب أبي و«أسد الله ميرزا» لاستقباله، فكان رد خالي العزيز أمام ترحيبهما الحار شديد البرودة.

ركضت إلى مكان اختبائي، وما إن دخل خالي العزيز إلى الصّالة حتى وزع أماكن وقوف الاشخاص:

- سيقف أخي العقيد هنا... وأنت هنا «يا أسد الله»...

- ون منت، هل عليّ أن أكون في الجانب الأيمن لممثّل الإنجليز...

قاطعه خالي العزيز.

قال خالي العزيز، وهو ينظر من خلف نظّاراته الشّمسية إلى نقطةٍ غير محدّدة بصوت هادئ:

- أعرف القوانين الحربيّة أفضل منك، ولكن يجب عدم تناسي طينة العدوّ الخبيثة، «بوري» نفّذ أوامر قائدك.

تدخل خالي العقيد الذي تفاجأ بما سمع:

- أخي، هذا الولد لا يعرف الرماية، لا سمح الله أخاف...

- لا يعرف؟ إذن ماذا كان يفعل في فترة خدمته العسكريّة؟

- الحقيقة كان في مكتب... يعني قام بالرّماية، ولكن ببندقيّةٍ هوائية.

التفت خالي العزيز «نابليون» إلى «بوري»، الّذي بات وجهه أصفر وشبيهاً بوجه الحصان الغبي:

- «بوري» لو كنتَ حقّاً غير جدير بهذا العمل قل بصراحة... على حدّ تعبير «نابليون» (الاعتراف بالعجز نوع من القوة)...

قال «بوري» بصوتٍ مُتَقَطِّع:

- أنا... يا عمي... كما تأمر... أنا على استعداد للتّضحية بروحي من أجلك.

- إذن اذهب إلى مهمتك... قائدك يأمرك.

تدخّل «أسد الله ميرزا»:

- ون منت، ون منت، إطلاق النّار من بندقية حربيّة يختلف كثيراً عن إطلاق النّار من بندقية هوائيّة، لو تسمح أُعْلِمْ «بوري» بالجزئيات.

وقبل أن يجد خالي العزيز فرصةً للإجابة، سحب «بوري» معه إلى خارج الغرفة وأغلق الباب، وأنا في هذه اللحظات كنت أتابعهم من الطّرف الآخر.

أخذ «أسد الله ميرزا» البندقيّة من «بوري» وقال:

- يا بني... ها، هذه البندقيّة محشوّةٌ يا ناس...

قال «بوري» متردِّداً:

- وأنا خائف من ذلك... ولكنَّ عمِّي أمرني.

- ون منت، ون منت... أنت إنسان عاقل...استطعنا بعد جهد جهيد التَّوصُّل إلى ممثِّل الإنجليز لِيَحْضُرَ لحلِّ هذا الخلاف، وإن شاء الله تتحسن حالة العم العزيز...

ولنفترض أنّ المفاوضات لم تصل إلى حلّ أو حدث خلاف... هل نطلق النَّار على بطنِ الممثِّل؟

ألا تظن أنهم سوف يسجنونك على القتل؟

- الحقيقة أنا، أنا... لا أفهم يا عمّي.

– ولكن حين تكون الطّلقة في البندقيّة لا سمح الله يصل إصبعك للزناد.

– من عيني ذلك؟ سأنفّذ ما قلت بحذافيره.

– ولكن لو تسمح لي، عليّ أن أقوم بدور المترجم، ومن هناك لا يمكنني...

يجب أن أكون في مسافة قريبةٍ بينك وبين الممثِّل.

– ألن يأتي القائد «مهارت خان» هذا؟

– أنت لم تقبل بحضوره.

– نعم يجب ألّا يحضر غريب مثل هذه المفاوضات المهمّة، خاصّة أنّه هنديّ.

تبادل «أسد الله ميرزا» وأبي وخالي العقيد نظرات يائسة، وأكمل خالي العزيز «نابليون»:

– وعلى هذا، تبقى أنت هنا حيث قلت لك، و«مش قاسم» أيضاً يقف خلفي بمسافة قدمين خلفي في جهة اليمين.

– سُعدْتُ جدّاً أنّك تنازلت عن فكرةٍ راودتك لـ «مش قاسم»، ليس هناك داعٍ لمن يعتني بك من خلف السّتارة.

قال «مش قاسم» الذّي وقف في ثياب كبيرة عليه، و لم يكن يستطيع التّحرُّك بسهولة:

- أطال الله في عمرك يا سيِّدي... قتلت كثيرين من الإنجليز في الحرب وهو كافٍ لي، ولن يرضى الله أن أُلَوِّثَ يديَّ بدم إنجليزيٍّ وسخ آخر،... أتذكر أحد أبناء مدينتي...

نظر خالي العزيز شزراً له وقاطعه:

- أحتاج شخصاً هادئاً لهذا العمل، يُعْتَمَدُ عليه.

تبادل «أسد الله ميرزا» وأبي نظرةً حائرةً، ولكنّهما لم يجدا فرصةً للحديث لأنَّ باب الصّالةِ فُتح، ودخل «بوري» ابن خالي العقيد، وهو يحمل بندقيّةً ذات ماسورتين.

قال خالي العزيز بصوت حازم:

- «بوري»، كما أمرتك تقف طوال الوقت خلف باب الممرّ واضعاً إبهامك على الزِّناد، وبمجرّد صدور الأمر تطلق النّار.

كان «أسد الله ميرزا»، ينظر إلى «بوري» مندهشاً، فقال دون وعي:

- يا جدة السّادات!

ثم التفت إلى خالي العزيز:

- ولكن يا سيّدي... نحن وعبر المفاوضات التي أجريناها، تقرّر أن يأتي المفوّض دون سلاح، هذا الأمر خلافٌ للرّجولة والأخلاق، بل وحتى القوانين الحربية.

ارتبك «بوري»:

- أوليس هناك قفل الأمان؟

- وأين نجد قفل بندقيّةِ «حسن موسى»[٢٢]... وكأنّك نسيت الصّدمة التّي جاءتك حين سمعت صوت الانفجار، وأين أوصلتك؟

مثل هذه البنادق انفجرت قبل فترة بأيدي أناس...

- عمي «أسد الله» أنا أيضاً خائف...

- الحقُّ معك لتخاف... والآن أقوم بهذا... أها أها.

- لقد أخرجت الطّلقات!

- اخرس، لا تخبر أحداً، تجول هنا بهذه البندقيّة، أعدك لن تكون هناك حاجة لإطلاق النّار،...

هذه البنادق لا تمازح، من بين كل مئة مرّة تنفجر خمسين مرة، وكلُّ الشظايا تدخل في بطن صاحبها...

وهل يرضيك وأنت بهذا الشَّباب أن ينقص منك عضو؟

تفقد رجولتك؟ تبقى حسرة في قلبك للذّهاب في رحلة لـ (سان فرانسيسكو)؟

٢٢- هو مثل يضرب (حتى بندقية حسن موسى لم تصب) وهو مثل يضرب مع فقدان الامـل، وقد كان في السنوات الاخيرة الحاج مصطفى وحسن وموسى من أفضل صنـاع البنادق في إيـران، وكان حسن وموسـى شريكين، وبنادقهمـا أفضل من بنادق الحاج مصطفى.

أخـذ بـوري يرتجف من شدّة الخـوف، فتح فمه، ولكنّه لم يعد باستطاعته الحديث.

حين عاد «أسد الله ميرزا» إلى الصّالة، كان خالي العزيز «نابليون»، جالسا على الأريكة والجميع واقف، أرسل «أسد الله ميرزا» عدّة إشارات إلى خالي العقيد، وبعد تلكؤ، ردد خالي العقيد قائلاً:

– تعرف أخي العزيز... هناك أمر عليَّ إخبارُك به...

التفت خالي العزيز «نابليون» بسرعة، فأكمل خالي العقيد بصوتٍ قلقٍ ومتردّد:

– يستغلّ الإنجليز للمفاوضة مع معارضيهم في أيِّ مملكةٍ، أشخاصاً من تلك المنطقة أو المملكة... كيف أقولها... في الواقع يعتقدون أنَّ الأشخاص من أهل المنطقة، مطّلعون بصورة أفضل على نفسيات أهل البلد...

– لم أفهم ما تعني.

– أي... الحقيقة... الكولونيل الذي سوف يصل... أحد أفراد الجيش الإنجليزي المتميّزين...

قال خالي العزيز «نابليون»، بصوت خشن:

– وهل من المقرر أن يأتي غيره؟

عليهم أن يحمدوا الله، على أنّي وافقت لقاء كولونيل بدل جنرال.

كان خالي العقيد ينظر إلى «أسد الله ميرزا» وأبي ويكمل:

- أقصد هذا الكولونيل الذّي يعتمد عليه «تشرشل» كثيراً... يعني في الواقع يمكن القول أن اليد اليمنى لـ «تشرشل» وقائد كلّ جيوش الإنجليز هو هندي...

أغمض «أسد الله ميرزا» عينيه.

وبدأت شفتا خالي العزيز «نابليون» ترتجف بصورة واضحةٍ، اصفرَّ وجهه، أعاد بصوتٍ كأنه خارج من بئر:

- هندي.. هندي...

فجأةً، صفق «مش قاسم» كفيه، وقال:

- واه يا إلهي... حاذروا هؤلاء الهنود.

فكر خالي العقيد، أنّه لو أخذ منه الكلام لن يستطيع استرجاعه فأكمل:

- ولكن هذا الكولونيل «اشتياق خان» شخصية يعتمد عليها نائب السّلطنة الهنديّ، إلى درجة أنّه لا يحتسي الماء دون استشارته.

من حسن الحظّ، تدخّل «أسد الله ميرزا» من هول ضربة المأساة التي نزلت على ملامح خالي العزيز «نابليون»:

- ون منت، سيدي العقيد، لا تنسَ أن الكولونيل «اشتياق خان» لديه لقب (سير)...

عليك القول السّير «اشتياق خان».

التَّذكير بال (سير) كان له أثرُ المعجزَة على خالي العزيز «نابليون»، مثل ماء صُبَّ على ناره وهدّأها.

بعد لحظات صمتٍ قال بصوت هادئ:

– لو كان ممثّلاً مطلق الصّلاحية للإنجليز، فلا فرق عندي.

تنفّس «أسد الله ميرزا» وأبي وخالي العقيد الصّعداء، وفي هذه الأثناء اقترب أبي من النّافذة ونادى:

– يا سيِّد «شير علي»... يا سيِّد «شير علي» تفضّل؟

سمعت صوت «شير علي القصَاب» الكريه والعالي:

– السّلام عليكم...

ولكن وقبل أن يجيب على استفسار أبي، أو يسأله أبي مرّةً أخرى، قال خالي العزيز «نابليون»:

– دعوه، قلت له أن يأتي هنا... أي لو احتجت شيئاً سوف يخدمني.

قال أبي موجّهاً صوته إلى باحة المنزل:

– هذا بيتك يا سيّد «شير علي»... العائلة ليست هنا.. تفضّل واسكب لنفسك الشّاي... السّماور مُوقد في الأسفل.

تبادل الحاضرون النّظرات و لم يتحدثوا، فلا ريب أنّ خالي العزيز

قام بكلِّ الاحتياطات، حتّى إنّه طلب من «شير علي» الحضور لمواجهة الاحتمالات.

خالي العزيز جالس على الأريكة، ووقف الجميع دون حركة، حتّى «أسد الله ميرزا» الذّي من المحال بقاؤه للحظةٍ صامتاً، اعتزل الكلام، ولكنّ صوت «مش قاسم» في النّهاية كسر الصّمت المخيِّم:

- لماذا إذاً، لم يأتِ هذا الإنجليزي الهندي؟ الحقيقة أنا قلق، رحم الله صديقاً من مدينتي...

صاح خالي العقيد:

- «مش قاسم»!

ولكنّ «مش قاسم»، لم يتراجع:

- والله لمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... نحن...

من حسن الحظّ، تناهى صوت «شير علي» الخشن:

- سيّدي، وصل ضيفكم.

نهض خالي العزيز بسرعةٍ، ثمّ أمر الحاضرين بالإشارة أن يقفوا في الأماكن المخصّصة لهم، مرّر يده على ياقته وسترته، ووقف وقفة استعدادٍ عسكريّة.

فتح «شير علي» الباب، دخل القائد «اشتياق خان».

كان العريف «اشتياق خان»، أو بقولٍ آخر «الكونوليل السّير»

هنديّاً قصير القامة وسميناً، زيُّه عبارة عن زيٍّ صيفي، من قميص نصف كُمٍّ وبنطلون قصير.

كان المكان الجلدي المخصّص للمسدّس يخلو من السِّلاح، تركه خالياً بصورة واضحة.

ما إن دخل، حتّى أدّى التّحيّة العسكرية، ضارباً رجله بقوّةٍ، رافعاً يده قرب عمامته:

- غود أفتر نون سير... هاود يودو!

رفع خالي الذي وقف بحالة مستقيمة مصفرَّ الوجه، رفع يده إلى حاجبه. ليس هو وحده، بل كلُّ من وقف قلّده، وكأنهم تحت سيطرة الموقف، لأنَّ الوحيد الذّي أجاب الضَّيف هو «مش قاسم»:

- وعليكم السّلام.

تَدَخُّلُ «مش قاسم»، فتح المجال لتَدَخُّلِ «أسد الله ميرزا».

- غود أفتر نون سير «اشتياق خان».

قال الرجل الهنديُّ جملة باللّغة الإنجليزيّة، وأعتقد أنه اعترض على لقب «السير»، لأنّهم لم يتّفقوا معه على هذا الموضوع، ولكنّ إشارةً من «أسد الله» أوقفته.

بعد أن حيَّا خالي العزيز العريفَ الهنديَّ، جلس الجميع في الأماكن المعيَّنة مسبقاً ما عدا «مش قاسم».

ورغم أنّي كنت ممتازاً في اللّغة الانجليزيّة، لم أكن أفهم ما يقوله الرّجل الهنديّ، ولكنّي كنت أفطن إلى الأخطاء التي يرتكبها «أسد الله ميرزا» في الانجليزيّة محوّلاً المذكّر مؤنّثاً والمؤنّث مذكّراً.

بعد تبادل التّحية، فتح الحوارَ خالي العزيز بلهجة رسميّة خشنة:

- أسد الله، أرجوك ترجم كلّ ما أقوله كلمة كلمة... قل له: إنّي أبذل روحي ومالي ومكانتي من أجل الوطن.

لو تقرر أن أتنازل للإنجليز لفضّلت أن أقتل، ولتكن جُثّتي طعاماً للذّئاب والنّسور.. ترجمْ!

بدأ «أسد الله» بقول سلسلةٍ مترابطةٍ من الكلمات الإنجليزية وبينها قال «وولف» بصوت عالٍ.

ولكي يظهر أنّه يترجم كلَّ كلمةٍ، توقّف وقال باللّغة الفارسيَة:

- ون منت، ون منت، حدث أمرٌ عجيب ماذا يقال للخطّاف بالانجليزيّة؟ الخطّاف...

ماذا يقال للخطّاف بالانجليزية؟

علا صوت «مش قاسم»:

- أعتقد آكلو الجيف.

قال خالي العزيز:

- لا يهمْ... قُلْ له: إنّي أعترف بما أوقعته بالجيش الإنجليزي، من مصائب...

قمتُ في حرب (كازرون) و(ممسني) وعشرات الحروب الأخرى، بقتل آلافٍ من جنود الجيش الانجليزي.

وجّهت أكبر ضربةٍ لمطامعِ الاستعمار، ولكن فعلت كلّ ذلك من أجل وطني... لأنَّ الإنجليز تجَاوزوا على وطني...

لدينا شاعر حين كنّا أطفالاً وضع يده في خُمّ الدّجاج، فأخذت الدّجاجات تضربه بمناقيرها، إلى أن تقافزت الدّماء من عروقه، يقول: ضحك أبي من بكائي، ونبّهني إلى تَعَلُّمِ حب الوطن من خُمّ الدجاج...

أرجوك «أسد الله» ترجم كلمةً بكلمة!

أجال «أسد الله» ميرزا نظره حوله وبدأ في تسطير الكلمات الإنجليزية وكان يقول «شيكن» التّي أعرف معناها، وهي الدّجاجة بصوتٍ عالٍ، ويعيد قولها.

ويظهر أنّ الرّجل الهنديّ لم يستوعب التّرجمة، كان يحرّك رأسه دلالةً على التّأييد:

– يس، يس، شيكن.. يس شيكن... دليشز... دليشز..

من الصّدف أنَّ معلّم اللّغة الإنجليزية، علمنا قبل يومين، معنى ديلشيز وهي بمعنى لذيذ.

التفت «أسد الله ميرزا» إلى خالي العزيز:

– يقول الكونوليل «اشتياق خان» نعم، نعم، نحن نعرف كلَّ هذه التفاصيل ونحترمه كوطنيٍّ ولكن...

تبدّلت ملامح خالي العزيز، وقال بصوت مكتوم:

- يا «أسد الله» هذا الرّجل لم يقل إلّا بضع كلمات، كلُّ هذا جاء من هذه الكلمات؟ أخاف أنّك تتلاعب؟

قال «أسد الله ميرزا» متلافياً:

- يا سيّدي هل أنا أعرف اللّغة الإنجليزيّة أم أنت؟ اللّغة الانجليزيّة، والجميع يعرف ذلك، هي لغة الاختصار والإيجاز...

هناك بعض الكلمات، لو أردت ترجمتها باللّغة الفارسيّة، عليَّ الحديث لنصف ساعة...

ألم تسمع الخطاب الأخير لـ «تشرلشل»؟ خطب ربع ساعةٍ في مجلس العموم، وطالت التّرجمة الفارسيّة والفرنسيّة والعربيّة، إلى أن غفا النّاس.

«مش قاسم» الذّي بقي صامتا لفترةٍ طويلة، لم يعد يمكنه السّكوت:

- لو سألتنا فلن تُضَيِّعَ الطّريق...

يأتي من هؤلاء الإنجليز كل ما تصفه بهم، ذات مرّةٍ حين جاء هذا السرجنت الإنجليزي ذاته ليطلب الأمان منّا، قال لنا فسلخ ثم ديلماج وأخذ يشرحهما لمدة ساعة.

غضب خالي العقيد، وقال بصوت خفيض:

- يكفي يا «مش قاسم»! بتَّ الآن تعرف الإنجليزيّة؟

– والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... نحن نعرف الإنجليز أفضل مما يعرفون أنفسهم.

هل تريد القول أنّنا بعد أربعين سنةً من الحروب مع الإنجليز، لا نعرف لغتهم؟

رحمه الله كان لدينا صديق من مدينتنا...

قال خالي العزيز «نابليون» بشدّة، ولكن بصوت خفيض:

– يا «قاسم» اخرس!... وأنت يا «أسد الله» أوضح الموضوع بسرعة...

اسأله عن الرّسالة التي يحملها لي، وإضافة لذلك قل له: إنّ النّضال يجري في عروقنا.

الحقيقة، أنّ جدنا الأكبر قدَّم روحه في مواجهةٍ مع الأجانب.

أجابه «أسد الله ميرزا» بصوت هادئ:

– ون منت، ون منت، لو تذكر جيّداً، مات الجد الأكبر متأثراً بالوباء.

– لا تُخَرِّف يا «أسد الله»! ترجم ما أقوله لك!

شرع «أسد الله ميرزا» بلعب دورِ المترجم عبر كلمات لا رابط بينها، كان يعيد «لاست غريت آغا» ثلاث مرات.

لم أفهم غير هذه الكلمات ويبدو أنّ الرّجل الهنديّ أيضاً، لم يفقه مثلي، لأن بعض الكلمات كان يقولها بلهجة إنجليزيّةٍ لا غير.

التفتَ «أسد الله ميرزا» إلى خالي العزيز.

- يقول الكولونيل «اشتياق خان»: إنّ الدولة التي يتبعها، تعرف جيداً شجاعة عائلتك، ولكن، اليوم وبما أنّك تعهّدت رسميّاً ألّا تخلف بما قطعته، وبعد الحرب سيدخل ملفُّك وبموافقة المقامات...

في هذه الأثناء، تناهت أصوات عجيبةٌ وغريبة من باحة البيت، وكأن عدّة أشخاصٍ دخلوا في جدل.

فوجئ الحاضرون جميعاً.

اتضّح بين الأصوات صوت «شير علي» المرتفع:

- أقول لك أنَّ السَّيِّد لديه ضيوف.

بعد لحظةٍ استطعتُ التّعرف على صوت «دوست علي» وهو يصرخ:

- ليكن لديه ضيوف، لدي أمرٌ مهم معه.

كانت الأصوات تقترب من الدّرج، فجأةً فتح باب الصّالة.

كان «دوست علي خان» ممسكاً بـ «غياث آبادي» الذي ارتدى بيجامة مخطّطة ويجرّه خلفه:

- سوف أحرق أبـاك... يا عديم الشّرف... عليّ اليوم أن أنهي المسألة معك.

نهض خالي العزيز وصرخ:

– يا «دوست علي خان» ما الذّي يحدث؟ ما هذا الفعل الفاضح؟ ألا ترى أنّنا...

سحب «دوست علي خان» الدّركي إلى جهة خالي العزيز، وصرخ:

– عديم الشّرف، هذا كان من المقرّر أن يتزوج ابنتي المسكينة، ويطلّقها بعد شهرين، و لم يفعل ذلك، والآن ابنتي حامل... ويريدون بيع أرض (أكبر آباد) ويبلعوا ثمنها...

التّحيّة الحارّة التّي تقدّم بها «مش قاسم» لـ «غياث آبادي» خفّفت من حدة الموقف:

– كيف حالك يا «رجب علي»؟... على فكرة في الأمس، جاء «مش كريم» من (غياث آباد)، وسأل عنك فقلت له نحن جيران السَّيِّد «غياث آبادي» ولكنّنا لا نراه...

فكّ الدّركي «غياث آبادي» نفسه من يدي «دوست علي»، وردّ تحيّة «مش قاسم» ثم فطن إلى بقية الحضور:

– أهلاً بك... سامحوني.. هذا الرجل جُنَّ... أنا لا أفهم ألا يحق للرّجل مع زوجته أن...

فارتفع صوت «دوست علي خان» مقاطعا إيّاه:

– أهلاً أهلاً... أهلاً بالسَّيِّد «اشتياق خان»... كيف جئت إلى هنا؟ على فكرة قبل أيام سألت القائد «مهارت خان» عنك...

تجمد خالي العزيز «نابليون» في مكانه:

- يا «دوست علي» هل تعرف الكولونيل «اشتياق خان»؟

نظر «دوست علي خان» بتعجُّب إلى خالي العزيز، وإلى الرّجل الهنديِّ وقبل أن يفطن إلى إشارات «أسد الله ميرزا» وخالي العقيد ضحك:

- يا عريف «اشتياق خان» متى أصبحت كولونيلا... أبارك لك يا سيّد «اشتياق خان»، في تلك المرّة التّي ذهبنا فيها أنا والقائد إلى القلعة كنت عريفا...

تجمّد كلُّ الحضور، لم يكن «اشتياق خان» يتوقّع ما حدث، كان ينظر إلى «أسد الله ميرزا» متحيّراً، وإلى أبي وخالي العقيد، ولكنهم كانوا متفاجئين، ولا أحد يقدّم له العون، وأصر «دوست علي خان»:

- «اشتياق خان»، لماذا أنت متحيِّر... ماذا حدث؟

قال الرّجل الهنديُّ بلهجةٍ هنديَّة، ولكن بلغة فارسية:

- ماذا أقول لك... أنا اليوم جئت لأرى السَّيِّد.

وضع خالي العزيز يديه على ذراعي الكرسي، ارتجف كلُّ جسده، وبات وجهه مخيفاً زاد من رجفته، ثم تهالك على الكرسي وهو يكرّر:

- خيانة... خيانة.. التّاريخ يعيد نفسه...

ارتبك الجميع، ركض خالي العقيد إليه:

- يا أخي.. أخي...

قال خالي العزيز وعيناه شبه مغمضتين، وهو يرتجف:

- خيانة.. خيانة... أخي.. «لوسين بوَنابرت»!

صرخ أبي:

- يا سيدي.. كيف حالك؟

- خيانة.. خيانة.. زوج أختي... «مارشال مورا»!

- ون منت ون منت، من خانك؟ لماذا لا تستوعب؟...

- اخرس! جنرال «مارمون»!

أراد «مش قاسم» التّدخُّل. فصرخ «أسد الله ميرزا»:

- أنت اخرس. أنت الجنرال «غروشي» ملفُّك أسوأ من الجميع.

فجأةً علت صرخة خالي العزيز في الغرفة:

- خيانة... «بوري»! «شير علي»! هجوم!...

إثر هذا الأمر تفاجأ الجميع، ورغم أن الرّجل الهنديَّ لم يفهم معنى أمر هجوم خالي العزيز، ولكنّه قلقٌ من ردّة فعلنا، وكان يستفهم بالإشارة عمّا سيفعله من «أسد الله ميرزا» وأبي.

رأيت أن اختبائي لا فائدة منه، فخرجت إلى الغرفة، وقفت على العتبة متفاجئاً، فسمعت «أسد الله ميرزا» يهمس للعريف الهنديِّ:

- يا قائد انج بحياتك، الأوضاع ميؤوس منها.

وسحبه إلى الباب.

صادف في الطّريق «شير علي» وهو ينزل من الدّرج:

- انتظر يا سيّدي، أنا من سوف يعطيه حقّه.

ورفع فخذ خروفٍ مثل عصا فوق رأسه.

لقد أقسم وعاهد «شير علي» منذ آخر زيارةٍ له إلى (مشهد)، ألا يرفع السّاطور مرّة أخرى.

قبض «أسد الله ميرزا» على ذراع «شير علي» وهمس:

- ون منت، هل جننت يا «شير علي»... الضّيف حبيب الله...

- والله قال لي سيّدي ما إن أناديك تعال وخذ حقّي منهم.

- يا «شير علي» أين عقلك؟ هذا القائد صديق السَّيِّد.

اصفرَّ وجه الرّجل الهنديّ، وكان مجبراً عند الحديث مع «شير علي»، على أن يرفع رأسه للسّماء، ويقول بصوت راجف:

- قسماً بك، ليس لدي خصومةٌ مع أحـد... السَّيِّد صديقي الطّيب... السَّيِّد بمثابة روحي...

ابتعد «شير علي» عن طريقهما، في هذه الأثناء، ظهر «بوري» من خلفنا، وأعتقد أنّه كان يحتاج للذّهاب إلى دورة المياه، ومع تصاعد الأوضاع، قال:

- عمي «أسد الله»، دع الهنديَّ لي.

هجم عليه «أسد الله ميرزا»:

- اخرس! والآن هذا أيضاً تحوَّل إلى الجنرال «رومل»...

ولأنّه رأى «بوري» يريد إصابة الهنديِّ، قال لـ «شير علي»:

- «شير علي» أوقف هذا الولد حتّى أعود.

حين بات جسد «بوري» الطّويل والنّحيف، على يمين «شير علي»، نزل «أسد الله ميرزا» الدّرج مع الرجل الهنديِّ راكضاً.

كان «بوري» يرسل الشّتائم، بينما ركض الاثنين نزولاً، وهو يضرب كفّاً بكفٍّ: «هل ظننت يا محتال!... حسناً فعلت بك!... سوف أحرق والديك».

حين خرج الرّجل الهنديُّ إلى باحة البيت، وعاد «أسد الله»، أعاد عقل «بوري» بكلمتين.

- يا أحمق، لو رفعت يدك على هذا الهنديِّ، لأطلق الإنجليز عليك في معسكرهم طلقتين في رأسك..

- يا عمّي، الحقيقة أنا لم أكن أنوي ضربه... أردت أن يسمع عمّي صوتي فقط... إذاً، أنت أجب عمّي.

- حسناً، أنا من سيجيب عمّك، والآن اتركه يا «شير علي»... واذهب أنت للباحة.

كنت أخطو مع كلّ حركات «أسد الله ميرزا»، وعدت معه إلى الصّالة. ثبّت أبي وخالي العقيد، وبمساعدة «مش قاسم» خالي العزيز، وكانوا يجرّعونه (الكونياك).

جلس الدركي الـ «غياث آبادي» و«دوست علي خان»، متعجّبَين ممّا يرونه.

مع سماع خالي العزيز، صوت «أسد الله» فتح عينيه:

- «أسد الله» ماذا حدث؟ ماذا فعلت؟

- لن تصدّق كيف هرب... الحقيقة تراجع فاضح... أنهيته... قطّعته...

وكأن خالي العزيز فطن إلى خيانة البقية من حوله، ففتح عينيه على وسعهما، عادت شفتاه إلى الارتجاف، ثمّ صرخ بما بقي له من قوّة:

- لا أريد وجوهكم الخائنة.

أراد خالي العقيد، أن يتدخّل، لكنّ «أسد الله ميرزا» لم يمهله:

- يا سيّدي قسماً بروحك... قسماً بروح جدّنا الأكبر، لقد خُدِعْنا نحن أيضاً.

- وهل أنتم إلى هذه الدرجة حمقى؟... هل أنتم...

قاطعه «أسد الله ميرزا»:

- ون منت، ون منت... هل علينا أن نوَضِّح لك أنت، مكر وحيل الإنجليز؟... هؤلاء يخدعون الفلك...

أتظنّ أنّ من خدع «هتلر» لا يمكنه خداعنا؟

الكلام كلام، من الجنس الذي يستخدمُه خالي العزيز، وأثَّرَ فيه على أفضل صورة.

قال بصوت مكتوم:

– يا مساكين! حين أوصيكم ألّا تغفلوا عن مكر وحيل هذه الثعالب تضحكون عليّ!

تنفس الحضور الصّعداء، «مش قاسم» الذّي يبس حلقه أمام هذه الأحداث العجيبة، وغير المتوقعة قال:

– يا سيّدي! أنّى لهؤلاء أن يفهموا ما تقوله!؟

قسماً بالله لو كنا مكان «هتلر»، لَلَوى ذراعَ الإنجليز... وأعطاهم حقّهم.

من حسنِ الحظّ، تَدَخُّلُ «مش قاسم» هذه المرّة، كان في محلّه لأنَّ آثار الطمأنينة ظهرت على خالي العزيز.

ولكنَّ «مش قاسم» لم يسكت:

– والله لِمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... لم أر في حياتي كلّها فعلاً، عديم شرفٍ مثل هذا، يرسلون عريفاً هنديّاً بدل رئيس الإنجليز؟

فتح خالي العزيز عينيه، بعد أن كان أغلقهما للحظة، وقال:

– تعمّدوا ذلك... تعمّدوا...

ثم قال وصوته يرتفع:

- أرادوا خِداعي بالحوار مع عريفٍ لكي يمسحوا الأرض بحيثيتي، وبمكانة عائلتي.

أرادوا تحقيري... وهذه إحدى خطط انتقامهم.

قال خالي العقيد بقلق:

- يا أخي... يا أخي، اهدأ، لا تُتْعِب نفسك، سوف تُجْهِدُها.

صرخ خالي العزيز:

- كيف لا أقلق؟

كيف أسكت؟

أمام هذه المؤامرة الكبيرة كيف أهدأ؟

يرسلون لي عريفاً هندياً، ليكتبوا غداً في التّاريخ، أنّ المناضل الكبير سلّم سيفه لعريف هنديٍّ...

قال أبي:

- الآن، والحمد لله فشلت مؤامرتهم...

قال خالي العزيز بصوت خفيض:

- كانت يد القدر، لم يودَّ الإله مارس، إله الحرب أن يسقط آخر مقاتل، لو لم يصل «دوست علي»...

قاطعه «مش قاسم»:

- نعم، نعم،... لو لم يصل ابن مدينتي فما الذّي كان سيحلّ بنا! ها هم مرّة أخرى الـ «غياث آباديون»، الـ «غياث آباديون»!

ألقى خالي العزيز، نظرةً على «دوست علي» وقال:

- اقترب منّي... تعال اجلس... إذا كان الله قد أعمى أعين هؤلاء فعلى الأقل رمى في قلبك أن تأتي لتنقذني، من وسط هذا التهوّر المخيف!... أنت رجلي.

«أسد الله ميرزا»، الذي كان يتابع المشهد بتعجُّب همس لأبي:

- هل ترى ما أرى؟ والآن نحن من بات الأسوأ، يد «دوست علي» الحمار باتت يد الإله مارس المباركة.

أجابه أبي:

- لا يهم... دعه يهدأ... وليكن «دوست علي» إله الحرب.

سكب «أسد الله ميرزا» كأساً أخرى من (الكونياك) لخالي العزيز، وبعد العاصفة حلت حالة هدوء.

في هذه اللحظة ظهر «بوري»، ولكن، وقبل أن تسقط عين خالي العزيز عليه ركض نحوه «أسد الله ميرزا» وقال له:

- اخرج.. سيراك السَّيِّد ويتذكَّر ما مرّ به.

ابقَ دقيقة في الخارج.

وأغلق خلفه الباب، بينما كنت أقف أنا بعيداً عن خالي العزيز، وقد أشار إليّ «أسد الله ميرزا» ألّا أبارح مكاني.

اتجه خالي العقيد إلى «أسد الله ميرزا» وقال له:

– يا «أسد الله»، ماذا سيحلُّ بسجادتي؟

– ون منت، ون منت، يا عقيد! هل تريد إشعال حدثٍ آخر؟ تقول أنك مستعدٌّ للتّضحية بروحك من أجل أخيك...

– ولكن يا أمير، ولكن هذا الرّجل الدّجال لم يقم بشيء، وهل أنا أُقَدِّمُ نذوراً هباء، لأعطي سجّادة أصفهانيّة للعريف «اشتياق خان»؟

رفع «أسد الله ميرزا» حاجبيه وأجابه هامساً:

– حسناً خذها منه، لا تقلق.

– وكيف سأجده؟

– والله، أخبرك، سماحتك المنوّرة أن... بالطّبع، فالعريف الذي قبل هذه اللّعبة، من المقرر أن يسافر اللّيلة.

ولكن لا تحزن، سلّمني عنوانه، أكتب غداً رسالة على عنوان القائد «اشتياق خان» جبهة العلمين دبابة رقم ٢٣٨.

قال خالي العقيد، وهو يضغط على الكلمات:

– أغرب عن وجهي.

– ون منت، بالطّبع هذا إذا وصلت له الورقة و لم يكن ميتا! ولديك طريقة ثانية، وهي أن تطلب من السَّيِّد إعطاءك سجّادة اصفهانيّة.

– بقي هذا، أن أخبر أخي أني سلّمتُ رشوةً لعريفٍ هنديٍّ ليتفاوض معك بدل الإنجليز! وهل أنا متنازل عن روحي؟

– سيِّدي العقيد، الدُّنيا مرّةً فوق، ومرّةً تحت... فيها انتصار وخسارة.

ألقى خالي العقيد نظرة عليه، واتّجه نحو المتحلّقين حول خالي العزيز.

-٢٤-

حين أغلق خالي العزيز عينيه، فتحهما مرة أخرى.

هدأ الآن...و قال بصوت خفيض:

- رأيت الكثير من هذا... حتى «نابليون» الذي تجرّع طوال عمره سُمَّ الإنجليز، حين استقال للمرّة الثانية بعد حادثة (واترلو)، انطلت عليه خديعة الإنجليز، وترك مصيره بين أيديهم... وَعَدُوه... ولكنّ نهايته كانت في جزيرة (سنت هلن).

دمي ليس أكثر احمراراً منه...

ثم كأنّه أراد تغيير الموضوع كلّيّاً، التفت إلى دوست علي:

- حسناً، يا «دوست علي» ما هي مشكلتك مع الدّركي «غياث آبادي»؟

قال «دوست علي» وهو يضرب بإصبعه على الطّاولة مهدِّداً:

- أنت كبير العائلة... عليك أن تحدّد مصيري مع ابن الحمار هذا، أو تسمح لي عن طريق القانون، أن أحفظ روحي، ومالي، وشرف هذه العائلة.

الدّركي «غياث آبادي» الذّي تظهر عليه آثار تدخين التّرياق، قال بكل برود:

- أولاً ابن الحمار هو من قالها، ثانياً، متى تعرَّضْتُ لروحٍ ومالٍ وشرف الأخ؟

تدخّل «مش قاسم» قائلاً:

- والله، إلى الآن لم أسمع أنّ «غياث آبادي» تعرّض لشرف أحد... لَم الكذب؟ لن تجد في هذه الولاية كلّها، من يعبد الشّرف كالغياث آبادي؟

ورغم محاولة «دوست علي» السّيطرة على أعصابه، انفجر في وجه «مش قاسم»:

- اخرس أنت! تبّاً لكلِّ الغياث آباديين!

«مش قاسم» الذي قليلاً ما يفقد أعصابه، قال مهدِّداً:

- يا سيّدي، احترامك بيدك! صِفْني بما تريد، ولكن شرف الـ «غياث آباديين» ليس مزحة.

وقعت عيني على «أسد الله ميرزا»، تلاشت عنه ملامح القلق، وعادت على وجهه ابتسامته الفضوليّة.

- ون منت، ون منت، يا سيّد «دوست علي» الحق مع «مش قاسم»... لا تتدخل في شرف الـ «غياث آبادي»، فأنت بطل الشّرف وعليك...

تعالى صوت خالي العزيز:

- سكوت!... شخصان اختلفا.. في المقابل كبار العائلة طرحوا الموضوع، يجب حلّ الموضوع بينهما بعدالة.

الرجاء دعوا الطرفين يطرحان ما لديهما، أكمل يا «دوست علي» ولا تدخل في الهوامش!

أراح تشدد خالي العزيز الجميع، لأنّه على ما يبدو تناسى قضية الإنجليز.

قال «دوست علي»، وهو يحاول أن يسيطر على أعصابه:

- قلنا في السّابق، ومن أجل الحفاظ على شرف العائلة أن يتزوّج هذا الرجل البنت، ويطلّقها بعد شهر، ويستلم أيضاً ألفي تومان... وحصل ذلك... ودعونا من أنه...

الدّركيّ «غياث آبادي» الذّي كان مشغولا بأكل الغز[٢٣] قاطعه:

- سلّمتني ألفين تومان، ثم صفّينا الحساب.. إضافة إلى...

- ما الذي تقوله يا عديم الحياة... كيف أعدتها؟

قال الدّركيُّ بكل برود:

- كنت لخمس سنوات في منزل زوجتي وإيجارك في الشهر مئة تومان... فلنقل: خمسون تومان... الخمس سنوات تعادل ثلاثة آلاف تومان، أي يتوجّب عليك دفع ألف تومان إضافيّ.

٢٣- الغز: حلوى أصفهانيّة معروفة.

انحشر الصّوت من شدّة الغضب في فم «دوست علي».

همس «أسد الله ميرزا»:

– لا يا سيّدي، الإيجار على الأقل مئة تومان... لقد حسبتها جيدا! ستة آلاف تومان على الأقل!

مسّ غضبُ «دوست علي» «أسد الله ميرزا»:

– اخرس يا «أسد الله»!

– ون منت، هل قلتُ شيئاً، السَّيِّدُ الدَّركيُّ أخطأ في الحساب، فذكّرته.

قال خالي العزيز بعصبيّة:

– «أسد الله» اسكت.

ولكنّ «مش قاسم» فتح فمه:

– الآن لو أردت فهي أكثر من مئتي تومان، لدي صديق من مدينتي...

قال «أسد الله ميرزا»:

– «مش قاسم» دع «دوست علي خان»، يكمل كلامه... كان يتكلّم عن التَجاوز على الشرف.

قال الدّركيُّ وهو يحاول شطر الغز نصفين بسكِّين:

- نعم، تفضل على أي شرفٍ تجاوزت.

قال «دوست علي خان»، وهو يرتجف من شدّة الغضب:

- يا سيِّدي هل ترى الوقاحة إلى أين وصلت؟ هذه الفتاة المسكينة والمريضة...

قاطعه الدَّركيّ:

- المريض والمسكين أنت! لو كان قصدك زوجتي...

صرخ خالي العزيز «نابليون»:

- يا سيِّد الدَّركي، أنت تعمل في الأمن ويجب أن تكون مطِّلعاً على قواعد المحاكمة.

الحقيقة تقام الآن محاكمة عائلية، إذا لم أسمح لأحد بالكلام لا يحق لك التدخل، سوف يحين دورك... أكمل يا «دوست علي».

- هذه الفتاة المسكينة والمريضة، خدعها إنسان فاقد لكل شيء، وغريب...

تدخَّل الدّركيُّ مرّة أخرى:

- يا سيّدي، هل تسمع ما يقوله من تُهَمٍ؟!

ثمّ نظر إلى السقف وأكمل:

- أوّلاً، فاقد لكل شيء هو من قالها، ثانياً، ليس من فعل بها ذلك غريباً.

نهض «دوست علي» من كرسيه مهدّداً:

– ليس غريباً؟ هل تعرفه؟ هل تعرفُ أنت من وضع نطفة في هذه الفتاة المسكينة؟

قال الدّركيُّ وهو يضع قطعة غزٍّ في فمه:

– نعم أعرفه... أنا!

– أنت؟ يا كاذب!

– قلت الحقيقة بذاتها.

كانت الفرحة تتماوج على وجه «أسد الله ميرزا»، الذّي قال:

– ون منت، يا سيّد «دوست علي خـان» العقل والمنطق من الحسنات! السَّيِّد الدّركي يقول بنفسه أن الطّفل له، وأنت تقول إنه لشخص مجهولٍ؟ فإمّا أنّك تعرف صاحب الطّفل، أو تقبل ما قاله الدّركيُّ.

تحوّل «وجه دوست علي» كطماطم من شدّة الغضب، وكان صوته يخرج بصعوبة:

– ولكن؟ متى؟ هذا الرّجل لا يعرف «قمر»، كيف حدث ذلك و لم نعلم به؟

أجاب الدّركي بكلِّ هدوءٍ:

– أين لا يحتاج إلى شيء يذكر؟ منذ عامين حين جئتُ مع النّائب

«تيمور خان» لرؤية جنازتكم تعلّق قلبي بـ «قمر»... أردنا بعضنا... أيَّ ليالي كانت... وضوء القمر!

قال «أسد الله ميرزا» وهو يكتم ضحكته:

- وتقول كيف وأين، لا يقومون بـ (السّان فرانسيسكو) أمامك؟... (سان فرانسيسكو) مدينة لا يدخلها إلّا شخصان، إذا كانوا ثلاثة فعليهم الذهاب إلى (لوس آنجلس).

«دوست علي» الذّي يكاد ينفجر، صرخ:

- «أسد الله»... ألم يقل أمامك أنّه لا فائدة منه، تلقّى رصاصةً على ذلك العضو الوسخ!

- ون منت، والآن على القضاة أن يميِّزوا أيَّ عضوٍ من الطّرفين أنظف من الآخر، أنا رأيي للدركي.

ضغط خالي العزيز «نابليون» على أسنانه، أراد مقاطعة حديثهم بهيبة، ولكن لم تواته الفرصة، كان «أسد الله ميرزا» يسافر في الجنّة من السّعادة، فالتفت إلى الدّركيِّ راسماً التَّعجُّب على وجهه:

- ون منت، هل قلت كلَّ ما لديك؟

أنا لا أذكر أنّك قلت بأنَّ عضوك أصيب بطلق ناري.

ضحك الدّركيُّ وقال:

- في الواقع قال الرّجل الحقيقة.. أنا قلت ذلك.

صرخ «دوست علي» في وجه خالي العزيز:

– هل تسمع؟ هل تسمع؟ اعترف بنفسه!

– ولكن قبل أن يجيب خالي العزيز على السّؤال، قال الدّركي بكلّ هدوء:

– الحقيقة هي، حين أحضرتموني للبحث عن السّاعة المفقودة، مع «تيمور خان» إلى البيت... ظننتُ أنّكم فطنتم أنّي تركت طفلاً في قمر، وتريدون تقديمي للعدل لكي أسجن،... فأنا أستاذ في هذه الأمور، إذ قبضت على ألف مجرم، فقلت: ضُرِبْتُ بطلقٍ ناري لكي لا تشكوا فيّ وتسلّموني إلى العدالة والشّرطة...

«مش قاسم» الذّي سكت لفترة قاطعه:

– يا إلهي! ما هذا العقل والكمال؟ بوركت «غياث آباد»! قلت إنَّ الغياث آباديين لا مثيل لهم في الرجولة...

لم يستطع «أسد الله ميرزا» السّيطرة على نفسه، أطلق ضحكة عاليةً وقال:

– عاش... الدّركي «غياث آبادي»... منذ اليوم أنت مواطن فخري في مدينة (فرانسيسكو)!

شاركه الدّركيُّ وقال:

– أرجوك يا صاحب المعالي!... هذا لطف منك.

نهض خالي العزيز:

- يا سادة، هل وصل الاجتماع إلى الضّحك والمزاح؟... «أسد الله»!... الدّركيّ! سكوت.

ثمّ التفت إلى «دوست علي خان»:

- أكمل يا «دوست علي»!

ولكنَّ «دوست علي خان» بقي صامتاً مثل من صعق، اسودَّ وجهه، فأطرق خالي العقيد رأسه.

كنت أعرف أن السّجّادة الأصفهانية لم تغادر تفكيره، ولكنَّ ملامح السّعادة بانت على وجه أبي.

بدأ الدّركيُّ «غياث آبادي» هجمةً مرتدّةً شديدة:

- أنا أحبُّ زوجتي، وزوجتي تحبُّني، ولدينا طفل... والثّاني في الطّريق.

كلُّ هذا في عين السَّيِّد «دوست علي خان» عيوب لا تُغتفَرُ، ولكن أن يدخل وحده يوم الأربعاء على امرأةٍ متزوّجة وفي غياب زوجها أمر لا عيب فيه...

خرج «دوست علي» من شلله وصرخ:

- أنا... كنت في بيت امرأة متزوجة؟

قال الدّركيُّ بصوتٍ لا يغادره الهدوء:

- هل تسمح لي أن أدعو «فاطم»؟

«فاطمة» بنت البنات وخالة «قمر»، لنسألها في يوم الأربعاء من الذي خرج بخفاءٍ من منزل «شير علي القصّاب»؟

تيبّسَ «دوست علي خان» مرّةً أخرى في مكانه، وارتسمت إبتسامة كبيرة على وجه «أسد الله ميرزا»، فأخرج نظّارته من جيبه ووضعها على عينيه.

وحين كان يحدِّق في وجه «دوست علي خان» قال بلهجة محرِّضة:

- «دوست علي»؟... نعم؟... في النّهاية كان (سان فرانسيسكو) مع «طاهرة» زوجة «شير علي»؟ حّتى المدينة نفسها؟

- اخرس يا «أسد الله»!

- ون منت، «دوست علي»! النّجاة في الصّدق!... اعترف وإلّا سوف يرسل الدّركيُّ خلف «فاطم»!

- «أسد الله» لو أنزلتُ بك مصيبةً لا تلمني!

- ون منت، ون منت، ون منت، سيمو.. مبروك!... هل كانت زوجة «شير علي» قليلة عليك، لتأتي إليّ الآن وتنزل فيّ مصيبة؟...أيّ أقراصٍ تتناول لتمتلئ بما أنت فيه.

ارتفع صوت خالي العزيز:

- «أسد الله»! «أسد الله»!

في هذه اللّحظة سحب «دوست علي» علبة الغزّ ورفعها مهدِّداً أنّه سوف يرميها على «أسد الله ميرزا»:

- سأحطّم رأسك بها!

لملم «أسد الله ميرزا» ضحكته وقال:

- نعم، نعم، لم أفهم!...

ثمَّ قفز من مكانه متجهاً إلى النّافذة وصرخ:

- «شير علي»... يا «شير علي»...

صاح خالي العزيز «نابليون»، وتقريباً كلُّ الحضور:

- «أسد الله»... دعه..

قال «أسد الله ميرزا» مكمّلاً:

- يا «شير علي» أرجوك، أحضر لنا الشّاي.

سيطر صمت على الغرفة، استغلَّ «مش قاسم» الفرصة:

- والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... أنا هنا منذ أربعين عاماً لم أرَ إنساناً مثله عديم الشّرف... أقسم بالله لو شمّ «شير علي» رائحة... هل تعرف يا سيد «دوست علي»، أحضر اليوم «شير علي» معه كتف خروف...

بعد لحظاتٍ دخل «شير علي» بقامة غول وهو يحمل صينية الشّاي:

- السّلام عليكم.

وبينما كان الجميع يأخذون أكواب الشّاي، ويضعون قطع السّكر فيها بانت على وجه «أسد الله ميرزا» ملامحٌ جادّة، وكأنّه يريد فتح موضوع، قال:

- نعم كما قلت مثل هذه القضايا لها منحرفاتٌ صعبةً... حسناً، النّاس المحبون لشرفهم يغضبون، وإن كانوا رفيعي المستوى أو أدنياء، أثرياءٌ أو باعةٌ لا فرق،.. مثلا لنفترض «شير علي»...

وبعد وقفةٍ، وجّه كلامه لـ «شير علي»:

- يا سيِّد «شير علي»... أسألك... لتفترض أن لديك صديقٌ... ورأيت رجلاً غريباً دخل بيته، ماذا سيصيبك هذا المنظر؟

قال «شير علي» وهو يصكُّ على أسنانه:

- يا صاحب السّعادة، أرجوك لا تتطرّق لمثل هذه المواضيع، ما إن تتطرّق لها، حتّى أشعر أنّي أريد هدم هذه الجدران بهاتين اليدين، أنزعُ هذه النّوافذ والبابَ من مكانها...

نسي «شير علي» أمر الصِّينية والكوب بين يديه، وحرّك يديه موقعاً إيّاها على رأس خالي العقيد وعلت صرخة «احترقت».

اهتزّت شفتا خالي العزيز «نابليون»، اصفرَّ وجهه، وفيما هو يحاول القيام صرخ:

- قلت: يكفي! يكفي!... هذه أيضاً مؤامرة منهم، هذه ضربة أخرى، يريدون تحطيم عائلتي، يخافونني فيضربون عائلتي...

يا إلهي إلى متى عدم الرّجولة هذا!

وبين الضّجة التّي حدثت سقط خالي العزيز مرّة أخرى.

«بوري» الذي دخل الغرفة إثر صرخة أبيه كان يكرّر:

– من فعل ذلك؟ من أحرَق أبي؟

في النّهاية صرخ «أسد الله ميرزا»:

– يا ابن الحمار بدل أن تطلب الطّبيب جئتنا تصرخ! وليكن من يكون! ما الذي تريد فعله به؟ لم يفعل ذلك عمداً،...

كوب الشّاي سقط خطأً من يد «شير علي» على أبيك، والآن أحضر الحقنة لتضعها فيه.

– إذاً، لأحضر الطبيب.

– نعم اذهب... إذا ابتعدت ولم يسمع صراخ فسوف يشفى المريض.

ذهب «بوري» خلف الطبيب.

كان «أسد الله ميرزا» و«مش قاسم» يدلّكان رجلي ويدي خالي العزيز «نابليون»، لم يلتفت أحدٌ إلى حروق خالي العقيد، وحده «دوست علي خان» قال:

– كلُّ هذا سببه عديم الشّرف! هذا الرجل إضافة إلى تجاوزه وخداعه هو قاتل... هل ترى كيف أصاب عين العقيد!

مازال الدّركيُّ يجيب بكلِّ هدوءٍ:

– لم تكن لي علاقة، يا سيد يا محترم؟ هل أُعَرِّفُك...

صرخ «دوست علي خان»:

– الآن سوف أريك من تواجه! تحرق وجه العقيد؟

– أنتظر ما ستفعله.

ثمّ همس:

– غريب! زوجتي حبلى ما دخل الموضوع باحتراق وجه العقيد؟ وهل أنا حنفية السّماور؟

تلقّف «أسد الله ميرزا» كلمته في الهواء:

– الحقُّ مع الدَّركيِّ، وهلِ هو حنفية سماور؟... وإن كان لديه كان عليه عدم إحراق وجه العقيد، إلّا إذا كان والعياذ بالله أن...

أطلق «دوست علي» صرخة:

– اخرس أنت يا «أسد الله»!

وبدل أن يجيبه «أسد الله ميرزا» التفت إلى «شير علي»:

– «شير علي» لا تتركنا وحدنا... لدي حاجة عندك، تفضّل الآن تحت حتّى أناديك.

هربت الدّماء مرّة أخرى من «دوست علي خان» حين انتبه إلى وجود «شير علي»، فقال برقة:

- أسد الله، ليس هذا وقت المزاح، ألا ترى السَّيِّد سقط مغشيّاً عليه... العقيد احترق!

خرج «شير علي» من الغرفة وتحدّث خالي العقيد، وهو يتألم من الوجع:

- من يشعر بألمي؟ من يهتم بي أنا؟

- لا تقل ذلك يا عقيد، الجميع يفكّر بك، ولكن صحة السَّيِّد ليست على ما يرام، بداية علينا الاهتمام به.

قال خالي العقيد وهو يتألّم:

- وهل حالتي حسنة؟ كأن وجهي وضع في تنور.

- أبعد يدك لنرى ما حدث...

في هذه الأثناء، دخل «بوري» منقطع الأنفاس، وقال: إن الدّكتور «ناصر الحكماء» ليس في المنزل.

وحين كان أبي و«مش قاسم» يسكبان العصير في فم خالي العزيز «نابليون»، أبعد «أسد الله ميرزا» يد خالي العقيد بصعوبة عن وجهه، كانت شفتاه وفكّه محمرّين قليلا.

قال «أسد الله» ساخرا:

– واه ياه... أنظروا سقطتْ جلدة وجهه!

«مشِ قاسم» الذّي أخذ الكلام بجدّيَة، وحتى قبل أن يرى ما حدث جيّداً قال:

– يا أبتاه!... وجه العقيد بات يشبه أعزّكم الله الـ...

أحسَّ «أسد الله ميرزا» أنه أراد تشبيه وجه خالي العزيز بشيء فقاطعه:

– «مش قاسم» لماذا تتسرع؟

كنت أمزح، انظر احمرار بسيط.

ولكنّ «مش قاسم» لا يتراجع:

– والله يا سيّدي، لمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... نحن في أمور الحروق لدينا خبرة أطبّاء وحكماء، فلا دواء لمثل هذا الحرق إلّا دواء واحد فقط.

قال خالي العقيد بقلق:

– ما هو؟ ماذا علي أن أفعل؟

– والله يا سيّدي لمَ الكذب؟... أعزَّك الله، وبعيدٌ عنك الحلُّ هو أن تدلِّكه بمني فتىً غير بالغ.

أراد «أسد الله ميرزا» الاعتراض، ولكنّه تراجع، وبعد لحظة قال:

– أنا أيضاً سمعت، ولكن من أين نأتي الآن بفتى غير بالغ؟

– أعتقد، ولو كان بالغاً لا يهمُّ، يجب ألّا يكون كبيراً في السِّن... لو سألتني، أيْ لو وزنّاها بالعقل ما يحمله السَّيِّد «بوري» لا يخلو من خاصية.

تصاعد صراخ خالي العقيد إلى السّماء:

– اخرسوا!... تريدون الآن وضع كل الوسخ على وجهي... بدل هذه الخرافات أحضروا لي القليل من السّمن، زيت اللّوز، أو الخروع... أحضر لي زيتاً.

كان «مش قاسم» على وشك الخروج:

– حاضر... ذهبتُ... ولكنْ، لا شيء منها فيه مثل ذلك الإكسير الذي وصفتُه لك.

قال «أسد الله ميرزا»:

– لا يضرُّ، جرّبوه.

اعترض «بوري» بصوت قبيحٍ:

– لا تتفوّه بمثل هذا الكلام... أنا لست مستعدّاً...

أوشك خالي العقيد على الصّراخ، ولكنَّ «مش قاسم» اقترب منه حاملاً ملقعة زيت.

– والله يا سيّدي، لا يُوجد لدينا زيت لوز أو خروع، أحضرت من المطبخ زيت (كرمانشاهي).

بعد أن ارتاح باله حين وضع على وجهه الزّيت قال:

– لأذهب إلى جهنّم... فكّروا بحلٍّ لأخي.

قال أبي:

– لا تقلق على السَّيِّد.. تحسَّنتْ أنفاسه... سوف يصحو الآن، ومن الأفضل أن تخرجوا ليرتاح، سوف يتحسّن.

قال «أسد الله ميرزا»:

– برأيي من الأفضل أن نترك الغرفة، وتخفُّ الأصوات هنا..

– تعال يا «بوري»، تحرّك يا «دوست علي».

جلس «دوست علي خان» علي كرسيٍّ وقال:

– أقسمت ألّا أخرج من هذه الغرفة حتّى يتّضح كلُّ شيء مع هذا الرّجل، سوف أبقى إلى أن تتحسّن حالة السَّيِّد ليوضح الأمور مع نسيبه المحترم هذا.

علا صوت الدّركيّ «غياث آبادي»:

– وأنا كذلك!.. سأبقى هنا حتّى يحدِّدَ السَّيِّد ما سيفعله مع أعضاء عائلته المحترمين.

قال «أسد الله ميرزا» بلهجةٍ حادّة:

– «دوست علي» إلى الخارج!

- قلت لن أبرح مكاني!

- لن تبارح!... ون منت، ون منت، يا «شير علي»!

- لا تمثّل لي دور البطل!... ناده ولنر هل تجرؤ على ذكر اسم زوجته؟

تدخّل «مش قاسم»:

- أرجوك يا صاحب السّعادة! إذا لم يستطع «شير علي» أن يقف أمام زوجته إلى الآن، فذلك لأنّه لا أحد يجرؤ على إخباره بما تقوم به زوجته!

هل نسيتم المعلّم غلام؟ الخباز؟

دعونا عمن سيخبره، البيت الذّي سينتهي إليه الخبر سيحرقه!

وقبل أن يجيب «أسد الله ميرزا»، تصاعدت آهة من خالي العزيز «نابليون». التفَّ الجميع حوله.

بعد لحظاتٍ، فتح خالي العزيز عينيه، أخذ ينظر متعجِّباً حوله، ثم قال بصوت لا يسمع:

- لا أعرف لَمَ أنا هكذا!..

ثمَّ وكأنَّه تذكر ما حدث:

- العريف... العريف الهنديُّ بدل الكولونيل!

قال «أسد الله ميرزا» بسرعة:

– ون منت، يا سيّدي... لقد انتهى ذلك الموضوع، لقد قمنا معه بالواجب، وخرج مخزيّاً من البيت... انس الأمر!

بقي خالي العزيز صامتا للحظة ساهياً، ثم همس بصوت غير مسموع:

– طردتموه... طردتموه... حسناً فعلتم.. جيد... أنا... انتهيت ولكن أنتم لا ترضخوا! سوف نحارب سويّاً، كتفاً بكتف، ظهراً لظهر... وسوف نُؤْسَر سوياً.

قال خالي العقيد بقلق:

– أخي.. أخي...

ولكن خالي العزيز كأنّه لم يسمع صوته، إذ تابع يقول والنّظرة الحائرة لا تفارقه وبنفس الصّوت:

– سوف نؤسر سوياً ولكن بفخرٍ... بشرفٍ! سوف يُكتب في التّاريخ (قائد كبير قاوم بكل قوته)...

– يا أخي.. يا أخي!

التفت خالي العزيز «نابليون» إليه، ثم سأله بكل هدوء:

– لماذا دهنت وجهك بالزّيت؟

– الحقيقة احترق وجهي!

– احترق؟... احترق؟... مرحى!... احترق بفخرٍ وليس بذلٍّ!

ثم نظر لمن تجمّع حوله:

- هل رأيت يا «دوست علي»؟... هل رأيت كيف يحيا قائدٌ كبيرٌ؟... أنت أيضاً سوف تؤسر معي، ولكن بعزّة!

صمت خالي العزيز للحظة، وتبادل الجميع النّظرات بقلق، فكسر صوت «دوست علي» الصمت:

- يا سيّدي، أنا الآن أسير! أسير «شمر بن ذي الجوشن» هذا... بقيتُ هنا لتُحدِّد لي مصيري مع هذا الرّجل! مع جناب الدّركيّ «غياث آبادي»!

- الدّركيّ «غياث آبادي»؟... الدّركيُّ معنا أيضاً في الأسر؟... أيها الرّجل العزيز!

الدّركيُّ الذّي حدّق محتاراً في خالِي العزيز، همس:

- لا، لقد جنّ الرّجل!

في هذه اللّحظة، وجّه «دوست علي» ضربة قوية لرقبته:

- أبوك المجنون، يا عديم الخجل!

وردّ الدّركيُّ بضربةٍ على رقبة «دوست علي»، واشتبكا، ولكنّ صوت أبي وخالي العقيد فصلهما.

في هذه اللّحظة، نهض خالي العزيز بصعوبةٍ، وكأنّه لم يسمع ما حدث وأخذ بالسير سريعا:

- لنذهب، لنُعِدَّ أنفسنا للرحيل!

ركض الجميع نحوه.

- ون منت، ون منت، تريد الذّهاب يا سيّدي... اسمح لي أن أساعدك!

قال خالي العزيز «نابليون» دون أن ينظر له، وبنفس الهدوء والاطمئنان:

- أسد الله، هذا أنت؟... لنذهب ونُعِدَّ الرِّحال، ولكن باعتزازٍ يا أسد الله! الأسر هو ما ورثناه... ولكنّه الأسرُ بفخرٍ!

سار خالي العزيز بينما كان يسنده «مش قاسم» و«أسد الله ميرزا»، تبعه الجميع كأنّهم يشيِّعون جنازة.

بعد أن أوصل «أسد الله ميرزا» خالي العزيز إلى بيته عاد إلى أبي.

وكان الأخير صامتاً وحزيناً.

فتح أبي الموضوع:

- المسبِّب لكلِّ ما حصل، هو هذا الغبيُّ «دوست علي» الذّي أفشل مشروعنا.

- ون منت، ون منت، تأكّدوا أنّ السَّيِّد ودون علم منه يودُّ أن يؤسر...

إنّه متأكد أن مصيره سيكون مثل مصير «نابليون»...

الحمد لله أنَّ «دوست علي» وصل وانتهت القضية عند هذا الحد. كنت متأكّداً لو رضخ الهنديُّ لكل مَطَالبِه لتذرّع بشيء لينادي على «شير علي القصّاب» ليقضي هذا بدوره على الهندي.

- برأيك ما الذّي سنفعله؟

- الحقيقة لم يعد عقلي يستوعب، علينا انتظار ما سيحصل.

بعد ثلاثة أيّام على مرور مفاوضات خالي العزيز مع العريف الهندي، نادى عليَّ «مش قاسم» صباحاً وأخذني إلى البستان، وأخبرني أن «ليلى» تريد رؤيتي.

رأيت «ليلى» تجلس تحت ظلال النِّسرين، ترتدي معطفاً أحمر مدرسيّاً.

ما قطع أنفاسي هو رؤيتي عينيها متورِّمتين، كأنّها كانت تبكي حتّى الصّباح، وحين اطّلعت على سبب ما حلّ بها انقطعت أنفاسي.

طلبها البارحة أبوها مع «بوري»، وقال لهما: إنّه متأكِّد من أنَّ الإنجليز بعد يومين سيقبضون عليه، وسيأخذونه إلى مكان لا أمل في الرجوع منه، وآخر رجائه هو أن يُعِدّا نفسيهما للزّواج، فما إن يظهر الإنجليز، يُعْقَدُ الزّواج بحضور القائد المحكوم عليه.

فتحتُ فمي بصعوبة:

- ماذا قلت لهما يا «ليلى»؟

عادت للبكاء مرّة أخرى، وقالت وهي تنشج:

– وما الذّي يمكنني قوله؟ أبي مريض، لو رفضتُ، فكن على ثقة، بقلبه المتدهور سوف يصيبه مكروه.

– ولكن «ليلى»، لو أرادوا تزويجك مع وصول الإنجليز، فهو أمر لا يقلقني، فأنت فتاة كبيرة، وتعرفين أن هذا محض خيال.

الإنجليز لا حاجة لهم بخالي العزيز.

– أعرف... لو كانوا سينتظرون حتّى وصول الإنجليز فلا مشكلة. ولكنّهم قالوا، بعد شهر سيحين ذكرى ولادة أحد الأئمة، وسوف يعقدون القِرَان.

النتيجة هي علينا الاستعداد، فإذا وصل الانجليز قبل الشّهر لأخذه، سيرسلون خلف الملّا ليكتب الكتاب... بمَ تشير عليّ؟

– «ليلى»، لو تزوجت لن أبقى في هذه الدّنيا... قولي لأبيك أنّك تريدين الانتظار لتصبحي زوجتي!

أجابته «ليلى» وهي تبكي:

– لو كانت صحّتُه جيّدة، لو لم يكن مريضاً لصارحته، ولكنّي أخاف، أعرف لو خالفته سوف يعقد لساني... أنت فكّر بحل!

حزينٌ ومصابٌ بالدُّوار، ويكاد قلبي يخرج من مكانه، وعدتها بحلٍّ.

ولكنْ أيُّ حلٍّ يمكنني تقديمه.

عدت مرّة أخرى إلى الإنسان الوحيد في البيت الذي ينظر إلى الأمور بواقعية، ويؤمن بإنسانيّته، أي «أسد الله ميرزا».

وبدل أن أتجه إلى المدرسة اتّجهتُ اليه.

سيكرِّر عليَّ مزاحه، ولن يجيبني، ولكن لا حلَّ آخر.

كنت أسمع حواري معه قبل أن أصل إليه:

- يا عمّي «أسد الله»، لا أعرف ما أفعله؟

- تبّاً لك! حذَّرتُك عدّة مرّات، لا تغفل عن رحلة (سان فرانسيسكو)...

وهو الطّريق الوحيد الذّي يضعه أمامي «أسد الله ميرزا»، ولكنّي أحبُّ «ليلى»، إلى حدٍّ، أنّني سأكره نفسي لو خطرت هذه الفكرة التي يلقّنني إياها في ذهني.

حتى أنّي أبعد الفكرة عني.

كان «أسد الله ميرزا» يستعدُّ للذّهاب إلى العمل، كان ظنّي في محلّه، قال وهو يحلق لحيته:

- لتتعفن! قلت لك رحلة (سان فرانسيسكو) واحدة...

لم تف احتجاجاتي في قطع صوته:

- قلت لك ألف مرّة لا تغفل عن رحلة (السّان فرانسيسكو)... والآن إذا لم تكن بمقدوْرك، فاذهب رحلة إلى (لوس انجلس)... السّفر أمرٌ ممتاز...

عليّ السّفر في الأيّام القادمة، ولكنّني إنسان سيء الحظ، فبدل (سان فرانسيسكو) عليّ الذّهاب إلى (بيروت)...

لا تغفل عن السّفر، قال شيخ شيراز الكبير: مثل الدّجاج ترى البيت بعدّة طرق- لِمَ لا تسافر لأن الحمامة تطير؟...

هل قرأتها أم لا؟...

قصيدةٌ معروفة لـ «سعدي»:

«لا تمنح روحاً لأحدٍ ولا للّديار

اذهب للبحر الواسع والنّاس الكُثُر»...

سكت «أسد الله ميرزا» ونظر إليّ:

- ون منت، ون منت، ون منت، انظر إلي... هل أنت تبكي؟... يا ابن الحمار...! بدل أن تشدَّ عزمك وتسافر اللّيلة إلى (سان فرانسيسكو) تبكي مثل البنات.

حاول «أسد الله ميرزا» أن يتماسك أمامي ولكنّه كان متأثّراً... مسح الصّابون عن وجهه بالمنشفة وجلس بجانبي.

قال بصوت جادٍّ وقلق:

- يا ولد، لا تحزن، سوف أجد لك حلّاً...

ثم اتّجه إلى صندوقه، ملأ كأسين من قنّينة وعاد إليّ:

- أولا اشرب هذا لكي نتحدّث!... اخرس لا تقل لا!

أخذت الكأسَ منه دون إرادة وشربته.

أحرق أقصى قلبي...

- دخِّن هذه السيجارة أيضاً... سوف أضربك على رأسك!... خذها... ممتاز!

وأشعل «أسد الله ميرزا» سيجارته.

تمدد على الكرسي.

وبعد لحظات صمتٍ، قال:

- أرجوك اسمع كلامي بجدية، أنا لا أمزح معك.

نظراً إلى امتحاناتك التّي قدّمتها والتّي دلّت على عدم لياقتك للقيام بـ (السّان فرانسيسكو)، ونظراً إلى أنّ الحلّ الوحيد يقع على أطراف (سان فرانسيسكو)... أرى أن تتظاهر على الأقل به، أو التّظاهر بـ (لوس آنجلس)، وإن كان... لا فائدة منه!

- عمّي «أسد الله»...

- ون منت، لا تقاطعني!

افترض أن شرط النّجاح في جامعةٍ أو مؤسسةٍ علمية قراءة الكتب والعلم...

والآن، يحدث أنّ هناك شخصاً يريد النّجاح ولا يود القراءة، عليه أن يتظاهر بالقراءة وحب المعرفة.

وأعتقد، إذا وافقت «ليلى» دون سفر إلى (سان فرانسيسكو)، أن تتظاهر بملامح مسافرةٍ تعبة، وتدّعي أنها تعود من (سان فرانسيسكو)...

حينها يُجْبَرُ خالك العزيز إما أن يزوِّجها لك الآن، أو ينتظر عامين لكي يزوِّجكما.

- عمّي «أسد الله»، هذا العمل صعب جدا، فحتّى لو قبلتُ به لا أعتقد أنَّ «ليلى» سوف تقبله.

- إذاً، دعها تصبح زوجة ذلك الحصان العربي.

- ألا يخطر ببالك حلٌّ آخر؟

- الحل الآخر هو أن تعقد... على أيِّ حالٍ عليك الإسراع لأنّه حدث أمر وأخبرت أباك به أمس.

وسوف أخبرك به، ولو وصل الخبر إلى خالك العزيز، سيرسل خلف السَّيِّد «أبي القاسم» ويزوِّج «ليلى» بـ «بوري».

- ما الذّي حدث يا عمّي؟

- الخبر لم يعلن بصورة رسميّةٍ، ولكنّه حقيقي، قبضت قوى الحلفاء على الكثير من رجال المملكة، الذّين يعتقد أنّهم ضدّ الإنجليز، ويدعمون الألمانيين وأرسلوهم إلى «أراك»...

لو أوصلت الرّياح هذا الخبر إلى خالك العزيز، سوف يشمّر عن ساعديه، وأول ما سيقوم به، إرسال «ليلى» إلى بيت زوجها.

- عمّي «أسد الله»، هل يمكن أن تعطيني كأساً آخر من هذا (الكونياك)؟

- مرحى! رويداً رويداً، تتحول إلى رجل!... هذه علائم البلوغ... (السّيجارة) و(الكونياك) و(السّان فرانسيسكو)...

إن شاء الله يظهر الثّالث فيك عن قريب.

- عمّي «أسد الله»، ألا يمكن أن تتحدث مع خالي العزيز وتطلعه على الموضوع؟

- ون منت، ون منت، ون منتي سيمو... اطمئن لو اطّلع خالك العزيز على مثل هذا الخبر، لسحب السّيِّد «أبا القاسم» من المنبر، وبعد خمس دقائق يكتب كتاب «ليلى» على «بوري».

ولأنّي أعلم بعدم استطاعتي على القيام بمشاريع «أسد الله ميرزا»، وحتّى على التّظاهر بـ (السّان فرانسيسكو)، اتجهت إلى الرّجاء.

في النّهاية لانَ «أسد الله ميرزا»، وقال:

- مثل الطّبيب الذّي يعرف أنّ الماء تأثيره سيء على المريض، ولكن في مقابل رجاءِ المريض يرضخ له، ورغم أنّي أعلم أنّ هذا الأمر سوف يسيء الأوضاع... وإن كان... فاصبر، الآن اليوم سوف أفكّر بفكرة لأرى ما سأفعله.

في غروب ذلك اليوم، جاء إليّ «أسد الله ميرزا».

– عمّي «أسد الله»؟ هل توصّلت إلى فكرة؟هل اتّضح طريق؟

– مع الأسف مفاتحة خالك العزيز بأمرك و«ليلى» غير ممكن.

ومثلما قلت لو وصل له خبركما سوف ينتهي الأمر...

خاصة، وأنّي كنت بجانبه وأخذت بالحديث عنك فرأيت أن الأوضاع ساءت.

– ماذا قال؟ عمّي «أسد الله»؟ أرجوك قل لي.

تردّد «أسد الله ميرزا» ثم قال:

– لا يضرُّ أن تعلم ما قاله، فمن جانب قد ينقطع أملك.

حين مرّ اسمك قال: نهاية ابن الذّئب أن يصير ذئباً، وإن كبر مع البشر.

– وماذا قلت له؟

– ون منت، هل تتوقّع بعد ما قاله أن أقول له أريدُ طلب يد ابنتك لابن الذّئب؟...

والآن أخاف من أمرٍ آخر، حين كان يقرأ شعراً، وصل في نفس اللّحظة «دوست علي» الحمار وسمعه.

أخاف أن يوصل هذا الكلام إلى أبيك، وتضاف مشكلةٌ إلى مشاكلنا.

الخلاصة، عليك أن تنتظر لأنَّ الوضع سيء.

- وهل سيسوء الوضع، أكثر مما نحن فيه، عمّي أسد الله؟

- نعم!... لو وصل هذا الكلام إلى أبيك لأوصل أبوك خبر نفي الرّجال إلى (أراك) بأي صورة إلى خالك العزيز...

حينها سوف تتعالى أصوات الفرح.

- أخبر «دوست علي» ألّا يخبر أحدا.

- إما أنّك مازلت طفلاً أو لا تعرف خباثة طينة «دوست علي»... لو أخبرته لأنهى كلَّ شيء، قد ينزل الله في قلبه أن يمسك لسانه... على أيِّ حال ادرس التّظاهر بـ (السّان فرانسيسكو) لنرى ما سيحدث.

انفصلت عن «أسد الله ميرزا» قلقاً ومحتاراً، الخوف الذي أوقعه في قلبي للتَّوِّ زاد من حزني.

لو وصل كلام خالي العزيز إلى أبي، وأوصل أبي خبر نفي الرّجال إلى (أراك)، ما الذي سيحدث؟

لم يكن الخوف في غير محله، أعتقد أن «دوست علي خان»، قام بوظيفة ناقل الأخبار لأنّه بعد ليلة حين اجتمع في منزل خالي العقيد، كلٌّ من خالي العزيز «نابليون» وآخرون من العائلة للعشاء ظهرت فجأة «فرخ لقا خانم»، ومثلما هي دائماً لفها السواد:

- فديتكم كلُّكم... ما أجمله من تجمُّع!... ذهبت عصرا إلى مجلس عزاء «منير خانم»... وفي طريق العودة قلت لنفسي لألقي التَّحيَّة.

سيطر على الحضور صمتٌ مطلق، «شمس علي ميرزا» الذّي عاد للتّوّ من (همدان) وجد نفسه يقول:

– أيُّ «منير خانم»؟

– «منير خانم» ابنة «اعتماد الممالك»... المسكينة ما وقع مؤخّراً صادم... زوجها المسكين وهو شابٌّ جاء من الدّائرة إلى البيت وأراد غسل وجهه فتوقّف قلبه ووقع...

إلى أن أحضروا الطّبيب، كان قد انتهى...

اليوم قالوا في مجلسه عزائه، أنّ السبب هو حزنُه على زوج أخته...

– وما الذّي حدث لزوج أخته؟

– عليك أن تعلم بالخبر، قبض الإنجليز قبل أيّام عليه وآخرين، ونفوهم...

يقال إنّهم أرسلوهم إلى (أراك)...

فجأةً، سمع صوت خالي العزيز «نابليون» المخنوق:

– الإنجليز؟ لماذا؟

حاول «أسد الله ميرزا» بصخبه، أن يُغَيِّرَ الموضوع، ولكن خالي العزيز صرخ:

– انتظر لنرى الموضوع يا «أسد الله»!

قالت السيدة: إنهم قبضوا على أشخاص؟

– نعم، المسكين وكان منهم زوج أخت «اعتماد»... هذا المسكين لم يكن يعلم السّبب...

كنت أنظر إلى وجه خالي العزيز الخائف، قد يكون كثيرون لا يعلمون سبب قلقه، ولكن، على الأقل هناك ثلاثة أشخاص يعلمون جيّداً والآخرون يتكهّنون.

بعد لحظات صمتٍ، همس خالي العزيز:

– الإنجليز... الإنجليز... بدؤوا.

ونهض بغتةً ونادى:

– «قاسم»... «قاسم»... لنعد إلى البيت.

ودون مبالاة باعتراض الضّيوف، خرج من الصّالة.

-٢٥-

بعد خروج خالي العزيز «نابليون»، ركض خلفه خالي العقيد، واحتار البقيّة.

كان «أسد الله ميرزا» يحدّق في وجه أبي، ولكن الأخير يتلافى نظراته.

قالت «فرّخ لقا خانم»:

– لا أدرك لماذا تحوّل السّيّد إلى هذه الحالة!

فهو ليس لديه ارتباط لا مع زوج «منير خانم» ولا زوج أختها!

نظر إليها «أسد الله ميرزا» غاضباً، ثمّ قال وهو يحاول أن تكون جملة هادئة:

– لا، حزن السّيّد من أجل المسكين «منصور السّلطنة»... هل تعرفين، عمّ «دوست علي»؟

– وما الذي حصل لعمّ «دوست علي»؟

– ألم تسمعي بخبره؟

رحمه الله كم عانى.

لمعت عينا «فرخ لقا» حين شمّت خبَر مجلس عزاء:

– يا إلهي! وكيف لم يصلني الخبر؟ متى حدث ذلك؟ أين مجلس عزائهم؟

– الحقيقة لا نعلم أين مجلسهم، لأن الحدث وقع اليوم...

– ليتهم دفنونني، كيف لم أعلم؟

– ون منت، أعتقد لا مشكلة لو مررت على «دوست علي».

– مع الأسف، إنّ الوقت تأخر...

قاطعها «أسد الله ميرزا»:

– لا ليس الوقت متأخراً... صادفت حين كنت قادماً إلى هنا، «دوست علي» وهو يعود إلى البيت.

كانت «فرخ لقا» متردّدة، فأكمل «أسد الله ميرزا» كلامه قائلاً:

– مع العلاقات التي كانت لأمّك معهم، ظننتُ أنّك أنت من سوف يسدُّ كفنه.

نهضت «فرخ لقا خانم» وقالت:

– الحقُّ معك، ما أسوأ ما فعلته، الآن سوف اتّجه إلى «دوست علي خان» وعزيزة السّلطنة...

حين غادرت «فرخ لقا خانم» فطن الجميع إلى كذب «أسد الله ميرزا»، وتنفّسوا الصّعداء.

التفتَ «أسد الله ميرزا» إلى خالي العقيد:

– العمل المهمُّ هو إرجاع هذه البومة إلى خرابتها...

والآن قل لنا، كيف هو حال السَّيِّد؟

قال خالي العقيد بملامح قلقة:

– تركني أخي، وهو عصبيٌّ جدّاً.

قال يريد البقاء وحده.

بعد ساعةٍ، بقي «أسد الله ميرزا» وخالي العقيد وأبي.

أمّا أنا فقد جلست في زاوية أستمع إليهم.

قال أبي:

– الحقيقة أخاف من وقوع أمرٍ ما للسَّيِّد...

هل تتذكَّرون، في يوم حين تطرَّق الكلام إلى تَجَرُّعِ «نابليون» السُّمَّ بعد انكسار جيش قوات الحلفاء؟

احتسى «أسد الله ميرزا» جرعة من خمره، قبل أن يردّ الجواب:

– لست قلقاً من هذه الناحية، «نابليون» لو تذكرون في المرّة الأولى

حين أُجْبِرَ على الاستقالة، شرب السُّمَّ، ولكن، في المرّة الثّانية بعد (واترلو)، انتظر حتّى أخذوه إلى (سانت هلنّ).

– ولكن، علينا عدم تَوَقُّعِ سير السَّيِّدِ على خطوات «نابليون»، مقلِّداً له...

قال خالي العقيد، الذي كان سارحاً في فكره:

– «أسد الله» خطرت لي فكرة، ما رأيك لو تحدّثنا مع القائد «مهارت خان» الهنديّ؟

– تتحدث مع «القائد مهارت خان» عن السَّيِّد؟ وهل القائد...

قاطعه خالي العقيد:

– لا ليس عنه... بل عن السَّجّادة التّي أخذها وشرب بعدها ماء بارداً... فَكِّر!... هل هناك سرقةٌ تمَّت مثلها...

– ما شاء الله، تكاد تفقد أخاك، وأنت مازلت تفكِّر بالسَّجّادة؟

– لا، لست قلقاً على أخي، أخي ليس عصاً لكي تهزّه هذه الريّاح...

الإنسان الذّي قضى كلَّ عمره في الحروب والصّراعات، يعرف جيِّداً كيف يتحمّل الحياة.

نظر «أسد الله ميرزا» فاقداً الأمل إلى أبي وقال:

– إذاً، على هذا لنذهب وننام، فالدّاية أكثر حناناً من الأمّ!

وحين كنت عائداً مع أبي و«أسد الله ميرزا» إلى بيتنا، سمعت «أسد الله ميرزا» يسأل أبي بصوتٍ غير مسموع:

– ألا تعرف من نقل خبر الإنجليز والقبض على الرّجال، وإرسالهم إلى (أراك)، إلى «فرخ لقا خانم»؟

توقّف، أبي وقبض على ذراعه:

– يا أمير هل تقصد أنّ...

– ون منت، ون منت، لا أقصد أيَّ شيء فقط سألتك.

– لماذا، كأنّك تقصد في سؤالك... لو كنتَ تظنُّ أنّي تدخّلتُ في الأمر فأنت مخطئ...

قسماً بروح أبي لا علم لي بما حدث.

لا، الشيء الوحيد الذّي أعرفه، أنّ أبي يقسم بروح أبيه بكلّ سهولة، فكنت متردّدا في تصديق ما يقوله، ولكن «أسد الله ميرزا» علم بما كان يريده لأنّي حين كنت أتبعه، وهو يعود إلى البيت، قال:

– لا شكّ أنَّ «دوست علي» الخبيث أوصل قضيّة «كرك زاده» إلى أبيك.

– برأيك ما الذّي يجب فعله، عمّي «أسد الله»؟

– والله لا يصل العقل إلى مكان... أنا حكيم المنطقة، حين تصيب أحدهم حمّىً، أصف له عشبة، أو (أسبرين)، ولكن حين يستفحل

المرض، فعليه مراجعة بروفيسور... اليوم وصفت (سان فرانسيسكو) مختصراً، لأنّي أخصائيٌّ به.

و لم يعمل المريض بوصفتي، والآن انقضى وقته و(لوس آنجلس)، فلذلك ينبغي على عائلته أخذه إلى بروفيسور،، ليصف له مدينة أخرى!

– يعني تريد التخلي عنّي؟

– لا يا رجل، ولكن في الوقت الحالي ليس بيدي حيلةٌ...

علينا الانتظار أولاً، علينا معرفة نتيجة إرسال الخال العزيز إلى جزيرة (سانت هيلين) حتى نجد فكرة...

وصلنا إلى الزُّقاق، فجأةً رأينا شخصاً يركض نحونا.

كان «الإسكافي»، بعد أن حيّانا قال لـ «أسد الله ميرزا»:

– يا سيّدي، هل تساعدني؟

– ون منت، علينا القيام بخدمة لك؟

... عجيب أنا محتار بمشاكلي، وبتُّ الآن حلّال مشاكل المحلّة...

والآن ماذا حدث؟

– الحقيقة السيِّد منذ يومين، يُصِرُّ على أن أترك مكاني، وأنذرني «مش قاسم» بذلك ثلاث مرّات.

– وبماذا أجبته؟

- تخيّل يا سيّدي بماذا أجيبه؟

قضيتُ كلَّ هذا الوقت هنا، وجمعت لي زبائن فإلى أين أرحل؟ لا يتعامل مع الباحث عن لقمة عيشه الدّم بالدّم.

- لا، أريد معرفة جوابك بالتّحديد، ماذا قلت لـ «مش قاسم»؟

- قلت له أن يقول للسّيّد: إنّنا باقون هنا، فلا أستطيع تبديل مكاني.

صرّ «أسد الله ميرزا» على أسنانه، وهمس:

- هذا أسوأ جواب! الآن عليك الرّحيل!

ثم بدأ في نصح «الإسكافي»، بألّا يتشبّث برأيه، وقال أنّ الصلاح في أن يسمع الكلام ويتراجع زقاقين مبدّلاً مكانه.

ولكنَّ «الإسكافيَّ» أصرّ راجياً أن يكون وسيطه.

- ون منت، ون منت، هل ما يقال إذاً حقيقة وأن رقبتك في يد إحدى نساء المحلّة؟

وبعد فترة كان «الإسكافي»، يقسم أن لا حقيقة لما يقال، وعده «أسد الله ميرزا» بالتّدخُّل، وحين رحل «الإسكافيّ» ضحك عالياً:

- كان وجعاً فصار... وهل ما نحن فيه قليل، حتّى يضاف عليه هذا... من جانبٍ، هذا الولد رقبته بيد زوجة «شير علي».

من جانبٍ آخر، خالك العزيز ينتظر وصول عملاء الإنجليز لأخذه إلى (أراك)...

الحقيقة إنّها دار مجانين غريبة.

– عمّي «أسد الله»، هل تعتقد أن خاليَ العزيز يعتقد أنَّ «الإسكافيّ» عميل الألمان؟

– ممكن، لست متأكداً ولكن لديه شكّ!... وعلى أيّ حال يريد رفقة للإنجليز.

– عمّي، لقد كنتُ مصدراً للكثير من المشاكل لك، وأخجل في مفاتحتك...

قاطعني «أسد الله ميرزا» بضحكةٍ:

– لا، لا تخجل قل... وإن كنتُ أقرأ أفكارك.

تريد القولَ أنَّ الخال العزيز ينتظر بجدّيّةٍ الإنجليز، وستقع أنت و«ليلى» في خطر!...

ليس هذا الأمر بعيداً، ولكن لا تسألني أكثر، دعني أفكّر حتّى الصّباح، قد أصل إلى نتيجة.

وقضيت مرة أخرى أسوأ ليلة في حياتي، ففي الفترة القليلة التي أغمضتُ عيني فيها، رأيت أحلاماً مخيفة اختلط فيها كل من حولي:

كانت «ليلى» تسير بين صفّين من جنود الإنجليز إلى باب القصر، والجنود حاملو السّيوف، فيما هي ممسكة بيد زوجها، الذّي كان «شير علي القصّاب».

قائد الجيش الإنجليزيّ، المرتدي ثيابا أسكتلنديّة مع تنّورة، لم يكن غير «مش قاسم». فصرخت.

و«بوري» الذّي كان خلف العروسين، ينظر إليّ بوجهه الحصاني ويطلق ضحكة بشعة.

وخالي العقيد إلى جانبه يحمل سجّادة، فيما ارتدى الدّركيُّ «غياث آبادي» ثياب بحّار، وكان يحمل عصاً يعلن من خلالها زواج العروسين، كما ظهر الدّكتور «ناصر الحكماء» عازف (السّاكسفون).

أبي و«أسد الله ميرزا» يمسكان بعضهما، يدوران حولي ويغنّيان أغنيةً من الغرب الأمريكي، اسمها (سان فرانسيسكو) وتنعكس في أذنيَّ: (سان فرانسيسكو... سان فرانسيسكو...)

أخذتُ مرّة ثانية بالصّراخ والركض، فجاء نحوي «مش قاسم» مع الجنود الأسكتلنديين، وقال بلغة إنجليزيّة مخلوطةٍ بالفارسيّة:

– يا بني اذهب، فقد انتهى أمرك وكنت أصرخ:

– «مش قاسم» افعل شيئاً! ألست صديقي؟

لكنّه أجاب بنفس اللهجة الإنجليزية:

– والله يا بني لمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... الخطأ ليس مني اسأل ذلك الرجل!

وتابعت حيث تشير إصبعه، كان خالي العزيز «نابليون» راكباً حصاناً أبيض بقبّعةٍ وثياب «نابليون»، حاملاً فخذ خروف صارخاً:

- هجوم! إلى الأمام!

كنت أتمرّغ تحت أرجل خيل فرسانه، وكانت «فرخ لقا خانم» بسوادها تقرأ سورة الفاتحة فوقي.

صباحاً لم أستطع النهوض، لأنّ جسدي كله يؤلمني، فقد كان واهناً إلى درجة بقائي حتى مرور وقت ذهابي إلى المدرسة.

حين دخلت عليَّ أمّي لطمت رأسها وصدرها، فقد كنت أحترق في الحمّى. ما إن أنهض حتّى يصيبني دوار، وأقع دون حركة في سريري.

عرفت أنّي في حالةٍ سيئة، ليس ممّا أمرُّ به، بل من حركات والدي.

أُحْضِر الطّبيب «ناصر الحكماء»، ومن بين كلماته التي يقولها بصوت خفيض التقطتُ مفردة «الحصبة».

ورغم أنّ حواسي من شدّة الحُمّى، لا تتلقّى ما يدور حولها، كنت متأكِّداً أنَّ الليلة المخيفة التي أقضّت مضجعي، كانت سبباً في ارتفاع درجة حرارتي والطّبيب مخطئ.

كان ذلك اليوم من أصعب أيّام حياتي، فبعد ذلك عرفت أنّي مررت بعدّة حالات من الهذيان.

مع حلول الغروب تحسّن وضعي، فقد عرفت وجه «أسد الله» الباسم، ولكنّي لا استطيع الكلام.

في صباحِ اليوم الثّاني، اكتشفت جهلاً جديداً لدى «ناصر الحكماء»، وجهلاً أيضاً بتفاصيل الطّبيعة.

اختفت حُمّتي كليّاً، وعادت إليّ صحّتي، ولكنّي كنت أشعر بضعفٍ شديد. حين كنت أريد النّهوض يعلو صوت أمّي، ولكني كنت أطمئنها، أوصلت نفسي إلى البستان.

كان «مش قاسم» مشغولا بري الورد، ولكن وعلى خلاف طبيعته ارتدى ثياباً للخروج، ورفع بنطلونه إلى ركبتيه، وكان يسقي الورد بحذر، خوفاً من تبلّل ثيابه.

قال دون أن يرفع رأسه:

– الحمد لله أنَّ شكواك مرَّت بخير يا بني، كنت قلقاً عليك.

في الأمس، جئتك وسألت عنك... كنت تهذي... أودُّ لو يراك الطّبيب الآن! عديم الايمان، قال في الأمس أصابته الحصبة بكل تأكيد... لا يعرف هذا الرجل الفرق بين الجاموسة والكمان!

– «مش قاسم» حالتي والحمد لله تحسّنت، ولكن لماذا ترتدي ثياب الخروج؟ هل تريد الذّهاب إلى مكان؟

نظر إليّ «مش قاسم» نظرة حزينة، وأجاب:

– والله يا بني لم الكذب؟ حتى القبر ها أها... لقد حانت ساعة رحيلنا... أشعر أنَّ هذه هي المرّة الأخيرة التي أسقي فيها الورود، فما بالك لو وصل الإنجليز الآن.

اغفر لي لو صدر مني ما ساءك!

– «مش قاسم»، ماذا يفعل خالي العزيز؟

– واي واي، لا تسل، أبعده الله عن كل مسلم! السيد منذ أوّل البارحة لم ينم، أظن أنّه لهذا السّبب، أضيف إلى عمره عشرون سنة.. المسكين كأنّه يكتب وصيته.

– كيف حاله اليوم؟

– اليوم، الشّكر لله كأنه أفضل... أخلى ما لديه البارحة.

– «مش قاسم»، هل ذهبت «ليلى» إلى المدرسة أم هي في البيت؟... أريد مكالمتها.

– أين يا بني... فجر اليوم أرسل السَّيِّد كلَّ الأطفال مع العقيد إلى (آبعلي) حيث بستان العقيد... الحقُّ معه... لا يودُّ حين يحضر الإنجليز أن يكون الأبناء هنا، ويروه مغلول اليدين...

يعني ممكن أن يصيبهم أذىً منهم. فالإنجليز لا تتوقّع ما يفعلونه.

– إلى متى سيبقون هناك، «مش قاسم»؟

– والله يا بني، حتّى يأتي الإنجليز ويأخذوننا.

– إذا لم يأتوا، ماذا ستفعلان؟

ابتسم «مش قاسم»:

– مازلت طفلاً، لا تعرف الإنجليز... أنا والسَّيِّد لم نرقد منذ البارحة.

مرّتين، حضرنا القدر لكي لا نموت من الجوع، ونحن في الطّريق

إلى (أراك)... لأنَّ الإنجليز لا يقدِّمون غير (آش) مع زيت الأفعى. لديَّ صديق من مدينتي وقع مرّة في يدهم.

لا يمكن استخراج الكلام من «مش قاسم»، فصممت أن أذهب إلى «أسد الله ميرزا»، ولكنّه وبينما كنت أقصده وجدته في بيتنا، يسأل عني، وحين رآني أقف على قدميَّ، أظهر فرحه:

– تخيل... هذا «ناصر الحكماء» الغبيُّ، كان متأكِّداً أنَّ الحصبة أصابتك... الحمد لله لم يقل إنّك مصابٌ بـ (السّفلس)!...

حاولت أن أكون معه لوحدي، ولكنّي شعرت أنَّ فِكْرَهُ مشغولٌ، أو أنه لم يعد يهتم وسط مشاغله، سماع آهاتِ عاشق.

بدأ بالكلام مع أبي:

– ما هي الأخبار الجديدة؟ ألم يأتِ الجنرال ولنغتون لأخذ السَّيِّد؟

– الحقيقة لم أره، ولكنّي سألت «مش قاسم» صباحاً، وقال بعد أن رحلوا العائلة هدأ قليلاً... والبارحة نام مرتدياً ثيابه...

– هل ترافقني لنطمئن عليه؟

تحرك «أسد الله ميرزا» وأبي ناحية منزل خالي العزيز، وسرتُ خلفهما دون إرادة.

لم ينظر إليَّ خالي العزيز، وكأنه لم يسمع بمرضي.

ارتدى ثياباً داكنة، وتظهر في ياقته علامة «محمد علي شاه»، لكنّني ارتعبت من اصفراره وغوران عينيه.

كان يجلس على الكنبة، أراد النهوض ولكنه لم يستطع، فحاول «أسد الله ميرزا» أن يمزح معه، لكنّه توقّف أمام ملامح خالي العزيز التّعبة.

وإن كانت روحية خالي العزيز متحسّنة، ولكنّه جسديّاً متحطّمٌ.

قال أبي:

– وجهك تعب كأنّك لم تنم، من الأفضل لو تمدّدت.

قال خالي العزيز:

– لقد استرحت كثيراً، حان الآن وقت الاستيقاظ.

ألقيتُ نظرةً على الغرف والباحة، البيت خالٍ وحزين، لا أحد فيه غير خالي العزيز، و«مش قاسم»، وترى على أكثر الأبواب قفلاً كبيراً.

قال «أسد الله ميرزا» الذّي بدا في قلبه قلقٌ على خالي العزيز:

– أعتقد أنّك تحتاج إلى استراحةٍ وإذا...

قال خالي العزيز فجأة:

– أسد الله، من الممكن أنّي ضعيف، بسبب التّعبِ، ولكنّي أريدهم أن يعلموا أنَّ الرَّجل الحربيَّ يبقى حربيّاً ولو أُسِرْ...

يجب ألّا يروا ضعفي.

– ون منت، ون منت، وهل الرّجل الحربيُّ لا يستطيع أن يضطجع...

قرأنا ألف مرة في التّاريخ، حتّى «نابليون» حين كان ينتظر وصول قوات الحلفاء، كان يهتمُّ بالنّوم والاستراحة.

- «أسد الله»، يتمنّى هؤلاء النّاس تحطيمي والقبض عليّ، وأنا في آخر رمق ليشوِّهوا اسمي في التّاريخ.

- ولكن، يا سيّدي...

لم يستطع «أسد الله ميرزا» إكمال جملته، لأن ضجّةً تناهت من الزُّقاق. تجمّدتْ عينا خالي على الباب، فقال بحماس:

- ماذا يحدث؟ كأنّهم جاؤوا!

نهض «أسد الله ميرزا» ليخرج، ولكنَّ «مش قاسم» دخل.

- ما هذه الأصوات يا «مش قاسم»؟

- الحقيقة يا سيّدي، «شير علي» يتشاجر مع «الإسكافي».

عدل خالي العزيز من جلسته، انحنى مرّة أخرى، وسأل:

- ماذا حدث؟ هل غادر «الإسكافي» أم لا؟

- رحل؟ ما إن رفع «شير علي» الفخذ أمامه حتّى طار،... ترك كلَّ ما لديه، وهرب.

التفت خالي العزيز إلى «أسد الله ميرزا»:

- ليس بالأمر المهم، كان يترزّق هنا، ويراقب نساء النّاس، وينظر لبنات الجيران.

تدخّل «مش قاسم»:

- يا سيّدي، ليتك فعلت هذا من اليوم الأول، قلت لكم منذ اليوم الأوّل أنَّ هذا الفتى لا شرف له.

تعرّق جبين خالي العزيز، لم يعد يده عن قلبه، ولكنّه جلس متظاهراً بأنّه بكامل قوّته.

مرت لحظاتُ صمتٍ، التفت فيها خالي العزيز إلى «مش قاسم»:

- يا «قاسم» هل وضعت جلد الأحذية في حقيبتنا؟

- تلك التي تضعها على حذائك؟

- نعم نفسها.

- وضعتهما كليهما.

تبادل أبي و«أسد الله ميرزا» النظرات، ولكن كأنّهما لا يجدان ما يقولانه. كان الصّمت قاتلاً، خرج «مش قاسم» بهدوء من الغرفة.

قال خالي العزيز بصوت هادئ:

- «أسد الله»، لقد أعددتَ لكلِّ شيء، سوف أغادر وأنا مطمئن البال.

ولكن لديَّ رجاءٌ منك...

لم تتح الفرصة لخالي العزيز ليكمل كلامه، إذ علا صوتٌ من البستان هذه المرّة.

أخذ خالي العزيز يستمع للصّوت القادم.

ومن بين الضّجة القادمة تناهى لنا صوت «مش قاسم»، يصرخ ويؤكد على أنّه يجب ألا يُزعج السّيِّد.

بعد أن استمع خالي العزيز للأصوات قال بصوت مكتوم:

– كأنّهم جاؤوا... يا «أسد الله» اذهب لترى ما يفعله هذا الأحمق «قاسم»!... كأنّه يقاوم، وأنا أَمَرْتُ بعدم المقاومة.

لم تُتَح فرصة لـ «أسد الله ميرزا» لكي يخرج، إذ فُتِحَ البابُ، ودخل «دوست علي خان» ورأسه مغطًى بالشّاش.

كان يصرخ بلغة غير مفهومة، فقال له خالي العزيز:

– يا «دوست علي» اهدأ، ماذا حدث؟

مازال «دوست علي خان» يصرخ، فصرخ فيه «أسد الله ميرزا»:

– اخرس! ألا ترى أنَّ السَّيِّد ليس بحالةٍ تسمح له بمثل هذا!

أحسَّ «دوست علي خان»، بنظرات «أسد الله ميرزا» المُطَوَّلَةِ إليه، فصرخ فجأة:

– أنت يا عديم الشّعور، اخرس! مع الأسف أنّك تنتمي لهذه العائلة.

– ون منت، ون منت، ماذا حدث يا «دوست علي»؟ الظّاهر من رماك بحجر أجادَ التّصويب لأنّك فقدت ما بقي لك من عقل! لماذا تتجنّى عليَّ!

- مَن عديم الشّرف الذي أرسل البارحة «فرخ لقا خانم» إلى فاتحة عمّي «منصور السّلطنة»؟

ما الذي فعله لك عمّي المسكين لتتمنّى موته؟

قال خالي العزيز بعصبية:

- يا «دوست علي» لا تتحجّج، ليس هذا وقت التحجُّج، ماذا حدث؟

تماسك «دوست علي خان»، ثمّ رفع ورقتين بيده ورماهما بقوّة على الطّاولة، وقال:

- ليُوَقّع الجميع على هذه الورقة، لم أعد أريد اسم هذه العائلة.

- أيُّ ورقة؟ ماذا حدث لرأسك؟

- اسأل الأوباش الذّين أعطيتموهم البنت، عديم الشّرف المدمن ضربني بحجرٍ على رأسي... هذا القمي الـ «غياث آبادي»!

أطلق «أسد الله ميرزا» ضحكة:

- بورك الـ «غياث آبادي»! عمله هذا في محله.

عاد خالي العزيز إلى سؤاله:

- والآن ما هذه الورقة؟

- تفضل هذه شهادة طبّية من الدّكتور «ناصر الحكماء» يثبت فيها أن «قمر» مريضةٌ نفسيّاً... وهذه شهادة وَقَّعَ عليها عدة شهود.

يا سيّدي، هذه الفتاة المسكينة مجنونة، وهذا المشعوذ الـ «غياث آبادي» سرق كلَّ ما لديها.

تخيَّل... يريد بيع أرض (أكبر آباد)، واسمح لي بقراءة الشهادة: «السادة الذّين على علم...

في هذه اللّحظة، قامت ضجّةٌ من جهة البستان.

صرخ خالي العزيز:

- اسكت يا «دوست علي»!

ثمّ همس:

- هذه المرّة كأنّهم جاؤوا.

وحاول النّهوض، ولكنَّ قطرات العرق تساقطتْ من جبينه، وبقي في مكانه.

فيما بعد كلّما قرأت قصة (تريستان وإيزولد)، أو أسمع عنها، أذكر لحظات انتظار خالي العزيز.

لأنَّ انتظاره لا يقلُّ وحشيّة عن انتظار تريستان لإيزولد صاحبة الشّعر الأشقر.

بعد لحظة فُتِحَ الباب، دخل المحقّق «غياث آبادي» وأمه وخلفهما «عزيزة السّلطنة».

الأمل الذّي كان يلمع في عيني خالي العزيز تحوّل إلى انكسار، فأبعد وجهه عنهم.

كان الداخلون يصرخون ويشتمون، لكنّ صراخ «عزيزة السّلطنة» طغى على كلِّ الأصوات:

– يا «دوست علي»، سوف أحرق أباك ليتحوّل إلى قصص تُروى!

قم واذهب إلى البيت، اخجل من نسيبك!

– ليلفّ الموت هذا النّسيب! لا أريد مثل هذا النّسيب المحتال، عديم الرّجولة الذي يستغل جنون الفتاة...

صرختْ أمُّ المحقّق «غياث آبادي» هازّةً زجاج النّوافذ:

– يا سلام... أنت أمرك سهل، وعلى جدّك الأكبر أن يفتخر بمثل هذا النّسيب... سألكمك لكمةً تُوقِعُ أسنانك! ولا تتمادى مع عروستي! إنّها ليست أقلّ من مئة مثلك!

في هذه الأثناء كان المحقّق «غياث آبادي»، وأمّه و«عزيزة السّلطنة» يتبادلون الشّتائم.

فرفعت «عزيزة السّلطنة» حقيبتها، وضربت «دوست علي» على رأسه المصاب، فصرخ متألماً، عندها تدخّل خالي العزيز:

– اتركوه! اسكتوا!... في مثل هذه الظّروف... في هذه اللّحظات وجدتم وقتاً... يا إلهي، أوصل الإنجليز لأرتاح منهم...

في هذه اللّحظة رُفِسَ الباب، دخل «مش قاسم» مُحْمَرَّ العينين، راجف الشفتين، وصرخ صرخة مرعبة:

- يا «شير علي» ارمهم جميعاً إلى الخارج... سوق يقتلون السَّيِّد.

نظر «شير علي» الذّي دخل خلف «مش قاسم» إلى «أسد الله ميرزا»، وحين حصل على إذن إخراجهم، قبض على «دوست علي خان»، ورفعه كأنه عصاً يهشُّ بها على الدّركيِّ وأمّه و«عزيزة السّلطنة».

- تحرّكوا... بسرعة، قبل أن أهرسكم!

هرب المحقِّق وأمّه و«عزيزة السّلطنة» مولِّين أمام ضربات رجل «دوست علي» القابض عليها «شير علي».

حين خلت الغرفة، قال خالي العزيز الذّي اصفرَّ وجهه:

- الإنجليز... الإنجليز... ما الذّي ينتظرونه؟

قال «أسد الله ميرزا» الذّي كان ينظر إلى الوجه المصفرّ:

- «مش قاسم» أحضر الدّكتور «ناصر الحكماء»... ما الذي تنتظره؟

خرج إلى الممرّ ورفع سمّاعة الهاتف:

- يا دكتور، أرسل ذلك الدّواء إلى البيت... لم استطع الحضور ولكن أرسله بسرعة... مريضنا حالته غير مستقرّة.

بمساعدة أبي وضعوه على السّرير.

- نبضه ضعيف... أرجو أن يكون هذا الدكتور البقرة في بيته.

اصفرَّ وجه خالي العزيز أكثر، انزلقت قطراتُ عرقٍ كبيرةٍ على أنفه.

رفع «أسد الله ميرزا» نظّارة خالي العزيز السّوداء عن عينيه، وراح أبي من شدة قلقله يجول في المكان.

تكلم خالي العزيز دون أن يفتح عينيه:

– عليك... عليك المجيء معي!... لديَّ الكثير لأقوله... يجب أن تأتي... سيصلون...

يا إلهي، أعني لكي أواجهم واقفاً على رجلي...

حين تناهى صوت خطوات «مش قاسم» من الباحة، فتح خالي العزيز عينيه وقال:

– وصلوا؟... وصلوا؟..

ولكن حين رأى «مش قاسم» فقد أمله، وسقط رأسه على جانب.

خرج الدّكتور «ناصر الحكماء» من منزله.

وأرسل أبي «مش قاسم» إلى طبيب القلب الذي عالج خالي العزيز، فترة من الوقت.

كان «أسد الله ميرزا» في هذه الأثناء يراقب خالي العزيز بقلق، ويُدَلِّك رجليه ويديه.

بعد مرور دقائق، تناهى لنا وقع خطواتٍ منظم.

وكأنّ خالي العزيز، يستجمع آخر ما تبقّى له من قوة، فرفع رأسه وقال بصوت ضعيف:

- جاؤوا؟... جاؤوا؟.. ارفعوني... بالتّأكيد جاؤوا...

وضع «أسد الله» يده تحت ذراعه، وساعده على النهوض.

فُتِحَ باب الغرفة، فتجمّدت في مكاني من هول المفاجأة.

دخل جنديٌّ بريطانيٌّ رافعاً العلم البريطانيَّ بيده اليسرى.

أدّى التّحيّة العسكريّة ضارباً الأرض برجله، وقال بلغةٍ فارسيّةٍ ركيكةٍ مخاطباً خالي العزيز:

- اكسكيوزمي... عليك مسامحتي... ولكنّي مأمورٌ... ويجب القبض عليك... أرجوك لا تقاوم!

لمعت عينا خالي العزيز الهامدتين، فرفع يده ليردَّ على التّحية العسكريّة وقال بصوت لا يُسمع:

- لقد أمرت... أنا... أمرت... ألا يقاوموا... القائد الكبير... القائد الكبير تحت أمرك.

وأغلق عينيه.

وضعه «أسد الله ميرزا» على الكنبة، وقال:

- أعتقد من الأفضل، الآن لو ترتاح قليلاً.

جسّ أبي نبض خالي العزيز، وقال:

- النّبض ضعيف جدّاً وغير متناسق... عسى أن يحضر الطَّبيب بسرعة... ومن الأفضل أن أتصل مع الطّبيب «تقي خان»...

ثمّ اتّجه إلى الهاتف.

كنت أحدِّق في الجنديِّ البريطانيِّ، لاحَظتُ أنَّ «أسد الله ميرزا» كان يرسل بعينيه إشاراتٍ لكي يخرج من الغرفة، وخرج بعده.

لم أفهم ما حدث، ألقيتُ نظرةً على الممرّ، وسمعت الحوار الدّائر بين «أسد الله ميرزا» والجنديِّ البريطانيّ.

يحاول «أسد الله ميرزا» وضع المال بيده، ولكن الجنديَّ الإنجليزي يجامله:

- لا يا صاحب السّعادة... أنا في خدمتك... مال هذا القميص، والبنطال، والقبّعة منك، أعفني...

- لا أرجوك يا «أرداواس»... لا قيمة لها، هذا مقابل العلم البريطانيِّ، لا تجاملني.

- أنا رسمتُ العلم بنفسي على البنطال، قسماً بأخيك لن آخذ المال.

- لن أقبل «بارون أرداواس»!

- قسماً بحياتك لا يمكن، طلبت منّي خدمةً صغيرةً، والآن تريد منّي أخذ مبلغٍ مقابلها؟

- قلت قسماً بموتي!... إذن أنت لا تحبُّني؟

- أنا خادم... لم أقم بشيء... ارتديت القميص والبنطال في البستان، وجئت لأقول كلمة...

- «أرداواس»، سوف أغضب!

- حسناً، ما تأمر به سوف أُنَفِّذُه، ولكن لا تخجلني...

- ممتاز!... ولكن ليبق هذا الموضوع بيننا!... ارتد الآن ثيابك واذهب، وسأراك فيما بعد!

- سيّدي صاحب السّعادة... في أمان الله.

- شكراً لك، «أرداواس».

في هذه الأثناء ظهر أبي على عتبة الباب، واستمع لما دار بينهما.

غيّر الرّجل الأرمنيُّ ثيابه بسرعة، وارتدى ثياب عاملِ كهرباء وخرج.

هزّ أبي رأسه وقال:

- الأمير صاحب اليد البيضاء!... من أين حصلت على هذا الرّجل؟... كان شبيهاً للإنجليز إلى حدٍّ أنّي ظننت أنك استأجرت انجليزيا.

- هذا «أرداواس» يعمل في مقاهي منطقة (لاله زار)... منذ فترة طويلة يطلقون عليه اسم «أرداواس» الانجليزي...

بيته بقربنا... منذ أول البارحة وأنا أفكّر بأن أحضر آخر هديّةٍ للسَّيِّد...

كيف حاله الآن؟

- كأنّه أغفى، ولكنّ وجهه مازال مصفرّاً.

- على أيِّ حالٍ من الأفضل أن يستريح قليلا...

ألِم يصل أيُّ خبرٍ من الطّبيب بعد؟

- تكلّمت مع الدّكتور «سيِّد تقي خان» وقال أنّه آتٍ.

بعد لحظات، دخل طبيب القلب مع «مش قاسم»، ثم أعقبه الدّكتور «سيِّد تقي خان».

كان خالي العزيز فاقداً للوعي، وأمام فحص الأطباء لا ردة فعل تصدر منه.

أعطى كلا الطبيبين الرأي الموحّد، والقاضي بنقله إلى المشفى.

كان «مش قاسم» قلقاً أكثر من الجميع:

- إن شاء الله سيذلّون بحق عصمة «الزهراء» لأن كلَّ ما يعانيه السَّيِّد هو بسببهم.

وقال «أسد الله» ميرزا بعصبية:

- ون منت، «مش قاسم»، لا تُعِدْ غناء هذه الأغنية يكفي!

- لا، يا سيدي لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها أها... اسألوني أنا لقد سمّموه.

كان الدّكتور «سيِّد تقي خان» يغلق حقيبته، حين وصلته الجملة قال بلهجة تبريزية:

– ماذا؟... قلت سمَّموه؟

– والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر...

قاطعه «أسد الله ميرزا» وأبي:

– يا «مش قاسم»... ما هذه التّرّهات...

علا صوت الدّكتور «سيّد تقي خان»:

– دعوه يتكلّم، لقد رأيت علائم تسمُّم.

ضحك طبيبُ القلب، وقال:

– يا عزيزي الطّبيب... عالجت مثل هذه الأمراض منذ فترةٍ طويلة... هذه الأعراض ظهرت في أزماته القلبية السّابقة...

قال الدّكتور «سيِّد تقي خان»:

– من الممكن أنّك تعرف المريض أفضل منّي، ولكنّي طبيبٌ شرعيٌّ وتمرُّ عليّ مئات حالاتِ تسمُّمٍ كلَّ يوم.

– لو مرّت عليك الآلاف من هذه الأعراض، فهي طبيعية لمن يصاب بـ «آرتمي كمبلت».

– أرجوك لا تعطني درساً في الطّب... هذا واجبي، فإذا رأيت أعراض تسمُّمٍ في مريض فإنّ عليَّ نقلها إلى الجهات المختصّة، وهذا ما سأفعله.

ارتفع صوت معارضة «أسد الله ميرزا» وأبي على الفكرة، ولكنّ الدّكتور «سيِّد تقي خان» لم يتراجع، قال «إأسد الله ميرزا» محاولا تمالك أعصابه:

– يا دكتور كيف توصلت إلى هذه الفكرة بعد أن سمعتها من خادم ساذج؟ لماذا لم تكتشف التَّسمُّم من قبل؟ لماذا لا تستمع لبقية كلام «مش قاسم»؟

ثم التفت إلى «مش قاسم»:

– «مش قاسم»، هل تعتقد أنّ السَّيِّد تناول شيئاً؟

– والله لَم الكذب؟ حتى القبر ها أها... لم أره يتناول شيئاً، ولكنّني متأكِّدٌ أنَّ الإنجليز سمّموه.

التفتَ «أسد الله ميرزا» إلى الدّكتور:

– هل ترى يا سيّدي الدّكتور؟ يعتقد «مش قاسم» أنّ إمبراطور بريطانيا سمّم السَّيِّد.

– من؟... إمبراطور بريطانيا؟ على أيِّ حالٍ، هذا الموضوع سيتّضِحُ في المستشفى.

قال الدّكتور ساخراً:

– علينا استخراج (الأفيون) من معدة المريض، وتحليله في الطِّب الشّرعي.

بالطّبع، لو كان (الأفيون بريطاني) فهو من فعلهم، وعلينا إرسال مفتّش إلى «تشرشل»!

ألقى الدّكتور «سيِّد تقي خان» نظرة غاضبةً على زميله، ولو لم يعلُ صوت «أسد الله ميرزا» لأطلقَ سيلاً من الشّتائم.

– ون منت، ون منت... يا سادة، إنّ واجبكم الإنسانيَّ والأخصائيَّ يُحَتِّمُ أن تعتنوا بالمريض، لا الجدل على قضايا جزئية... «مش قاسم»! استأجر سيَّارة لأخذ السَّيِّد إلى (المريضخانة).

بعد مرور نصف ساعة، ورغم الحقنة التّي أُعْطِيَتْ له، بقي فاقداً للوعي، وُضِعَ في السّيّارة ونُقِلَ إلى المستشفى.

تقرّر أن يستأجر «مش قاسم» سيّارة أخرى بسرعة، ويذهب إلى خالي العقيد، وأن يترك الأطفال هناك، ويعود إلى المدينة.

وأعطى «أسد الله ميرزا» آخر الأوامر لـ «مش قاسم»:

– ولكن، أَوصل لهم الخبر بصورة لا تُفْزعهم، ولتأت زوجته لو أرادت ذلك، ولكن الأطفال لا حاجة لحضورهم!

وتحرّكنا كلُّنا إلى (المريضخانة).

***

قريباً وحتّى الظّهر، جلستُ على مقعدٍ في ممرِّ المستشفى متابعاً العدد الكبير من الأقارب وهم يصلّون.

وضعوا لخالي العزيز الأكسجين، و لم يسمحوا لأحدٍ بالدخول عليه.

بالطبع، موضوع تسمُّمِه الذّي أحبّه الدّكتور «سيِّد تقي خان» لم يكن له صحّةٌ، وغادر الدّكتور «سيِّد تقي خان» المستشفى حزيناً.

كنت أفكِّر في «ليلى»، وأحياناً تصل خيوط أفكاري إلى مكانٍ أغضب فيه على نفسي:

« لو كان خالي العزيز... لو لم تتحسّن حالته؟... كم يبلغ عمره... يقول إنّه في العقد السّادس، ولكنّ أبي يقول أنه في السّبعين! ما يعني أنّ الإنسانِ يكون عجوزاً في السبعين!...

ولكن لا سمح الله أطال الله عمره!... ولكن... لكن... لو تحسّنت حالته، بالتّأكيد سوف يعطي «ليلى» لـ «بوري»... وأنا سأتحوَّل إلى مجنون، «ليلى» أيضاً!:..

ما هذه الفكرة التي وصلت إلى عقلي؟... هل أود أن تتحسّن حالة خالي العزيز؟...

لا، لا أستغفر الله...

يا إلهي اشفِ خالي العزيز...

وهل أستطيع التّدخل في عمل الله؟

ليكن ما يريده، فمن الأفضل أن أفكِّر في أمرٍ آخر!...

لمـاذا طلب «أسـد الله مـيرزا» من «مش قاسم» عـدم إحضار الأطفال؟... قد تريد «ليلى» رؤية أبيها لآخر مرّة...

مرّة أخرى قلت للمرّة الأخيرة!... يا إلهي أخطأت!

تجمّع أفراد العائلة متحدثين بصوت خفيض، أمي وخالتي تتحرّكان نافذتي الصّبر.

الرجال يحثونها على الصبر، فيما اقتربتُ أنا لأرى المستجد.

آخر خبر كان، أن الأطباء قالوا:

– لو قاوم حتّى الغروب سوف ينجو.

ويقول أحد الأطباء متعجّباً، أنّ المرّة الوحيدة التي استيقظ فيها ردّد عدة مرّات اسم (سانت هيلن) و(إنفاليد) بين كلماتٍ غير مفهومة...

في النّهاية، وجدت «أسد الله» ميرزا في زاوية وحيداً، فاتجهت إليه.

– عمّي «أسد الله» ماذا تتوقع؟ أي ما يقوله الأطباء بخصوص «حتّى الغروب»؟...

قال بصوت خفيض:

– نعم، صحيح... الحق معك... توقُّعك صحيح.

– توقُّعي صحيح؟

في هذه اللّحظة التّي ابتسم فيها، ملقياً نظرة على مَن عبر بنا، عرفتُ أنّه لم يكن معي.

نظرتُ حيث كان ينظر، كانت ممرّضةً شابّةً، تدفع عربة الدّواء، يتبادل معها الضّحكات، وقد شَغَّلَتْ كلَّ حواس الأمير.

انتظرتُ حتّى دخلتْ الممرضةُ غرفةً، حينها فرغ «أسد الله ميرزا»، وهنا استطعت الحديث معه:

- عمّي، هل تظنُّ أنَّ حالة خالي العزيز وخيمة؟

- قسماً بالله يا عزيزي، لا نملك الآن غير الدّعاء.

- عمّي «أسد الله» هل تعتقد... يعني أريد أن أسألك...

- اسأل.

- أريد أن أسأل... حين قلت لـ «مش قاسم»، أحضر خالي العقيد، ولا تحضر الأطفال معه، أكنت تفكر بي؟

- ون منت، لم أستوعب، كيف أفكِّر بك؟

- ظننت أنّك لا تريد أن تكون «ليلى» هنا مع «بوري»، وفجأة يستيقظ خالي العزيز ويزوجهما.

نظر إليَّ «أسد الله ميرزا» لحظة، وكان في عينيه حزنٌ غريب يتماوج، فضمّني إلى صدره، وبعد لحظات صمتٍ، قال:

- الجميع هنا، لا أنت ولا أنا يمكننا فعل شيء... تعال لنتناول الغداء في بيتي...

- لا أستطيع المجيء...عليَّ المكوث هنا...

- لماذا؟... هل أنت طبيبٌ أو أخصائيّ تَنَفُّس؟

ثم فجأة تحول نظره إلى نهاية ممرِّ المستشفى، فقبض على يدي:

- لنتحرك... بات المكان كريه الرائحة... انظر، ها هي «فرخ لقا خانم» آتية.

وحين كان يجرُّني معه، قال لأبي:

- سوف آخذ هذا الفتى معي إلى البيت... ما الذي يفعله هنا؟ سوف نعود عصراً.

رحّب والداي بالفكرة.

وطوال الطّريق كان «أسد الله ميرزا» يتحدّث عن موضوعاتٍ متفرِّقة.

فمن الواضح أنّه يريد تشتيت فكري عن خالي العزيز.

وحين دخلنا صالة بيته، اتّجه مباشرة إلى الصّندوق، أحضر كأسين مع قنِّينة نبيذ.

- احتس كأساً... اليوم تعبنا كثيراً، ونستحقُّ هذا الكأس.

ثم أصرَّ على أن أشرب الكأس.

- ولكن الحقيقة أنّ (المريضخانة) جيّدة...

هذه المرّة إذا تعبتُ نفسيّاً فسوف أزورها بالتأكيد، فهل رأيت الممرضات كم هنّ سمينات وجميلات؟؟؟هل تعرف شعر «سعدي» هذا:

«كان طبيباً باذخ الجمال

في بستان القلب قامته بطول الأرز؟»

هل تعرفه أم لا؟

– عمّي «أسد الله»، الحقيقة، أنا لا استطيع سماع مثل هذا الكلام.

– إذاً، خذ لك كأساً أخرى حتى تستطيع سماعه... سم!... قلت لك اشربه... برافو!...

ثمّ رمى نفسه على الكنبة، وبدأ بالكلام:

– كنت في يوم مثلك... عاطفيّاً جدّاً، ولكنَّ الزَّمن غيّرني، يصنع جسد الإنسان في مصنع الأم، ولكن الرُّوح تُصْنَعُ في مصنع الحياة... هل سمعت بزوجتي السّابقة؟

– لا، عمّي «أسد الله»... يعني أعرف أنّك تزوّجت وطلّقت.

– بهذه السهولة؟... تزوجت ثمَّ طلّقت؟...

إذاً، اجلس لأقصَّ عليك ما حدث.

– ليس الآن، عمّي أسد الله.

– ون منت، إذاً، عليك احتساء كأسٍ أخرى.

– لا، سأصاب بالتّهوع... حدّثني!

كنت في الثّامنة عشر حين عشقت، أحببت فتاةً من أقربائنا البعيدين... حفيدة «فرخ لقا خانم» مرتدية السواد، وكانت الفتاة تحبني...

تعرف أنتَ، أنّ هذا الحب المراهق ليس بيد الإنسان، إذ يُجْبِر الآباء أطفالهم على العشق، حيث يزرعون منذ اليوم الأول في أذهانهم ساخرين «أنت عروسي وأنت نسيبي...».

ويستمرّ الأمر حتّى بلوغك سن الحب، فترى أنّك عاشق نفس العروس التّي اختارها أبوك!...

- عشقتُ أنا أيضاً العروس التي اختارها أبي، ولكن حين أدرك آباؤنا أنّهم عكّروا حياتنا، أراد أبوها تزويجها لرجل أكثر ثراءً منّي.

وأبي وجد لابنه فتاة أكثر ثراء، لا تظنّ أنّها ثريّةٌ جدّاً...

مثلاً في تلك الفترة، كان العائد في العام مئتي تومان.

ولكنّني لم أرضخ، ضُربت وتحمّلتُ الشّتائم حتى انتهينا متزوجين.

في تلك الفترة ظننّا أنّنا وضعنا أقدامنا في الجنة...و طوال عامين، لم تخطر امرأة على بالي سوى زوجتي...

كأنّه ليس هناك امرأة أخرى في العالم غير زوجتي...

تتلخص الدّنيا والآخرة، والنّوم واليقظة، والماضي والمستقبل، في هذه المرأة...

وزوجتي في الظّاهر كانت تُظْهِرُ لي ذلك طوال عام، ولكن مع الوقت تغيرتُ في عينيها، فلا أستطيع شرح فترة التَّحوُّل، ولكن في السّنة الثّانية، حين أصلُ من العمل إلى البيت بسرعة، كانت تنظر إلى ذلك بأنّه ليس لدي مكان آخر أذهب إليه. وإذا كنت لا أحدِّق في امرأة أخرى، فالسّبب أنّني لا أجرؤ على ذلك...

صبَّ «أسد الله ميرزا» لنفسه كأساً أخرى، وأكمل:

- قل لي، هل تذكر كم مرّة سألتني صورة من هذه؟

وأشار بإصبعه إلى صورة عربيٍّ يعتمر كوفيّة، وُضِعَتْ منذ أعوام على المدفأة.

- نعم أذكر. تقصد صديقك عمّي «أسد الله»؟

- ون منت، ون منت. كنت أقول لك دائماً أنّه أحد أصدقائي القدامى، في حالِ أنّه ليس صديقي بل مُنقذي.

- منقذك؟

- نعم لأنه في أحد الأيّام، هربت زوجتي مع هذا العربي النّكرة غير المتوازن، ثمّ طلّقتها، هي زوجة «عبد القادر البغدادي».

- عمّي «أسد الله»، هل سرق هذا العربيُّ زوجتك، ثم وضعتَ صورته مؤطرة فوق المدفأة؟

- ما زلت طفلاً، لو كنت تغرق في المحيط، وفي آخر لحظة حين تريد روحك الخروج من جسدك متعذِّبة، وينقذك، ولو حوت فلسوف يتحول شكله إلى «جانيت مكدونالد».

«عبد القادر» كريه المنظر، هو هذا الحوت الذي تحول في عيني إلى «جانيت مكدونالد».

- عمّي «أسد الله»، أعتقد أنّ وضع صورته فوق المدفأة...

قاطعني «أسد الله»:

- ون منت، احتفظ برأيك للأعوام القادمة... أريد شرح وضع وحال «عبد القادر».

ما أمتاز به على «عبد القادر» أنّي أُحَدِّثُ زوجتي بِرِقَّةٍ، وهو يحدّثها بخشونة، كنت أستحمُّ كلَّ يومٍ مرَّة وهو في الشّهر مرة، حتى إنّي لا أتناول البصل، وهو يلتهم كيلو منه، والثّوم والفجل الأسود، أنا أقرأ شعر «سعدي» لها، بينما هو يتجشأ...

حينها بت غبيّاً في عيني زوجتي، وهو ذكي، أنا عديم الإحساس وهو حساس.

كنتُ ثقيلاً، بينما هو ظريف... كان رحّالةً جيّداً... يعرف كيف يسافر... رجل هنا والثّانية في (سان فرانسيسكو) و(لوس أنجلس)...

حدّقت في صورة العربي الموضوعة على المدفأة، وكان «أسد الله ميرزا» يحكي لي.

لم أعد أسمعه ولا أفهم ما يريده، فقلت له:

- عمّي «أسد الله»، لماذا تحكي لي ذلك؟

– لكي أضيء لك دربك، الأمور ستعرفها رغبت بمعرفتها أم لم ترغب.

– يعني تريد أن تقول «ليلى»...

قاطعني:

– لا ليس لي هدف، ولكن لو جاء يوم وتزوّجت «ليلى» من «بوري» لن ينقص منك شيء...

وإذا تقرَّر أن تتركك في يومٍ من أجل «عبد الخالق الموصلي»، فمن الأفضل أن تذهب إلى «بوري».

– عمّي «أسد الله»! عمّي «أسد الله»!... لا تعرف كم أحبُّ «ليلى». كنتُ عاشقاً ولكنَّ عشقي...

– عشقك، فوق كل حالات الحب... لا شكَّ في ذلك...

– ولكن لو نفذتْ خطّة خالي العزيز، أو إذا تحسَّنت حالته وأراد...

قاطعني «أسد الله ميرزا»:

– وأرادوا إخبار كاتب العدل، سوف تقتل نفسك... أعرف ذلك، وقد كاد ذلك يتحقق لأنّهم أحضروا المأذون.

– ماذا؟ عمّي «أسد الله»، خالي العزيز أحضر كاتب العدل؟

– نغم، ولكن لعمل آخر... في الأمس عصراً، في مثل هذا الوقت حين كنتَ مريضاً، أحضروا كاتب العدل إلى البيت...

كاتب العدل مع السَّيِّد «أبي القاسم»، كان مبلغ خمسة آلاف تومان باقية على خالك العزيز ويجب أن يسلمها لـ «مش قاسم»، وبدل المبلغ أعطاه أرضاً مساحتُها، خمسون ألفَ مترٍ في صحراء الله، ولا يساوي مترها شاهي، بينما وضع سعر المتر ريالاً واحداً...

البارحة عرفتُ الموضوع، جاء «مش قاسم» مثل خنزيرٍ مصاب بطلق ناري، كان غاضباً، ولكنَّ المسكين، وخوفا من غضب خالك العزيز، واستياء حالته قبل بالواقع... ثم...

- عمّي «أسد الله»، إذا كانوا قد أحضروا كاتب العدل إلى البيت، إذن لَمَ لم ينهوا أمر «ليلى» مع «بوري»؟

صمت «أسد الله ميرزا» للحظات، وكنت أنظر لشفته منتظراً حركتها، فهمس:

- انتهى الأمر وتمّ.

ووضع يده على يدي.

لا أعلم كم بقيتُ سارح الفكر، توقّف عقلي.

كلامه مثل غرامافون، توقَّفَتْ إِبرته تتكرّرُ في أذني، ولا أفهمها.

فيما بعد قضيت نهاراتٍ ولياليَ، مفكّراً بهذه اللّحظة، واستطعت إعادة صياغتها.

شرح لي «أسد الله ميرزا» أنّ خالي العزيز، وقبل إخفاء العائلة، أحضر «ليلى» و«بوري» وخالي العقيد، وبعد خطبة عصماء وحزينة أخذ رضاهم، وكان هذا آخر ما يطلبه محتضر محكوم عليه.

النّتيجة أنّ «ليلى» و«بوري» أمام الله والقانون، باتا رسميّاً زوجاً وزوجة.

طوال تلك الفترة التّي أعيدُ فيها صياغة المشهد، ما لم أفهمه هو ردّةُ فعلي حين سمعتُ الخبر.

ما بقي في ذاكرتي، هو تحديقي في عقارب السّاعة القديمة، الموضوعة بقرب صورة «عبد القادر البغدادي».

السّاعة الثّالثة إلّا ربعاً ظهراً، وهذه الساعة، تذكرني ببدايةِ حبّي في الثّالث عشر من شهر مرداد.

في عصر ذلك اليوم، عادت إليَّ الحُمّى، هذه المرَّة استمرتْ لأيام، إلى درجة أنّي لا أذكر ما مررت به.

حتى صراخ وبكاء وحزن العائلة بمناسبة موت خالي العزيز في غروب ذلك اليوم لا أحمل منه ذكرى واضحة.

في اليوم الثالث من مرضي، أخذوني إلى (المريضخانة) تحت إصرار «أسد الله ميرزا»، و لم يحدّد أيُّ طبيب ما هو مرضي.

وبقي الدّكتور «ناصر الحكماء» على رأيه، في أنّي أصبتُ بالحصبة، ولكنَّ بقيّة أطبّاء المستشفى لم يقبلوه، و لم يخرجوا بتشخيص صحيح.

كان «أسد الله ميرزا» يفكّر بي قبل الجميع، فيما بعد، علمت أنّه وتحت إصراره حين أزف موعد خروجي من المستشفى، أقنع زوجة خالي العزيز أن أذهب إلى أخيها في (أصفهان)، ولأنّه أُرسِلَ في مهمّة

مِن قبل الحكومة إلى بيروت، أقنع أبي كي أذهب معه إلى بيروت، وأُكمل دراستي هناك.

ذهبنا أنا و«أسد الله ميرزا» منتصف الصّيف إلى بيروت، وبقيت هناك حتى نهاية الحرب.

ثمّ سافرت إلى فرنسا، وبعد أعوام طويلة، عدت إلى (طهران) وأنا أحمل حبّي على ظهري.

خاتمة

وصلت قصة حبّي إلى النّهاية، ولكن يجدر بي أن أذكر أفراد عائلتي وأبطال هذه القصة.

فيما بعد عرفت أن «ليلى» تحمّلت عذاباً أسهل من عذابي.

بالطّبع، استغرقت وقتاً طويلاً حتّى بدأت حياة مشتركةً مع «بوري»، إذ يظهر، أنّ معالجة الدّكتور «ناصر الحكماء» تسير ببطء. ولكن حين عدت إلى طهران وجدت أنّه أصبح لديهما من الأطفال ثلاث بنات، ومن حسن الحظّ ومن أجل كرامة «بوري»، كانت كلُّ النُّسخ شبيهةً به، وهو الآن يعيش مع خالي العقيد الذّي تقاعد برتبة مقدّم في بستانه، وهم الساكنون الوحيدون في القسم الباقي من البستان.

ولكن بقيّة الأبطال، وقبل الجميع كانت أفضل نهايةٍ، هي للدّركيّ «غياث آبادي» و«قمر»، فقد جمع المحقّق بذكاء وحكمة أموال «قمر» وبات ثريّاً. وبعد مرور خمسة أعوام على رجوعي، أرسل أبناءه للدراسة في أمريكا، ولأنّ «قمر» لا تتحمّل بُعدَ أطفالها، وكانت «عزيزة السّلطنة» قد ماتت، فقد سافرت مع زوجها إلى أمريكا، وأعتقد أنّهم الآن في (كاليفورنيا).

وبعد موت «عزيزة السّلطنة»، تزوج «دوست علي خان» مرّةً أخرى، وحسب ما سمعت أن زوجته الجديدة قلبت حياته رأساً على عقب، متذكّراً زوجته السّابقة في اليوم ألفَ مرّة.

قبل أعوام وجدت بين أوراق أبي المرحوم رسالة خالي العزيز «نابليون» إلى «هتلر»، وقد كتب أبي على هامشها ساخراً، «بسبب موت المرسل إليه تأرشفت الرسالة»، وآخر مرّة رأيتُ فيها «أسد الله ميرزا» كانت في مجلس عزاء الدّكتور «ناصر الحكماء»، ورغم أنّه تجاوز العقد السّادس، إلّا أنَّ ملامحه تدلُّ على أنَّه في الخمسين.

وكان يذهب إلى مكان عزاء النّساء، ليقدّم تعازيه، ويذوب بين فتيات العائلة إلى حدٍّ أنّه لم يأبه لي، وقال لي:

– المسكينة «فرخ لقا خانم»، كانت تتمنّى أن تحضر عزاء الدّكتور «ناصر الحكماء»، ولكنَّ عمرها لم يفِ.

– عمّي «أسد الله»، أريد محادثتك.

– ون منت، إذا لم يكن فوريّاً دعه لما بعد... لو وجدتَ فرصةً مرَّ بي في البيت لنحتسي كأساً...

ثم ركض نحو عجوز وابنتها الشّابّة:

– صدقاً... تقطّع قلبي عليك... ماشاء الله، ما شاء الله، لقد كبرت يا «شهلا».

أرجوك حدّدي موعداً وزوريني في البيت مع «شهلا»... هل تأتين يا عزيزتي «شهلا» إلى بيت العمّو؟... يا إلهي كم أنت لطيفة يا شابّة.

من بين كل المتّهمين بالخدمة والتّجسس للإنجليز كان هناك جاسوس حقيقيٌّ واحد فقط، وهو القائد «مهارت خان» الهنديّ، حيث كان ينقل أخبار تَنَقُّلات الإنجليز إلى الألمان، وقبل نهاية الحرب قبض عليه الإنجليز.

خرج «مش قاسم» من الدائرة كلياً، وبعد مرور عام من موت خالي العزيز، لم يسمع أحدٌ من أفراد العائلة عنه أيَّ خبر.

ويظهرُ أنه تأثّر بالخبر، إلى درجة أنه لم يودَّ رؤية أحد من أفراد العائلة، أوِ على حد تعبير بعضهم، غاب من شدّةِ الحزن على خالي العزيز.

بعد مرور وقت طويل، علمتُ أنَّ خالي العزيز في يومه الأخير، عاد له وعيه في المستشفى للحظةٍ، وحين رأى «مش قاسم» إلى جانبه ابتسم.

«مش قاسم» ومن معه الذّين كانوا بقربه سمعوه يقول «برتران»[٢٤] أنت أيضاً تأتي معي!

وبقي «مش قاسم» غاضباً لأنَّ خالي العزيز لقَّبه بـ «(أفضل منها)»، وقام «(أسد الله ميرزا)»، وطوال ساعات، بشرح قصّة «المارشال برتران» لـ «مش قاسم» وذهابه إلى (سانت هيلين) مرافقا «(نابليون)».

أعتقد أنّه في العام ١٩٦٦ زرت أحد المدن في جولة.

ذهبت في الليلة الأولى إلى صديق كنت أعرفه في فترة دراستي في الغرب، وعاد طبيباً، وبعد مرور أعوام أظهر شوقه وفرحه بلقائي.

٢٤- المفردة قريبة من مفردة «بهتر» وهي تعني أفضل في اللغة الفارسية.

ارتدى ثيابه لكي نخرج، وقال لي إنّه مدعوٌّ إلى بيت صديق، ولأن المدعوِّين كثرٌ يمكنه أخذي معه.

دخلنا بستاناً كبيراً وجميلاً، في جانب منه فرقة تعزف موسيقى إيرانية، وفي جانب آخر، فرقة غربيّةٌ تعزف موسيقاها، والشباب يرقصون على أنغامها. يصل عدد الضُّيوف إلى مئةٍ وخمسين ضيفا.

كانت المناسبة، حفل توديع صديقٍ يقصد أمريكا للدراسة، وكانت حفلةً باهرةً وعائلة الشّاب كريمة جداً.

لاحظت عدّة أشخاصٍ يدورون حولي، بعد العشاء اقتربت من حمّام السِّباحة، وجلست على مقعدٍ بجانب شجرة نسرين، وأشعلت سيجارة.

جلس عدة ضيوف تحت الشّجرة وكانوا ينادون على عازفٍ بلقب الأستاذ وقد عزف لهم.

فجأةً... نهض أحد الضيوف ونادى بصوت عالٍ:

– سيِّد «سالار» أرجوك تعال لدقيقة.

دخل رجل كبير في السِّنِّ بشارب أبيضَ كبيرٍ، ونظّارةٍ سميكة.

وقف له كل الضيوف، وحيّاه العازف أيضاً.

في هذه اللحظة وصل صديقٌ لي:

– عدت للجلوس في زاوية؟

- لا، تعبت. سأجلس لدقيقة.

- إذاً، دعني أملأ كأسك.

- شكراً... من هذا الرجل ذو الشّارب الأبيض؟

- ألم تعرف السَّيِّد «سالار»؟... صاحب البيت.

- ما هو عمله؟ يبدو أنّه من كبار الرّجال؟

- الحقيقة لا يعمل هو صاحب أراضٍ، وحسب ما يقال أنّ لديه الكثير من الأراضي في (طهران)، وحين اشتراها كانت أراضيَ خاويةً، ثم وصل سعر المتر إلى ألف وألفي تومان...

وفي ظرف بضعة أعوام أصبح مليونيراً... ولكنّه إنسان طيّب، تعال لأُعرِّفك عليه... بالتأكيد سوف يعجبك.

يحمل ذكريات كثيرة... هو من المطالبين بالدّستوريّة... حارب الإنجليز لأعوام.

- الإنجليز؟

- نعم، ويقال أنّهم استهدفوه عدّة مرّات... تعال لنذهب إليه.

- لا، شكراً... هو منشغل الآن بالحديث دعها لما بعد.

وضع «سالار» عصاه إلى جانب، موجِّهاً حديثه إلى العازف:

- هل نحن ثقلاء؟

- والآن بكلِّ فخرٍ أقولُ إنّي تعب.

ضحك الرّجل وقال:

- هل ترون شباب اليوم؟ بأقلِّ عملٍ يخرجون منه متعبين...

ملاحظة صديقي حول الثّورة الدّستوريّة، وحربه مع الإنجليز جعلت أذنيَّ حادّتين.

أعتقد أن صوت «سالار» ليس غريبا، أكمل الرّجل العجوز:

- أتذكر حين كنا منشغلين بوطيس حرب (كازرون)، لا أعلم هل ذكرت لكم ذلك أم لا؟ حاصرنا الإنجليز من جانب، ومن جانب آخر حاصرنا «خداداد خان ياغي»، وهو خادمهم بما يقارب ألف فارس...

لم أجد طريقة غير إصابة «خداداد خان» برصاصة، وضعت قبَّعة جلدية على رأسي وأدرتها جانباً.

أخرج «خداداد خان» رأسه من بين الصّخر، وذكرت حينها «مولى المتّقين عليه السّلام» وركّزتُ على وسط جبينه...

كان لدي منظار، حين أرسل الإنجليز جيشهم إلى (إيـران)، من خوفهم عضّوا على أصابعهم... أي أراد الإنجليز القبض عليّ، المسكين لم يملك الجرأة فمات من الخوف... ماذا كنت أقول... نعم...

والآن حين أصيب «خداداد خان»، بطلق، كيف انهزم جيشه، وكيف هجمنا على الإنجليز...

ولكنَّ الحديث كان عن الموسيقى...

كان لدينا صديق اسمه «دوست علي خان» عازف كمان جيِّد... صدقوني، يعزف من غروب الشّمس حتّى تشرق... كان الإنجليز الذّين أسرناهم يتعجبون منه... يكررون بالإنجليزية برافو، مرحى!

في هذه اللّحظة، ظهرت ابنة صاحب المنزل، وقالت ضاحكة:

- يا أبي هل وجدت وقتا لتقصَّ حكاياك، دع الضيوف يستمتعون بوقتهم.

اعترض الرجال وتملّقوه بأنهم يسمعون أجمل الحكايات، وكانت النّساء من جانبهن يتغنجن:

- كم أنت لبق يا سيِّد «سالار».

عرفت الصّوت وصاحبه، ولكنّني لستُ مطمئناً.

ألقت الفتاة نفسها على رجل أبيها وقالت ضاحكة:

- يا أبي هل تجيد الإنجليزية؟

- والله لَمَ الكذب؟ حتى القبر ها اها...

سكت السَّيِّد «سالار» فجأةً، كأنّه لم يود العودة إلى هذه الجملة، ولكنها أفلتت من فمه، نظر حوله، وأكمل كلامه.

في هذه الأثناء وصل صديقي حاملاً كأساً وقال:

– تستمع بشغف إلى السَّيِّد «سالار»! تعال لأُعرِّفَك عليه.

– رغم أني أتمنى ذلك، ولكنّني لا أرُيد التّعرف عليه الآن، دعه لما بعد.

و لم يسمح الوقت برؤيته مرة أخرى.

***

الليلة انشغلت بكتابة آخر سطور الأحداث. رنّ الهاتف. طلبوني من فندق في (باريس).

– نعم تفضّل.

– يا بني كيف حالك؟... هل تذكرنا؟... عرفتني؟...

– عمّي «أسد الله»، أين أنت؟

– أنا في (باريس) منذ أسبوع... وغداً قبل الظّهيرة سوف أذهب إلى جنوب فرنسا... وبرفقتي فتاتان مثل زهرة كشمير.

هل تملك الوقت لترافقنا بضعة أيّام؟

– عمّي «أسد الله»، لديَّ الكثير من الأعمال التّي عليّ إنجازها... لو علمت في وقت سابق...

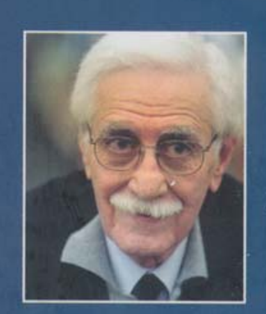
– ون منت، هل تريد أن أحجزك من عيد النوروز؟ أنا بنفسي تعرّفتُ عليهما في الأمس وهما سويديّتان... لا تتفوّه بالمزيد تحرّك... ومن هنا نذهب في رحلة إلى (سان فرانسيسكو).

– عمّي «أسد الله»، أعتذر كثيراً، ولكن لديَّ عملٌ أُنجزه. ولا أعلم هل استطيع الوصول حتّى الغد من (جنيف) إلى (باريس). لنتركها لمرة ثانية...

أصمَّ صراخ «أسد الله ميرزا» من سمَاعة الهاتف أذنيَّ:

– لتتعفّن! حين كنتَ طفلاً، وحين كنتَ شابّاً، والآن ليس لديك لياقات (السّان فرانسيسكو) ولن تكون... إذن مع السّلامة إلى (طهران)!

جنيف-يوليو ١٩٧٠



قد يأتي حجم هذا النص الساخر كبير، وهو ليس مجرد رواية تتبادل فيها الشخصيات من أماكن متعددة الأدوار. بنى الروائي إيرج بشزك زاده روايته على عاصمة من السخرية والاحداث التي توضح مفهوم المؤامرة حين سيطرتها على ذهنية شخصيات تأتي في القيادة. تتفرع هذه الفكرة المؤامراتية، بالتدريج، الى من حوله.

هناك غوص عميق في المجتمع الإيراني، و تفاصيل تكشف عن أسئلة راودت الكثير منا عن ذلك المجتمع، عباراتهم الرمزية و طقوس العائلة وسذاجة المواقف التي تتحول الى حدث عالمي يرتبط بصورة مباشرة بالحربي العالميتين والثورات الدستورية.

بزشك زاده يركض بنا مسافات طويلة من الضحك المفعم بخطط مراهق تشبه خطط العقلية الانجليزية الماكرة في تقسيم الجغرافيات.

